الفائزة بجائزة مان بوكر
1972

رواية

FIFA WORLD CUP
RUSSIA 2018

جون برجر

جي

ترجمة: شادي خرماشو

جون برجر

جي

ترجمة : شادي خرماشو

جي

روايــة

اسم المؤلف: جون برجر

عنوان الكتاب: جي

ترجمة: شادي خرماشو

تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

الناشر: دار المدى

الطبعة الأولى: 2018

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Author: **John Burger**

Title: **G.**

Translate: **Shadi Khrmacho**

Cover Designed by: **Majed Al-Majedy**

P.C.: **Al-Mada**

First Edition: **2018**

Copyright © **John Berger, 1972**

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

www.almada-group.com email: info@almada-group.com

+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول

dar@almada-group.com

+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

al-madahouse@net.sy

ص.ب: 8272

+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدّماً.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recoding or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

إلى آنيا
وشقيقاتها في حركة تحرير المرأة.

مقدمة المترجم

وأنا أعمل على ترجمة هذا الكتاب، وخاصة في البدايات، تبادر إلى ذهني أكثر من مرة أن أكتب رسالة إلى الناشر أعتذر فيها عن مواصلة الترجمة لشدة ما تمنّع النص عليّ وأرهقني. لكنني، وفي كل مرة، كنت أحجم عن ذلك، إذ بدت لي هذه الرواية وكأنها جميلة الحيّ العصية والبعيدة عن منال كل من حولها، لكن التي يصعب عليك أن تتركها وحيدة مع جمالها.

حازت هذه الرواية على جائزة البوكر في العام ١٩٧٢، وقام صاحبها الكاتب والناقد والشاعر والرسام والماركسي العتيد جون برجر، أو «الحكواتي» (التوصيف المفضّل لديه)، بالتبرع بنصف قيمة الجائزة المادية لصالح جماعة «الفهود السود» في الولايات المتحدة الأمريكية ما أثار ضجة كبيرة حينها، الأمر الذي ما كان غريباً عليه هو الذي أمضى حياته مثيراً للجدل سواء على صعيد منجزه الفني والأدبي أم على صعيد آرائه ومواقفه وحياته.

جون برجر الذي يعتبر واحداً من أهم النقاد في نصف القرن الأخير، هو نفسه من عارض الحرب في العراق، وكتب عن العمال الأتراك في ألمانيا، وشجب العدوان الإسرائيلي على لبنان في العام ١٩٨٢، وزار فلسطين أكثر من مرة وكتب عن المعتقلين والأسرى الفلسطينيين،

وقال في ما قال عنها: «كنا واعين للنضال الوطني الفلسطيني بين غيره من قضايا الشعوب. الفلسطينيون يرزحون تحت عسف القوى نفسها التي نناضل ضدها. كانت فلسطين في نظري جزءاً من النضال العالمي الواسع»، وظل يكتب ويناضل ويدعم حركات التحرر في العالم حتى آخر نفس لفظه في ٢ كانون الثاني ٢٠١٧.

رواية «جي» التي تدور حول شخصية جيوفاني الذي يبحث عن الحب ويتصيد غرامياته في لحظات التاريخ المفصلية، هي تجسيد لفلسفة برجر الذي يرى أنه لا يمكن فصل السياسة والاقتصاد والتاريخ، وطبعاً الدين، عن أدق تفاصيل حياتنا اليومية، وأنها هي ما يحدد نظرتنا إلى الفن والجمال والجنس والحب والقيَم. اختيار الكاتب اسم البطل ليكون عنواناً لروايته لم يأتِ من فراغ، فكل ما يريد قوله وتحليله وتفكيكه والتطرق إليه يدور حوله ويبدأ منه وينتهي إليه.

«جي» الذي ولد حراماً وبدأ حياته الجنسية سفاحاً، لم يخلُ اختصار اسمه من رمزيته الجنسية، فلطالما كان الجنس محور حياته ودافعه الوحيد. يولد البطل من علاقة غير شرعية لأب إيطالي وأم أمريكية. تتركه أمه في عهدة اثنين من أقربائها، جوسلين وشقيقته بياتريس، في مزرعة في إنجلترا. علاقة السفاح القائمة بين هذين الأخيرين تصبغ الأجواء التي نشأ فيها الصبي بمسحة من الشبق والشهوانية تمهّد لخوضه أولى علاقاته الجنسية، والتي شاءت الصدف أن تكون سفاحاً مع خالته بياتريس نفسها.

كل حدث يعيشه «جي» يأخذنا إلى الأحداث العالمية الرئيسة التي عاصرها: ثورة العمال في ميلانو في ١٨٩٨، وحرب البوير، وأول

رحلة بالطائرة الشراعية فوق جبال الألب... لكن لم يكن أيّ من هذه الأحداث يعني له شيئاً، كما يعبّر في غير مناسبة عن ذلك، وخاصة عندما يقول لصديقه الذي يساعده في الحصول على جواز سفر ليتمكن من الرحيل عن لندن قبل اندلاع الحرب: «أنا لا أؤمن بالقضايا الكبرى». إلا أن جون برجر ينجح من خلال مغامرات بطله الجنسية في دمج الشخصي بالتاريخي ليسلّط الضوء على قضايا العالم الكبرى: وضع المرأة في أوروبا والظلم الذي تعرّضت له لتصبح وكيلة الرجل في إخضاع ذاتها له، ونفاق الطبقة البرجوازية وأسباب انهيارها، ونشوء الطبقة الرأسمالية، والطريقة غير الإنسانية التي تعاملت بها القوى الإمبريالية مع شعوب الدول التي نجحت في إخضاعها.

جي هو مثال عن الإنسان اللامنتمي الذي لا يعلم لماذا ولد وفي سبيل ماذا يموت... مخلوق لا يؤمن بأي قضية أو عقيدة أو منظومة أخلاقية، بل ينتمي إلى فكرة واحدة، وهي تحرير النساء عبر بوابة الجنس. ليس الشبق والشهوة ما يدفع جي إلى ارتكاب كل تلك الغراميات، بل لأنه يؤمن بأن الإنسان لا يكتمل إلا بفعل الحب المنفلت من كل حكم أخلاقي، وتسكنه رغبة عميقة في التمرد على الرياء والنزاهة المزيفة والمظاهر الكاذبة وتشويه الصورة الصادقة بالوصف القاصر وتحطيم رمزية الذكر الرأسمالي المتسلط الذي جعل ذات المرأة تنقسم إلى ذاتين، ومنحها الفرصة لتكون «أنا» موحدة وليس «هي» منقسمة.

لا تنحصر استثنائية الرواية في أفكارها وطرحها وحسب، بل يتجسد سحرها في بنائها أيضاً، إذ يبعثر الكاتب الفكرة على فقرات تتخللها آراؤه، وشطحاته، في كثير من الأحيان، ونقده لنفسه ولمحاولاته التعبير عما يجب السكوت عنه ووجوب ترك التجربة

الفعلية في حالها بدل تشويهها عبر توصيفها وسردها بمفردات تحدد نظرتنا إليها. ينوس الكاتب بين فكرة وأخرى وحادثة وأخرى وينتقل من زمن إلى آخر من دون أن يترك لك مساحة للتنفس وأنت تلهث خلف سيل أفكاره وعباراته الجارف.

أرجو أن أكون قد وفقت في نقل السحر الذي ينطوي عليه هذا العمل في لغته الأصلية، والذي يقدم وجبة أدبية نقدية تحليلية في قالب من جمال قد يستعصي قليلاً، لكن ما إن تتذوقه حتى تتعقبه مأخوذاً به.

-١-

كان والد بطل هذه الرواية يُدعى أمبيرتو، وهو تاجر من مدينة ليفورنو يعمل بالفاكهة المسكرة. رجل قصير بدين، حجم رأسه الكبير جعله يبدو أقصر مما هو عليه في الواقع. وبالنسبة إلى أولئك النساء اللواتي لا يخشين كثيراً القيل والقال ولا يكترثن بآراء الآخرين، ربما يكون رأس أمبيرتو الكبير قد شكل مصدر جاذبية لهن. كان الرأس الكبير يوحي بالعناد والنفوذ والشغف. كانت معظم النساء من طبقة التجار في ليفورنو أو بيزا جبانات هيّابات، ولذلك اكتسب أمبيرتو بين أوساطهن صفة الوحش. كن يدعونه الحيوان «La Bestia»، وهي صفة سوغتها فظاظته وثبتها شبقه وبررها غروره، لكنها بالرغم من ذلك حافظت في معرض استخدامهن لها على معناها الخام الذي كان له أن يغذي ويقمع في الوقت نفسه شعور الانجذاب الذي يشعرن به تجاهه في دواخلهن. ومن المهم في هذا السياق أن نذكر أنهن مثلاً ما كنّ أبداً لينعتنه بالوحش في حضرة أزواجهن. كان اسم الدلع هذا حكراً على أحاديثهن الأنثوية التي تدور عصر كل يوم.

زوجة أمبيرتو، إستر، وهي ابنة صحفي يهودي من ليفورنو كان يُعرف عنه بأنه ليبرالي الهوى، تزوجت به عندما كانت في العشرين من عمرها. لم يوافق والدها على هذه الزيجة لأنه اعتبر أمبيرتو فظّاً تعوزه الثقافة، لكنه رفض أن يتصرف بما يتناقض مع مبادئه الليبرالية

بوقوفه ضد رغبة ابنته. توفي والدها من دون مقدمات عندما كانت في الواحدة والعشرين، ومع موته بدأ لغز حالتها الصحية السيئة الذي رسّخ مع الوقت دعائم حق اكتسبته مدى الحياة... الحق بالانسحاب. بدا لأمبيرتو وكأنه متزوج من شبح. (كانت كل الأشباح بالنسبة إليه لها صلة بالنساء لما لهن من قوى خارقة). أما بالنسبة إليها فقد كانت تشعر بأنها قد تزوجت حيواناً - بالرغم من أنها في ذلك الوقت لم تكن تعلم بماذا كانت صديقاتها يصفن زوجها من وراء ظهرها وظهره.

كانت إستر تعيش حياة اجتماعية كاملة في تلك البلدة. بالكاد كان يمرّ مساء من دون أن تزور أو تُزار. لم يكن أحد ليرفض الدعوة إلى حفلاتها. سرّها - والذي في جزء كبير منه كان مرتبطاً بسرّ نفوذ زوجها في ليفورنو - كمن في حضورها. كان لها بشرة شاحبة جدّاً، وشعر بني داكن تسحبه إلى الخلف بعيداً عن وجهها وعينيها، اللتين تتحركان ببطء، وظلال كثيفة تحت تينك العينين. كان وجهها وجسدها في غاية الهزال. وبالرغم من ذلك لم يبدُ عليها السقام. كان السقام يبرز في تقلب لحم الجسد: كان هناك مسحة من الحسية الكثيبة والمؤلمة فيها. بدت إستر رقيقة وهشة، وكأنها مصنوعة من مادة أخرى غير اللحم البشري، مادة شُكّلت وأنجزت بشكل متقن لتبدو وكأنها محصّنة ضد أيّ تغيير.

بالنسبة إلى دائرة صديقاتها ومعارفها في ليفورنو كان حضورها الجسدي دلالة على طاقة روحانية خارقة. كانت هي من يخترق أرواحهن لتدرك ما الذي يطمحن إليه. هي من كانت قادرة على تقدير الإيمان والجمال ورغبات الروح والغفران والطهارة والبر بالوالدين والحب أكثر من أيّ منهن. وفي حال رغب أحد الزوار أثناء حديثه في

استحضار روحانية تجربته، كان يلتفت إليها لتصادق على كلامه... إيماءة واحدة منها، ولو حتى رمشة واحدة، كانت كافية لتجعله يشعر بأن هناك من يفهمه وبأنه يقول الصدق.

عند اختلائهن بها كانت النساء يتحدثن عن أنفسهن بلا حرج. وأثناء الحديث كن يجنحن إلى إظهار أنفسهن بأسوأ صورة ممكنة، ذلك أنهن كلما بدين أكثر سوءاً زادت فرصهن في الحصول على تأييدها وتعاطفها. كان تقبّلها لهن وإعجابها بهن هو ما ينشدنه. وقد كن يحظين به بمجرد أن ينتهين من الحديث. بعد ذلك يتضح لهنّ (وفي كل مرة يشكل لهن ذلك مفاجأة) بأنها منذ أن استمعت إليهن باهتمام ولم تُقدِم على توجيه أيّ نقد لهن (وهو أمر ما كانت لتفعله أبداً) كانت قد قَررت مسبقاً أن تتقبلهن وتصادق على كل ما فعلنه أو ينوين فعله. كانت أشبه بكاهن تلقى اعترافات من أبناء جنسه.

لم يكن شيء من هذا ليحدث لولا زوجها. لولا أمبيرتو لربما ظن الآخرون أنها قديسة حقيقية، وليس امرأة يجعلها كل ما فيها تبدو كإحدى القديسات، وهو أمر كان من شأنه أن يقضي على مكانتها الاجتماعية. ربما مثّلت قيماً روحانية معينة، لكن كان عليها أولاً وأخيراً أن تمثلهن... أن تمثل الطبقة البرجوازية في ليفورنو. وبما أنها زوجة تاجر ناجح يعمل بالفاكهة المسكرة فقد كانت مكرسة لهذه الطبقة بلا شك. علاوة على ذلك، كانت زوجة رجل اشتهر بأنه عاقد صفقات لا يشق له غبار، ومشهود له بالسلوك الفظ والشهية المفتوحة دائماً. وكنتيجة لذلك كان الناس يعتقدون بأنه من المستحيل ألا يكون عيشها معه قد أفسدها إلى درجة معينة. هذا الفساد، والذي لا يمكن إنكاره تماماً، حال دون أن تبدو روحانيتها مفرطة أو محرجة.

على نحو مشابه، كونها زوجة أمبيرتو حال دون أن يبدو مغرقاً في تطرفه. من دونها كان من الممكن أن يراه الآخرون شخصاً سفيهاً. معها كان من الممكن أن يُنظر إليه كوحش تمّ تدجينه.

***

أما والدة البطل فقد كانت امرأة في السادسة والعشرين من عمرها، وكان اسمها الأول لورا. كانت أمها أمريكية الأصل، ووالدها، الميت الآن، جنرالاً في الجيش البريطاني.

أرى لورا وإستر، اللتين لم يسبق لهما أن تقابلتا، جنباً إلى جنب كما ولا بدّ أن تكونا قد تجسدتا في عقل أمبيرتو. لورا قصيرة القامة بشعر غزير نوعاً ما وأنف أفطس قليلاً. تبدو قرب إستر أشبه بطفلة قصيرة بدينة، بالرغم من أن مظهرها لم يكن فيه شيء من الطفولة. كانت ترتدي ملابس غالية الثمن وتعكس مهارتها في الاختيار - بالرغم من أنها لا ترقى إلى وقار مظهر إستر. كان كلامها كثيراً وصوتها لحوحاً، أما إستر فكانت تنصت. كانت يدا إستر نحيلتين حساستين، أما يدا لورا فقصيرتان بدينتان. عينا لورا كانتا عسليتين، وعندما تريد أن تبدي معارضتها لشيء ما كانت تفتحهما على وسعهما. أما عندما تريد إستر أن تعبر عن معارضتها فكانت تغمض عينيها. عندما تؤخذ إستر على حين غرة وهي في الحمام «تتجمد» تماماً كحيوان متوحش وتتسمر هكذا دون حركة، أما لورا، فكانت تصفع ثدييها بيديها لتحجبهما عن الناظر، وتتكوم على نفسها وتبدأ بالصراخ.
كانت كل منهما تغار من الأخرى: لورا تغار لأن أمبيرتو أطلع إستر على ألبوم صور فوتوغرافية لها، ولأن إستر تتصف بكل صفات الأنثى الطبيعية التي تفتقدها هي؛ وإستر تغار منها لأنها تشك في أنّ أمبيرتو يُنفق أموالاً طائلة على عشيقته الأميركية.

في السابعة عشرة من عمرها كانت لورا متزوجة من مليونير يعمل في تجارة النحاس في نيويورك، وبعد ذلك بسنتين هجرته وقدمت إلى أوروبا لتلتحق بأمها في باريس. كانت قد التقت بأمبيرتو منذ ثلاث سنوات على متن سفينة ركاب متجهة إلى جنوى. تودد لها أمبيرتو بمثابرة وإمعان لم تحلم بهما من قبل. كتبت لأمها تخبرها أنه جعلها تشعر بأنها كليوباترا. (كانت السفينة قادمة من مصر). بعد ذلك مباشرة أمضيا شهراً معاً في البندقية.

قالت لأمها: لقد أحضر لنا مغنين ليعزفوا لنا في سهراتنا، كانوا يصاحبوننا في نزهاتنا في قارب الجندول. لن أنسى ذلك ما حييت. كان يطلق نكاتاً عن يديه اللتين تشبهان السلطعون. أنا واثقة من أنك ستحبينه! لهذا السبب لم أحضره إلى باريس بعد! هذا الرجل عجيب! له أصدقاء في كل مكان وهناك حفلة راقصة كان ينبغي أن نحضرها هناك. أراد أن يرسل في طلب فستان لي. لكن، صدقي أو لا، اخترت ألا أذهب. وعوضاً عن ذلك ذهبنا إلى جزيرة مورانو.

التقى بها خلال السنوات الثلاث التي تلت ذلك في ميلان ونيس وجنوى ولوغانو وكومو وغيرها من أماكن الاستجمام، لكنه لم يسمح لها أبداً بالاقتراب من ليفورنو. وخلال الفترات التي كان يغيب عنها فيها، كانت تعود إلى دائرة معارف أمها الأغنياء الأمريكان في باريس، حيث ما كانت لتعترف أبداً بأن عشيقها اللاتيني يتاجر بالفاكهة المسكّرة. وكانت تتلقى دروساً في الغناء (إلى أن أيقنت، بالرغم من اعتراض معلمها، بأنها لا تتمتع بأيّ موهبة) وصبّت اهتمامها بعد ذلك على دراسة نظريات نيتشه وفلسفته.

في كل مرة كان أمبيرتو يعود ليلتقي بها بعد غياب، أول ما كان يخطر في بالها لدى رؤيته قادماً إليها هو استحالة استمرار علاقتهما طويلاً. افتقاده للرقة وتباهيه السوقي بثروته وبما يمتلكه من أموال كان يزعجها ويثير حنقها. كانت تقول لنفسها وهي في نيويورك إن هذا العشيق يمكن أن يكون نادلاً في أحد المطاعم التي ترتادها مع صديقاتها... نادلاً ما كانت لتتكرم عليه ولو بنظرة واحدة من عينيها الجليلتين. لكن بعد ساعة أو أكثر من صحبته لا يعود بمقدورها أن تنظر إليه بتلك العين الناقدة. كان الأمر أشبه بدخول برج لا يمكنها أن تغادره إلا بعد رحيله. وداخل ذلك البرج كانت تلعب دور العشيقة والطفلة في الوقت نفسه، وتلهو، سواء بوقار أم بطيش، بكل ما يقدمه لها. كان بإمكانها أن تطل من البرج لكن لم يكن بإمكانها قط أن ترى البرج من الخارج. كان البرج يجسد علاقتهما الغرامية. وخلال الأشهر التي لم تكن تراه فيها، كانت تفكر فيه وفي عاطفته تجاهها وفي المشاعر التي تكنها له وكأنها مكان ما... مكان لها أن تزوره وأن تعود لزيارته، مكان كانت قد زارته في أحلامها، لكنه كان بالرغم من ذلك مكاناً لا تمكث فيه طويلاً قط.

***

أمبيرتو، الذي عمل في شبابه لصالح شركة تستورد زيت الزيتون والنبيذ الإيطالي في نيويورك، كان يتحدث الإنجليزية بطلاقة لكن بلكنة إيطالية تفضح أصله.

آه يا لورا، أيتها الجليلة كجبل! الهادئة كالبحيرة الوديعة التي تخيم عليها السكينة. ليس ثمة ما هو أجمل من السكينة في نهاية اليوم، لكنكِ أنتِ، أنتِ يا صغيرتي الحلوة **mia piccola**، أجمل منها ومن كل شيء. معكَ أنت دون سواك أستطيع أن أعيش هذه السكينة! أن أنعم بالسلام. أن أفكر في أنني أتيت من تحت هذه الجبال عبر نفق

يبلغ طوله خمسة عشر كيلومتراً، خمسة عشر يا رب السماء! تلك أعجوبة من أعاجيب الزمان، خمسة عشر كيلومتراً داخل جبل. وهناك على سفح الجبل، أراكِ أنت يا عصفورتي الصغيرة passeretta mia في انتظاري لتكوني جَسراً أعبر من خلاله إلى فرحة عمري.

(تم افتتاح نفق سانت غوتار في العام ١٨٨٢. ثماني مئة رجل فقدوا حياتهم أثناء شقّه).

يتوجّه أمبيرتو وعشيقته في عربة من محطة مونترو إلى الفندق الذي ينزلان فيه. أمبيرتو قد وصل للتوّ. تشعر لورا بأنه منفر أكثر من أيّ وقت مضى. يضع ذراعيه حولها ويحاول أن يلعق شحمة أذنها. تدفعه بعيداً عنها.

تقول له: ماذا تحسبني؟

فيجيب: حبيبتي لورا، حبيبتي، أعتقد أنك حبيبتي لورا.

يسحب صرة معقودة بشريط أزرق باهت من جيب معطفه الداخلي. يحني رأسه ويضع الصرة في راحتي كفيه ويقربها منها وكأنه يقدمها لها على طبق. تقبلها على مضض. تترك يديه تحطان على وركيها. لتوضح موقفها تنظر إليهما نظرة تثنيه عن الاستمرار في القيام بحركات كتلك في العلن. (كانا قد تشاجرا حول ذلك من قبل. قال إن داخل عربة الأجرة يشبه تماماً مقصورة خاصة في مطعم. فردت عليه بأنه لا يمكن للمرء أن يحوّل مكاناً عاماً إلى خاص بدفع المزيد من المال!) كانت قد ألفت منذ زمن منظر ظاهر كفيه المغطيين بشعر

كثيف. ليديه سلطة تفرض نفسها... تراهما ترتبان الأشياء على هواه. ترسم يداه على طاولة العشاء أمام أعين زملاء العمل في ليفورنو الخطط الخفية العظيمة التي يشعرون بأنهم محظوظون كونهم جزءاً منها. في سوق البيع بالجملة تضمن يداه جودة الفاكهة التي تلمسها باستحسان، وتقضيان على مستقبل تلك التي ترفضانها. ينحني ليراقبها وهي تفتح الهدية.

في الداخل تجد منديلاً أسود في داخله قلنسوة جولييت مزينة باللآلئ. تشهق لورا غير مصدقة عينيها. يعتبر أمبيرتو ردّ فعلها دلالةً على فرحتها بالمفاجأة.

– اللآلئ حقيقية يا صغيرتي الحلوة passeretta mia.

يختار هذا اليوم دون غيره، تقول لنفسها، ليقدم لي قلنسوة كهذه تليق بفتاة عمرها ستة عشر أو سبعة عشر. إنها أشبه بالدمية أو الزينة الرخيصة. يثير افتقاد عشيقها حس التمييز سخطها فجأة. تشبّه ما حدث بمحاولته عض أذنها بعد دقيقتين من لقائهما. تسأل نفسها، لماذا يرفض دائماً أن يدرك ما تحب وما لا تحب، لماذا لا يتعلم أبداً؟

– لا يمكنني أن أرتديها، –تقول–، سأبدو سخيفة وأنا أعتمرها، هذا يليق بفتاة صغيرة خرجت للتوّ من مدرسة الراهبات.

يصعب عليها أن تميّز شكل القلنسوة جيداً في ظلمة العربة، لكن عروق اللآلئ الثلاثة تبدو وكأنها عقد يستلقي في حضنها.

– هل ثمة جدوى من التظاهر بأنني سأرتديها؟ لا أريد أن أخيب أملك، لكن هذا الواقع.

يقول لها: سأشتري لكِ عقداً.

استقلاليتها هي ما يشدّه إليها ويجعله أسير غرامها. تسافر إلى أيّ مكان لتلتقي به. تقرأ تاريخ المكان قبل أن تصل إليه. تريه قصوراً ونوافير وقلاعاً، وتعرف دائماً ما الذي تريد أن تفعله. لكن يكفي أن يضع ذراعيه حولها لتصبح طيِّعة كعصفور صغير. وهذا بالضبط ما يجعله يدعوها عصفورتي الصغيرة passeretta mia.

يقول لها: سنتناول وجبة كبيرة في غرفتنا ونحتسي معها النبيذ الأبيض السويسري الذي قلتِ لي إن زجاجته تشبه سمكة تحمل سكيناً، أتذكرين؟ بعد ذلك سنذهب إلى السرير يا عصفورتي الحلوة، وغداً سنبحث عن عقد يليق بكِ، وإذا لم نعثر على عقد يعجبكِ هنا، سنذهب إلى ميلانو بعد بضعة أيام.

عشيقة أمبيرتو دائماً ما تدهشه في السرير. جزء من نفاد صبره الآن يعود إلى أنه لا يسعه تصديق أنه سيختبر هذه الدهشة مرة أخرى. وهي واقفة تكون رشيقة وقوية العزيمة ومستقلة، أما وهي مستلقية بقربه فمرهفة ومرنة، ودائماً ما تكون لمساتها أكثر رقة مما يمكنه أن يستحضره لاحقاً لينعم قليلاً بالذكرى.

كان لها شعر عانة ناعم للغاية وكأنه خيوط من الحرير. حلمتاها صغيرتان ورديتان تصطبغان باللون الأحمر عندما يلثمهما. عندما تلقي برأسها إلى الخلف وتبتسم كاشفة عن أسنانها لا يلمس صف أسنانها العلوي الصف السفلي بصورة كاملة، ويبقى بينهما فراغ صغير بالكاد يكفي لمرور حبة رمل لا غير. رقة جسدها وحساسيته العالية لم تخفقا يوماً في مفاجأة أمبيرتو وإيقاظ عاطفة مشبوبة فيه.

تقول له: سأحتفظ بالقلنسوة، من يعلم، قد يأتي يوم أعطيها فيه لابنتي!

فيردّ عليها: عظيم، آه يا صغيرتي، أنتِ مجنونة، مجنونة جدّاً جدّاً.

يقول ذلك مستخدماً لفظة «matta» وهي الكلمة التي كان يستخدمها في أغلب الأوقات للتودّد إليها.

بالنسبة إلى أمبيرتو الجنون أمر متأصل في ليفورنو: يرى الجنون في المخازن الضخمة المتصلة ببعضها البعض، تلك المخازن العمياء البكماء كقلاع مهجورة. يراه في العبيد الأربعة الملعونين المقيدين بالأغلال عند قاعدة نصب فرديناند الأول في فلورنسا. يراه في التجمعات السكنية المكتظة التي تفيض بها المدينة. يراه في قطع السماء المستطيلة التي ترسمها الأبنية الهائلة المنتظمة فوق الأقنية المظلمة. يراه في التحولات التي يشهدها التنوع السكاني فيها، وفي خواء جدرانها، وفي المساحات التي لا شكل لها، وفي رائحة الفقر التي تفوح منها والشقاء الذي يتوغل فيها... يراه في إطلالتها السرية على البحر.

لطالما اعتقد أن الجنون هو واحد من أبناء المدينة، ساكن دائم فيها، لكنه لا يظهر إلّا في مناسبات متباعدة. وفي كل مرة يظهر فيها، يتذكر المرة الأولى التي ثار فيها... كان ذلك في العام ١٨٤٨ وهو في العاشرة من عمره.

الجسور، والمساحات التي لا شكل لها، وأرصفة الميناء، وساحة

سانت ميكيلي في جوار العبيد الملاعين الأربعة، وأسطح السفن وحبال الصواري التي ترسم إطلالة المدينة السرية على البحر... كلها كانت مكتظة بحشد من الناس، حشد كان يبدو هزيلاً إذا ما نظرت إليه عمودياً وقارنته بالأبنية الهندسية الهائلة، لكنه كان يتسع أفقياً بلا رادع، بالرغم من أن كثافته كانت تزداد عند المركز رويداً رويداً، إنهم البلطجية **i teppisti**!.

حشد كهذا هو امتحان عظيم للإنسان. حشد يتجمع كشاهد على مصير مشترك تفقد الاختلافات الشخصية أهميتها أمامه. هذا المصير قد تشكّل، بمقدار ما تسعفه ذاكرته، من الحرمان والإذلال المتواصلين. لكن كل هذا لم ينجح في إخماد رغباته. يكفي أن تلتقي عيناك بعيني شخص واحد من ذلك الحشد لتعرف ما هي المطالب المحتملة التي ينادي بها. معظم هذه المطالب ستكون مستحيلة التحقيق. لا مناص من أن يؤدي الاختلاف إلى العنف، تماماً كما هو حتمي تشبث هذا الحشد بمطالبه. كان الحشد قد تجمّع ليطلب المستحيل... تجمّع لينتقم من هذا الاختلاف. عليه أن يطيح بهذا النظام الذي قرر ما هو ممكن وما هو غير ممكن بما يناسب مصلحته جيلاً بعد آخر. في مواجهة حشد كهذا يمكن للإنسان الذي ليس جزءاً منه أن يتصرف بطريقتين لا غير، فإما أن يرى فيه أملاً للجنس البشري أو أن يخشاه في المطلق. ليس من السهل رؤية هذا الأمل هنا. أنت لست واحداً منهم. فقط في حال كنت قد حضّرت نفسك مسبقاً، ستكون قادراً على رؤية ذلك الأمل.

هذا الحشد أصاب أمبيرتو بالرعب. وبرر رعبه هذا بقناعته بأنهم مجانين.

جرى الرجال مع الحشد وبدؤوا يطلقون الشعارات والخطب. حرارة صيف العام ١٨٤٨ جعلت الفتى أمبيرتو يتصبب عرقاً حتى وهو في سريره ليلاً. وجوه هؤلاء الرجال كانت متورمة مشوهة وكأنهم على وشك الانفجار بالسكتة، وقطرات العرق تنحدر على وجوههم وكأنها دموع.

يؤمن أمبيرتو بأن الإنسان العاقل يجب أن يحاول دائماً أن يرى نفسه كاستثناء عن باقي البشر، عندها فقط يصبح قادراً على معرفة ما الذي يمكن أن يأخذه من العالم وما الذي يتعذر عليه أخذه. بالنسبة إليه المجنون هو ذلك الذي يطالب بكل شيء أو لا شيء! إما روما أو الموت Roma o Morte!.

لا يستطيع أمبيرتو أن يهجر زوجته. لا يستطيع أن يجد أيّ معنى للاستمرارية أو الإرث لا من خلال أبنائه (ولم يكن لديه أيّ منهم) ولا في المجتمع... يعرف أنه سيصبح وحيداً بمرور الوقت. ليواصل أعماله ويكتسب الامتيازات هو مجبر على أن يتصرف بلباقة، ليس لمرة واحدة بل لألف مرة، مع أناس لم يكن يحبهم، وربما يكرههم. لا يمكنه الإفصاح بأكثر من عُشر ما يحمله من شعور تجاه أيّ شخص يتحدث إليه.

- آه يا صغيرتي الحلوة، مجنونة أنتِ، مجنونة جدّاً جدّاً.

كان أمبيرتو يدعو كل شيء يهدده جنوناً. ليس ما يهدده شخصيّاً - سواء أكان ذلك تاجراً، أم لصّاً، أم رجلاً يريد أن يقورنه - بل ما يهدد الكيان الاجتماعي الذي يعيش فيه كشخص صاحب حظوة وامتيازات.

كانت امتيازاته أهم عنده من حياته، ليس لأنه لم يكن لينجو من دون عشيقته الأمريكية، وأربعة من الخدم في منزله، ونافورة متألقة في حديقته، وقمصان حريرية مشغولة باليد في خزانة ملابسه، وولائم عشاء تقيمها زوجته، بل لأن القيم والقوانين التي من خلالها يمكنه أن يضفي معنى على حياته تكمن في هذه الامتيازات. كل قيمه كانت تأتي من اعتقاده بأنه يستحق تلك الامتيازات عن جدارة.

لكن المعنى الذي يضفيه على حياته لا يرضيه. يسأل نفسه: لماذا يجب أن يكون التحرر ذا مفعول رجعي دائماً؟ لماذا عليه أن يكون صفة يتمّ اكتسابها والتحكم فيها؟ لماذا لا يوجد تحرر يمكن السعي إليه الآن؟

يسمّي أمبيرتو كل ما يهدد المنظومة الاجتماعية التي تضمن له امتيازاته جنوناً. البلطجية هم التجسيد النهائي للجنون. لكن الجنون أيضاً يجسد التحرر من المنظومة الاجتماعية التي تضيّق عليه وتسجنه داخل أطرها. هكذا وصل إلى نتيجة مفادها أن بعض الجنون قد يمنحه قليلاً من الحرية ضمن هذه المنظومة.

ينعت أمبيرتو لورا بالمجنونة علّها تضفي بعض الحرية على حياته.

أمبيرتو، سأنجب طفلاً عما قريب، هي فتاة على الأغلب. وفي حال كانت فتاة... (كانت لورا قد استغلت موضوع القلنسوة علّها تجعل إعلانها الخبر أخف وطأةً. كانت فكرة أنها حامل تسعدها، وتجعلها تقضي معظم وقتها متخيلة كيف سيكون شكل الطفل، لكنها تجد موضوع الإعلان عنه مهيناً). في حال كانت فتاة سأعطيها القلنسوة في عيد ميلادها الخامس عشر وستبدو جميلة وهي ترتديها.

العربة تصل إلى الفندق. على باب الفندق يقف بواب يبقيه مفتوحاً. أغلق الباب لو سمحت، يقول أمبيرتو. بعد ذلك يأمر السائق بأن يسير بهما ببطء على طول ضفة البحيرة. يهز السائق كتفيه بلامبالاة. إنها تمطر وقريباً سيحل الظلام ويصبح من غير الممكن رؤية أيّ شيء عند البحيرة.

- هل أنتِ واثقة من صحة ذلك؟
- واثقة تمام الثقة.
- هل ذهبتِ لرؤية الطبيب؟
- نعم.
- وما اسم هذا الطبيب؟
- طبيب موجود في باريس.
- وماذا قال؟
- قال إن الحمل حقيقي.
- حقيقي؟
- حقيقي نعم.
- الطبيب قال ذلك؟
- نعم.

أصداء كلمة «حقيقي» تتردد مدوية ومدعومة بسلطة الطبيب، وهذه السلطة هي التي أعطت أمبيرتو المسوغات اللازمة ليسلم بصحة الخبر. يجب عليه أن يبسّط الأمر ويجعله أقل غموضاً، وأن يطوّعه ويجعله قابلاً للنقاش... أن يمنحه لوناً علّه يفقد شيئاً من بياضه المطلق الذي يعمي البصر والبصيرة.

- أنا والد الطفل، يقول أمبيرتو.

لم يكن ذلك سؤالاً، بل تصريحاً، لكن لورا هزت رأسها بالإيجاب. لا ترى أيّ ميزة إضافية لأيّ منهما في كونه والد الطفل.

- لماذا لم تعلميني بذلك في رسالتك؟

- ظننت أنني أستطيع شرح الأمر بصورة أفضل وجهاً لوجه.

احتشدت الأفكار في رأس أمبيرتو حول ما يمكن فعله وما لا يمكن فعله في ليفورنو ليعدّ مكاناً فيها لابنه غير الشرعي.

- منذ متى - يقول وهو يعدّ على أصابعه.

- منذ ثلاثة أشهر.

- سنسميه جيوفاني.

- ولماذا جيوفاني؟

- جيوفاني هو اسم والدي، جده.

- وماذا لو كانت فتاة؟

فيرد عليها مستغرباً: لورا! لم يكن واضحاً تماماً ما إذا كان يقترح ذلك كاسم أم إنه يبدي استغرابه لاقتراح عشيقته بأن الطفل الذي من صلبه يمكن أن يكون بنتاً.

يسألها: كيف تشعرين يا صغيرتي؟

- أشعر بتوعك في الصباح، لكن هذا لا يستمر طويلاً، وفي فترات الظهيرة أشعر بجوع شديد، وأنا لا أدري الآن لماذا نسير جيئة وذهاباً على ضفة البحيرة هكذا، هذا يبعث عليّ الاكتئاب، كما أنني أرغب في تناول بعض الكعك. يعدون هنا نوعاً خاصاً من الكعك يصنعونه من عجينة اللوز لا تتوقف أمي عن الحديث عنه.

- تعرفين يا حبيبتي، أنا لم أحظَ بطفل من قبل، وقد كنت... ماذا يقولون؟ rassegnato مستكيناً للأمر.

يحاول أن يضع ذراعيه حولها. لكنها تتمنّع.

- أنت أمّ طفلي، يحتج على تمنّعها. أنت أقرب ما يكون إلى زوجة لي. لو أستطيع لجعلتكِ زوجتي.

قد يبدو هذا ردّاً مشرّفاً لها في ظرفها هذا. لكن ذلك لا يرضي لورا، بل على العكس، يثير سخطها وغضبها. تشعر بأنه يحاول أن يغيّرها، يحاول أن يحولها في هذه اللحظة إلى زوجته في ليفورنو... زوجته التي لطالما رغب في أن يقول لها: «أنتِ أم طفلي» لكن لم يتح له ذلك أبداً. هي، لورا، باتت الآن أمّاً لطفلِ ربّ البيت. وتماماً كما تحولت هي إلى زوجة، زوجته الفعلية في ليفورنو، إستر، ستتحول الآن لتمثّل كل ما هو مغوٍ ومنفلت من القيود وغير متعنت، وهذا ما تخشاه. على مدى الشهرين الماضيين كانت تشعر بالسلام والسعادة عند التفكير بمولودها القادم. لكن أن تحمل في أحشائها طفلاً من صلب رجل، وأن تكون مدانة لحملها به رغم إرادتها - هذا ما دفعها إلى البكاء.

تسمح لنفسها بأن تتقبل بعض المواساة. صحيح أن أمبيرتو هو سبب حزنها، لكنه في الوقت نفسه الشخص القادر على أن يخفف عنها. وذلك ليس من خلال إلغاء السبب - المتمثل في كونه الأب المختار- بل بأن يكتنفها بحضوره الجسدي ولو كان بشكل مؤقت لعل شعورها بذاتها وإدراكها مصيرها الحزين يبدآن بالزوال كما تتلاشى معالم البوابة في الغسق، وتتغبّش كلمات الرسالة عندما يقبض الظلام على الغرفة. بين ذراعيه تشعر بأن همومها تنحسر، وبأن اسمها، بذلك الوقع الذي كان له عندما كانت طفلة، يبزغ من مكان قصيّ في داخلها، ويطفو على السطح ليغطي كامل بشرتها الطفولية التي تتهيج بكل سهولة.

عندما تلمس الشعر الرمادي الأشعث المصقول كعرف الفرس خلف أذني رأس عشيقها الضخم، تكون لمستها أشبه بلمسة طفل يملؤه الفضول والاستغراب.

عندما كانت لورا لا تزال طفلة أدركت بقوة ملاحظتها، ومن خلال ملاحظات والدتها أن هناك جوانب سرية في جسد المرأة قد يتم تقديرها أكثر من أيّ جانب آخر فيها، وقد تكون في الوقت نفسه مخجلة وباعثة على الإحراج أكثر من أيّ شيء آخر على وجه الأرض. وعندما كبرت، أصبحت مقتنعة بأنها كانت بالغة الحساسية وسريعة التأثر بكل ما يمكن أن يمت بصلة إلى هذه الجوانب. لم يكن عليها أن تخشى من شيء (هكذا اعتقدت) إلا من خوفها من أن يأتيها الحيض. كانت إذا ما لمسها رجل بطريقة معينة على كتفها، تشعر باختلاج في رحمها. حمالات الصدر العادية كانت تهيج حلمتيها. كانت تشعر بالخجل من حساسيتها المفرطة لأنها تجعلها خرقاء وحادة الطباع. لكنها كانت سعيدة بها في الوقت نفسه لأنها اعتقدت أنه سيأتي يوم تشارك فيه سرّها هذا مع رجل يكون توّاقاً إلى اكتشاف هذا السر وشغوفاً به كما كانت هي نفسها.

***

يطلبان أن يقدم لهما العشاء في الجناح الخاص بهما بمجرد وصولهما إلى الفندق. لورا لا تزال دامعة العينين وأمبيرتو يحاول أن يصرف انتباهها ويرفّه عنها بقصص مثيرة عن الدسائس والمؤامرات التي تحاك في ليفورنو. وعندما ينتهيان من تناول وجبتهما، يخلع أمبيرتو سترته ويحل ياقته وربطة عنقه ويقول:

- تعالي يا صغيرتي الحلوة ذات العينين الخضراوين.

تبدو مترددة.

- إذا كان هذا ينطوي على أيّ خطورة يا حلوتي، سنستلقي بقرب بعضنا ويمسك كل منا بيد الآخر مثل الأطفال ليس إلا.

لا تشك ولو للحظة واحدة برغبتها في إنجاب الطفل. سيكون هذا الطفل ملكها كما لم يكن شيء قبله ملكاً لها بالصورة نفسها. لا تخشى من الفضيحة لأن ثروتها تتيح لها العيش أينما تشاء، ولأنها تعتقد بأن المرء يجب ألا ينحني أمام ما تفرضه عليه الفضيلة المتعارف عليها. ستستمتع في الواقع باستعراض تمردها كما كانت قد فعلت عندما تزوجت ضد رغبة عائلتها، وكما كانت قد فعلت عندما طلبت من زوجها على رؤوس الأشهاد أن يذهب من دون رجعة بعد زواجها بسنتين.

تستلقي بين ذراعي أمبيرتو شاعرة بالرضا لأنه يحتضنها، وغير عابئة بعاطفته. ولكم ستسعد لو أنه يبقى على حاله هكذا. تتقبل منه أن يتعلق بها، لكنها تعتبر رغبته فيها ضرباً من السخف. ليس في إمكانها أبداً أن تتجاهل أو تزدري محاولات أمبيرتو التقرّب منها لأنها تمنحها الفرصة لتظهر له كم هي معقدة جنسانية جسدها التي لطالما بدت لها نقية ورقيقة ولا يمكن التنبؤ بها، مثل حبة اللوز المختبئة داخل قشرتها. تمنّعها هذا يفاجئها. ها قد بدأ الطفل يمنحها فضيلة الاكتفاء الذاتي منذ الآن.

أمبيرتو، وحرصاً على سلامة أم ابنه، على استعداد لتقديم كل ما يمكنه من تنازلات. يستلقي بقربها بكل هدوء. عقله يعود به مرة بعد أخرى إلى التفكير بآليات الحدث القادم بصورة مرتبكة ومشوشة. تلك الآليات التي يجد فيها حلّاً لكل مشاكله.

يستلقي بقربها واضعاً يده بين ساقيها وحاشراً إصبعه بين شفرتي مهبلها. مادة عسلية دافئة أقرب ما تكون إلى طبقة الجلد التاسعة تغلف إصبعه. قبل ذلك بقليل كان يتحسس بيده كتلة صغيرة في المنطقة الواقعة تحت سرّتها.

بدلاً من أن يلج فيها الآن، طفل من صلبه سيخرج منها بعد حين. يفكر في أن طبيعة المهبل بحد ذاتها، والتي لطالما تخيلها وتأمل فيها، كانت هي نفسها، وذلك بحكم وظيفته والدور المناط به، قد تطورت فعلاً لتلبي احتياجات رحلة خروج شخص ثالث. يتردد في أن يسحب إصبعه. لا يشعر بأيّ تغيير. يحرك إصبعه ليثبت ذلك لنفسه. لم يحدث له منذ أن سمع بمعجزة الولادة لأول مرة عندما كان طفلاً أن بدا له الموضوع مدهشاً كما هو الآن.

دقيقة واحدة من عمر العالم تمضي. أرسمها كما هي.

الذي تمّ تصويره حتى الآن هو الخطوط العريضة والملامح الأساسية للشخصية التي أرغب في الكتابة عنها.

يجذبها أمبيرتو بعنف إليه ممسكاً بكتفها وممرغاً وجهه في شعرها. يدرك إلى أيّ حدّ هما مكشوفين للعالم كله، ومحرومين بإجحاف حتى من متعة الشكوى. لا يعرف شيئاً أبداً عن موضوع الولادة والمخاض، لكن توجسه برحلة الخروج القاسية لتلك الكتلة الصغيرة التي تكبر لتتحول إلى إنسان كامل تجبره على إدراك مدى شبههما بأيّ زوج وزوجة آخرين.

في بادرة لطف أخيرة ستقوم بها تجاهه تمسك برأسه بين يديها. تقول له: ابقَ هادئاً، فكّر في الطفل.

يتذكّر أحد الصباحات التي قام فيها بزيارة صديق له يتاجر بالزهور ويمتلك عدداً من البيوت الزجاجية على الطريق الواصل إلى بيزا.

زجاجِ هذه البيوت مطلي بصباغ أخضر يميل إلى الفيروزي يبدو شبيهاً بلون البحر ليخفف قليلاً من وهج حرارة الشمس على الأزهار في داخلها. كان هذا الصباغ مطلياً على الوجه الخارجي وبإمكان من يريد من المارة أن يرسم بإصبعه على الزجاج لأن الصباغ كان يُكشط عند أقل لمسة بعد أن يجف. وكلما مرّ أمبيرتو بقرب البيوت الزجاجية بعيداً عن الطريق كان ينتبه إلى تلك الرسومات. في البداية كان المارة يرسمون قلوب عشاق وسهام تخترقها وتحتها الأحرف الأولى من أسمائهم. بعد ذلك أتى وقت بدأ يرى فيه رسومات وقحة لأجسام عارية تقف منتصبة، وبعدها امرأة مستلقية على ظهرها رافعة ساقيها والشق الكامن بينهما بارز للعيان. وفي آخر الأمر وجد مرسوماً بحجم أكبر، وبصورة أكثر وقاحة من كل الرسومات السابقة، كساً يعلوه الشعر وتحته أيراً وخصيتين متدليتين. ما كان أبداً ليرسم في حياته شيئاً مشابهاً لتلك الرسومات. لكنه أدرك أنهما، هو ولورا، قد أصبحا موضوعاً لرسومات كتلك.

في السابق كان كل جزء منها – تماماً كما هو حال العلاقة التي تربطهما – يبدو سريّاً وحصريّاً لكل منهما فقط: الآن انكشف هذا السر، ثمة طرف ثالث طرأ على هذه العلاقة الآن... ابنه.

– امرأتي! يا حبيبتي يا امرأتي! «Donna mia! Donna mia» انتحب وهو يمرغ وجهه في شعرها.

***

– لم أنم جيداً. ما أخبرتِني به، أخبارنا يعني – يمكنك تسميتها هكذا، أليس كذلك؟ كتلك التي نقرؤها في الصحف – كانت

تصاحب دقات قلبي طوال الليل. أريد أن أحدث تغييراً في حياتي يا لورا، أريدك أنت وابني أن تكونا جزءاً من حياتي.

- هل أنت واثق جدّاً من أنه سيكون ولداً؟

- ينتابني شعور قويّ بأنه ولد.

- لا تنتابني أيّ مشاعر عن جنس ما في أحشائي، لا ولد ولا بنت، فالأمر سيّان بالنسبة إليّ. سأكون سعيدة بطفلي أيّاً كان جنسه. لا أتمنى أن أرزق بفتاة قبيحة، وهذا لمصلحتها لا من أجلي. القصة أبسط من ذلك مع الصبي. ليس مهماً كيف يكون شكله.

- أنا فخور بكِ. أنا فخور بطفلي. لا أريد أن أخفي شيئاً بعد الآن.

- لا يمكنك أَن تخفينا حتى لو حاولت ذلك.

- أريد أن أقدم لكِ كل ما تحتاجين إليه.

- نحن لسنا بحاجة إلى شيء.

- أريد أن أخبرك شيئاً يا لورا. شيئاً ربما لم تفهميه من قبل. لطالما كنت غنيّاً بما يتيح لي أن أفعلِ ما أريده طوال حياتي. عندما كنت شابّاً، كانت رغباتي أكثر تواضعاً. أما الآن فأنا طموح أكثر، طموح من أجلك ومن أجل الطفل.

- لماذا تتحدث عن المال؟ لا علاقة للمال بذلك، ليس له أدنى علاقة حتى. أنا لا يعنيني المال أبداً ولا أفكر فيه قط.

- كنت أتحدث عن المشاعر التي تسكن قلبي والخطط التي تعتمل في عقلي. أريد أن أخبرك كم أنا فخور بكما.

- وما هي تلك الخطط؟

- أنت، أنتِ وطفلنا، يجب أن تأتيا وتسكنا في إيطاليا حيث يمكنني أنَ أراكما متى شئت.

- تعني أنك تريدني أن أنتقل إلى ليفورنو؟

- ليفورنو مدينة بائسة مجنونة.
- وزوجتك تقيم فيها! لهذا تنعتها بالمجنونة.
- هي ليست من ليفورنو.
- هي تعيش في ليفورنو، تنتظر هناك.
- تنتظر ماذا؟
- تنتظر عودتك.
- تعرفين أنني متزوج يا عصفورتي الصغيرة. تعلمين ذلك منذ ثلاث سنوات.
- إذن لا يجوز أن ننتقل إلى ليفورنو... يجب أن أصبح عشيقتك وأن يصبح هو ابنك غير الشرعي. أتعلم ماذا يسمون الطفل غير الشرعي. ابن حرام! هذا ابن حرامك أنت. لكنه ابني، ابني أنا... ولهذا لا يمكننا المجيء إلى ليفورنو.
- لا تغضبي هكذا.
- لماذا لم يسبق لك أن سمحت لي بالمجيء إلى ليفورنو؟ لأنك كنت خائفاً من أن يرانا أحد من معارفك.
- أردت أن أفعل كل ما في وسعي لأسعدك. حرصت على أن تكون الأيام التي نقضيها معاً سعيدة وهانئة وخالية من أيّ منغصات. ما زلت أشعر بذلك. ما زالت نفسي تتوق إليه. لكن ما لدينا الآن لنتشاركه معاً يفوق الأيام والزمن. بالكاد أستطيع أن أصدق ما حدث لنا، ما حدث لكِ ولي، ما حدث لي، أنا أمبيرتو، ولكِ أنت لورا. كل شيء قد تغيّر.
- ماذا ستقول زوجتك عندما تخبرها أنك جلبت عشيقتك وطفلك اللقيط ليقيما في البلدة التي تقيم هي فيها؟
- لن تقول شيئاً.
- وهل تعتزم إخبارها؟

- لا.
- وتتصور أنها لن تعرف بذلك.
- لا بدّ أن يأتي يوم وتعرف ذلك بطبيعة الحال، لكنها لن تقول شيئاً.
- وبالرغم من ذلك تتشدق وتقول إنك فخور بنا. أنت لست أباً. أنت رجل ضعيف تجاه عاهرته الأمريكية الصغيرة.
- أتوسل إليكِ ألّا ترفعي صوتك وتقولي كلاماً كهذا، ما الذي جرى لكِ لتتغيري بهذا الشكل يا عصفورتي الصغيرة؟
- هذا ما جرى لي، هذا ما غيّرني. (وضربت بيدها على بطنها).
- أجل، هذا غيّر كل شيء. أريدك أن تقيمي في بيزا، لقد عاينت فيلا هناك، فيلا رائعة بحديقة إنجليزية غنّاء وغرف واسعة بأسقف مطلية. كان يمتلكها كونت في ما مضى. أريد أن أشتريها لكِ يا لورا.
- وسيكون علينا أن ننتظر تشريفك وتكرمك علينا بزيارة هناك. كم مرة في الأسبوع؟ كل ثلاثاء وجمعة؟
- أو بإمكانكما أن تقيما في فلورنسا، أو في فيسولي فوق نهر أرنو. إنها قطعة من الجنة.
- ما الذي تقترح علينا فعله بعد أن تضعنا هناك؟ كيف يمكن أن تكون بهذا الغباء؟ ألا يمكنك أن ترى أننا سنكون سجينين في زنزانة؟
- زنزانة! ستكونان حرّين للذهاب أينما تشاءان.
- وبمن سنلتقي؟ إلى من سنتحدث؟
- سأرتب الأمر لتتلقي دروساً في اللغة الإيطالية.
- ولهذا تريد أن تسميه جيوفاني...
- أريد له أن يتحدث عدة لغات، وبهذا سيكون قادراً على السفر. أنا لم أسافر بما يكفي في حياتي.
- لا أصدق أنك جادّ في ما تقول يا أمبيرتو. يجب أن تعلم أكثر

مني أيّ بلد هي إيطاليا. لا نعرف أحداً هناك، ولن يقبل أحد بالتعرف إلينا. سنكون منبوذَين. امرأة غير متزوجة معها طفل غير شرعي.

- لكنك متزوجة يا عزيزتي.

- لست متزوجة بك.

- قد يسمح لي وضعي بأن أتزوجكِ يوماً ما.

- تعني أنك تنوي أن تطلّق زوجتك؟

- في بلدي يكاد يكون الطلاق مستحيلاً.

- إذن لا يمكنك أن تتزوجني.

- زوجتي امرأة مريضة.

- فهمت. سننتظر في زنزانتنا حتى توافيها المنية. وبعدها ستتكرم علينا لتجعلنا جديرين بالاحترام. كيف تجرؤ على طرح اقتراح كهذا؟

- أنا أحبكِ.

- حب! ما هو الحب؟ هي مجرد كلمة تستخدمها لتحصل على ما تريد وتحقق مآربك مثلك مثل كل الرجال.

- هي كلمة استخدمتِها أنت أيضاً يا لورا.

- أجل، كنت أحبكَ عندما سافرنا سوية إلى البندقية منذ ثلاث سنوات. كنت وقتها رجلاً لا مثيل له بين كل الرجال الذين عرفتهم وسمعت عنهم. كان بإمكانك أن تصنع مني ما يحلو لك حينها. لكنك لم تفعل شيئاً. المرأة ليست مالاً تضعه في المصرف ليعود عليك بالفوائد وأنت جالس لا تفعل شيئاً. المرأة إنسان، شخص من لحم ودم. كيف تتوقع مني أن أنتظر عشرة أشهر كل سنة وأنا أعد الليالي حتى تتمكن أنت بطريقة ما من القيام برحلة قصيرة لتتكرم عليَّ برؤيتك؟ هذه ليست حياة لائقة.

- كل هذا سيتغير. ستقيمين في بيزا أو فلورنسا وسنكون معاً في أغلب الأحيان من دون أن يقطع علينا فرحتنا أحد. سيراني الطفل

أكثر مما يرى معظم الأطفال آباءهم. وسأجعله وريثي الشرعي. تعالي نتعاون معاً لنصنع حياة لنا نحن الثلاثة.

- بل نحن الأربعة!

- أربعة؟

- وهل نسيتَ أنك متزوج؟

- سبق وشرحت الأمر لكِ.

- وتقول إنك فخور بي؟ كم أشعر بالعار! لقد جلبت العار لي. لقد جلبت العار لنا كلنا. كيف سيكون لي عين أن أنظر في عينَي طفلي ونحن ننتظر ونعد الأيام والأعوام لنسمع خبر موت زوجتك.

- اجلسي الآن يا عصفورتي الصغيرة، ودعيني أتحدث قليلاً من دون أن تقاطعيني. أنا أكبر سنّاً، وأكثر واقعية منكِ. إذا قارنا أنفسنا بغيرنا سنكتشف أننا أفضل حظّاً من الكثيرين. ليستَ لديك فكرة عما يعانيه الآخرون في حياتهم. لا تسير الحياة أبداً كما نشاء. لا طائل من أن نطلب كل شيء من الحياة. لأننا في هذه الحالة لن نحصل على شيء. لن نحظى أبداً بحياة مثالية - تلك الحياة لا يحظى بها إلا من يؤمنون بالرب العظيم بعد الموت. لكنها ستكون أفضل، وأنا سأجعلها أفضل، أفضل حتى مما يمكنك تصوره. كل منا ارتكب أخطاءً في حياته. وكوني الأكبر سنّاً فقد ارتكبت أخطاءً أكثر منكِ. لكن أنتِ أيضاً لا يمكنكِ أن تبدئي من جديد وكأنك طفلة بريئة ما زالت في السابعة عشرة. فرصتي الأخيرة لأعيش بسعادة هي معكِ. أعرف ذلك تمام المعرفة. لن تسنح لي فرصة أخرى. أنتِ ملاك أرسله الله إليَّ لينقذ روحي من ظلامها. والملائكة لا يأتون إلا مرة واحدة في الحياة. سأفعل كل ما في وسعيَ لأجعلكِ سعيدة.

- وهل ستأتي لتعيش معنا؟

– يمكنني أن أحاول. ولكن أنّى لي ذلك؟ فهذا بعيد جدّاً.
– بعيد عن منزلك؟
– بل بعيد عن أعمالي وتجارتي.
– وهل تفضّل أعمالك علينا؟
– أعمالي باتت الآن من أجل طفلي. سيرثها عني عندما يكبر. لن يعيش فقيراً.
– وهل تعتزم أن تستثني زوجتك من إرثك؟
– أخبرتكِ ما سيحدث.
– أنت وقح قليل الحياء.
– لا، لست كذلك. أنا أرى الأشياء كما هي. أريدك أنتِ وطفلي معاً. من غيركما لا معنى لحياتي ولا وجود لها. حياتي كلها متوقفة على هذه الفرصة الوحيدة. أحبكِ كما لم ولن يحبكِ أحد. ولا حتى رجل أصغر مني سنّاً. لن يكون مخلصاً لكِ مثلي. أنا أعرف قيمتكِ، صدقيني، تعالي إلى بيزا. امنحيني الفرصة لأظهر لكِ...
– بيزا، حيث سأكون سجينة.
– سأكون أباً لطفلنا. فقط لو تعلمين حجم مشاعر الأبوة التي تسكنني الآن، لو تعلمين كم سأكون صبوراً ومحبّاً وفخوراً كأب. سأراكِ من خلاله. سيرث عنكِ نفاد صبركِ وشغفكِ بالأحلام.
– وماذا سيرث عنك؟
– أنتِ تعرفين بماذا ينعتونني من وراء ظهري في ليفورنو، سبق وأن أخبرتكِ بذلك، يسمونني الحيوان la Bestia. هذا لأنني ماكر وواقعي. ربما يرث عني الواقعية.
– أنت؟! أنت واقعي؟
– أجل. وسأثبت لكِ ذلك. لدينا فرصة واحدة الآن. لن تسنح لنا فرصة أخرى.

- ماذا تعني؟

- فرصتكِ أنتِ لتكوني أمّاً لطفلكِ. وفرصتي أنا لأكون أباً له. فرصتنا نحن الثلاثةَ لنعيش كعائلة سعيدة.

- أريد أن أربي طفلي كما يحلو لي، ليس كما يحلو لك. سأعلمه بنفسي. في حال كان ولداً، سيبدأ حياته من دون أكاذيب. وفي حال كانت بنتاً، ستكون محبّة ومخلصة وواقعية. لن يكون طفلاً ولد من أحشائي راضياً بأنصاف الحلول التي تطرحها أنت. ولأتأكد من ذلك، سأنذر السنوات العشر القادمة من حياتي لأجله.

- وهل تنوين أن تحرميني من حقي كأب لابني؟

- ليس لك أيّ حق فيه!!

- لورا!!

- فات الأوان الآن.

الأغطية على السرير غير المرتب، السجادات، الأثاث، الشرفة الحديدية أمام النافذة، البحيرة التي بلون الفولاذ والخزامى، جبال الألب... وكل ما كان حاضراً في مجال رؤيتهما أكمل دورة حياته الطبيعية دون أدنى تأثر بدقات قلبيهما التي كانت تتسارع بجنون.

***

تمَّ الحمل ببطل هذه الرواية بعد أربع سنوات من موت غاريبالدي.

غاريبالدي كان بطلاً.

غاريبالدي هزم أعداء وطنه. غاريبالدي كان مصدر إلهام لشعبه ليصبح شعباً حقيقيّاً... ليتطلع إلى امتلاك هويته.

غاريبالدي كان الإنسان الذي يحلم بأن يكونه كل إيطالي. من هنا يمكن أن نطلق عليه لقب العبقري الوطني. لم يكن يوجد إيطالي واحد في

كل إيطاليا – ولا حتى أولئك المنخرطون في القوات الملكية الموالية لآل بوربون[1] الحاكمين لمملكة نابولي – لا يتمنى أن يكون مثل غاريبالدي. البعض كان يأمل في أن يصبح مثله عبر محاربته. والبعض الآخر، مثل لا فارينا في صقلية، من خلال خيانته. كافور فعل ذلك في تورينو من خلال استغلاله. ما كان يقف بين الرجل وحلمه بأن يصبح غاريبالدي ليس هويته، بل الحالة البائسة التي كانت تمرّ فيها إيطاليا. بؤس عانى منه وفسره كل واحد منهم حسب أفكاره وحالته الاجتماعية. بالنسبة إلى الفلاح كان ذلك يتجسد في استحالة أن يغادر أرضه: أما بالنسبة إلى الفقيه الدستوري فكان يتجسد في معرفته أن المؤامرة غير مجدية.

عندما كانت عيون الرجال تقع على غاريبالدي كانوا ينبهرون إلى أن يصلوا إلى مرحلة لا يعودون يعرفون فيها من هم. كانوا يقابلونه وكأنهم قد خلقوه من دواخلهم.

كان معوزاً فقيراً يرتدي أسمالاً بالية دائماً تقريباً، ولا يملك شيئاً إلّا سيفاً ومسدساً. سألت أحد المحاربين في صفوفه: «ما الذي دفعك إلى التخلي عن الراحة والحياة الرغيدة لتستبدلها بحياة الكلاب هذه في مخيم لا تجد فيه مؤونة ولا مالاً ولا طعاماً؟» أجابني: سؤالك مبرر وفي محله. لكن اسمع هذه القصة: منذ أسبوعين أُصبت أنا نفسي باليأس، وفكرت في التخلي عن كل هذا. كنت جالساً على تلة في مكان ما هنا.

١– آل بوربون عائلة ملكية أوروبية مهمة، وهي فرع من سلالة الكابيتيون، إذ يرجع نسبهم إلى لويس الأول، دوق بوربون ابن روبرت، كونت كليرمون الابن الثالث لملك فرنسا. ملكت عائلة بوربون أولاً مملكة نافارا وفرنسا في القرن السادس عشر. بحلول القرن الثامن عشر، حكم أعضاء من سلالة بوربون أيضاً عروشاً في إسبانيا ونابولي وصقلية وبارما.

رأيت غاريبالدي آتياً نحوي. توقف، لم أعرف ما الذي جعله يتوقف. لم يكن قد سبق لي أن تحدثت إليه. كنت واثقاً من أنه لا يعرفني. لكنه توقف. ربما كان الحزن بادياً عليَّ وقتها، وقد كنت حزيناً بالفعل. وما كان منه إلا أن وضع يده على كتفي وقال لي، هكذا ببساطة بصوته المنخفض الغريب المخنوق وكأنه شبح يناجيني من داخلي: «الإقدام، الإقدام! غداً سنحارب من أجل بلدنا». هل تعتقد أنني كنت قادراً على التراجع بعد ذلك؟ في اليوم التالي خضنا معركة فولتورنو.

في ٧ سبتمبر من العام ١٨٦٠ دخل غاريبالدي مملكة نابولي.

Venù è Garibaldi!
Venù è lu piu bel!
جاء غاريبالدي
جاء صاحب البهاء.

احتل الجيش الخاص بآل بوربون والمؤلَّف من عدة آلاف من المقاتلين القلاع الأربع التي تشرف على المدينة. هرب الملك. مدافع القلعة كانت موجهة نحو المدينة. سرت شائعة بأن غاريبالدي سيصل إلى المدينة، ليس بصحبة قواته ولا على رأس كتيبة المتطوعين ذوي السترات الحمر ولا على صهوة خيله، بل سيصل بمفرده بالقطار. أصبحت شوارع المدينة خاوية تحت الوهج الأبيض المغشي لضوء الشمس وفوهات المدافع المحدقة بها. لم يعرف من في المدينة هل يأخذون الإشاعة على محمل الجد أم لا. الكل اختبأ داخل منزله يملؤه الرعب والترقب. في الواحدة والنصف من بعد ظهر ذلك اليوم وصل غاريبالدي إلى المحطة. نصف مليون من البشر تدفقوا إلى الشوارع وأرصفة الميناء، يتسلقون، يتدافعون، يركضون، يصرخون غير عابئين

بالمدافع أو العواقب، كلهم كانوا هناك ليرحّبوا به... ليحتفلوا بتلك اللحظة التي كانوا يعيشونها.

لم يكن غاريبالدي ذلك العبقري المحنك على الصعيد العسكري. أما سياسيّاً فكان من السهل خداعه. وبالرغم من ذلك فقد استطاع أن يلهم شعباً بأكمله. لم يلهمهم بقوة سلطته ولا بتخويل من العناية الإلهية، بل من خلال تجسيده لطموحات شباب شعبه البسيطة الطاهرة، ومن خلال إقناعهم، انطلاقاً من تجربته الذاتية، بأن تلك الطموحات قابلة للتحقيق عبر كفاحهم الوطني في سبيل الوحدة والاستقلال. صفة واحدة جعلته قديساً بالنسبة إلى شعبه، براءته.

كل ما كان يتحلى به من صفات جعله مناسباً للعب هذا الدور. قوته الجسدية وشجاعته. رجولته. شعره الطويل الواصل إلى كتفيه، والذي كان يصففه بعناية بعد كل معركة. بساطة ذوقه في ملبسه ومأكله... قال في ما قال: «ما الذي يطلبه الشخص المحب لوطنه أكثر من أن يجد حساءً في صحنه، وأن تكون أمور بلده تسير على ما أحسن ما يرام؟». الجزيرة التي كان ينعزل فيها في الفترات التي لا يكون لديه خلالها مهام ينجزها أو معارك يخوضها، حيث كان يعيش حياته كمزارع بصحبة خرافه. حسّه الوطني العالي الذي أربك مبادئه العقائدية. (هو الجمهوري الذي اعترف بسلطة فيكتور إيمانويل[1]). احترامه

١- **الملك فيكتور إيمانويل الثاني** كان ملك إيطاليا وملك بييمونتي، سفويا وسردينيا من ١٨٤٩ حتى ١٨٦١. كان محط آمال الوطنيين في سردينيا، حيث كان محبذاً للوحدة الإيطالية وميّالاً لمبادئ الإصلاح والعمران. وزاد تعلّق الإيطاليين به أكثر عندما قام باستدعاء الزعيم الوطني كافور عام ١٨٥٢ حيث سلمه رئاسة الوزراء. وفي ١٨ فبراير ١٨٦١ حمل **فيكتور إيمانويل الثاني** لقب ملك إيطاليا ليصبح أول ملك لإيطاليا الموحدة وظل يحمل هذا اللقب حتى وفاته عام ١٨٧٨.

لذاته، حسّ الفكاهة الذي يتحلى به. حقيقة إنه كان بليغاً بالإشارة أكثر مما هو بالكلمة. «أعتقد أنه لو لم يكن غاريبالدي البطل، لكان أعظم ممثل تراجيدي عرفه التاريخ». (لأنه قليل الكلام، كان المعارضون له أو الذين لا يتفقون معه يدعمونه ويعتقدون أنه كان يدعمهم). جهله بالدوافع في العالم كما كانت على حقيقتها. نفاد صبره.

عند أيّ نوعٍ آخر من الرجال كان شعب إيطاليا ليجد نصفه الأفضل ليصبح متوحداً؟

عن طريق أيّ نوع آخر من الرجال - مع التشديد على نزاهته الشخصية الخالصة - كان من الممكن لأغلبية الشعب الايطالي أن يتعرض بكل نجاح إلى الخديعة؟

الطريقة التي ألهم بها غاريبالدي شعبه أدت إلى خلق لحظات من التوتر شكّلت خطراً على الطبقة الحاكمة الناشئة. لو كان غاريبالدي كما يتمنى كل إيطالي، لديه طموحات أكبر وجرأة أكبر على الحلم، لربما كان قد مضى أبعد من طرد النمساويين وعائلة بوربون. كان غاريبالدي يشكل تهديداً للنظام، ليس لأنه كان يتبع أساليب وحيلاً قائمة على المؤامرات والمكائد، بل لأنه كان يشكل مصدر إلهام لشعبه.

تجمُّع الحشود في نابولي الذي صمد تحت فوهات المدافع التي تتربص به، تحول إلى معجزة دامت ثلاثة أيام.

فلاحو إقليم كالابريا آمنوا بأن غاريبالدي، مثله مثل المسيح، كان قادراً على اجتراح المعجزات. عندما كانت كتيبة السترات الحمر

تعاني نقصاً في الماء، صوّب فوهة مدفعه نحو صخرة، وأطلق عليها قذيفة انبجس على أثرها الماء من جوفها.

أحيا غاريبالدي في القلوب ذكرى كارلو بيزاكاني، شهيد حركة النهضة الإيطالية، والذي كان لكتاباته تأثير كبير على فكر الجيل الثوري الاشتراكي في إيطاليا.

«يكمن إيهام الفكرة في طريقة إعلانها والترويج لها. تولد الأفكار من الأفعال، والعكس غير صحيح. والبشر لن يكونوا أحراراً باكتساب الثقافة، بل سيكتسبون الثقافة عندما يصبحون أحراراً. الواجب الوحيد الذي يمكن للمواطن أن يؤديه تجاه وطنه هو أن يتعاون مع الثورة المادية: هكذا فإن المؤامرات، والمكائد، والاغتيالات، وما لفّ لفّها هي ما شكّل سلسلة الأفعال التي تقدمت من خلالها إيطاليا في اتجاه هدفها».

بالرغم من ذلك كان غاريبالدي مقيداً بتحالفاته مع الطبقة الحاكمة القائمة حينها. مبادراته كانت مصدر تحدٍّ لهم: التداعيات السياسية لانتصاراته ثبتت أقدامهم. تمّ استغلال العبقري الوطني لخلق الظروف المؤاتية للتأسيس لحكومة برجوازية.

بعد موت غاريبالدي، بالكاد كنت ترى مدينة أو بلدة في إيطاليا تخلو من شارع أو ساحة تحمل اسمه. وعلى طول إيطاليا وعرضها كان اسمه يُذكر ويُكتب آلاف المرات كل يوم. لكن بالرغم من ذلك لم يكن لهذا الاسم أيّ صلة بالذي يحدث الآن في تلك الشوارع والساحات إلا بقدر ما كان للسماء الزرقاء التي تظللها صلة بذلك.

***

في باريس ترضع لورا مولودها الجديد من حليب ثدييها. يبدو وكأن الحليب الذي يتدفق من صدرها زئبق قادم من مرآة خارقة. في هذه المرآة يبدو الطفل وكأنه جزء من جسدها، عدد أجزائها يتضاعف: لكنها بالقدر نفسه جزء من الطفل أيضاً، تكمله حسب حاجته. من الممكن أن تكون جسماً أو صورة على الجانب الآخر من المرآة. بإمكانها أن تراه انعكاساً لها أو أن ترى نفسها انعكاساً له. طالما أن الحلمة باقية في فمه، يعود كل منهما ليصبح جسداً واحداً لا يستغني أيّ جزء فيه عن الآخر، لكن طاقته تقوده إلى أن يصبحا كائنين منفصلين ومتمايزين بمجرد أن يتوقف الطفل عن الرضاعة.

تسأل نفسها: ماذا أطلب أكثر من ذلك؟ سيكبر الطفل، لكن بمجرد النظر إليه سيكون بإمكاني أن أسكنه في أحشائي من جديد.

أعصابها ومشاعرها كفيلة بتلبية كل احتياجاتها من دون أدنى جهد أو إثارة... ترشح منها بوتيرة لا تنقطع عبر الفراغ وتتسرب إلى جسد الطفل لتستبق احتياجاته وتلبيها. مشاعرها تنتشر في جسده كالأوردة. عندما تلمسه ينتابها الإحساس بأنها تلمس نفسها بتبتل وبراءة.

تريد أن تعبده لأنه معها يكون قادراً على أن يسمو فوق العالم بكل ما فيه. تريد أن تنذر نفسها له بالكامل، أن يكون التزامها المطلق تجاهه معادلاً لرفض أيّ حقوق أخرى لها في الحياة. تريد أن تدخل مع طفلها عالماً بديلاً، أن تبتكر من حياة مولودها أسلوباً جديداً للعيش.

-٢-

لم تنجح لورا في الظفر بأسلوب الحياة الجديد الذي كانت تصبو إليه مع طفلها. لم تحسب حساب ضغط روتين الحياة الهائل الذي تتبعه عائلة غنية في القرن التاسع عشر. لو أنها كانت قد قررت أن تعيش بمفردها مع ابنها غير الشرعي، وهذا ما كان سيفرض عليها أن تعيش حياة بوهيمية، لكان من المحتمل أن تنجح. لكن كونها تقيم في منزل والدتها في باريس، فقد أُحبطت كل خططها بوجود المربيات والخادمات وعاملات التنظيف وطبيب العائلة. لم يكن بوسعها أن تقضي أكثر من ساعتين في اليوم وحيدة بصحبة ابنها. لم تتمكن من أن تشغل نفسها بالواجبات اليومية التي تقتضيها مهمة العناية به – غسيل البياضات، وكيّ الملابس، وتنظيف حجرة الطفل، وتحضير طعامه، وما إلى هنالك... فقد كان هناك خدم لتأدية هذه الواجبات. جلّ ما أمكنها الحصول عليه هو منحه حماماً في فترة الظهيرة تحت أنظار المربية والخادمة اللتين كانتا تزودانها بالماء الساخن.

من طرفها لورا لم تستطع أن توضح ما الذي تريده بالضبط. لو أنها صرحت بأنها تريد أن تبقى دائماً متواجدة على مقربة من طفلها، وأنه على مدى السنوات القادمة من حياتها سيكون كل شيء آخر ثانويّاً مقارنة بواجباتها تجاه طفلها، وبأنها تريد أن تكون معه كظله، تزحف عندما يزحف، تمشي عندما يمشي، تتحدث بلغته ومفرداته،

لا تبتعد عنه سوى بضع خطوات... لو أنها صرحت بذلك كله لكانت قد عوملت على أنها مضطربة ومخبولة. الطفل الرضيع، مثله مثل أيّ شيء آخر في القرن التاسع عشر، كان له مكانه الخاص به، والذي لم يكن لأحد أن يشاركه فيه.

توسل إليها أمبيرتو أن تسمح له برؤية الطفل. أبت لورا أن ترد على رسائله، وأخبرت أمها أن والد الصبي قد خرج من قلبها وعقلها وحياتها. مرَّ عامان. تزوجت أمها مرة أخرى وعادت إلى الولايات المتحدة. ذهبت لورا إلى لندن، ومن خلال بعض المعارف الذين تحولوا بسرعة إلى أصدقاء مقربين، انضمت إلى صفوف الجمعية الفابية الداعية إلى النظام الاشتراكي. رُتب الأمر على أن يبقى طفلها مقيماً في مزرعة لاثنين من أبناء عمومتها لبضعة أشهر حتى تعثر على منزل لها. كانت لورا بادئ الأمر تأتي بالقطار لزيارته كل أسبوعين. كان هذان القريبان مثقلين بالديون. أما لورا فقد كان بإمكانها الحصول على ما يلزمهما من أموال من والدتها. أصبحت أكثر انغماساً في اهتماماتها السياسية في لندن. سرّ حياتها، هكذا فكّرت، لم يعد مختبئاً في جسدها، بل في دينامية التطور الإنساني. زياراتها إلى البلدة التي يقيم فيها طفلها أصبحت تقل شيئاً فشيئاً. بدا الطفل وكأنه ينمو ويترعرع في الريف ويعتاد على أجوائه. تمَّ إرسال المربية الفرنسية إلى باريس وتعيين معلمة أطفال إنجليزية لتدريسه والاهتمام به. قريباها (بياتريس وشقيقها جوسيلين) اتفقا على أن الطفل يجب أن يواصل الإقامة معهما. في تلك المزرعة قضى الصبي طفولته.

الحيوانات لا تحترم بعضها البعض. الحصان لا يحترم أبناء جنسه. لا يعني هذا أنها لا تسابق بعضها أو تتنافس في ما بينها، لكن هذا لا

أهمية له، لأنه، بخلاف الإنسان، عند العودة إلى الإسطبل فإن الحصان الأكثر ثقلاً وخرقاً لن يتخلى عن علفه للآخر الأكثر خفة ورشاقة كما يطلب الإنسان من الآخرين أن يتعاملوا معه. في عالم الحيوان الفضيلة هي الجائزة والحظوة.

في تلك البقعة من الرأس يغطي أقل قدر من اللحم عظام الجمجمة، ولكن حتى فوق تلك البقعة الواهية للغاية ينمو الوبر. الهيكل العظمي مقعر هناك تقريباً. على كل طرف من ذاك الحيز تسكن عين، عين كبيرة مكشوفة الأعماق. إنه عظم الجبهة الأمامي للرأس. لا يوجد مكان شبيه له عند الإنسان. أعضاء الحواس متقاربة بشكل كبير، العينان قريبتان من بعضهما كثيراً، الوجه حادّ جدّاً. في المقابل يشبه وجه الإنسان نصلاً له حدّ قاطع يقف في وجه كل من يقترب إليه.

في تلك المنطقة الواهية المقعرة تقريباً والمغطاة بالوبر، تحكّ بيدك رأس الحيوان الذي يهز رأسه متناغماً مع لمساتك. لكن راحة اليد ناعمة جدّاً، وسادتها السميكة تخفف شدة الاحتكاك. تشد قبضتك وتحكّ من جديد: هذه المرة باستخدام براجمك التي تدلّك برفق جمجمة الحيوان. عيناه لا تزالان مفتوحتين وهادئتين وصافيتين، ذلك أنه ليس هناك خطر محدق بالنسبة إليه.

يبدأ الأمر هكذا في الطفولة. لكن الأشخاص البالغين، الذين يدحرهم الحزن ويمزقهم الأسى، يسندون جبهاتهم في المنطقة الواقعة بين عيني البقرة بحيث يكون عظم جباههم ملتصقاً بعظم جبهة البهيمة.

تعبير «بهيمة غبية» يغوص عميقاً في عقل بياتريس. لا يدل هذا

التعبير على الشفقة أو التعاطف. لكن عدم قدرة الحيوان على الكلام يرتبط بصورة ما بالنسبة إليها بتلك المنطقة المقعرة بين عيونها.

حتى سنّ البلوغ كانت القرون تشكل لغزاً لها: لم تكن القرون المكتملة هي ما يثير اهتمامها ويشعل حيرتها، إنما تلك القرون التي في بداية النمو، قرمة القرن التي كانت تشعر حين تلمسها بأصابعها بأنها صخرة تتشكل تحت الوبر. قامت القرون خلال فترة المراهقة بتحضيرها لما سيحدث لها عندما تنمو. نموُّ القرنين - بدأت تدرك - لا يجسد فقط مرور الزمن على الحيوان: ليس لذلك علاقة بالصبر أو التحمل: إنما تجسد الوقت الذي اكتسبه في هذه الحياة. تحمل المواشي قرونها على رأسها كما يحمل الإنسان سنوات خبرته معه.

بدون حضور الحيوانات (ذلك الحضور الذي شعرت به طوال حياتها) لما احتملت العيش في المزرعة. هي لا ترفق بذلك الحَمَل الذي يجب أن تبقيه في الداخل كي لا يبرد ويموت. لا تشعر بالأسى على تلك البقرة التي بيعت بعد أن جفَّ حليبها. لكن من دون الحيوانات ستبدو لها المزرعة خاوية وخاملة... ما كان مرور الوقت ليترك أثراً بادياً عليها إلا كما يترك أثره على جوف شجرة فارغة. كانت الحيوانات تلك تقف وتأكل و(في الليل) تزفر وتجترّ وتنتظر وتتناسل لتكون حائلاً بينها وبين النجوم المملة.

خلال فترة طفولتها كانت تلك الحيوانات ملكاً لوالدها. كانت سلطته تتجلى في هذه الحيوانات. مثلها، كانت تنفذ أوامره. كان يعامل الماشية، كما يعاملها هي نفسها، بلطف ورفق. أما مع كل من سواها فكان يتعامل بفظاظة ونزق.

هي في الرابعة والعشرين من عمرها. يبدو وجهها ممطوطاً بشدة من الجانب وكأن أذنيها تسحبان فمها لتجبره على البقاء في وضعية الابتسام دائماً. وكنتيجة لذلك كانت شفتاها تفترقان بشكل طفيف ليبدو من ورائهما صف أسنانها البيضاء.

قد تبدو في إحدى الحفلات التي تقام في الحدائق إلى شخص غريب من لندن كابنة وديعة لنبيل من نبلاء الريف. (بالرغم من أن والدها قد فارق الحياة كانت تحافظ على المنزل في أحسن حال من أجل شقيقها). لكنها قد تفاجئه عندما تتحرك وقد تربكه قليلاً. كل حركاتها وإيماءاتها، بالرغم من ضآلة حجمها، كانت حازمة بصورة تثير الفضول.

يطلق عليها جيرانها من النبلاء صفة المستهترة، وهذا ما يفسر لهم عدم زواجها حتى الآن.

أفعالها، بغضّ النظر عن ماهيتها، سواء وهي تمشي عبر المروج، أم تقطف وردة، أم تفتح باب الفرن عند الإشراف على أعمال الطهو، أم تطوي البياضات، أم تدوس على طرف تنورتها أو ثوبها وهي ترتدي ملابسها، كلها توحي بتلك القوة غير المتكافئة الناتجة عن تأكدها من قرارها. بمجرد أن تقرر مسار عملها، فإن أيّ اعتبار آخر قد يحرفها عنه يتمّ تجاهله واعتباره تفصيلاً غير مهم. لا وجود للتفاصيل في حياتها، كل التفاصيل سطحية بالنسبة إليها.

بياتريس هي امرأة بلا فضيلة أو طموح، وذلك يعود إلى أنها غير قادرة على أن تفاجئ نفسها. ليس بإمكانها أن تطلب من نفسها فعل

شيء خارج عن المألوف. معرفة الذات هذه ليست نتيجة تأمل مطول في النفس، بل هي ناتجة عن أنها لطالما كانت مألوفة لنفسها مثلها مثل حيوان له أنماط فعل وردود فعل لازمة لتلبية احتياجاته التي لا غنى عنها.

من الممكن أن وصفي لها جعلها تظهر كشخص أحمق. وإن كنت كذلك، يجب أن أعترف أنني لم أكن منصفاً بحقّها.

تقع المزرعة أسفل وادٍ تحيط به تلال شاهقة من ثلاثة جوانب. البيت، الذي تمّ بناؤه منذ ١٠٠ سنة، كبير هائل الحجم يرتفع منه عدد من المداخن. على أحد أطرافه توجد حديقة مسورة مزروعة بأشجار الفاكهة، وخلف المنزل يرتفع مرج على شكل مدرجات. الإسطبلات ومصنع الألبان والمراحيض الخارجية تقع خارج نطاق المنزل مقابل الوادي. ربما في السابق، عندما كان وضع المزرعة مختلفاً، كان موقعها هذا يعد آمناً واستراتيجيّاً. أما الآن فتبدو التلال وكأنها تخيم عليها وتحجب النور عنها.

منذ موت والدها ساءت حالة المنزل والأرض. الأخ بالكاد يهتم بشيء في هذه الدنيا سوى خيوله. كانا قد اضطرا إلى أن يبيعا جزءاً من الأرض. في حياة والدها كان يوجد خمسة مزارعين مستأجرين لأراضيهم، أما الآن فقد تقلصت إلى مزرعة مملوكة لهما لا تتعدى مساحتها ٥٠٠ فدان.

لا يزال المنزل يحافظ على المعايير الأساسية للسكن. كل أسبوع تأتي خادمة وتقضي يومين في تنظيف الفضيات. ولا يمر مساء طوال

فترة الشتاء من دون أن تشتعل نيران المدفأة في غرفة نوم سيد المنزل. عندما يكون السيد خارجاً للصيد، يقوم الخادم بعمله كسائس خيل بديل. وفي شهر يونيو من كل عام تقام حفلة خارجية يحضرها عدد لا بأس به من المدعوين في المرج المنحدر خلف شجرتي الزان النحاسيتين الضخمتين. لكن المنزل قد أصبح كبيراً جدّاً على العائلة. وأعمال الزراعة والحرث والحصد في الأرض إما تؤجل أو تتوقف إلى أجل غير مسمى. وهكذا لأن المزرعة خاوية بعض الشيء ومهملة إلى حدّ ما، فقد بدأت تتعرض بشكل تدريجي إلى عملية طمس للمعالم ستؤدي في نهاية المطاف، خلال خمسة وعشرين عاماً من الزمن، إلى أن تتحول إلى ما يشبه مركز استشفاء للضباط.

شقيق بياتريس، جوسلين، يكبرها بخمس سنوات.

شاب ضخم الجثة بهيّ الطلعة بعينين زرقاوين باهتتين جدّاً. الانطباع الأول الذي يتركه عند المرء يوحي بأنه رجل يستطيع التعامل مع أيّ موقف بحكمة واقتدار. لكن سريعاً ما تنطفئ جذوة هذا الانطباع بفعل الانطباع الذي يعقبه. ليسوا كثيرين من يبدو عليهم أنهم قادرون على الوقوف في وجهه أو التعدي عليه. فقد اكتسب على مرّ الزمان طريقة معينة في الرد، ولكن خلف ذلك المظهر تكمن سلبية مستفيضة. يتساءل المرء هنا لماذا كان الانطباع الأول خاطئاً للغاية هكذا. بعد ذلك يحدث له شيء ما... تبرق عيناه، وبالهيبة التي يفرضها جسده الضخم الهائل بكل أعضائه يقول: وكان هذا أمراً رائعاً وكان لا ضير من القيام به! سلطة حكمه (حتى بالنسبة إلى طفل لا يعرف شيئاً عن ماضيه) تبدو وكأنها مبنية على كل ما هو جدير بالاستبقاء من الماضي. وبعدها – وكأن الأمر شبيه بارتكاسة إلى ذلك

الماضي بحد ذاته - يصبح بشكل عميق وسري سلبيّاً مرة أخرى. ما هو الشيء الذي يجعله شخصاً محيراً هكذا؟

لنتمكن من فهمه جيداً علينا أن نتأمله عن بعد. إبان نهاية القرن الماضي واجهت الطبقة الأرستقراطية الإنجليزية أزمة غير مسبوقة. لم يكن هناك ما يهدد نفوذ أفرادها وسلطتهم بأيّ شكل، ولكن الصورة التي اختاروها لأنفسهم كانت عرضة للتهديد. كانوا قد كيّفوا أنفسهم منذ وقت طويل مع الرأسمالية الصناعية وأعمالها التجارية، ولكنهم اختاروا أن يواصلوا العيش على أساس أنهم علية القوم وورثة الأرض ونخبة البشر. أسلوب الحياة هذا، مع ما ينطوي عليه من فرضيات، كان قد أصبح شيئاً فشيئاً متعارضاً مع العالم الحديث. فمن جانب، وعلى الصعيد المالي، كانت الصناعة والاستثمارات الإمبريالية تتطلب صورة جديدة للقيادة، وعلى الجانب الآخر كانت الجماهير تطالب بالديمقراطية. الحل الذي توصلت إليه الطبقة الأرستقراطية كان وفيّاً لطبيعتها وسماتها: كان طائشاً وحيويّاً في الوقت نفسه. إذا كان لأسلوبهم في الحياة أن يختفي، كانوا أولاً سيؤلهونه من خلال تحويله بصورة علنية ووقحة إلى عرض مسرحي: في حال كان قد أصبح غير قابل للحياة، كانوا سيحولونه إلى مسرح. لم يعودوا يطالبون (إلا كلاميّاً) بمسوّغات في ما يتعلق بالمسار الطبيعي للحياة: بل قاموا بدلاً من ذلك بتمثيل مسرحية على خشبة مسرح لها قوانينها وقناعاتها الخاصة بها. اعتباراً من العام ١٨٨٠ كان هذا المعنى الضمني للحياة الاجتماعية، وانحصر في رحلات الصيد، ومسابقات الرمي، ومنافسات السباق، ومباريات التنس، وسباقات القوارب، والحفلات التي تقام في القصور.

استقبل العامة عملية التأليه هذه بترحاب. مثلهم مثل أيّ جمهور من

المتفرجين شعروا، إلى حدّ ما، بأنهم يمتلكون الممثلين الذي يؤدون أدوارهم أمامهم. من كانوا يتحكمون بهم ويحكمونهم في الماضي باتوا اليوم مصدر تسليتهم. في تلك الفترة وأثناء عملية التحول، كيّفت الطبقة الأرستقراطية نفسها - في مركزها كطبقة - مع ممارستها الجديدة، والأكثر تخفياً بحكم الضرورة، للسلطة. مثل طائر العنقاء كان عليها أن تنهض من قلب رمادها، لأن الرماد كان الشيء الوحيد المتبقي من ملابسها الفخمة، وفي النهاية استُخدمت كزيّ مسرحي.

جوسلين هو عضو بائس وثانوي في هذه الطبقة. رحلات الصيد والسباقات التي يذهب إليها ليست بتلك الأهمية. لكن هذا يزيد من حاجته إلى الاعتقاد بأن المسرحية هي الحياة بحدّ ذاتها، وما تبقى من الحياة هو عبارة عن فاصل زمني فارغ معلّق في الأبدية. هذا ما يجعله شخصاً متوهماً، ولهذا، عندما لا يكون على خشبة المسرح وليس لديه نص يلقيه أو دور يؤديه، يصبح سلبيّاً بشكل استثنائي. ولكن لنكن واضحين، هو لا يفعل هذا لأنه يبحث عن بريق الشهرة أو التصفيق (على العكس، يعتبر جوسلين ذلك نوعاً من السوقية والابتذال)، بل لأنه يعتقد أن المسرحية هي الواقع وكل ما عداها وهم.

أما الزيّ المسرحي الذي كان يرتديه ليؤدي دوره فعبارة عن جزمة طويلة مع مهمازين بلون خشب الماهوغني، وسروال يضيق عند الربلتين، ومعطف وردي باهت طويل الذيل، ووشاح أبيض، وقبعة بقمة منخفضة، وسوط جلدي له مقبض قصير وكرباج طويل.

يخرج إلى الصيد أربع مرات في الأسبوع في الفترة الواقعة بين نوفمبر وأبريل من كل عام.

أريد أن أنوّه هنا إلى أنني قد استخدمت كلمة مسرحية كمجاز لنتمكن من إدراك الطبيعة الزائفة والرمزية والنموذجية والمشهدية والجوهرية للحالة التي أمامنا. لكن المشهد ومفرداته وممارساته حقيقية تماماً. فصل الشتاء، وكلاب الصيد، والأحصنة الواجب سوقها، والأسيجة التي يجب القفز من فوقها، والبراري التي يجب التجول في مجاهلها، والثعلب الواجب جرجرته، والوهن الذي يشعر به من أمضى النهار بطوله وهو يبحث وينتظر ويسعى... كل هذا حقيقي: والتجربة الجسدية لكل هذه الأفعال تحدث بكل شدة وكثافة بسبب رمزيتها التي يشعر بها كل صيّاد عانى وقاسى في رحلات صيده.

أن تمتطي صهوة فرسك يعني أنك سيد... يعني أنك فارس، أن تمثل دور النبيل (بالمعنى الأخلاقي والاجتماعي). أن تُخضع من تريد. أن يُذكر اسمك، ولو على استحياء، في حوليات المعركة. رحلة المجد تبدأ دائماً برجل وحصان.

أن تنطلق بسرعة ومهارة مع كلاب الصيد يعني أنك مقدام جسور. أن تكون بارعاً. ألا تحترم شيئاً أبداً إلا سرعة العدو.

الصيد هو الفعل المعاكس للامتلاك. أن تصيد يعني أن ترتحل وتبحث وتسافر. أن تطلق أسهمك في المدى المفتوح. أن تكون حرّاً كرجل كما هو الكلب الهجين حرّ كثعلب من سلالة صافية.

أن تلتقي بالآخرين يعني أن تشاركهم الرحلة وتركب حصانك بصحبتهم، هؤلاء الذين، بغضّ النظر عن شخصياتهم، يعرفون شيئاً ما عن هذه القيم ويحافظون عليها. كل هذا يتعارض مع تلك القيم

التي يبدو وكأنها تمثلت عند اختراع الأسلاك الشائكة. (تلك الأسلاك التي قتل لاحقاً على أشواكها ملايين الجنود الراجلين تنفيذاً لأوامر الجنرالات الذين يفوقونهم رتبة).

جوسلين يعود إلى منزله في وقت مبكر من إحدى مساءات ديسمبر. الحصان مسربل بالطين. ينزلق من على صهوة حصانه، ومع أنه شعر في البداية بأنه متصلب لدرجة لم يستطع معها أن يقف منتصباً، ينحني كرجل يتكئ على عكاز، ويمشي بعدها قريباً من رأس الحصان. أذنا الحصان مشرعتان تماماً. يقول لحصانه: لم يعد أمامنا سوى ميلين ونصل يا صديقي القديم. يمشي الاثنان جنباً إلى جنب. يجول عقل الرجل على الأحداث الرئيسة التي صادفها في يومه. يتذكر ما اختبره من أحداث وما رواه له أصدقاؤه في ذلك اليوم. في صميم تعبه الجسدي يكمن شعور بالراحة والرفاه، وإن كان بشكل خجول. على يقين هو بأنه كما هو الحال مع تبعات الجريمة، أو فعل الخيانة، أو السرقة، على سبيل المثال لا الحصر، التي تتخطى في تأثيرها مرتكبها ومن وقع ضحيتها لتلمس حياة المزيد من الأشخاص وتؤدي إلى أفعال مستقبلية، كذلك ما يحدث في نطاق العلاقة القائمة بين السبب والنتيجة التي لم يصل بعد إلى تسميتها أو تصورها والخاصة بتبعات أفعال الشرف التي ينطوي عليها فعل الفروسية، كذلك هي تتدفق خارج حدود مرتكبها لتخلف تأثيراً متناهي الصغر لكنه لا يفنى. ينظر نحو السماء فيرى حفنة من النجوم، وفي ذلك الفضاء المترامي يشعر بغياب تلك الأحصنة العملاقة التي رمحت في رحابها في السابق.

***

أرى الصبي جالساً على درجات السلم يستمع إلى الحديث الدائر في غرفة النوم. سيدرك لاحقاً أن إيقاع صوتيهما يشبه إيقاع صوت زوج وزوجة يتحدثان معاً في السرير. لا يتحدثان بصورة غرامية حميمة، بل بهدوء وبنبرة متأملة مع أريحية في الحديث وتوقفات قصيرة. (في بعض الأمسيات يذهب خاله إلى النوم مبكراً، وفي تلك الأمسيات تحضّر خالته مشروباً ساخناً وتأخذه إلى غرفته. تسميه مع ضحكة خفيفة، الفنجان الليلي). كلماتهما ليست مفهومة للصبي الجالس على السلم. لكن من الأسلوب الذي من خلاله يتداخل الصوت الذكوري مع الأنثوي، ويستفز كل منهما الآخر ويحتويه، يبدو صوت كل منهما متمايزاً عن الآخر وكأنه قد قُدّ من مادة مختلفة، ومن السهل تمييزه عن الآخر كما هو سهل تمييز المعدن عن الحجر، أو الخشب عن الجلد، وبالرغم من ذلك، سواء كان الصوتان يحتكان معاً أم يتشظيان أم ينصهران ليندمجا في لغو واحد يشكل الحوار الدائر بينهما – فإن هذا الحوار فصيح أكثر من أيّ كلمات يمكن استراق السمع إليها... فصيح بقوة القرارات التي يتمّ اتخاذها. قرارات لا يمكن لأيّ طرف ثالث أو مستمع أن يطالب باستئنافها أو نقضها.

***

في صيف العام ١٨٩٣ ضرب الجفاف المنطقة لفترة امتدت ثلاثة أشهر. يهطل المطر بعدها بغزارة عاصفة. يركض إلى الخارج ويتنسم رائحة الأرض التي تشبه رائحة اللحم.

من يديه تنبعث رائحة الحصان واللجام... رائحة استقت عناصرها من الجلد والسرج والصابون والعرق والحوافر وشعر الخيل والعشب والشوفان والوحل والدثار وأنفاس الخيل واللعاب والروث ورائحة المعادن المختلفة التي تكاثفت الرطوبة فوقها.

يرفع يده إلى وجهه ليتنسم الرائحة. كان قد لاحظ من قبل أن الرائحة تبقى صامدة أحياناً إلى المساء، حتى في الأوقات التي لا يكون قد ركب الخيل فيها منذ الصباح.

رائحة الحصان واللجام تتناقض مع رائحة زريبة البقر. كل رائحة منهما تُعرف من خلال الأخرى. رائحة الزريبة هي رائحة الحليب، رائحة الثياب، رائحة أجساد النساء الصغيرات الجالسات القرفصاء بظهورهن المحنية أمام خاصرة البقرة، رائحة الخراء السائل، رائحة المهاد، رائحة الدفء، رائحة الأيادي الوردية والضروع التي لا يختلف لونها عن الوردي كثيراً، رائحة الغياب المطلق للخصوصية وأسماء البقرات التي لا تخرج عن نطاق أسماء حيادية مثل هوى Fancy وأمورة Pretty وباسقة lofty وغيمة Cloud وفطيرة Pie وصغيرة العينين Little–eyes.

رائحة الحصان واللجام مرتبطة عنده بالأصل الكريم لجسده (كما يحدث عندما يصبح فجأة مدركاً لدفئه الخاص)، بالفخر... عندما يمتطي الحصان بمهارة ويثني عليه خاله، بشعر عرف مهره وبترقبه دخول عالم الرجال.

يعرف بعضاً من مفردات هذا العالم، لكنه على يقين من أن كل هذه المفردات تشير إلى أشياء لا يأتي أحد على ذكرها. يفترض أن الرجال المحيطين به يحتاجون، لأسباب خاصة بهم، إلى حياة سرية شبيهة بتلك التي يمتلكها هو نفسه. لاحقاً، عندما سيدخل عالمهم– ويلحق بكلاب الكابتن إيلوي – سيعرف أسرارهم وخفايا حياتهم السرية.

الآنسة هيلين

بين عمر السنتين والخمس سنوات تعاقبت على الصبي ثلاث مربيات. كان اسم الأخيرة الآنسة هيلين.

في غرفة الدرس القائمة في الطرف الأقصى من المزرعة بعيداً عن المطبخ والحظيرة، لا وجود للرجال، وحده الصبي يشكّل الحضور الذكري هناك. يجلس إلى طاولة الدرس المرتفعة وقدماه اللتان لا تصلان إلى الأرض تتأرجحان في الهواء وهو يقرأ بصوت مرتفع. أما هي فتجلس على الكرسي المزود بمساند والذي أدارته ليواجه النافذة لتطل من خلالها إلى الخارج.

عندما تبدو وكأنها مأخوذة بالكامل بما تراه خارج النافذة وغير منتبهة إليه أبداً، يرتكب خطأً عن عمد ليسترعي انتباهها من جديد. في بعض الأحيان تكون أخطاؤه بريئة وغير مقصودة.

- طوال صيف السمّن كانت العصافير تغني.
- السمّن؟
- أجل، ذلك العصفور المرقط.
- صيف السمّن؟

تنهض عن كرسيها، تسوّي مقدمة فستانها في الأماكن التي تشكلت فيها طيات حول خصرها النحيل من الجلوس، وتأتي من خلفه لتنظر إلى كتابه.

- طوال فصل الصيف!! وليس صيف السمّن!!

تضحك ويضحك. أثناء ضحكه يلقي برأسه إلى الخلف ليلامس فستانها.

كان هذا خطأً محمولاً، فعلى الأقل السمّن نوع من أنواع الطيور. لكن هذه الكلمة ليست حرف جر.

الوقوع في الحب في عمر الخامسة أو السادسة، على الرغم من أنه نادر الحدوث، شبيه بالوقوع في الحب في عمر الخمسين. يمكن للمرء أن يفسر مشاعر كل منهما بصورة مختلفة، وقد تختلف النتيجة، لكن ماهية الشعور وحالة الإنسان الذي يشعر بهذا الحب تكونان نفسيهما.

لكي يتاح لطفل في الخامسة من عمره أن يقع في الحب لا بدّ أن تتوفر شروط مسبقة. يجب أن يكون قد فقد والديه، أو، على الأقل، فقد أيّ اتصال مباشر بهما، وألّا يتكفل أحد بتربيته أو تبنيه ليأخذ مكان والديه. وفي الوقت نفسه يجب ألّا يكون لديه أصدقاء مقربون أو أخوة وأخوات. عندها فقط يكون الطفل مستوفياً الشروط.

الوقوع في الحب هو حالة مطولة من انتظار الحصول على نوع معين من الهدايا وردّها بصورة متواصلة. قد تختلف قيمة هذه الهدايا، بدءاً من نظرة حب وصولاً إلى وهب الذات في سبيل من نحب. لكن يجب أن تكون الهدايا هدايا... أي يجب أن يتمّ منحها لا أن تُطلب. لا يملك المرء حقوقاً كعاشق، ما عدا حقه في انتظار ما الذي يرغب الآخر في منحه إياه. يعيش معظم الأطفال مكتنفين بحقوقهم (حقهم بأن يعاملوا برفق، حقهم بالمواساة، وما إلى هنالك...) ولهذا لا يقعون في الحب ولا يكونون قادرين على ذلك. ولكن إذا حدث وأدرك الطفل، نتيجة لظروفه، أن تلك الحقوق التي يتمتع بها ليست جوهرية، وعلم، ولو بصورة غير واضحة، أن السعادة ليست شيئاً

يمكن ضمانه أو الحصول على وعد قطعي بعيشه، لكنها شعور يجب أن يحاول المرء أن يعثر عليه ليعيشه، وأحس بأنه وحيد في الأساس، عندها يجد نفسه في حالة انتظار دائم لهدايا خالصة ومتواصلة ومن دون مقابل من الآخر، وهكذا تكون حالة الانتظار هي حالة الوقوع في الحب. قد يسأل سائل: ما الذي يملكه طفل ليهديه في المقابل؟ ما هو مستحيل، أو مستبعد على أقل تقدير، أن تدرك حبيبته بأيّ شكل ما يقدمه أو ما يتوقعه على حقيقته.

يسأل: ما هو حرف الجر؟

– حرف الجر هو جزء من قواعد اللغة. يأتي دائماً سابقاً لاسم ويحدد ما الذي يفعله الاسم الذي يأتي بعده.

ولكن – قد يحتج أحدكم قائلاً: (كما قد تحتج هي نفسها، ولو بكلمات أقل وضوحاً) إن الصبي بعمر الخمس سنوات لا يكون مكتملاً جنسيّاً، وأساس الشعور بالحب هو جنسي في النهاية.

يستمع إليها وهي تستحم في غرفتها كل صباح. وكل صباح يفكر في دخول غرفتها ومفاجأتها. يمكنه أن يدخل بذريعة أنه خائف أو أنه بحاجة إلى شيء ما، ولكنه حينها سيبدو وكأنه يتوسل ما يريده كطفل، ولأنه واقع في حبها، فإن كبرياء العاشق فيه يمنعه من ذلك.

وهو في سريره في الليل، يتفحص جسده عضواً عضواً ليكتشف مصدر ذلك اللغز الذي يهيجه ويؤجج النار في قلبه. (حضورها، وهو يستحضر ذكراها الآن عندما كانت واقفة خلفه ورأسه لا يزال يلامس ثوبها، يجعل قلبه يخفق بسرعة ويشعر معه بأن أطرافه وهنت،

وكأنه خارج للتوّ من حمام بمياه تغلي). يتحسس أنفه، أذنيه، تحت إبطيه، حلمتيه، سرّته، إسته، أصابع رجليه، هكذا إلى أن يصل إلى أيره المنتصب، الذي، يعلم ذلك مسبقاً، سيمنحه نصف جواب فقط. يداعبه ليشعر بموجات المتعة اللذيذة المعتادة. يتزايد تواتر هذه الموجات إلى أن يتحول فجأة إلى شعور بالألم. يضع المتعة في خانة الألم الحميد لأن الأحاسيس الوحيدة التي كان يعرفها وتحاكي في شدتها شعور المتعة هي آلام في الحقيقة.

- هل يمكننا أن نغني قليلاً، يسأل.

بخلاف مربياته السابقات، تبدو السيدة هيلين، الكسولة فوق العادة، وكأنها لا تتبع برنامجاً صارماً في ما يتعلق بالدروس التي تعطيها للصبي. يفعلان أيّ شيء يخطر في بالهما. وبدلاً من التقيد بثلاث حصص رسمية ومحددة، يمضيان الوقت في فترة الصباح بصحبة بعضهما. بالنسبة إلى الصبي يخلق هذا نوعاً من التساوي بينهما. أما بالنسبة إليها فهي فرصة للشرود.

تمضي إلى البيانو وتجلس على الكرسي الدائري الذي يدور كدوامة.

- دعيني أدوّرك، يقول، دعيني أدوّرك.

يأتي من خلفها ويضع يديه على وركيها ويبدأ بتدويرها. ترفع قدميها عن الأرض فيختفي حذاؤها تحت تنورتها. تبدأ تدور ببطء.

له وجه أشبه بقرد ظريف لكن بعينين داكنتين عميقتين. هو طفل صغير محبب إلى النفس وقريب من القلب، هو كذلك بالفعل. يبقى يحدق بك إلى أن تضطر في النهاية إلى الإشاحة بنظرك بعيداً. ليس لدي أيّ فكرة ما الذي يدور في ذهنه. بعد يومين من الآن ستذهب إلى لندن وتبقى هناك أسبوعاً.

كان قد لاحظ (واعتبر هذا شيئاً تنفرد به هي وحدها) أن ملابسها دافئة دائماً.

تضع قدميها على الأرض.

– ما الذي سيقوله خالك لو رآنا الآن؟

– هو لا يأتي أبداً إلى هذه الجهة من المنزل. وفي حال فعل ذلك، سيأتي على حصانه وينظر إلينا عبر النافذة.

نظرتْ بشكل لاإرادي إلى النافذة.

– دعيني أدوّركِ مرة أخرى.

– لا.

كانت هذه الـ «لا» نكدة نوعاً ما.

فيقول لها: غني إذن أَغنيتكِ، تلك التي أحبكِ أن تغنيها دائماً.

– أي أغنية تقصد؟

– تلك التي تتحدث عن هيلين، أغنيتكِ.

تضحك وتلمس جانب رأسه بيدها.

– قد يظن من يسمعك أنها الأغنية الوحيدة التي أستطيع تأديتها.

لها صوت رقيق لا يختلف كثيراً عن صوت الطفل. عندما تغني يبدو له وكأنهما بالحجم نفسه وبأنهما زوجان يناسبان بعضهما تماماً. عندما تغني لا يستمع إلى كلمات الأغنية (أتمنى لو أكون حيث تكون هيلين...)، يعود ذلك في جزء منه إلى أنه يحفظ كلماتها عن ظهر

قلب، وإلى أنه لا يصدّق هذه الكلمات. وهكذا تصبح الكلمات غير مهمة. يستمع إليها وهي تردد الأغنية وكأنه يستمع إلى عصفور يغرد. ربما يطلب يدها أثناء الغناء: هيلين، هل تتزوجينني؟ وقد تجيب: أجل. لكنه ما كان ليصدقها، ذلك أنه يدرك تماماً، آخذاً في الاعتبار كل شيء في العالم ما عدا هما الاثنين، أن ذلك ضرب من المستحيل.

تخفض عينيها قليلاً وكأنها تقرأ ما تغنيه بدلاً من أن تغنيه من قلبها. جفنا عينيها المنتفخان نوعاً ما، واللذان يغطيان نصف عينيها، ناعمان ومستديران ولا تشوبهما أيّ تجعيدة. باغتها مرة وهي نائمة في الأرجوحة الشبكية في المرج، ووجد ذبابة جاثمة على وجهها.

تتخيل وهي تغني «أغنيتها» بعذوبة ومهارة للصبي الذي تشرف على تعليمه أن السيد جون لينوكس المرشح الليبرالي عن بلدة روس أو وي يشاهدها، وأنه يأتي نحوها ويقول لها: لم أتصور يوماً أن يكون لك هذا الصوت العذب الساحر إلى جانب كل المواهب والميزات الأخرى التي تتمتعين بها.

اللغز الذي يهيجه ويؤجج النار في قلبه، والذي وهو في سريره في الليل يجعل أيره منتصباً، يقود الصبي إلى طرح عدد من الأسئلة. لكن تلك الأسئلة كان تطرح بمزيج من اللغات المكونة من أنصاف كلمات وصور وإشارات بالأيدي وحركات إيمائية كان يصنعها بجسده. وفي ما يلي الترجمة الحرفية لهذه الأسئلة:

- لماذا أتوقف عند جلدي؟

كيف أصبح قريباً إلى اللذة التي أشعر بها؟

ما هو الشيء الموجود عندي وأعرفه جيداً ولا يعرفه أحد غيري؟

كيف أجعل شخصاً آخر يعرفه؟

في ماذا أنا – ما هو هذا الشيء الذي وجدت نفسي غارقاً فيه ولا أستطيع الخروج منه؟

مقتنع هو بأنها تستطيع أن تجيب عن هذه الأسئلة باللغات المختلطة نفسها. كل الأسئلة الشكلية التي يطرحها عليها في قاعة الدرس والتي تجيبه عنها (كيف يتشكّل المطر؟ ماذا يأكل الذئب؟) ليست سوى توطئة لتلك الأسئلة.

يداها على مفاتيح البيانو. يدان شاحبتان بأصابع نحيلة وأظافر قصيرة جدّاً. في أيام الأحد ترتدي قفازين أبيضين: أثناء عودتهما مشياً من الكنيسة يمسك بيدها. مفتون هو بافتتان قديم: يداها تلمسان المفاتيح بطريقتين مختلفتين تماماً. إما تلمسانها بخفة فائقة لدرجة أنهما ما إن تحطّا عليها حتى تحلقا بعيداً عنها، أو تنقضا بشدة وتضغطا عليها وتبقيا هكذا، ولهذا يمكنه أن يلاحظ الأطراف غير المصقولة للمفاتيح المجاورة لتلك التي تضغط عليها. يشعر وكأنها تريد أن تدخل أصابعها داخل البيانو. تتلاشى النغمة الأخيرة.

– الآن اعزفي أنتِ وأنا سأغني لكِ.

– أيّ أغنية ستغني؟

يصبح من المستبعد أن يقع الصبي في الحب ما بعد عمر السادسة أو السابعة – أقله إلى أن يصل إلى سن المراهقة. يصبح حينها على معرفة بالعديد من الأشخاص. ذلك العالم الذي يتعدى كيانه يبدأ بالتوسع والتناسل ليصبح عالماً يضم العديد من الأشخاص، وأيّ واحد منهم له أن يواجهه كذات مختلفة عن ذاته. من غير المرجح أن يحدث هذا وهو لا يزال في الخامسة.

لأنه بلا أهل تراه لا يتوقف عن البحث عن شخص واحد أوحد يمثل كل ما كان يفتقر إليه ليعامله كنصفه الثاني ونقيضه. وعندما يعثر على شخص يكون مختلفاً عنه كليّاً في التجربة، والدور، والخلفية، والاهتمامات الشخصية، والسن، والجنس... ويكون، بالمعنى الأشمل للكلمة، غريباً عنه وفي الوقت نفسه حميماً معه ودائم الوجود بقربه، ويكون، بالإضافة إلى كل ما سبق، جميلاً وبالغاً، حينها يكون جديراً بأن يقع في حبه.

قد يصرّ أحدكم على أن الشهوة الجنسية النافذة لا تزال مفقودة. ويمكن لمن يفكر في ذلك أن يبرهن على حجته باستخدام صورة لصبي عارٍ في الخامسة من عمره. (هو نفسه يقدم لحبيبته البرهان على ذلك مرتين كل أسبوع في الحمّام). لكن القليل الذي يفتقر إليه جنسيّاً يعوض عنه غيبيّاً. يلمس أو يشعر بأنها - كونها نقيضه، وبالتالي النصف المكمل له - قادرة على أن تجعل عالمه مكتملاً. في عالم البالغين تتكفل العاطفة الجنسية بإعادة تكوين هذا الإحساس. في عالم طفل في الخامسة ليس عليها ذلك: فهو لا يزال جزءاً من مورثاته.

يبدأ بالغناء، وهو يراقب أناملها على مفاتيح البيانو غير مكترث بالكلمات التي يغنيها. يقتنص الفرصة ليقترب بضع خطوات منها ويضع خده على كتفها.

سرعان ما تُستبدل الآنسة هيلين بمعلم خصوصي.

لا يطلب الصبي تفسيراً لذلك ولا يقدم له أحد أيّ تفسير. معتاد هو على تقبل الأحكام كحقائق لا تقبل الجدل. لا يشعر بأن أحداً

ممن حوله يستأثر بسلطة مطلقة لا ينازعه فيها أحد، وبالتالي فإن فكرة الاعتراض على أيّ حكم ليست واردة.

يضع أذنه على جذع الشجرة ليستمع إلى صوتها. لا يجرؤ حتى الآن على الاستماع إلى صوت شجرة ميتة. يصنف الأشجار في ذهنه إلى العديد من الفئات المختلفة. الأشجار التي يحبها وتلك التي لا يحبها (من دون سبب). الأشجار التي يسهل تسلقها، وتلك التي يخيفه تسلقها بعض الشيء. الأشجار التي تطل على مشهد، وتلك التي لا يرى شيئاً من قمتها. هناك المزيد من الفئات المعقدة أيضاً. الأشجار مخلوقات حية ولكن حياتها ليست بادية للعيان كما هو الحال مع الحيوانات. ما الفرق بين الاثنين؟ أولاً، الأشجار أسهل منالاً. ثانياً، الأشجار أكثر غموضاً. ثالثاً، الأشجار ثابتة في مكانها لا تتحرك. رابعاً، الأشجار يمكن أن تخبئه. لا يعتقد أن الشجرة كانت لتشعر بأيّ ألم لو أنه قطع لحاءها. عندما تخلع غصناً من أغصانها لا تسمع منها تأوّهاً ولا تشتم منها رائحة ألم. ومع هذا، عندما يضغط جسده على جذع الشجرة يشعر بها حية إلى درجة تفوق بشموليتها أيّ منطق تصنيفي يرتكبه في حقها. عندما يلمس حيواناً، قد يعترض الحيوان على لمسته أو يتفاعل معها. ثمة شجرة بعينها يتسلقها دائماً، وعندما يصل إلى أعلى نقطة يجرؤ على تسلقها فيها، يقبّلها... ويقبّلها دائماً في المكان نفسه.

***

بمجرد أن يبدأ اليوم، يصبح بالكاد محسوساً بحدّ ذاته... همومنا المتواصلة تأخذنا. قد ننسى للحظة أن نتابع حياتنا فقط في حال كان هناك عاصفة رعدية أو ثلجية أو كسوف جزئي للشمس. لكن في بداية

اليوم أو نهايته، عند الفجر أو الغروب، وعندما تكون علاقتنا بكل ما تراه أعيننا تخضع إلى تحول سريع، نجنح إلى أن نعي اللحظة كما نعيشها، وغالباً ما نكون أكثر وعياً بها من اللازم. في مواجهة الفجر، حتى الأكثر غروراً بيننا لا يستطيع إلا أن يستسلم لإغواء يجعله ينسى نفسه. هكذا أفترض أن تجربة انبلاج الفجر أو هبوط الليل هي بشكل ما أقل تأثراً بالتغير التاريخي من تجربة عيش الأيام بحدّ ذاتها.

يُسمح له في بعض الأيام بأن يتناول إفطاره في المطبخ مع المزارعين. يتحرك في حدود هذه المكرُمة الخاصة، وتدريجيّاً، أسبوعاً بعد آخر، ينجح في توسيع مداها ليصبح الإفطار في المطبخ يعني النهوض من السرير مبكراً، والانطلاق خارجاً، والتجول كما يحب، وتسجيل حضوره في المطبخ مع راعي البقر في السابعة والنصف صباحاً.

بعد رحيل الآنسة هيلين ببضعة أشهر، في أغلب صباحاته الشتائية، يغادر المنزل في الأوقات التي لا يكون فيها الظلام قد تلوث بالضوء بعد، ويصعد إلى قمة المرج المنحدر حتى يصل إلى أشجار الزان الضخمة.

ما يشعر به وهو ينظر إلى نوافذ المنزل المضاءة ومعمل الألبان هو النصف المتجمد من اللغز الذي يشعل جسده ليلاً وهو في سريره. كل نافذة مضاءة توحي له بالغرفة التي تختبئ وراءها. من خلال النافذة يسحب الدُّرج الذي يخرج أحشاء الغرفة إلى الخارج. في داخلها يجد الدفء والأمان والألفة التي يشعر بها في الحياة التي يعيشها. لكنه يشعر بذلك وهو ليس داخلها، بل وهو جاثم في الظلمة تحت أشجار الزان الضخمة. نطاق حواسه في هذا الظلام والبرد كان محدوداً جدّاً

لدرجة أنه يشعر بأنه يقف داخل قبعة صغيرة لا يكاد يفوق حجمها حجم جسده، ومفتوحة من جانب واحد ينظر من خلاله إلى الخارج. سؤال لا يستطيع أن يصيغه بلغته المختلطة يجثم الآن في مكان ما بين المنزل والقبعة التي تكتنفه. في الحقل الموجود في أعلى التلة، توجد أغنام أقل حلكة قليلاً من الظلام وكأنها بخار تنفس يلطخ زجاج نافذة في ظلام مطبق. يدرك أن الأغنام ستبقى دائماً خارج إطار السؤال الذي لا يستطيع صياغته. ما إن يصبح هناك ضوء يكفي ليتمكن من رؤية قدميه حتى تبدأ القبعة بالتلاشي ومعها يتلاشى السؤال الذي لا قِبل له بسؤاله.

يهبط من أعلى التلة إلى فناء المنزل وينتظر في مدخل زريبة الأبقار حيث يكون الراعي واثنتان من العاملات يحلبون الأبقار. يربت الصبي على كفل كل بقرة ويدعوها باسمها.

الشاي المقدم على الإفطار في المطبخ يختلف عن ذاك الذي يُشرب في قاعة الدرس. الفناجين أيضاً مختلفة: كبيرة الحجم بحواف عريضة وأقرب ما تكون إلى أواني الطبخ.

الشاي الذي يشربه ساخن جدّاً إلى الحد الذي بالكاد يحتمله لكنه خفيف الطعم. يبطن الفم بغشاوة رقيقة سطحها غير قابل للامتصاص وبرّاق مثل طبقة الميكا المستخدمة في أشرطة الفوانيس. داخل فمه، المبطن بأكمله بطعم الشاي، يشعر أيضاً بمذاق السكر المبالغ فيه. هذا طعم تتعدى تأثيراته حدود الفم. الحلاوة مثلها مثل حبل يوريديس، تنتقل من اللسان إلى الحلق، ومنه، بغموض، تتقدم عبر المعدة إلى مركز الشهوة الجنسية، تلك البقعة الصغيرة (المختلفة عند الذكر

عن الأعضاء التناسلية بحدّ ذاتها) حيث تتراكم اللذة الجنسية قبل أن تتحول إلى موجات تسري في الجسد. السكر هو أول طعم يحثنا على حب الحياة.

أما العسل فإما أن يكون صحيّاً وإما سامّاً، تماماً كما هي المرأة: «عسل» في وضعها الطبيعي، وسمّ إذا ما لُدغت... كفكرة بدائية، يجسد البحث عن العسل نوعاً من الرجوع إلى الطبيعة تحت ستار الانجذاب الجنسي الذي تنقله ذاكرة الجسد الجنسية إلى حاسة التذوق، والذي يقوض أسس الحضارة في حدّ ذاتها في حال الغوص فيها لوقت طويل.

المطبخ يعبق برائحة اللحم المقدد وأحذية العمال.

الطاهية، الواقفة قرب الموقد، تراقب الرجال السبعة والعاملات الثلاث وهم يلتهمون طعامهم وعلى وجهها يرتسم انطباع بالدهشة ظاهر. عندما لا تكون على عجلة من أمرها، يكون هذا هو الانطباع الدائم الذي يرتديه وجهها عندما تراقب الناس وهم يأكلون الطعام الذي حضرته بيديها. ليس سبب الدهشة هو أنهم يأكلونه بهذه الشهية، ذلك أن هذا الأمر لم يعد يفاجئها أبداً. قد لا يكون السبب ذاتيّاً إلى حدّ كبير: هذه الدهشة البدائية يثيرها أيّ شيء يتمّ التهامه ويتوقف بعدها عن الوجود في الظاهر.

تدخل خالته إلى الغرفة بخطوات واسعة، تضع يدها في شعر الصغير، وتفسد تسريحته، وتلتفت بغتة لتسير نحو النافذة الواطئة قرب الخزانة. الخادمات الجالسات إلى المائدة يرمقنها برهبة. تمضي إلى

النافذة لترى إذا كان بإمكانها أن تلمح أخاها. عندما لا تكون مشغولة بمهامها المنزلية أو المسؤوليات الملقاة على عاتقها في إدارة المزرعة التي أهملها شقيقها، وبمجرد أن تكون خالية الوفاض من أيّ همّ أو اهتمام، تصبح قلقة ونافدة الصبر لتراه. كعروس لم يمضِ على زواجها سوى وقت قليل تصبح ملازمة له كظله. كانت قد لاحظَت أن نضوجه قد أقعده، وجعله شخصاً عاجزاً تافهاً. تحب فيه ذلك الصبي الذي كانه قبل عشرين عاماً والذي لم يكن قد خُدش بعد. هذا هو الفتى الذي لا تزال إلى الآن وفية له.

الصبي الآخر، الذي يشرب شايه الآن، يراقبها. وجهه يكاد يلامس زجاج النافذة. يعلم أنها تنتظر خاله. لطالما رآها وهي تنتظره هكذا. يتسلل من خلف الطاولة ويخرج من الباب عبر غرفة المؤن في اتجاه الفناء. يبقى قريباً من جدار المنزل كي لا يراه أحد من داخل المطبخ، يزحف إلى أن يصبح تحت النافذة التي تقف خلفها خالته. يتوقف للحظة وهو مستثار قليلاً وعلى شفير إطلاق ضحكة مدوية لدى التفكير في المقلب الذي سيقوم به الآن.

ها هي تنتظر خالي، وفجأة بخ!! أظهر لها أنا.

يصعد على جرن الماء، وينتصب في وقفته ببطء ويضغط أنفه على زجاج النافذة. رأسه الآن على مستوى بطنها. للوهلة الأولى لا تتمكن من ملاحظته... عيناها لا تزالان مثبتتين على تلك البقعة التي تتوقع أن يظهر فيها أخوها. يتسنى للصبي الوقت ليحدق في وجهها من الأسفل بنظرة ثابتة. يراها بعد ذلك توجه عينيها إلى الأسفل... تراه. تتوسع حدقتاها فتشرق عيناها، تبتسم وبعد ذلك تضحك... بخ!!!

أرقام

وُضع لوح أسود في قاعة الدرس. لم تعد غرفة نسائية أو حجرة نوم لطفل. توجد الآن كتب مدرسية في خزانة الكتب، وخريطة للعالم بقعة كبيرة منها مطلية باللون الزهري لتشير إلى المنطقة التي تحتلها الإمبراطورية. عُلقت ساعة على الجدار. حقبة كاملة انتهت برحيل الآنسة هيلين، والصبي يدرك الآن أن هذا واقع لا يمكن إلغاؤه. تماماً كما لا يمكن إلغاء أنه ابن بلا أب. الفرق أن هذه الحقيقة الأخيرة كُشفت له على لسان الآخرين، بينما الحقيقة الأولى أخبرها هو بنفسه لنفسه.

– إذا رأيتك تنظر إلى الساعة مرة أخرى، سأمدد درس الرياضيات إلى فترة ما بعد الظهر.

– بعد الظهر سأذهب مع خالي لركوب الخيل.

– سأتحدث إلى خالك إذا لزم الأمر.

– لن يغير ما قد تقوله له شيئاً.

– ماذا؟

– سأذهب مع خالي ونركب الخيل.

– قف على حيلك.

ينهض المدرّس أيضاً ويمشي عبر الغرفة في اتجاه البيانو. تلك مشية طقسية، ومصطنعة في بطئها إلى أقصى حدّ، وذلك في محاولة ليجعل الصبي يدرك الغرض منها ويتكهن بمعناها. ينزع العصا المعلقة على الجدار فوق البيانو.

– ما هو عقاب قلة الأدب والوقاحة؟

– عصا على كل يد سيدي.

يمدّ يده ويوجه راحة يده نحو الأعلى.

بات يعرف الآن كيف يتعامل مع هذا العقاب. دائماً ما يحدق المدرّس بانتباه في وجه الصبي بعد أول ضربة وكأنه يبحث عن دليل. تصميم الصبي على التحكم بانطباعات وجهه يجب أن يعادل تماماً الألم الحارق الذي يشعر به في يديه. إذا بالغ في تقطيب حاجبيه والكزّ على أسنانه، قد يصبح خجلاً من تعابيره ومن وضعه، ويشعر بالتالي بالشفقة على نفسه، وعندها يبدأ بالبكاء. وفي حال قطب حاجبيه وكزّ على أسنانه أقلّ مما يجب، قد يتحول الألم الذي يشعر به في يديه إلى تعبير ينعكس من عينيه ويحتشد في حلقه بسرعة أكبر من قدرته على السيطرة على ملامحه. وهكذا فعليه أن يقدّر عند كل ضربة الشدة التي سيضرب بها المدرّس. يستطيع تخمين ذلك من خلال دراسة تنفس المدرس، ومن الطريقة التي يبلع فيها معدته من تحت صدريته. إذا كان تخمينه صحيحاً لا يظهر أيّ ردّ فعل، وهذا ما يجعل المدرس يتفرس في وجهه من دون جدوى، وهكذا بالكاد يعاني أيّ ألم من هذا العقاب الذي ينزل به.

يتلقى الصبي ضربة على يده اليسرى إذا استمر في ارتكاب الخطأ نفسه الذي كان الأستاذ قد نبهه إليه في اليوم السابق (أن يكتب الكلمة بحرف «أ» واحد وليس اثنين على سبيل المثال)، لقاء الخطأ الذي يتكرر أكثر من ثلاث مرات في اليوم نفسه، يتلقى ضربة على يده اليمنى: في حال العصيان والتصرف بقلة أدب (كما هو الحال اليوم) يتلقى ضربة على كل يد. في البداية فاجأته هذه التسعيرة الممنهجة للعقاب: لكنها لم تعد تبدو الآن عشوائية كما هو حال الوقت الذي تعلنه عقارب الساعة الضخمة المعلقة على الحائط. ساعة واحدة هنا قد تطول وكأنها أبد لا نهاية له، وساعتان في الخارج قد تنقضيان من دون أن يشعر بهما.

– لدينا ثلثان من شيء وثلاثة أسباع من الشيء نفسه، أيهما أكبر؟

ينظر الصبي إلى الخارج عبر النافذة ويرنو بنظره نحو غابة باسيت ويقدّر أن في السؤال خدعة.

يقول المدرس في نفسه إنه يحب وظيفته الجديدة، ولكن عليه الحذر من عناد الصبي كي لا يفسد عليه كل شيء.

في غرفة معيشة الطاهية توجد ساعة خشبية قديمة. دقات هذه الساعة لها تأثير منوّم على الصبي عندما يكون وحيداً في الغرفة. الوعد الذي تحمله بتفريخ أوقات لا نهاية لها يمنحه شعوراً بالسكينة، لكن الطريقة التي تملأ بها دقات الساعة هذه الأوقات، والتي تؤرخ انقضاءها، تثقل عليه. كان قد فكر في تهشيم نافذة الساعة المستديرة التي يستطيع من خلالها رؤية رأس النواس المستدق الذي يواصل تأرجحه ببطء من جانب إلى آخر بعد أن كفّ عن محاولة العد بعد مئتين أو ثلاث مئة عَدّة.

تأتي قطة الطاهية وتجلس على رجليه لتعزز التأثير المنوم. يحك لها أذنيها فتصدر صوتاً خفيضاً مليئاً بالرضا. حالة النشوة وشبه الإغفاء التي هو فيها الآن معلقة كأرجوحة بين فرعين من الوعي: لانهائية الوقت داخل جدران المنزل، والذي لم ينجح في تصور أن يأتي شيء وينجح في القضاء عليه (هو في السابعة والنصف الآن، ويعيش في المنزل منذ خمس سنوات)، والوجود غير المكترث والمستقل تماماً للحيوان الجالس في حضنه، ودفوءه الذي يتسلل إلى ردفيه ويغلف جدار معدته وأعلى ساقيه بسخونة لذيذة.

رجلان

يهبط في اتجاه المنزل في ساعة الغسق عبر الغابة القائمة فوق أشجار الزان الضخمة. ليلة خريفية. برك ماء متفرقة. سماء حمراء. دخان يتصاعد من المداخن. ضوضاء خشبية لخفق أجنحة الحمام وهي تحلق من أجمة إلى أخرى. برد ينبع من الأرض: يشعر به الآن عند مستوى الخصر. وجود كلب معه يبدّل إحساسه بالمسافة. الأشياء والأحداث تعترضه بوتيرة أقل. يوجد مساحة أكبر حوله. الكلب يدور حوله متوتراً وقلقاً من المجهول الذي قد يأتي، وقد لا يأتي، من الخلف على عكس ما يفعله كلب الرعي عادة وهو يجمع قطيع الماعز معاً. المجهول باقٍ دائماً. ما هو الشيء المستحيل الحدوث؟ جواب الطفل لنفسه هو: لا شيء. ما هو الشيء الممكن الحدوث؟ جواب البالغ لنفسه هو: لا شيء. هو طفل، ويمشي قاطعاً الغابة كطفل أيضاً.

على بعد عشرين ياردة منه يبدأ الكلب بالنباح. هل يقوم صيادو الحيوانات بالصيد الآن؟ مثلها مثل الكثير من الأشياء في هذه المرحلة من تعليمه، فكرة صيادي الحيوانات قد تحولت إلى لغز. يقول عنهم خاله إنهم مجرمون وقتلة، ويصفهم بأنهم بلا رحمة ولا شفقة ولا يألون جهداً ليفتكوا بأيّ شيء (صيادو الحيوانات بالنسبة إليه يجسدون الخطر نفسه الذي تشكله عوام ودهماء المدينة في عُرف أمبيرتو). لكنه عندما كان يستمع إلى عمال المزرعة وهم يتحدثون، وفي تفسير سريع لغمزاتهم ولمزاتهم وإيماءات أجسادهم وضحكاتهم، علم أن بعضاً من أصدقائهم كانوا صيادي حيوانات. قال رجل منهم: لو عضّ الجوع من يطلقون الأحكام الآن لكانوا... يسأل الصبي نفسه: هل كل صيادي الحيوانات جائعون؟ لكن فكرة أن تكون جائعاً لدرجة تدفعك إلى الصيد كانت الأكثر غموضاً بالنسبة إليه. الكلاب تنفض رؤوسها

وهي تأكل. في ضوء الغسق الخافت يرى إمكانية وجود رجال ينفضون رؤوسهم وهم يأكلون ليشبعوا نهمهم. يرفض أن يجري بسرعة أو أن يبطئ سيره. يعرف أن الخوف يكمن في داخله ويحمله معه كإبريق ممتلئ بما فيه. لكن يجب ألّا يراق شيء مما في داخله، ذلك أنه حينها سيصبح خارج السيطرة وسيفيض على كل ما حوله.

يتوقف الكلب عن النباح ويقف متحفزاً بلا حراك بأذنين منتصبتين ومخلب مستعد للدفاع عن صاحبه. يُسمع صوت لا لبس فيه لوقع أقدام شخصين ينتعلان جزمتين طويلتين تسحقان ما تجدانه في طريقهما على الأرض من أغصان، وأوراق أشجار، وجذور، تسجل الصوت بطريقتها الخاصة. رجلان يظهران أمامه. يرتدي كل منهما كيس خيش ملفوفاً على رأسه ومربوطاً حول خصره. قماش الكيسين داكن ورطب في بعض الأماكن. هما رجلان لم يسبق له أن رآهما. أحدهما يحمل زجاجة في يده. يا بني، صاح أحدهما، بينما قال له الآخر إن لا شيء يدعوه إلى الخوف منهما.

يقف ثابتاً بلا حراك كي لا يريق أيّ قطرة مما في إبريق خوفه. وجهاهما غليظان مربعان كتلك الوجوه المنقوشة على الزاويتين العلويتين لخزانة الملابس في الغرفة التي تنام فيها عاملات مصنع الألبان. يطلبان منه أن يأتي معهما. لن نؤذيك، يقول من يحمل الزجاجة بيده. يتحدثان إليه كما يتحدث الرجل البالغ إلى طفل. وفي هذا شيء أشعره بالأمان. ما اسمك؟ يسألانه، فيخبرهما. يتابعون المشي. لم يكن قد حدث شيء معه حتى الآن ليجعله مستعدّاً لهذه النزهة في الغابة بصحبة رجلين يرتديان كيسين من الخيش... هذا بالرغم من أنه لم يكن متأكداً كم هو استثنائي هذا الأمر في الواقع. هل سيتحول

هذا اللغز إلى حادثة سيفسرها له خاله أو مدرّسه؟ أم إنها حادثة تفوق فهمهما وقدرتهما على التفسير؟ إلى أين نحن ذاهبون؟ يسأل. يقول الرجل حامل الزجاجة: هناك شيء نريد أن نريك إياه. الظلام دامس ومن الصعب تمييز وجهي الرجلين.

- توقف. انتظر.

يمضي أحد الرجلين مبتعداً ويعود ومعه مصباح منطفئ يشبه المصابيح الموضوعة في العربات. الرجل الذي يحمل الزجاجة يصب قليلاً مما في جوفها في المصباح. يشم الصبي رائحة البارافين. يضيء المصباح ويواصلون بعد ذلك المشي. يختفي الكلب وهو ينشج في الظلام بعيداً عن الثلاثة. لا ينبس أيّ منهم ببنت شفة. الضوء الصادر من المصباح المتأرجح يبدو وكأنه يلقي بظلال تتحول إلى أشكال ترتسم في السماء.

الرجل الذي في المقدمة يتوقف ويرفع المصباح فوق رأسه. ما الذي تراه الآن؟ يحدق في الظلام فيرى ثلاثة أغصان مقطوعة من شجرة ومرمية في عرض الطريق. لكن شكل هذه الأغصان مألوف تماماً له وهذا ما دبّ الرعب في قلبه... لقد تبيّن ما الذي ينظر إليه. تلك سيقان خيل. تتحرك يد الرجل قليلاً فتلتقط حدوة الحصان الضوء كمسمار مغروس في غصن. سيقان الخيل جامدة بلا حراك.

- ما الذي تراه؟
- حصان ملقى على الأرض.
- حصان واحد فقط؟ يسأل الرجل صاحب الزجاجة الذي كان صوته يبدو دائماً أكثر رقة من صوت رفيقه.
- لا أعرف.

- تعال. يقول الرجل الآخر، ما الذي أوقفك؟ يصعد على كومة كانت هناك وهو ما يزال يرفع المصباح عالياً. يرى أمامه حصانين، كل منهما ملقى على جانبه. حصانا عربة ضخمان. جسداهما في وضع مشوّه ملتوٍ وكأنهما سقطا على ركبهما، وكسرا سيقانهما ومن ثم انقلبا على جنبيهما. الصوت الوحيد المسموع في هذه الآونة هو صوت الكلب الذي يتشمم فم أحد الحصانين.

- هل هما ميتان؟ يسأل الصبي. فيقول الرجل الذي يحمل الزجاجة، ذاك الذي صوته أكثر رقة من صديقه:

- انتظر! ما قصدك؟ يحتجّ الرجل الذي يحمل المصباح. لطالما كنت أحمق، يقول الآخر ويلتفت إلى الصبي:

- انظر إليّ يا بني، سأقوم بقتلهما الآن. كما ترى هما لا يستطيعان الوقوف وعاجزان عن الحراك. ولهذا سأقتلهما لأخلصهما من عذابهما.

يخفض الرجل الواقف على الكومة المصباح. يقول للصبي: من الأفضل أن تراقبه إذا قال ذلك. يمشي الرجل ويقف فوق رأس الحصان الأول وينحني ويوجه إليه ضربة قوية. لا يتمكن الصبي من رؤية الشيء الذي ضربه به. يكرر الفعل نفسه مع الحصان الثاني. لا تتحرك ولا ذرة من جسد الحصانين من تأثير الضربة التي تلقاها كل منهما، كما أتيح للصبي أن يرى في ضوء المصباح الضعيف. يستوي الرجل في وقفته وهو لا يحمل شيئاً في يديه. ها قد قتلتهما... رأيتني وأنا أقتلهما، أليس كذلك؟

يعرف الصبي أنه يكذب: نعم لقد رأيت ذلك. يقترب الرجل منه وملامح الرضا تعلو وجهه؛ ويربّت برفق على كتفه. كانت يده مسربلة بالدماء وتفوح منها رائحة بارافين لاذعة. رأيت ذلك إذن، يقول.

- أجل رأيت ذلك، يردّ الصبي، لقد رأيت كيف قتلت الحصانين. يدرك في تلك اللحظة أنه هو، الصبي الصغير، من يتحدث إلى ذلك الرجل وكأنه طفل. لقد قتلتهما شرّ قتل، يسمع نفسه يكرر ذلك مرة أخرى.

- سنعيدك معنا الآن. يقول الرجل، وإذا ما سألك أحدهم عما حدث أخبرهم بما رأيتني أفعله منذ قليل. سننير لك درب العودة بالمصباح.

يسأل الصبي: أيمكنني أن أذهب الآن؟
- سنعيدك نحن يا بنيٍ.
- أعرف طريقي جيداً، يقول الصبي، حتى في عزّ الليل.

ما من رعب قد يخبئه طريق العودة يمكن أن يضاهي شعور الاشمئزاز الذي يشعر به تجاه الرجل الذي يقف أمامه في هذه اللحظة: اشمئزاز يصل إلى درجة الغثيان. بعد دقيقة من ذلك تجبره رائحة البارافين على التقيؤ.

- أيمكنني الذهاب؟
- إياك أن تنسى ما رأيتني أفعله اليوم.

وميض المصباح لا يزال يلوح في البعيد. لا تزال رائحة البارافين حاضرة لكن في خياله وحسب الآن. يتلمس طريقه بين الأشجار.

يتغلب على خوفه... خوفه على نفسه وخوفه من المجهول في آن معاً (فالخوفان مختلفان عن بعضهما). لا يتغلب عليه باللجوء إلى قوّة الإرادة أو عبر استجماع شجاعته - فكم من مرة نجح الإنسان في التغلب على خوفه عبر لجوئه إلى هذه الفضائل المثالية؟ بل من

خلال شعور آخر أكثر قوة... إنه الاشمئزاز. يفوق قدرتي، أنا كاتب هذه الكلمات، أن أطلق تسمية محددة على شعور الاشمئزاز هذا... كل الأسماء التي تمكنت من استنباطها بسيطة سطحية لا توفي الشعور حقه ولا تعبر عن تعقيداته. ليس للأمر علاقة بذبح الحصانين أو منظر الدماء. ذلك اشمئزاز يشعر به البالغون والأطفال، لكنه شعور سرعان ما يختفي ولا يعود مرة ثانية في ما لو تجاهله المرء بصورة منتظمة. أما بالنسبة إليه فهو شعور كان سيبقى دائماً أكثر قوة من أيّ مخاوف يشعر بها، ذلك أنه لم يتجاهله أبداً.

يبزغ من قلب الغابة فوق المنحدر المطل على بيت المزرعة. ولأن هذا الجرف شديد الانحدار يصعب حرثه، فقد تُرك بدون زراعة ليصبح نهباً للسراخس والأشواك. وما إن تطأ قدمه أعلى الجرف في الظلام حتى تعلق قدمه في كتلة من السرخس ويسقط إلى الأمام. من دون أن يصاب بأيّ أذى يبدأ بالتدحرج من أعلى الجرف. ليس من الصعب عليه أن يوقف نفسه، ليس عليه سوى أن يمسك ببعض الجذور الناتئة من الأرض. لكن لا رغبة لديه في ذلك. سيكمل التدحرج إلى أن يصل إلى قاع الجرف. في كل مرة تأتي قدماه فوق رأسه يشعر للحظة بأن جانب التلة منبسط خالٍ من أيّ شيء وبأن أضواء نوافذ بيت المزرعة في الأسفل تصبح أكبر حجماً بشكل غامض في الأفق البعيد. وفي كل مرة يرتفع رأسه عن الأرض يشعر بأنه يسقط من السماء. الكلب، الذي يعدو خلفه، يبدأ بالنباح بانفعال وأنفه يواجه الأرض. مع كل قلبة يشعر وكأن باباً يُفتح ويغلق. فراغ إغلاق سماء، إغلاق فراغ سماء، ورائحة سرخس رطبة على جانبي الباب. اصطدام، إغلاق، اصطدام، إغلاق. وبعدها أرض مستوية. ومن ثم صوت تدفق المياه من الخرطوم في معمل الألبان.

بعد تلك الحادثة الغريبة في الغابة في تلك الليلة الخريفية، كثيراً ما كان يصعد إلى الجرف القريب في الغابة ويلقي بنفسه بمحض إرادته ليتدحرج رأساً على عقب من أعلى الجرف الذي تنهشه السراخس والأشواك.

تراه الطاهية يفعل ذلك في إحدى الأمسيات.
تقول له: ستكسر عنقك يوماً ما.
- عنقي لن ينكسر، لا تخافي. يجيبها.

السقطة

كان ينظر إلى الغصن وكأنه قد نبت في تلك اللحظة ليطيح به من على صهوة مُهره. كل التبريرات المنطقية، كل تفكير في توفر الوقت له ليتمكن من تفادي تلك السقطة، سقطت في اللحظة التي أصبح فيها واضحاً له أن الغصن كان مقدراً له أن يطيح به عن صهوة مُهره.

لا يُقاس الوقت بالأرقام المنقوشة على واجهة الساعة، بل بتحول الاحتمالات المستبعدة إلى واقع. بدون هذه الاحتمالات، في مواجهة الغصن الرابض فوق أذني المهر المنطلق بسرعة، يخضع الزمن إلى تغييرات خارقة للعادة. تباطؤ الزمن في هذه الحالة أمر لا يمكن تصوره.

طريح الفراش في كوخ مزارع فقير يجد الطفل نفسه هادئاً ومستكيناً ومنتظراً أن يستوي الوقت في سيره ويعود إلى سرعته الطبيعية. وعندها فقط قد يسمح لنفسه بأن يئنّ قليلاً.

المزارع العجوز يتجوّل في أرجاء الغرفة. يبدو المنزل كمرحاض خارجي في وسطه سرير. في المنزل توجد نافذة يكتنفها من الخارج الكثير من الأوراق الخضر، وعلى عتبتها توجد شمعة. السرير الذي يستلقي عليه مغطى بخرق وأسمال بالية وغطاء من ذاك الذي يوضع على ظهر الحصان، وله رائحة الثياب القذرة الرطبة.

العجوز يشعل النار تحت إبريق متفحّم. سقف الغرفة ملطخ ببقع بنية، الجبس قد تساقط في بعض زواياه حتى بانت العوارض الخشبية. اللون البني الذي يلطخ السقف أشبه بلون الشاي. الرجل العجوز يتحرك ببطء ومشقة. يعتقد الصبي أنه كان قد سمع خاله يتحدث عن هذا العجوز من قبل، ويذكر أنه قال عنه إنه سيموت وهو يعمل.

يشعر بأن فمه متورّم. يتحسس بلسانه، وبكل حذر، الفجوات التي تركتها أضراسه التي اقتلعت من مكانها من شدة الضربة. (النظرة الخبيثة التي ستعرف عنه لاحقاً قد ولدت الآن). يشعر بالألم في صدره مع كل نفس يدخل ويخرج إليه وكأن العجوز ينفث النار على ركبتيه.

يبادر بسؤال العجوز: من أنت؟

يقترب العجوز من السرير ويجلس على طرفه. في الوقت الذي ينتهي فيه هذا الوقت الأسير، قد يصبح الصبي هرماً كالعجوز نفسه.

لا أدري ما الذي يقوله العجوز له.
لا أدري بماذا يرد عليه الصبي.
الادعاء بأنني أعلم ماذا قالا لبعضهما سيكون بمثابة خديعة.

في هذه الأثناء يواجه النضج إعاقة كبيرة... التقدم والتداعيات بطيئة يصبح معها الإصرار على عدم الصياح منيعاً صامداً. يمكن لهذا أن يستمر لساعات طويلة.

أصابه غصن الشجرة في صدره ووجهه. قد يكون الأمر بدا كذلك في لحظة الصدمة. الضربة شديدة جدّاً لدرجة تصبح معها ذاته بمنأى عن الشعور بالارتباط بأيّ شيء حوله. الحالة هذه مختلفة عن فقدان الوعي. كان واعياً، لكن فجأة أصبح جسده وحواسه وذكرياته المكتسبة فضاءً فسيحاً بإمكانه أن يتجول فيه من دون قلق حيال قدرته على التحرك. بعيداً عن مكانه في هذا الفضاء الفسيح رأى كتلة ضخمة مكونة من أسطح صخرية وماء. كان يدنو من تلك الكتلة بسرعة. وما إن لمس ظهره صهوة الخيل حتى أصبح في داخلها. كان يستلقي في وضع عمودي في ثغرة من مادة شبيهة بالغيوم بمجرد أن أصبحت قدماه تركل الرياح فوق كاهلي الحصان. عندما اصطدم بالأرض، سحبت الستارة عن حقول كاملة ظهرت من خلفها سماء زرقاء لا أرض ولا شيء تحتها إلا هو ليفقد الوعي بعد ذلك.

شجاعته وهو طريح الفراش بعد أن استعاد وعيه تنبع من قراره المبدئي أول ما رأى الغصن بأنه لن يصرخ ولن يبكي. كان هذا قبل ساعة من الآن وقبل أن يعثر عليه العجوز. وهو في السرير لا يزال في مرحلة اتخاذ القرار. مع مرور الوقت الذي يعيشه الآن، يعلم أنه ليس الثبات على قراره هو ما يتطلب شجاعة، بل على العكس، ذلك أن عملية اتخاذ القرار تلك ما كانت لتصل إلى نهاية.

(بغية كسر وتحطيم امتياز عيش الوقت الذي ابتكره الجسد ليحمي نفسه، يستبدل المعذبون هذا العذاب بالراحة).

كل ما تكتبه مخطط له. أنت أكثر الكتّاب تخطيطاً. الأمر بالنسبة إليك أشبه بنص نظرية وبرهانها.

- لكن هذا لا يتعدى نقطة معينة.

- أي نقطة؟

- النقطة التي تُرفع فيها الستائر.

- عد إلى الصبي.

- من قال ذلك؟

- العجوز.

- ما الذي يشعر به الصبي الآن؟

- اسأل العجوز.

- انظر إليه، يقول الرجل العجوز، الوغد المسكين. لم تند عنه ولو صرخة واحدة.

البيت هو العائق الأخير الذي يقف في وجه التداعيات. لهذا يطلب الإنسان المحتضر أن يموت في بيته.

الصبي لا يُحتضر. لن يموت الآن.

لكنه في بيت في هذه اللحظة، يستلقي على سرير لأغطيته رائحة الثياب الرطبة المتسخة.

في الوقت الذي توقف فيه سقوطه وألمه، وجد له بيتاً.

كان الرجل العجوز هناك أمامه عندما خرج من تلك الحالة التي كان فيها.

التقيا معاً كشخصين متكافئين. لا قوانين ولا أحكام تحكم لقاءهما... تقابلا رأساً لرأس.

لكن عندما بدأ إحساس الصبي بالوقت يعود إلى وضعه الطبيعي، عاد يافعاً مرة أخرى.

- كانت سقطة قاسية تلك التي تعرضت لها يا سيدي. لا ترهق نفسك. ابقَ مستلقياً ولا تتحرك. سيأتي خالك بالعربة عما قريب ليأخذك إلى المنزل.

- لا أريد أن أتزحزح من مكاني.

- لا يمكنك البقاء هنا، ألا تظن ذلك؟

- لِمَ لا؟ ملك من هذا؟

- ملك من ماذا؟

- ملك من هذا السرير الذي أستلقي عليه؟

- ملكي يا سيدي. لقد عثرت عليك عند حافة وعر هوكس راف، وحملتك معي ووضعتك في السرير.

- منزل من هذا؟

سيطل من نوافذ أكـواخ عمال آخرين، وسيتسلق نافذة غرفة حلابات البقر. وسيجرّب ارتداء مراويلهن. سينتعل جزمة توم الجلدية التي ستصل بالتأكيد إلى أعلى فخذه... ليكون شخصاً آخر.

- لا ترهق نفسك. سأهتم أنا بالنار وأبقيها مشتعلة. يجب أن نبقيك دافئاً، أليس كذلك؟

- ماذا فعلت لي أيضاً؟

- أزلت الدماء عن جسدك ووضعتك في السرير.

- هل أصبتُ بجروح بالغة؟

- كلها جروح ستشفى من تلقاء نفسها مع الزمن.

- أشعر بالألم عندما أتكلم.

- لا ترهق نفسك.

- ابقَ بقربي.

يسمع صوت العربة ووقع خطوات خاله في مدخل البيت. يبدو العجوز بقرب خاله ضئيلاً قصيراً كقزم. ينظر جوسلين إلى الصبي ويتحدث إليه برقة وهو يبتسم. بالنسبة إلى جوسلين هذا شكل من أشكال استهلال وصايته على من تعهد بالعناية به. ها هي الستارة تُرفع لتظهر حياته من خلفها.

يتبادل بعض الكلمات مع العجوز وينقده شلنين. يراقب الصبي النقود وهي تنتقل من يد إلى أخرى، والعجوز وهو يضع يده على رأسه بشكل متواصل تعبيراً عن امتنانه.

يرفع خاله البطانية ويتركها تسقط على الأرض ويحمل الصبي بين يديه. الألم في صدره شديد لدرجة جعلته يصرخ ويفقد وعيه بعد ذلك.

خاله يهمس في أذنه بحنان ليهدئه، ويصالحه.

- لديك بنية قوية وكأنك مصارع يا بني.

أثناء خروجه من الباب وهو يحمل الصبي يبدأ يصفر بصوت خافت ونبرة هادئة مسكنة وكأنه سائس خيل يروّض حصاناً.

التاريخ كله تاريخ معاصر، ليس بالمعنى المألوف للكلمة، حيث يشير التاريخ المعاصر إلى سجل الأحداث التي وقعت في الماضي القريب نسبيّاً، بل بالمعنى الدقيق للكلمة، والذي يتجسد في وعي المرء بالفعل وتمثّله في وقت وقوعه فعليّاً. في هذا السياق يصبح التاريخ هو الإدراك الذاتي للعقل الحي. ذلك أنه حتى عندما يقوم المؤرخ بدراسة الأحداث التي وقعت في الماضي البعيد، فإن شرط أن تكون هذه الأحداث معروفة تاريخيّاً هو وجوب أن تحيا في ذهن المؤرخ وكأنها حدثت أمامه.

-٣-

في ساحة سان ميكيلي عند الواجهة البحرية في ليفورنو يوجد تمثال لفيرديناند الأول. على كل زاوية من زوايا القاعدة التي ينتصب عليها الدوق ترى مجسّماً من البرونز لعبد إفريقي عارٍ ومقيد بالسلاسل. لهذا السبب غالباً ما يشار إلى هذا التمثال بـ«I Quattro Mori» (المورسكيون الأربعة). وعلى قاعدة التمثال يوجد نقش كُتب بالإيطالية نقرأ في الجزء الأخير منه العبارة التالية:

«... أُقيم في العام ١٦١٧ بعد وفاة فيرديناند الأول. بعد ذلك (بين ١٦٢٣ و١٦٢٦) قام بيترو توكا بإضافة مجسماته البديعة المصممة على هيئة عبيد حقيقيين انتقاهم من سجن المدينة.»

ثلاثة أحاديث عن والده حدثت على مرّ السنين

- لماذا ليس عندي أب مثل باقي الأطفال؟
- والدك ميت.
- ميت؟
- إي نعم.
- هو راقد الآن في المقبرة؟
- الأشخاص الصالحوْن يذهبون إلى الجنة عندما يفارقون الحياة.
- أكان والدي شخصاً صالحاً؟

– أنا واثقة من أنه كان كذلك.

– طوال حياته؟

– لم نكن على معرفة به. ولا أعتقد أن خالك أو خالتك كانا على معرفة به أيضاً.

– لكن ماما...

– التقت به أمك في إيطاليا على ما أعتقد.

– ما الذي كان يفعله في إيطاليا؟

– كان لديه عمل ما له علاقة بالسفن.

– هل كان إنجليزيّاً؟

– أعتقد أنه كان إيطاليّاً.

– بماذا كانت تناديه ماما؟

– أنه الآن حساءك ويكفي أسئلة سخيفة.

– هلَ دهسه قطار؟

– من؟

– والدي، هل هكذا مات؟

– لا أعلم.

– ألم تتمكن ماما من إنقاذه؟

– أنه حساءك.

– أناَ ميت أيضاً... ها ها ها... ميت ميت ميت.

– هيا أنهِ...

***

– لماذا لا يحدثني أحد عن والدي؟ في كل مرة أسأل عنه، تغيرون الموضوع.

– لم يسبق لي أن التقيت به، ولا خالك أيضاً. عليك أن تسأل والدتك.

- أنت تدعين فقط أنك لا تعرفينه. أرجوكِ قولي لي من كان والدي؟
- كان تاجراً من ليفورنو في إيطاليا.
- أكان إيطاليّاً؟
- أجل، تاجراً إيطاليّاً.
- هل تزوجا هو وماما قبل وفاته بوقت طويل؟
- بل بوقت قصيرٍ جدّاً.
- وهل توفي فعلاً في حادث قطار؟
- من قال لك ذلك؟
- هذا ما أخبرتني به الطاهية.
- لا علم لي بذلك.
- أكان عجوزاً جدّاً عندما فارق الحياة؟
- كان أكبر بكثير من والدتك.
- هل فيّ شبه منه؟
- كما قلت لك، لم يسبق لي أن رأيته.
- خمّني على الأقل.
- ربما أخذت لون عينيك الداكنتين منه. فأنت بالتأكيد لم ترثهما عن والدتك.

***

- أترغب في الذهاب إلى إيطاليا؟
- متى؟
- الأسبوع القادم، سنذهب أنا وأنت إلى ميلانو.
- هل ميلانو قريبة من ليفورنو؟
- بل تفصل بينهما مسافة بعيدة.

– أتمنى أن أزور قبر والدي في ليفورنو.
– ومن قال لك إن له قبراً هناك؟
– لا أحد. كل الموتى لهم قبور يرقدون فيها.
– ما قولك إن علمت أن والدك ما زال حيّاً؟
– هذا غير ممكن.
– افترض أنني قلت لك إنه حيّ يرزق؟
– أنتِ قلتِ لي إنه فارق الحياة.
– كانَ هذا خطأ فظيعاً. اعتقدنا أنه فارق الحياة.
– لكن لماذا لم يكن لديكِ أمل بأنه حيّ؟
– كان هذا خطأ فظيعاً.
– أتقصدين أنه حيّ؟
– نعم.
– القطار لم يدهسه؟
– ألا تريد أن تزوره؟ أنا وأنت معاً.
– أنا وأنتِ؟ إذا كان لا يزال حيّاً، فالأجدر بي أن أسألكِ إذا ما كنتِ أنتِ ترغبين في رؤيته.
– لا تتصرف بوقاحة.

***

يحملهما القطار إلى باريس، يقضيان يومين هناك بصحبة بعض الأصدقاء ومن ثم يتابعان الرحلة إلى ميلانو لتكون تلك هي الفترة الأطول التي يقضيها الصبي مع والدته منذ أن كان رضيعاً. لا تشبه أيّ شخص يعرفه: بالرغم من أنه لا يتذكر متى كانت آخر مرة عرف فيها شيئاً عنها. هي غريبة عنه ومألوفة له في آنٍ معاً. معها ينتابه إحساس بأنه يلعب دوراً في قصة تدور حول حياة قد يكونُ عاشها من قبل. كل شيء فيها يوحي بعكسه.

تحدثت إليه مطولاً، لكن ليس بالطريقة التي يتحدث فيها المرء إلى طفل (منذ اللحظة التي تخلت فيها عنه لقريبيها رغبت في أن تفكر فيه كشخص بالغ، كإنسان تشكلت شخصيته، وذلك ليحل شعور الفخر به محل شعور الذنب تجاهه. وبما أنه قد أكمل إحدى عشرة سنة الآن، فهي تنظر إليه بفخر كرجل مكتمل... رجل تلجأ إليه طلباً للدعم والغفران، رجل تنظر إليه، في الكثير من الجوانب، كأب لها). تحدثه عن الاشتراكية، وأهمية التعليم، ومستقبل المرأة... تناقشه في مواضيع الفن - سيشاهدان معاً لوحة العشاء الأخير لليوناردو دا فنشي في ميلانو - وتخبره عن صديقتها بيرتا نيوكمب المغرمة ببرنارد شو، وشعوب أوروبا المختلفة وصفات كل شعب منهم.

بعض الأمور التي تحدّثه عنها عصية على فهمه. لكنها تبدو له وكأنها تعبر أمامه كتلك الصور التي تُرى من نافذة القطار... بعيدة، متداخلة، ولا شكل لها تقريباً. الأمر نفسه ينطبق على صوتها الذي لم يكن حتى الآن قد سمع صوتاً يشبهه (لم تغير عادتها في الحديث بإسهاب من دون توقف)، ولكنه لا يبدو وكأنه ينتمي إليها. عندما يعود إلى مقصورة القطار بعد أن كان قد تجول قليلاً في رواقه، تنتابه نصف دهشة لدى اكتشافه أن والدته لا تزال هناك في انتظاره. كان قد توقّع نصف توقُّع بأنها ستكون قد اختفت لدى عودته. عندما تغفو، يضغط بيده على ذراعها، يضغط بشدة حتى يشعر بصلابتها. تلك الصلابة تزرع الحيرة في نفسه وكأنه بقرب انعكاس صورة تتحرك بمحض إرادتها في مرآة.

لها صفات معينة تجعلها تبرز بين الجميع في أحلامه وأفكاره. صِغر يديها الممتلئتين. خفة لمستهما المثيرة للدهشة. الطريقة التي

تفتح فيها عينيها العسليتين على اتساعهما (مثل العينين الخزفيتين لدمية). صدرها الكبير وقوامها المربع (الشبيه بكيس حريري مكتنز بما فيه)، الحزم الذي تلفظ به كلمات مثل: صحيح، مثالي، معيب. عطرها، الشبيه برائحة اللبلاب، والذي يغطي، بخفة كالحرير، رائحة أخرى لا اسم لها (بالنسبة إليه) لكنها أكثر قدماً. إلا أن هذه الصفات لا تخلق شخصاً في ذهنه: بل تذكره بأنه قد صادف أن تكون أمه شخصاً يحمل هذه الصفات.

عندما يرى امرأة من نافذة القطار أو العربة، ولسبب أو لآخر تسترعي انتباهه - وهذا نادر الحدوث بالمناسبة - ويكون لديه الوقت الكافي ليراقبها، يلعب لعبة يتخيلها فيها أمّاً له. هذه اللعبة مستحيلة في حال كانت المرأة داخل العربة ومن الممكن أن تتحدث إليه أو إلى لورا: يجب أن تكون غريبة، وأن تبقى غريبة. أولى النساء اللواتي يسترعين انتباهه هي تلك المرأة صاحبة الخصر المستدق التي ترتدي الساتان الأزرق، وترتعش عندما تضحك وتصرخ، يسأل نفسه، كيف سيكون الحال لو كانت هذه المرأة أمي؟ وماذا عن تلك المرأة السمينة التي تحمل معها الكثير من الأكياس وتبدو سمينة جدّاً إلى درجة تمنعها من الصعود إلى القطار؟ أو تلك الجالسة في العربة مزدانة بريش النعام وترتدي سروالاً ضيقاً تحت تنورة بشق على الجانب؟ لا يقارن تلك النساء بالمرأة الجالسة إلى جانبه. لو أن اللعبة كانت قائمة على تفضيل واحدة على الأخرى، أو تقرير أيّ منهن يريدها أمّاً له دون سواها، لكانت قتلت في مهدها، وعلاوة على ذلك، في حال لم يكن حكمه في صالح لورا، فهو بذلك يؤكد تعاسته. الأمهات الخياليات اللواتي يراهن عبر النافذة مرشحات ليملأن الفراغ الذي يتركه غياب لورا. اللعبة تتلخص في محاولته تخيّل أن له أمّاً دائماً. هذه المرة الأولى التي

يلعب فيها هذه اللعبة. حضور لورا هو ما أيقظ الإحساس بغيابها الذي لا تبدأ اللعبة إلا بوجوده.

مضى أكثر من إحدى عشرة سنة على آخر لقاء جمع بين لورا وأمبيرتو بوجود ابنهما الذي يرتدي سروالاً منتفخاً عند فخذيه وقبعة على رأسه ليذكرهما كم يمكن أن تكون طويلة فترة الإحدى عشرة سنة.

على رصيف محطة للسكك الحديدية في ميلانو يرى الابن أباه لأول مرة، ويرى الأب ابنه لأول مرة، ويرى العاشق عشيقته السابقة وهي أم لابنه، وترى الأم عشيقها السابق وهو أب لابنها. على رصيف محطة تحت سقف زجاجي مرتفع يجتمع ثلاثتهم معاً كعائلة... عائلة سعيدة ومثار حسد من يراها. لا يتبادل الأم والأب القبلات، لكن الأم تدفع ابنها (الذي أصبح بطولها الآن) ليحتضن والده. لساعة أو نحوها يبدو كل واحد منهم ضخماً، وعصيّاً على التصديق، وخيالاً عملاقاً للاثنين الآخرين- وكأنهم وجوه رسمت على طائرة ورقية.

تفصّل لورا لنفسها حجم التغيير الذي تعرض له أمبيرتو. قد أصبح أشبه برسم كاريكاتوري لرأسمالي نموذجي. ما كان أصدقاؤها في الجمعية الفابيانية ليصدقوا في الغالب أنه والد ابنها. لا بدّ وأنه قد استغلك، كانوا سيقولون لها، واستغل سذاجتك وطيبة قلبك. قد أصبح أكثر ثقلاً وغباءً من ذي قبل. ترى في وجهه التعنت والغباء اللذين كانت تقرؤهما في رسائله. أصبحت بشرته أشد قتامة وغلظة من ذي قبل. تحت عينيه يوجد انتفاخان هائلان. قارنته بابنها. من الأسهل عليها، كانت قد قررت ذلك مسبقاً، أن تتحدث بذكاء وعفوية إلى ابنها من أن تتحدث كذلك إلى أمبيرتو. هو الآن أشبه بطفل كبير

غني وبدين. يبدو وكأنه مفكك مشوش: عيناه قد أصبحتا دامعتين، ويداه الهائلتان البدينتان تضربان وتتشنجان، ويستمر في تكرار العبارة ذاتها مثل: طوال حياتي! طوال حياتي!

بالكاد يلاحظ أمبيرتو كيف أصبحت لورا عديمة الشكل، وكيف تشد قبضتي يديها الصغيرتين وهي تمشي، وكيف اكتسبت عادة التكشير بابتسامة ساخرة تكشف عن أسنانها عندما تكون نافدة الصبر. كل ما سبق هو تفاصيل لا أهمية لها بالمقارنة مع التغير الكبير الذي كان ينتظره: هي الآن أم طفله الذي لم يعد طفلاً. لا يرى أحداً أمامه إلا الصبي.

يضج الفندق بشائعات تقول إن إيطاليا مقبلة على ثورة، ويقول البعض إن تبادل إطلاق النار قد بدأ فعلاً في ضواحي المدينة الصناعية.

أثاث الفندق الجلدي الأحمر، وحدائق النباتات الشتوية، والمصاعد ذات الأقفاص التي تتحرك صعوداً ونزولاً، والخادمات المضطهدات بزيّهن الأبيض... كل هذا يبدو فجأة ومن دون مقدمات سخيفاً لأمبيرتو. ولعه المتأصل بالفنادق الفخمة يتحول في لحظة واحدة إلى شعور بالاشمئزاز. يتمنى أن يحمل ابنه ويأخذه معه إلى منزله. في فنادق كهذه تصبح الحميمية (بخلاف الحميمية الجنسية) مستحيلة. خدم الفندق ينقلون الرسائل من نزيل إلى آخر. ليس لديه شيء خاص يستطيع أن يقدمه لابنه هنا. الاحترام مغمور ومزيف في أمكنة كهذه. يبدو له أن من كانت عشيقته يوماً ما ومن ولد ليكون ابنه اليوم يختبئان منه خلف عدد لا حصر له من الأبواب، ينتابه إحساس بأن كل من في الفندق مجبر على ارتداء قناع. وهكذا لبضع ساعات، وعلى الرغم من

كراهيته لكل ما يمت لكلمة ثورة بصلة، يجلس مستمعاً إلى الشائعات بنوع من التلهف، ذلك أنه يدرك الآن، كونه قد عثر على ابنه، ألّا شيء على الإطلاق سيعود كما كان بالنسبة إليه. خوفه من التغيير القسري تخف حدته مؤقتاً. يرى عيون النزلاء الآخرين تنضح بالتوجس والتوتر ويدرك الفرق بينه وبينهم في هذه اللحظة... هم بحاجة إلى أقنعتهم أما هو فلا. يشعر لبضع ساعات بتطابق مشكوك فيه بين عنف مشاعره، التي لا يستطيع أن يمنحها تعبيراً لائقاً في هذا الفندق، والعنف الذي تهدد بنشره الجماهير المحتشدة في الضواحي الشمالية.

وهو يشرح الوضع السياسي لمن كانت عشيقته في ما مضى، يفعل ذلك بحدة غريبة عليه. يتحدث عن شيخوخة كرسبي[١]، وأهمية روديني[٢] «الجنتلمان»، وعبقرية جوليتّي[٣]. يقول لها: هناك خياران فقط، إما جوليتّي وإما الفوضويون! إما التقدم أو الفوضى! قد نكون بحاجة أيضاً إلى قليل من الثورة لتقوية قبضة جوليتّي. يرفع يده الضخمة ويفتحها على اتساعها قبالة وجه لورا. تتذكر بصورة ضبابية (ذلك أنه لم يكن هناك أيّ ارتباطات عاطفية) أنها اعتادت أن تفكر فيه كلص وقاطع طريق. تشعر بأن الدوافع التي جعلتها تأتي لرؤيته تحظى بالمزيد من التأييد بحكم سلوكه والأحداث التي يصفها. هي أيضاً قد أتت لتطالب بحقها من ثروته، ليس من أجلها، بل من أجل ابنها. كلمة العدالة، تتردد بصمت في نفسها... تتردد بنغمة مميزة يشعر بها ابنها.

١- فرانشيسكو كرسبي، سياسي إيطالي، تولى رئاسة الحكومة في إيطاليا مرتين.

٢- أنطونيو روديني، رئيس وزراء إيطاليا بين ١٨٩١ و١٨٩٢، ومن ١٨٩٦ إلى ١٨٩٨.

٣- جيوفاني جوليتّي، سياسي إيطالي، تولى رئاسة الحكومة في إيطاليا أكثر من مرة.

- لماذا ليس لدى حكومتك المصونة خطة لحل مشكلة الفقر؟ الناس في كل أنحاء العالم...

- مشكلة الفقر! يقاطعها أمبيرتو، مكرراً الكلمات بصوت مرتفع وهو يضحك. في بلدنا الفقر ليس مشكلة، بل هو شكل من أشكال الحياة. هناك طريقة واحدة يمكن للمرء فيها أن يكون غنيّاً، لكن توجد ألف طريقة وطريقة ليكون فقيراً.

- وانظر ما الذي يحدث الآن! انفجرت لورا غاضبة.

كلاهما ينظر إلى ولده باستمرار وكأنه يستجدي مؤازرته. الوالد ينظر إليه ليمنحه الحماية، والأم تنظر إليه طلباً للحماية. يشعر الصبي بأن ثلاثتهم قد التقوا بعد فوات الأوان... هو لم يعد ذلك الطفل الذي يتقبل ما يرغب كل واحد منهما في إعطائه إياه، وما كان في الماضي قد يسعده. إذا ما نظرنا إلى تاريخ حياته حتى الآن، يمكننا القول إنه أكبر منهما: بالمقارنة مع تاريخ حياته فإن سذاجتهما تجعلهما طفلين أمامه.

وهو يراقب والديه، يعود مراراً وتكراراً إلى السؤال نفسه: كيف كان شكل أمه قبل أن تصبح عديمة الشكل ويصبح والده مفرط السمنة هكذا؟ ما الذي جعلها، هي التي ترفضه في كل كلمة تلفظها، وفي كل إيماءة تبدر عنها، أن تتقبله في الماضي؟ ما هي تلك القوة التي جردتها من أسلحتها في ذلك الحين؟ أم إنها سلمت أسلحتها بمحض إرادتها؟ لا يجد جواباً عن هذا السؤال.

يتحدثون في هذه الأثناء عن بدائل الثورة.

بحلول المساء تتجمع الغيوم في سماء المدينة. الضوء الرصاصي يجعل الكاتدرائية تبدو شبيهة بشظية هائلة الحجم. والقنوات المائية

في الضواحي تبدو وكأنها تصطبغ باللون الأسود. الفضاءات المفتوحة خالية وكأن المدينة كلها وضعت داخل صندوق.

تُعرف ميلانو بالعنف الذي تطبعها به عواصفها الرعدية المدوية، وخلال اللحظات القليلة التي تسبق العاصفة يمكن للمرء أن يختبر ذلك الشعور الغريب باختلال ميزان الأحجام. حجم الأبنية وعمق المدينة يبقى هائلاً بالمقارنة مع حجم المرء... يشعر المرء بأنه ضئيل مقزوم أمامها، وبالرغم من ذلك، وفي الوقت نفسه، ينتابه إحساس بأن المدينة، وهو ما زال في داخلها، قد تضاءلت لتصبح بحجم مجسم معروض في علبة زجاجية في متحف. قد تكون التجربة مرتبطة بالتغيرات الدراماتيكية في ضغط الهواء. الشعور بهذا الاختلال في هذا المساء أقوى من العادة.

في الفندق تزداد أعداد المصابيح التي تُضاء شيئاً فشيئاً. زجاجات المصابيح لونها أصفر كبريتي. رواق السلالم يمكن رؤيته من ردهة الدور الأول في الفندق. الرواق مضاء... من الواضح إذن أن عرض المساء لم يتم إلغاؤه.

النزلاء يقفون خلف النوافذ الطويلة شاخصين بأبصارهم إلى الخارج. من البعيد تتردد أصوات صراخ وصياح، والساحة فارغة على غير العادة. رجل يرتدي ربطة عنق يمرر يده صعوداً ونزولاً على الستارة المخملية التي أمامه... نسيج قماشها يمنحه نوعاً من الطمأنينة.

يندفع كبير الخدم زاكضاً على درجات السلم عابراً الردهة ليذيع الأخبار التي نقلها إليه الخادم الذي ما زال في طور التدريب والذي

يقف عند المدخل الأمامي. يهمس في أذن رجل عجوز جالس على كرسي بمساند، والذي بعد تلقيه الأخبار، يرفع صوته معلناً: سيداتي وسادتي، ومن ثم يقوم كبير الخدم بإعلان الخبر وكأنه رئيس مراسم. عمال مصنع بيريللي قد سيطروا على مقرات للشرطة. رتل من المتمردين يتقدم الآن في اتجاه المدينة. قادة الفوضويين يحرضون العمال على مهاجمة مركز المدينة. لقد أضرموا النيران في...

عجوز آخر ينادي على ولديه الواقفين في الجوار(أحدهم يرتدي زي ضابط): سلاح الفرسان! لا تتوانوا! الأحكام العرفية وسلاح الفرسان! يهز الولدان كتفيهما.

بعد ذلك ببضع ثوانٍ تصرّ النوافذ الطويلة بصوت مرعب من تأثير الرعد ويبدأ المطر بالانهمار بغزارة وكأنه رصاص يطلقه من في السماء على الأرض. ينظر النزلاء في اتجاه النوافذ المظلمة التي تنزلق عليها قطرات المطر. المصابيح التي كانت تضيء رواق السلالم تنطفئ. تهمس لورا لأمبيرتو بأنها تريد أن تذهب إلى غرفتها لتأخذ قسطاً من الراحة.

يحدق الصبي في لوحات شخصية داكنة بالحجم الطبيعي معلقة على الجدار المقابل: تصوّر هذه اللوحات مناقب الأبطال القوميين الذين وحّدوا إيطاليا. وحيداً مع ابنه لأول مرة في حياته، يرغب أمبيرتو في أن يقوم بلفتة شعائرية. يقترب من خلفه ويضع يده على رأسه وكأنه قسيس. يبقي الفتى ساكناً بلا حراك. يصبح مدركاً في هذه اللحظة أكثر من أيّ وقت مضى للسؤال الذي لم يكن قادراً على صياغته وهو ينظر في اتجاه منزل المزرعة من أعلى التلة قبل أن ينبلج الفجر.

يبدو الآن وكأن المطر ينقضّ على العلبة الزجاجية التي وضعت فيها المدينة في المعرض. من بئر السلم في مؤخرة الفندق تتعالى صرخة نسائية مطوّلة.

يهرع الخادم إلى الباب الخشبي السميك المزود بصوامل نحاسية والذي يفضي إلى الممر المؤدي إلى مؤخرة الفندق. لكن الصرخة (تلك الصرخة التي أطلقتها خادمة المطبخ الجديدة التي تخشى البرق والرعد لأنها دلالة على غضب الرب) قد تركت أثرها في نفوس النزلاء. تذكر تلك الصرخة النزلاء بأنهم كانوا في انتظار صرخة مثلها، سواءً بخوف أم أمل لا يمكن تفسيره، منذ سنوات. بالنسبة إليهم تلك الصرخة هي عبارة عن إشارة.

أول تأثير تحدثه العاصفة هو تفريق شمل تجمعات العمال في شوارع المدينة. ها هي تحقق ما عجز توراتي، الزعيم الاشتراكي، عن تحقيقه في دعواته لفرض النظام وإعادة الاستقرار.

لكن ثمة آثار أخرى لتلك الصرخة. العاصفة لم ترعب عاملة المطبخ وحدها. القائمون على النظام والقانون في ميلانو يتذكرون مرة أخرى الآن طبيعة العواصف المتعذر اجتنابها بمجرد أن تندلع، وفي ومضات البرق التي تشعل الساحة من الأسفل بالرغم من أنها تنبعث من السماء، وفي تعاقب الرعود التي تتردد أصداؤها بين الجبال البعيدة والأبنية القريبة، وفي وابل المطر الذي ينهمر بشدة لا رادع لها، وفي هيستيريا التوتر الكهربائي، يرون شبح طبقتهم العاملة المخيف وهو يتمرد عليهم. عاملان وشرطي قد لاقوا حتفهم في ذلك اليوم. بعد همود العاصفة يبدو الشبح الوهمي أكبر وأمضى من كل الحقائق.

على السلطات أن تتخذ تدابير قصوى ضد أقل قدر من الاستفزاز، بهذه الطريقة فقط سيكون بالإمكان تجنب العاصفة الثورية التي كانت تلك العاصفة التي صبت الطبيعة جام غضبها من خلالها على المدينة ثم هدأت، مجرد رمز سلمي لها. المجزرة التي ستشهدها الأيام القليلة التالية باتت أمراً محتوماً الآن.

وجبة العشاء التي قُدمت في ردهة الطعام تشهد حضوراً لا بأس به. النزلاء يرتدون ملابس السهرة. وهكذا فإن التمييز بين المدعوين إلى العشاء الذين يحملون أطباق الطعام إلى النساء والندل، إذ إن كلا الطرفين يرتدي الأبيض والأسود، يتمّ من خلال أفعالهم لا مظهرهم، لينتاب الناظر إلى هذا المشهد انطباع بأن جميع الرجال في ردهة الطعام الكبيرة يقومون على خدمة النساء المزدانات بفساتينهن المتعددة الألوان. مياه النافورة تتدفق منها، وحولها تصطف شجيرات الليمون والدفلى في أوعية خشبية، وعلى كل طاولة ترى باقة من الزهور.

يأخذ أمبيرتو وردة بيضاء من المزهرية الموضوعة على طاولته، ويقص جذعها بحرص، ويمسحها بمنديله المطويّ، ويقف حاملاً الوردة البيضاء التي لم تتفتح جيداً بعد أمام صدره، وبوجه مضطرب وبشرة بلون الصلصال الأصفر ينحني في اتجاه لورا، ويمدّ شفتيه بذاك الأسلوب الإيطالي السوقي ليرسم قبلة بفمه. لكنه بعد ذلك يلطّف قليلاً من سوقية الحركة، ويكبح قبلته الرمزية تلك ويضع الوردة أمام فمه - لتصبح الوردة وكأنها كلمة ترسمها شفاهه.

- عزيزتي لورا، أتمنى أن تقبلي مني...

- ضعها من يدك، تقول، شاعرة بإحراج وغضب من حركاته

المسرحية الرخيصة، ومن المعاني التي يشتمل عليها توودده هذا: معانٍ تخلط في ذهنها بين الحاضر والماضي بصورة لا تُغتفر.

يقدم أمبيرتو الوردة إلى ابنه الجالس بينهما بكل لباقة.
يقول له: قدمها لها أنت.

يضع الصبي الوردة قرب ملعقة الحساء الخاصة بوالدته.

تشعر فجأة بالارتياح. تعتقد أنه من الممكن أن يكون أمبيرتو قد فهم ما الذي ترغب في وضعه كأساس لعلاقتهما معاً، وهو أن يتمّ تعاطيه معها في كل النواحي عبر ابنهما فقط. تحمل الوردة بيدها، وببطء تدورها بإصبعيها، وترفعها أمام عينيها، وبعد ذلك تضعها مرة أخرى على الطاولة أمام الصبي.

يلاحظ أمبيرتو التغير المفاجئ في سلوكها، وعاجزاً عن منع نفسه من انتهاز ذلك النجاح غير المتوقع يقول: ما رأيكِ أن نأخذ pollo alla cacciatore (كاتشاتوري الدجاج)؟ إذا لَم أكن مخطئاً يا عزيزتي، فأنتِ لطالما أحببتِ تناولها.

هذه المرة الأولى التي يتحدث فيها عن الماضي. ينتبه الصبي إلى ذلك في الحال. تتأثر لورا للحظة بكونه لا يزال يتذكّر هذه التفاصيل من ماضيهما معاً. تؤكد تلك اللفتة الأمر الذي تريد أن تثبته لنفسها: وهو أن أمبيرتو كان، منذ وقت طويل مضى، جديراً بأن يكون والداً لطفلها. غير مدركة لما ينطوي عليه التعبير الذي ارتسم على وجهها من معانٍ، تمنح أمبيرتو نصف ابتسامة. الصبي، الذي يجلس قبالة تلك

الابتسامة، يفهم معناها. كان قد رأى بياتريس وهي تنظر إلى جوسلين بتعبير مماثل. تلك نظرة تفضح نوعاً من الحب السري المتبادل القادم من الماضي، والذي يدرك، من خلال ماهيته أكثر منه توقيته، أنه، بالرغم من كونه ابن هذا الحب، خارج نطاقه. هي نظرة تجعله يدرك أنه طرف ثالث في هذه العلاقة.

يسأل: هل يعني pollo شيئاً ما؟
- يعني دجاجاً مطبوخاً بالخمر مع الفطر والبازلاء والخضار الصغيرة. pollo alla cacciatore.
- لكن هل هذا معناها الحرفي فعلاً؟
- لا، المعنى الحرفي له هو دجاج مطبوخ على طريقة الصيادين.

من حينها يصبح ذلك الطبق وتلك النظرة مترابطين في ذهنه.
هذه نظرة طبق دجاج الصيادين.

البحر هائج يضرب سواحل إيطاليا على امتدادها. في بعض الأماكن تُضاء الأمواج في الظلام بانفجارات فوسفورية وهي تنقضّ على الماء الذي خُلقت من صلبه. الملايين يعانون من الجوع بين الساحلين. وفي الجنوب يثورون بلا أمل.

اعتداء على دار البلدية، تخريب وتدمير لسجل الضرائب، بعد ذلك يتدخل عناصر من الشرطة أو الجنود، وابل من الحجارة تقذفه الحشود، القوات الحكومية تفتح النار على الحشود. تتراجع الحشود، ترغي وتزبد، تلعن وتشتم، يسقط من يسقط، يُترك جثة هامدة أو جسداً يُحتضر على الأرض. بعد بضعة أشهر تتكرر القصة نفسها في بلدة أخرى.

الضريبة على الطحين تفوق الـ٥٠٪، على السكر ٣٠٠٪، على اللحم والحليب ٢٠٪. الضريبة على الملح مرتفعة جدّاً لدرجة أن كثيراً من الفلاحين لم يتذوقوا طعمه طوال حياتهم. وإذا ما قام أحد ممن يعيش قرب ساحل البحر باستخراج المياه المالحة من البحر في تلك الفترة يتعرض إلى مخالفة ضريبية. أعطيت الأوامر للحراس بأن يطلقوا النار على النساء اللواتي يذهبن إلى شواطئ البحر وبحوزتهن دلاء. الأمر أكثر أماناً في الليل. قطرات بلورية تتجمع للحظة على طول حافة السطل الذي ستطهى المعكرونة في مياهه الحرام غداً.

أحداث مايو ١٨٩٨

يستيقظ الفتى باكراً كما كان قد نوى في الليلة الفائتة. يتسلل من الفندق قبل أن يصحو أيّ من والديه.

لأن الناس في الشارع يتحدثون بلغة عصية على فهمه، يلفّ الغموض والالتباس أهمية الأحداث التي تقع أمام عينيه، ويختلط عنده العادي بالخارج عن المألوف بصورة يصعب تفسيرها. ذلك الرجل المهيوب الذي يرمي بنفسه في العربة ويصرخ على السائق، أهو خائف أم متأخر عن موعده؟ تلك الفتيات الست اللواتي يتقدمن وهن ممسكات بأيدي بعضهن (وشعر كل منهن معصوب بوشاح)، هل يكنسن باقي المارة عن الرصيف كل صباح كما يفعلن اليوم؟ وهذا الرجل الذي يقف قرب حاجز الرصيف الحجري وهو يقرأ بصوت مرتفع من صحيفة في يده... أهذه محطة يتوقف فيها قطار النقل الداخلي؟ يبدأ الرجال المتجمعون حوله بالصراخ. هل هم يصرخون تأييداً أم شجباً وغضباً؟ يغلق الجواهري متجره ويعلق قطعة من الورق كُتب عليها بضع كلمات على باب المتجر.

أعداد غفيرة من البشر محتشدة في الشوارع لدرجة أن قطار النقل الداخلي والعربات تشق طريقها بصعوبة عبرهم. عجلات الترام تصرّ وكأنها تصيح مرعوبة على سكة الحديد. يتساءل ما إذا كانت تصيح هكذا طوال الوقت.

شاب قصير للغاية تغطي وجهه لحية يرتاب بحضور ذلك الصبي الواضح من ملابسه وهيئته أنه ينتمي إلى عائلة برجوازية. الحشد بأكمله مكوّن من عمال مضربين عن العمل تجمعوا ليستمعوا إلى المتحدثين باسمهم قرب الحدائق العامة.

- ما الذي تفعله هنا، يسأله بالإيطالية، لا دخل لك بما يحدث هنا.

الصبي، الذي لا يقل طوله كثيراً عن طول الشاب ذي اللحية، يومئ برأسه ويهز كتفيه. وهذا ما يغذي الشك والريبة في نفس سائله.

- لن يفيدك بشيء أن تتجسس علينا، يقول له.

فيرد عليه الصبي بالإنجليزية: لا أفهم شيئاً مما تقول.

- إذن أنت لست إيطاليّاً.

يحاولون أن يتحدثوا معه لكن الصبي لا يفهم شيئاً من كلامهم. يضع الشاب ذراعه حول كتف الصبي. في غضون ثوانٍ يتغير موقفه بشكل كامل. إذا كان الصبي غير قادر على فهمِ لغتهم، فهو محصن ضد خداع الكلمات، وهذا ما يجعله شاهداً بريئاً وصادقاً على أفعالهم. صمت الصبي يبدو له الآن، بصورة مبهمة متناقضة، متطابقاً مع شمولية الثورة التي يؤمن بها. ينادي على أخته الواقفة مع مجموعة من فتيات المصنع بالقرب منهم: تعالي وتعرّفي على كتكوتنا، هذا كتكوتنا الظريف Ecco il nostro pulcino.

على الرغم من قصره وضآلته، يتمتع الشاب القصير ذو اللحية بصدر مسطح عريض. له وجه يشبه وجه النمس. يعمل في قسم الصيانة في مصنع للقطن. قُبض عليه مرتين منذ العام ١٨٩٤ وتمّ ترحيله بموجب قانون Crispi للأمن القومي (the dectro–legge).

- دعيه يبقَ معكِ، يقول لأخته، هو لا يتحدث الإيطالية.

من بين فتيات المصنع الست اللواتي وُضع الصبي في عهدتهن، تسترعي انتباهه بشكل خاص فتاة من روما تكبره بسنتين أو ثلاث لا غير، وجهها تغطيه آثار بثور لم تزل بزوالها، وفوق شفتها العليا نما شارب خفيف مكون من بضع شعيرات سود. يلاحظ أيضاً، ذلك أنها كانت ترتدي بلوزة بيضاء بأكمام قصيرة، أن ذراعيها نحيلتان بصورة شاذة، وكأنهما عصوان بنيتان متصلتان بيديها. شاربها يثيره ويحرجه في الوقت نفسه.

بالنسبة إليهن يشكل الصبي لغزاً فاتناً. بإمكانهن أن يتحدثن عنه وكأنه غير موجود.

- عيناه جميلتان.
- انظرن إلى جلد حذائه.
- من أين هو يا ترى؟

بإمكانهن مع ذلك التقرب منه، ولمسه، ودراسة ردود فعله. كونه نصف رجل ونصف طفل، يبدو لهن وكأنه سفير بين جمهورية أحلامهن الرومانسية في فترة الطفولة ومملكة الرجال الذين سيتوجب

عليهن أن يخترن واحداً منهم في القريب العاجل. (الكبيرة بينهن تكسب أقل من ليرة واحدة في اليوم).

دعونا ندعوه بخطيبي «affianzato»، صرخت بنت روما التي جعلتها الإثارة البادية على وجهها تبدو وقحة فاحشة، وما زاد من وقاحتها قبحها الذي لا يختلف عليه اثنان، وحقيقة أن الصبي ما كان ليفهم شيئاً مما تقوله.

أعداد من يحتشدون في شارع كورسو فينيتزيا والمناطق المحيطة به يُقدر بخمسين ألفاً. بعضهم منظم في أرتال وفرق آتية من مصانع بعينها، وبعضهم يتجمع في شلل صغيرة أقل تنظيماً. لا يعرفون كم تبلغ أعدادهم بالضبط، لكنهم جميعاً يشعرون بأنهم يمثلون الأغلبية. يمكن للأغلبية أن تطالب بما يريده كل فرد منها ولا يستطيع التعبير عنه بمفرده. انظروا إلى هذا الرأس وهذا الجسد قليل التعليم، سيئ التغذية، رثّ الملابس، مجهد بالعمل المضني... هذا يستحق أفضل ما يمكن لهذا العالم أن يقدمه.

على أطراف الحدائق العامة، يرى الصبي ذلك الشاب صاحب اللحية يقف تحت شجرة ويخطب في الحشد. يصدر إليهم التعليمات حول وجهة التحرك وكيفية الوصول إليها.

الجماهير المحتشدة تنظر إلى المدينة نظرة مختلفة لم يعهدوها من قبل. عطلوا المصانع وأوقفوا إنتاجها، أجبروا المتاجر على الإغلاق، عرقلوا السير، واحتلوا الشوارع. هم من بنى هذه المدينة، وهم من صانها وحافظ عليها. وها هم الآن يكتشفون ما صنعوه وما يمكنهم

أن يفعلوا بصنيعهم. في حياتهم اليومية كانوا يتعايشون مع ما تقدمه الظروف لهم، وها هم الآن يملؤون الشوارع ويكتسحون كل ما يرونه في طريقهم ليعاندوا الظروف التي تفرض وجودها على وجودهم. ها هم يرفضون كل ما كانوا عادة يذعنون له بإنكار تامّ لذواتهم. ها هم يطالبون جميعاً بما يريده كل فرد منهم ولا يمكنه أن يطالب به بمفرده: لماذا عليَّ أن أموت كل يوم كي لا أموت مرة واحدة وإلى الأبد؟

معظم من في الحشد جاهل بالسياسة ودهاليزها. السياسة هي الأداة التي تبقيهم تحت نير القمع وخط الفقر. السياسة هي السلاح الذي يجعلهم ضحية للخداع ويجردهم من أسلحتهم. السياسة هي السلطة التي تقمعهم. في قلب كل منهم تسكن رغبة في تحدي المنظومة السياسية لمن يمارس القمع بحقهم مدججين بسلاح وحيد وبسيط اسمه العدالة... عدالة قضيتهم، يتضرعون إلى سماء ميلانو، ويتوسلون إلى المستقبل لكي يكون مشرقاً. ولكن بالرغم من ذلك، العدالة يلزمها حاكم عادل... وليس هناك لا عدالة ولا حاكم عادل.

تهجم فرقة الخيالة مع انطلاق أولى الرصاصات. الرصاصات تمرّ فوق رؤوس المحتشدين.

فرقة الخيالة منتظمة في أرتال، وكل رتل مكون من خمسة أو ستة فرسان. وكلما مرَّ رتل من بين المحتشدين، بدا وكأن قطاعات من الحشد تعود لتنظم صفوفها، ليس بغرض المقاومة، ذلك أن المقاومة الآن غير واردة، لكن لكي يتجنبوا الأحصنة عليهم أن يحشروا أنفسهم في جماعات تتكوم فوق بعضها بصورة لا يمكن تخيلها، وبمجرد أن يعبر الخطر بصورة مؤقتة، تتوسع من جديد بضغط انضغاطها

الذي لا يحتمل طويلاً. أرتال الخيالة تلفّ وتدور وتناور، وقطاعات من الحشد تتقلص وتتمدد مثل قلوب نابضة. الصيحات تعلو وتخبو والصراخ لا ينقطع.

يتقدم رتل من الخيالة. يشبّ الحصان الأكثر قرباً فوق جماعة تكوّم من فيها على بعضهم. لم يكن الصبي حتى تلك اللحظة قد رأى حصاناً من الأسفل وهو يُستخدم كسلاح ضده. مثله مثل خاله، اعتاد أن يكون فارساً يعتلي الخيول ولا تعتليه. مخيفة رؤية الجانب السفلي من حصان يشبّ وأنت تحته، مخيفة للغاية. جسد هائل وثقيل له حوافر تنتعل حدوات معدنية تحت سيقان مكسوة بعضلات مرعبة. لكن التهديد الجسدي مشوب بشيء آخر. الحصان مكون من أعصاب أيضاً... الحصان مخلوق من عظم ولحم ودم. الحصان يتنفس بصعوبة... الحصان خائف. عنف خيّاله يشوّه طبيعته. الحصان عاجز مثلك وهو يوشك أن يدهسك ويحطمك. يبدو وكأن خوفك على حياتك قد تسلل بصورة خارجة عن السيطرة إلى نفس الحصان الذي يهدد حياتك.

عينا الخيّال تحدّق بثبات في منتصف المسافة المنظورة، وبين حين وآخر تلقيان نظرات خاطفة نحو الأسفل. يضغط على صف أسنانه السفلي بشدة يصبح من المتعذر معها أن يبلع ريقه. يبدو رأسه وكأنه معلّق من عند مستوى العينين على خط يعلو خمسة أقدام فوق وجوه الحشد... هذا هو الحدّ الذي تقف عنده الأوامر التي أعطيت له. حذاؤه المزود بمهماز يركل جانبي الحصان من دون توقف ليحثّه على المضيّ قدماً.

مفتوناً ومخدراً برؤية الأحصنة والفرسان، لا يتحرك الصبي من مطرحه إلى أن تقوم بنت روما بجذبه من ذراعه بشدة تكاد أن تطرحه

أرضاً. يبدآن بعد ذلك بالركض. تجرّه خلفها بيد وباليد الأخرى تمسك بتنورتها وهي تركض. يلاحظ مرة أخرى كيف أن ذراعيها نحيلتان بصورة شاذة، إلا أن يدها كبيرة بما يكفي لتطوق يده وتبتلعها تماماً. تعلم في أيّ اتجاه تركض، في اتجاه الأشجار في الحدائق العامة، لا تتردد للحظة.

يمرّان بقرب جماعة تحمل رجلاً مجروحاً ينزف دماً. أشخاص آخرون يركضون أيضاً. الصراخ يتدفق مع الدماء – لكن مصدرها ليس الشخص نفسه دائماً. الدماء تسيل فوق وجه امرأة، والعيون التي تتدفق الدماء فوقها مغلقة بإحكام. رجل مفرط البدانة يمسك بها من خصرها ويجرها معه. المساحات الخالية تتيح للفرسان الهجوم بسرعة أكبر على الثابتين في أماكنهم. رجل في منتصف العمر يقف وحده في وسط الشارع وهو يوجه لكماته إلى قلب الهواء ويصب لعناته على الجنود ناعتاً إياهم بالجبناء والمرتدين الخونة. يقترب من رتل من الفرسان مصطف بتشكيل ثابت في انتظار الأوامر. ضابط يقف وراء الرتل يأمرهم بالتوقف. يتابع الرجل التقدم. عندما يطلقون النار عليه يسقط على وجهه.

فراشات بلون الحجر الرملي وأخرى بلون زهر العسل. عشب وزهور برية يصل ارتفاعها إلى نصف متر. بتلات يطغى وهج الشمس على لونها فتبدو بيضاء اللون، لكن بياضها لا يشبه البياض الطيني الذي تتمتع به الحلزونات الصغيرة التي توجد في الأماكن ذات التربة المغبرة. زهرة سيف الغراب البرية بلون حجر المرو الكريم شفافة وأصغر من عقلة الإصبع. احمرار الخشخاش الذي يشبه اللون الذي يحضر في عقل الطفل عندما يتخيل النار. زهور خشخاش محتجبة،

ورطبة، رؤوسها المتساقطة بلون لطخات الخمر. نتوءات سطحية لصخور مسطحة ناعمة ورمادية كجانبي الدلفين. الحقل كله محاط بأشجار البلوط. أن تموت في ذلك الحقل، يعني أن تتدفق دماؤك إلى قلب الأرض الرطبة. أن يُطلق عليك النار، وتسقط على سكة الترام لتجعل الدماء الحصى زلقة. تخيلت الميتة الأولى لأصنع إكليلاً من الزهور للثانية.

تقتاده عبر الحدائق نحو ساحات السكك الحديدية والشوارع القريبة من محطة ساحة الجمهورية. لا تفلت يده أبداً طوال الطريق. لا تمسكها بطريقة من يحب أو من يحرص على حماية من معه، بل بنفاد صبر وكأنها تجبره على أن يجري أو يسير بسرعة. وعندما يتوقفان تمسك بها بإلحاح كأنها تريد منه أن يفهم في الحال ما الذي يشاهدانه. بين الحين والآخر تتحدث إليه بالإيطالية بالرغم من معرفتها أنه لا يفهم كلمة مما تقوله. الصدمة، وغرابة الوضع الذي وجدا نفسيهما فيه، وربما اليأس المتأصل في نفسها جعلها تغرق أكثر في خيالها الذي ولد كمزحة في البداية. سرعان ما تدعي أنهما يوماً ما سيتزوجان. هذا الادعاء ليس مستبعداً إلّا بقدر ما هو مستبعد ما يجري حولهما من أحداث. هكذا تتمكن من أن تخلق نوعاً من التوازن بين عنف الظروف المحيطة بهما، وجموح غرقها التام في خيالها، وهذا التوازن يمكنها من أن تصبح هادئة تماماً.

يراقبان كيف يتمّ قلب عربة ترام لتحويلها إلى متراس. بمجرد أن تسقط على الأرض يتحطم زجاج نوافذها. وبعد أن يقوموا بفك الحصان، يقوم الرجال والنساء بجر العربة ليقلبوها ويضعوها قرب عربة الترام. رتل من عمال السكك الحديدية يحملون قطع غيار

ورافعات ومعدات من مستودع السكة الحديدية. تسري أخبار تقول إن الأوامر قد أعطيت للجيش ليخلي المدينة شارعاً تلو آخر، ويلاحق ويلقي القبض على كل «متمرد». مجموعة أخرى من عمال السكك الحديدية يفككون حديد السكة.

كل شيء على وشك أن يتحوّل.

تصوّر معي نصلاً عملاقاً لمقصلة بطول قطر المدينة يهوي ويقطع جزءاً من كل ما يجده في طريقه... الجدران، وخطوط السكة الحديدية، والعربات، والمتاجر، والورش، والكنائس، وأقفاص شحن الفاكهة، والأشجار، والسماء، وحجارة الرصيف. هذا النصل كان قد سقط على بعد بضع ياردات من وجه كل من قرر أن يكافح ويصمد. كل واحد منهم يجد نفسه على بعد بضع خطوات من حافة شديدة الانحدار لهوة سحيقة لا يرى قرارها إلا هو. هذه الهوة، الشبيهة بشق عميق في لحم الجسد، هي الهوة نفسها من غير ريب... ما حدث قد حدث بما لا يدع مجالاً للشك. لكن في البداية لا يشعر أحد منهم بالألم.

الألم ينبع من تفكير كل واحد منهم في أن موته قد أصبح قريباً جدّاً. يخطر للنساء والرجال الذين يبنون المتاريس أن ما يفعلونه ويفكرون فيه هو على الأرجح شيء سيفعلونه ويفكرون فيه لآخر مرة. الألم تتزايد حدته وهم يبنون دفاعاتهم.

يصرخ رجل يقف على السطح لينبههم أن مئات الجنود يحتشدون عند زاوية شارع فيا مانين.

أمبيرتو وأربعة من عمال الفندق الذين دفع لهم خصيصاً ليبحثوا عن ابنه ووعدهم بمكافأة إضافية مئة ليرة إذا ما نجحوا في العثور عليه، يبحثون في الشوارع الواقعة وراء الفندق، والتي لا يُرى فيها لا جنود ولا متاريس.

تقول بنت روما بالإيطالية، في البداية سنعيش في روما لأنني أظن أننا سنكون أكثر سعادة هناك.

كلما فتحت فمها لتقول شيئاً، ينظر إليها بالطريقة نفسها التي كان سينظر إليها فيها لو كان يفهم ما تقوله. تبدو معاني كلماتها غير مهمة بالنسبة إليه، المهم هو ما يراه... ما يراه في حضورها.

تتابع بالإيطالية: وستشتري لي بعض الجوارب النسائية البيض وقبعة يزين حوافّها الشيفون.

عند حدود المتاريس يتوقف الألم. يكتمل التحول. يكتمل بصرخة تأتي من السطح معلنة أن الجنود يتقدمون. فجأة لم يعد هناك شيء يندمون عليه. المتاريس قائمة بين المدافعين عنها والعنف الذي يمارس ضد وجودهم ويهدد حياتهم. ليس هناك ما يندمون عليه الآن لأن روح ماضيهم تتحرك الآن ضد حاضرهم. ما وراء المتاريس حيث يتحصنون كان المستقبل قد بدأ فعلاً.

يتوجب على كل أقلية حاكمة أن تخدّر، وتقتل إذا ما استطاعت، الإحساس بالوقت في نفوس أولئك الذين تستغلهم من خلال فرض حاضر أزلي لا يسبقه ماضٍ ولا يعقبه مستقبل. هذا هو سلاح الفاشية

لتبقي شعوبها تحت نير القمع. المتاريس تحطم هذا الحاضر وتضع حدّاً لأزليته.

تقتاده بنت روما إلى ممرّ يبعد بضع ياردات عن المتراس. سننتظر هنا قليلاً، تقولها بالإيطالية كزوجة تتحدث إلى زوجها الطاعن في السن عند اندلاع العاصفة.

الجنود يتقدمون، يقتربون رويداً رويداً. الأمل الأخير بأن الهجوم قد يؤجل لبعض الوقت يتلاشى. عند أحد أطراف المتراس ترى عجوزاً أشيب الشعر جاثياً وظهره مستند إلى شبك منور الطابق السفلي ومعه طبنجة قديمة موضوعة أمام ركبتيه. هناك رصاصة في بيت النار، ولديه رصاصة أخرى في جيبه. الرجال والشبان الأصغر سنّاً لا يزالون يفككون السكة ويضيفون ما ينجحون في تفكيكه إلى كومة من حجارة الطريق. الآخرون لا يملكون من الأسلحة سوى القضبان والعصي.

الصمت يخيّم على الجميع. أصوات ضرب وطرق بعيدة تأتي من الساحات، وتبدأ بالاقتراب رويداً رويداً. يُسمع وقع أقدام تتقدم بلا رادع وتصبح أكثر انتظاماً كصوت دقات الساعة (الوعد الذي تحمله بتفريخ أوقات لا نهاية لها يمنحه شعوراً بالسكينة، لكن الطريقة التي تملأ بها دقات الساعة هذه الأوقات، والتي تؤرخ انقضاءها، تثقل عليه). La Rivolusione o la morte! (الثورة أو الموت)... يصرخ الرجل الأشيب من قلب الصمت. وبعد ذلك يقول بصوت مرتفع: غنّوا، لعنة الله عليهم، غنّوا! يجب أن يسمعونا ونحن نغني.

وبمجرد أن يصدر لهم الأمر بالغناء، تتقدم بنت روما صاعدة درجات المدخل، وببساطة، وكأنها واقفة تحت أضواء المسرح، تبدأ بالغناء «Canto dei malfattori» (يد الظلّام):

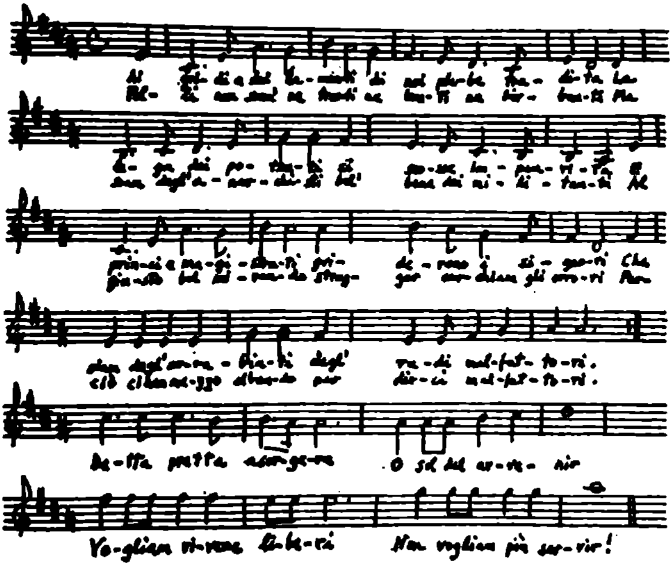

يصعب عليّ ألا أعبّر عن إعجابي بصوتها. في البداية ظننت أنه سيكون هزيلاً مثل ذراعيها اللتين أثارتا انتباهه كثيراً. لكن بالرغم من جمال صوتها إلّا أن فيه خشونة زائدة عن اللزوم. لا ينضم أحد إليها في البداية، وهذا ما يجعل صوتها يملأ الشوارع، ويأخذ حقه من الإعجاب، ويبدو وكأنه يلين الحجر والشجر وكل سطح وحافة بمجرد مروره عليها.

يطلق الجنود أول وابل من الرصاص على المتراس.

الوابل الأول يحسم الأمر، صدى صوته يقتل أيّ شرود أو التهاء.

لا يبقى شيء يدافعون به عن أنفسهم إلا ما تحمله أيديهم. يرمي بضعة رجال حفنة من الأحجار على الجنود، إلا أنها تسقط بعيداً عن أهدافها. يصدر صوت قويّ من درفة إحدى النوافذ ويطلق ضابط النار من مسدسه على نافذة المنزل. على الطريق الفاصل بين الجنود والمتراس، والذي يلفه صمت كارثي، تستلقي تلك الأحجار السبعة التي رماها المتمترسون وسقطت بعيداً عن الهدف.

وراء المتراس تركع النساء على ركبهن لتجمعن الحجارة على طول الثقوب التي حُفرت لهذا الغرض ويزودن الرجال بها. أحد عمال السكك الحديدية، الذي لا يزال يرتدي قبعته التي يحيط بها شريط أحمر وذهبي، يصرخ قائلاً، انتظروا، انتظروا ريثما نتمكن من تحطيم رؤوسهم! انتظروا! عندما أعطي إشارتي، علينا كلنا أن نقوم بذلك معاً في الوقت نفسه... انتظروا! يبتسم وهو يقول هذا بوجه أعجف قاسي الملامح.

يسدّ الجنود كل المنافذ. يطلقون وابلاً آخر من الرصاص. للمرة الثانية لا يصاب أحد بأذى. لا يصدقون أن هذا يحصل، ومع ذلك لا يسع أحد منهم إلا أن يعتبر أن عدالة قضيتهم هي ما يقف في وجه الرصاص. الآن!! عشرون رجلاً يرمون حجارتهم التي تخترق الهواء. يتراجع الجنود إلى الخلف قليلاً. تهزأ منهم إحدى النساء قائلة: يا أصحاب الوجوه المقرفة! Faccie di merda!

شاب يرتدي مئزراً يقول عن عامل السكة الحديدية: يبدو هذا الرجل وكأنه ضابط في سلاح المدفعية. تُسمع كلمة «نار» fuoco وفي أعقابها صوت رصاصة واحدة ويسقط العامل قتيلاً. أتت الرصاصة من نافذة علوية، وليس من الشارع. الرصاصة تصيبه في

وجهه. يعتقد أن هذه الرصاصة آتية من الماضي، الماضي الذي يسبق طفولته. الجرح الذي خلفته الرصاصة في وجهه، والذي تشرف ثلاث نساء على علاجه، هو الجرح الذي يولد منه موته.

إذا أردت أن تعرف ماذا يشبه الموت تصور متراً مكعباً من الفراغ، أفرغه بعد ذلك من مفهومك عن الفراغ... هكذا هو الموت.

يتقدم الجنود مرة أخرى، يتحركون كلهم في الاتجاه نفسه. لكنهم ينسحبون هذه المرة إلى مسافة مئة ياردة، يسود هدوء لم يعد قادراً على أن يخدع أحداً. ما وراء المتراس تسود لحظة من الخوف العظيم. العدو يقيس قدرات المدافعين على التصدي للهجوم ويخطط ليعيد الهجوم على هذا الأساس... ليس بوسع المعتصمين سوى الاعتناء بصاحبهم القتيل، والانتظار بدون أمل في مواجهة عدوّ يفوقهم عدداً وعتاداً.

تهمس له بالإيطالية: أعدك بألّا أسمح لأيّ جندي بأن يضع يده عليّ، سأغرز سكيني في صدره قبل أن يتمكن من ذلك، تقولها وتلمسه بإصبعها بخفة في المكان الذي سينفذ منه سكينها في قلب الجندي. يتظاهر بأنه يموت ويميل عليها بكل ثقله وكأنه فهم ما تقوله. هذا وعد مني، تقول له. يلقي رأسه على كتفها. ساقاه ترتجفان ويخشى أن يفقد وعيه. تطوقه بذراعها وتقوده إلى الفناء الأمامي لأحد المنازل حيث ترشٍ بعض الماء على وجهه من صنبور هناك، وتطلب منه أن يشرب قليلاً. الماء شديد البرودة، يسمع وهو يتجرعه صوت وابل آخر من الرصاص يأتي من الشارع. يمتزج الصوت الذي يتردد في أذنه بطعم الماء البارد الذي يبتلعه ويتحولان إلى إحساس واحد. يرى وجهها

وحاجبيها الكثيفين اللذين يلتقيان في المنتصف وفمها الغليظ وشاربها الواضح للعيان ووجهها المضغوط المليء بالعيوب وعينيها البطيئتي الحركة... يرى التعبير الذي يرتسم على وجهها: لم يحدث من قبل أن رأى تعبيراً يرتسم على وجه شخص آخر ويعبّر تماماً عما يشعر به هو في قرارة نفسه.

che dio li maledica (ألا لعنة الله عليهم)، تقول له.

على امتداد الشارع يتمركز العديد من القناصين على نوافذ الغرف العلوية ليتمكنوا من إطلاق النار من فوق المتراس على المعتصمين. تحت الغطاء الناري الذي يؤمّنونه يستطيع الجنود الراجلون أن يتقدموا في الشوارع. ثلاثة من المعتصمين أصيبوا حتى الآن.

اسمحوا لي أن أتحدث قليلاً عن أحد المصابين. الرصاصة كانت قد أصابته تحت عظم الترقوة تماماً من جانبه الأيمن. إذا ما أبقى ذراعه اليمنى ثابتة من دون حراك، يبقى الألم مستمراً لكنه لا يتحرك... لا يندفع بقوة ويلتهم دماغه ويفقده الوعي بباقي أعضائه السليمة. يكره الألم تماماً كما يكره الجنود. الألم في جسده هو تجسيد للجنود في حياته.

يلتقط حجراً بيده اليسرى ويحاول أن يرميه. أثناء رميه له يحرك كتفه الأيمن سهواً. ينحرف الحجر عن مساره ويصيب الجدار.

اكتب ما تريد، حقيقة أم كذباً، غير مهم. تحدّث، لكن تحدّث بلطف، لأن ذلك هو الشيء الوحيد الذي في وسعك فعله لتخفف عنه قليلاً، ابنِ متراساً من الكلمات، أيّاً كان معنى هذه الكلمات. تحدّث

لكي يشعر بوجودك. تحدّث لكي يعرف أنك موجود وأنك لا تشعر بالألم الذي يشعر به هو. قل أيّ شيء، أيّ شيء، فألمه أكبر من أيّ فارق بين الحقيقة والكذب. ضمّده بكلماتك وصوتك كما يضمد الآخرون له جروحه. أجل. الآن وهنا... سيتوقف الألم قليلاً.

هنا تسقط كل الأحكام.

عندما يصبح الجنود على بعد عشرين ياردة منهم، تصعد امرأتان على القضبان المعدنية المراد منها الحؤول دون سقوط الأشخاص والحيوانات تحت عربة الترام. وبمجرد أن تبرزا للعيان كهدفين تسهل إصابتهما حتى على الأعمى، تبدآن بالصياح في وجه الجنود: هيا، أطلقوا نيرانكم علينا، ماذا تنتظرون؟ عدة بنادق تصوب إليهما لكن لا يطلق أحد النار. تقفان منتصبتين وتسيران متبخترتين فوق نافذة الترام المكسورة. تتابعان الصراخ على الجنود: **figli di putana** (يا أولاد الشرموطة)، وثم: **castrati**! يا منايك، يا مخصيون! الصبي الواقف في الشارع يراقبهما من الخلف. كعب قدم إحدى المرأتين يظهر من فجوة كبيرة في جوربها. على كاحل الأخرى، التي لا ترتدي جوارب، يرى لطخة من الدماء. يا منايك، يا مخصيون. المزيد من النساء يصعدن على القضبان لينضممن إليهما.

أحد الضباط يلاحظ رجلاً يقف على درابزين الدور السادس في آخر الشارع خلف المتراس. الرجل يصدر بعض الإشارات والإيماءات. يعطي الضابط أوامره إلى فرقة من الجنود ليطلقوا النار عليه.

يرى الرجل الجنود وهم يضعون بنادقهم على أكتافهم ويصوبونها

نحوه. يفكّر بينه وبين نفسه، إذا قفزت سيتمكنون من قتلي قبل أن تصل قدماي إلى الأرض. يقفز.

بالنسبة إلى الضابط، هؤلاء النساء اللواتي يشتمن ويتبخترن على الترام قحبات سيعتقلهن لاحقاً. لكن بالنسبة إلى الجنود أبناء الفلاحين والعمال القادمين من مدن أخرى، فهن يوقظن في نفوسهم ذكريات الطفولة. يظهر من أصواتهن كم هو جليل وشديد غضبهن، وكيف يتعذر معه الحصول على أيّ جواب. بالنسبة إلى هؤلاء الجنود، تلك النسوة قد اكتسبن، بغضّ النظر عن أعمارهن، سلطة الشيوخ وهيبتهم. غضبهن لا يمكن فصله عن الحكم المبرم... أمام غضب كهذا يجب على المرء أن يطلب الغفران.

يُعطى الأمر للجنود بالتقدم. أعاد الأمر لهم إحساسهم برجولتهم، والذي كانوا مهددين بفقدانه منذ لحظة. مذعنين للأمر يتقدمون إلى الأمام، بنادقهم على أهبة الاستعداد، بعضهم أنيط به محاصرة الرجال المعتصمين، وبعضهم الآخر إنزال النساء الواقفات على الترام.

مخصيون، منايك، جبناء Castrati! Cowards!

تتكاثف الكلمات لتتحول إلى صرخة واحدة. ليست صرخة رعب، بل صرخة رفض. هن نساء يصرخن بالنيابة عن كل ما أُجهض وهو ما يزال في الرحم.

لا يمكنني أن أكملْ حكاية صبيّنا البالغ من العمر أحد عشر عاماً التي جرت معه في ميلانو في السادس من مايو من العام ١٨٩٨. يجب

عليَّ اعتباراً من هذه النقطة وإلى النهاية، إما أن أغطي كل الأحداث حتى نهايتها قبل أن أضع نقطة الختام، أو أن أتشعب في روايتي بشكل واسع جدّاً إلى أن تصبح مفككة. أن أتوقف هنا، بالرغم من كل ما سأسكت عنه من أحـداث، يعني أن أعبر عن الحقيقة بصورة أكثر وضوحاً مما ستكون عليه لو أنني وصلت بروايتي للأحداث حتى نهايتها. رغبة الكاتب في الاستمرار حتى النهاية تقتل الحقيقة. النهاية توحّد بين المصائر. بينما يجب بناء الوحدة بطريقة أخرى.

بين السادس من مايو، وهو التاريخ الذي أعلنت فيه الأحكام العرفية في ميلانو، والتاسع من مايو، سقط مئة عامل قتيلاً وأصيب أربع مئة وخمسون غيرهم بجروح. سجلت هذه الأيام الأربعة نهاية حقبة في تاريخ إيطاليا. بدأ الزعماء الاشتراكيون يعتمدون أكثر على الديمقراطية الاجتماعية البرلمانية، وتمَّ التخلي عن كل المحاولات الرامية إلى إدارة العمل الثوري - أو الدفاع الثوري. بالتزامن مع ذلك اتبعت الطبقة الحاكمة تكتيكاً جديداً في التعامل مع العمال والفلاحين... حلَّ التلاعب السياسي محل القمع الوحشي المجرد. على مدى السنوات العشرين التالية في إيطاليا - كما هو الحال في باقي دول أوروبا الغربية، قُمع هاجس الثورة في عقول الرجال.

***

مياه النافورة تترقرق في حديقة المنزل في ليفورنو. النافورة، وأشجار النخيل، والكركديه، والشجيرات المزهرة لا تترك للزمن بعد وفاة زوجة أمبيرتو، فقد قام أمبيرتو الأرمل منذ ثلاث سنوات في العام ١٨٩٥ بتوظيف شخصين للاهتمام بالحديقة. وكان قد سافر إلى سيتّينيانو خصيصاً لشراء نباتات نادرة. مع كل عام يمرّ تقترب

صورة زوجته في ذكرياته أكثر من الصورة التي رسمها لها معارفها وأصدقاؤها. ما عاد يشكك في أن زوجته كانت تحظى بقدرات روحانية فائقة.

من حين إلى آخر يُسمع صوت يظن من يسمعه أنه صادر عن سقوط قطعة من الرخام أو الحجر في المياه. ولكنه في الحقيقة صوت السمك النهري وهو يتقلب على سطح الماء ليحصل على شيء من أشعة الشمس ويغطس فجأة بعد ذلك. لا يتمكن أمبيرتو من التنعم وحيداً بسكينة الحديقة وهدوئها. يشعر في وحدته بأنه عجوز ضيق الخلق وسريع الغضب. هو مستعد لأن يوافق على إعطاء لورا أيّ شيء تطلبه في مقابل أن تسمح له بجلب ابنه إلى ليفورنو.

يعتقد أمبيرتو أن ابنه لا يشبه الشبان الإيطاليين المعاصرين وإنما يشبه الشبان الذين نشؤوا خلال عصر النهضة: وجهه يبدو وكأنه نافذة إلى روحه. يجد الفراغات بين أسنانه مزعجة عندما يبتسم، لكنه سيملأ هذه الفراغات بالذهب. يخبر لورا عن كل الميزات التي سيتمتع بها الصبي عندما يعيش في ليفورنو. لورا لا تُفصح عما تفكر فيه. بدلاً من ذلك تشتكي وتلمح وتناقض نفسها. وكلما أصبح أمبيرتو أكثر إقناعاً أصبحت أقل حماساً. يتضرع إليها، يتوسّل إليها راكعاً على ركبتيه.

- لا، لا... تصرخ ممسكة إياه من ذراعيه لتجعله يقف على قدميه.

يذكرها بتلك الأوقات التي كانا يمضيانها معاً.

- آه يا صغيرتي الحلوة، كنتِ مجنونة، مجنونة جدّاً جدّاً.

- إيطاليا، تقول بإصرار، ليست بلداً مناسباً لتربية الأبناء.

- تعالي معه، يقول أمبيرتو الذي يصبح أكثر حماساً وهياجاً، سأشتري لكِ منزلاً، سأشتري لكِ...

سيضمن الأب، بعاطفته المخالفة للعقل، أن تحصل الأم على كل ما تتمناه.

بينما أمه المجهولة بالنسبة إليه وأبوه الذي اكتشف وجوده مؤخراً يتجادلان حول المكان الذي يجب أن يقيم فيه ومع من يجب أن يقيم، يعود الصبي بذاكرته مرة تلو أخرى إلى تلك اللحظات التي اقتادته فيها بنت روما إلى الفناء الذي يوجد فيه صنبور الماء. مرة أخرى ترشّ الماء على وجهه. مرة أخرى يبهره التعبير الذي يرتسم على وجهها. مرة أخرى تنكشف الحقيقة أمامه. هذه الحقيقة تنكشف له بلا كلمات تماماً كما هو الماء الذي ترشّه به بلا لون.

أين هو الآن (في الحديقة في ليفورنو) وأين كان من قبل (في شارع فيا مانين) غير مهم... ما يراه أمامه الآن (وجه أمه المدوّر وشعرها المسرح بشكل مثالي على شكل كعكة) أو ما كان قد رآه (فم بنت روما المفتوح القبيح) ينتمي إلى لحظة خاصة: ما يسمعه الآن (صوت المياه التي تتراقص في النافورة) أو ما كان قد سمعه (صرخات وسباب النساء) هي بدائل بسيطة... ما يهم هو ما ثبته التعبير الذي ارتسم على وجهها في الفناء، والذي كان، حتى تلك اللحظة صامتاً لا تعبّر عنه الكلمات... ما يهم هو أنّه ليس ميتاً.

-٤-

ها قد بدأ الصراع حتى الموت ضد كل ما هو قائم.

منديل القديسة فيرونيكا[1]: وشاح نُقشت عليه صورة رأس المسيح وهو يرتدي تاج الأشواك.

أرى صورة أخرى منقوشة بصورة عجائبية على القماش. جسدها وهي تلقي رأسها إلى الخلف بعينين مغمضتين. الصورة واقعية ولا تحتوي على أيّ أثر من الاصطناع أو تدخّل الفن. أرى فيها بقعاً داكنة من الشعر، وبشرتها الشاحبة تكاد تكون غير متمايزة عن لون القماش الذي رُسمت عليه.

تطير حمامتان. تدخلان الغابة وتخرجان منها مرة بعد أخرى: الذكر هو المطارِد دائماً. بمجرد أن يصبحا قريبين من الغابة، تقوم الأنثى، التي غالباً ما تكون في المقدمة، بتفحص نفسها في الجو عبر الثبات على وضع الطيران بشكل عمودي خافضة ذيلها إلى الأسفل وجناحاها الممدودان يعملان الآن عمل المكابح. تلقي برأسها إلى

١- هي التي مسحت وجه السيد المسيح حين وقع تحت الصليب بدافع من حبّها له وإشفاقها عليه. وعند عودتها إلى منزلها وجدت أن صورة وجه السيد المسيح قد ظهرت على هذا المنديل، وقد ظهرت الآلام على ملامحه.

الخلف وتوجّه منقارها نحو السماء، وتبقى معلقة بلا حراك، وبالرغم من ذلك لا تسقط. يجد الذكر نفسه إلى جانبها، تبدأ بالسقوط، تخفض رأسها وترفع ذيلها وتنقض... هكذا يدخلان الغابة معاً. بعد ذلك بدقيقة يظهران من الطرف البعيد للغابة ويحومان في الجو مرة أخرى ويكرران طيرانهما بالطريقة نفسها.

التوصيف حتى هذه النقطة دقيق. لكن قدرتي على الاختيار (اختيار الحقائق والمفردات التي تصفها في آنٍ معاً) تجعل النص مشبعاً بفكرة الخيار وهذا ما يشجع القارئ على استنباط نمط ومدى مزيفين للخيار المتاح للطائرين. التوصيف يحرّف الحقائق.

في مساء أحد الأيام من أواخر شهر مايو من العام ١٩٠٢ (قبل بضعة أسابيع من نهاية حرب البوير[١])، قامت بياتريس بإغوائه. ما جرى قد جرى وكأنه حدث طبيعي لا يحتمل الوصف.

***

عادت لورا وابنها من ميلانو في نهاية شهر مايو من العام ١٨٩٨ ليجدا أن بياتريس قد خطبت وعلى وشك الزواج من النقيب باتريك بيرس من فرقة الرماحين السابعة عشرة التابعة لسلاح الفرسان. تمَّ

١- حرب البوير الأولى هي حرب شبّت بين البويريين (أفارقة من أصول هولندية) والإنجليز ما بين عامي ١٨٨٠ م و١٨٨١ م. وقد لحقتها بعد عدة سنوات حرب شبيهة عرفت بحرب البوير الثانية بين عامي ١٨٩٩ و١٩٠٢، اندلعت الحرب الأولى بين البوير والإنجليز عندما حاولت الحكومة البريطانية توحيد مستعمراتها في جنوب أفريقيا وهي: الكاب وناتال وجمهوريتا البوير، وهما: الترانسفال وولاية أورانج الحرة، سعت الحكومة البريطانية إلى توحيد تلك المستعمرات بهدف تشكيل اتحاد فيدرالي في جنوب أفريقيا.

إرسال الصبي إلى مدرسة داخلية. في أغلب فترات العطل الصيفية كان الصبي يبقى وحيداً بصحبة جوسلين في المزرعة. (رحلت بياتريس مع زوجها إلى جنوب إفريقيا بعد أن تمَّ تعيينه هناك).

أسلوب المدرسة الداخلية التي أرسل إليها معروف، إذ كثيراً ما تمَّ الحديث عنه ووصفه. كانت تعتمد التقشف كنمط حياة يومي، وتقوم على أسس الأيديولوجيا الاستعمارية المتدينة. الحياة الاجتماعية فيها كانت قائمة على التسلط والسادية. أما هدف التعليم فيها فكان تفريخ بناة للإمبراطورية.

مثله مثل غيره عوّد الصبي نفسه على نمط الحياة في المدرسة. ما كان يتصف به من انطوائية أكد ما لمسه زملاؤه فيه في الحال من غرابة وعدم انتماء. لكنه بالرغم من ذلك لم يتعرض إلى الكثير من التنمّر والاضطهاد. لامبالاته المفرطة شكّلت نوعاً من الحماية له. لُقب بغاريبالدي بسبب زعمه أن والده كان إيطاليّاً. أمضى قسطاً كبيراً من أوقات فراغه وهو يعزف على البيانو في قاعات المدرسة الموسيقية. اهتمامه الكبير بالموسيقى كان يتناسب عكساً مع موهبته.

في سن الرابعة عشرة كانت ملامح الطفولة قد غادرت وجهه تماماً. يمكن النظر إلى التغير الذي يخضع له المرء في هذه الفترة على أنه نوع من اكتساب الخشونة، سواء في الصوت أم الملامح، وهذا سوء فهم للموضوع. هذا التغير – الذي يمكن أن يحدث في أيّ وقت بين عمر الرابعة عشرة والرابعة والعشرين – ينطوي على اكتساب وفقدان في آنٍ معاً من الناحية التعبيرية والانطباعية: بنية البشرة، ونوعية اللحم الذي يغطي العظام، تصبح كتوءمة صامتة... بينما يميل الإنسان في طفولته إلى الإعلان عن وجوده والتعبير عن كل ما يشعر به، يصبح ظهوره

ومظهره نوعاً من الغطاء الذي يتوارى وينسحب إلى داخله. (قارنوا بين ردّ فعلنا تجاه الأطفال ورد فعلنا تجاه البالغين: نهتم بوجود الصغار بحدّ ذاته بينما ينصب اهتمامنا في تعاملنا مع البالغين على نواياهم). لكن البوابات التي ننفذ منها إلى ما تحت هذا الغطاء الذي يدعى الجسد -الفم والعيون على وجه التحديد - تصبح معبّرة أكثر، وذلك لأنها الآن تعطي إشارات أكثر عما يتوارى في الداخل.

عملية النضوج، والتقدم في السن لاحقاً، تنطوي على حالة انسحاب للذات من السطح الخارجي للجسد إلى أعماقه، وتحدث تدريجيّاً ولكن على نسق تصاعدي. تصبح بشرة الشخص المتقدم في السن أشبه برداء. فم الرجل الذي يقبع بالقرب من الصبي - أتحدث هنا عن جوسلين - قد أصبح خالياً من التعبير. كان قد انسحب حتى من فمه، ولم تعد شفتاه أكثر من نتوءين ظاهرين على الغلاف الخارجي لذاته. هذا الغلاف يقدم كمّاً معيناً من المعلومات عنه: رجل محترم من الريف يقضي معظم حياته خارج المنزل... رجل كتوم وخائب الأمل. فقط من خلال عينيه يمكن للمرء أحياناً أن يلمح ذلك الجزء من ذاته الذي ما زال قادراً على الاستجابة.

كانا يسيران معاً صاعدين ممرّاً متعرجاً شديد الانحدار تكتنفه شجيرات كثيفة على الجانبين. حدث ذلك في وقت متأخر في أحد مساءات نوفمبر من العام ١٩٠٠، وكان شبيهاً جدّاً بذاك المساء الذي قام فيه الرجلان اللذان يرتديان الخيش بجعل الصبي يرى جثتي الحصانين. لم يكن قد أخبر أحداً عن هذه الحادثة. كان يذكر تلك الحادثة بوضوح من دون أن يبحث عن تفسير لها. كانت قد اكتسبت صفة السوريالية لرؤية لا يمكن دحضها. بالنسبة إليه كان عيشه لتلك الحادثة هو التفسير الوحيد لها.

انهمر المطر بغزارة طوال ذلك اليوم. بقرب الممر كانت المياه تجري بسرعة منحدرة إلى الأسفل عبر خندق مرصوف بالحجارة ومليء بالأعشاب. كان بإمكانهما سماع صوت المياه من دون أن يرياها. كلاهما كان يحمل بندقية تحت ذراعه.

قبل ذلك كان الصبي يحكي لخاله حلماً قد رآه في ليلة سابقة.

كنت في المارتين وكان الحر شديداً جدّاً ذكرني بصيف العام الماضي. كنت أسبح وفوق سطح الماء تحلّق على ارتفاع منخفض جدّاً طيور كبيرة الحجم، لكنها لم تكن طيوراً جارحة. في بعض الأحيان كانت رجلا الطير تلمسان رأسي. بعد ذلك بدأت أعداد أكبر من الطيور تتوافد بكثرة ما اضطرني إلى السباحة إلى الضفة والخروج من الماء.

قال جوسلين: أخبرني تيدر بأن هذا العام سيكون عاماً استثنائيّاً لاصطياد البط عند مصب النهر.

بدأت أبحث عن ملابسي. لكن أحدهم كان قد بدلها بملابس أخرى. لم تكن الملابس نفسها التي أتيت بها. كانت زيّاً رسميّاً، زيّاً لجندي. كان الزيّ يناسبني تماماً - أعني أنه كان قد فُصّل من أجلي.

- هل تذكر من أيّ فوج كانت ملابس الجندي؟ سأل جوسلين.
- لا، لا أذكر من أيّ فوج كانت.
- هل كنت ضابطاً من سلاح الفرسان؟
- لا أعلم.

– ربما من فوج الفرسان الثامن، قال جوسلين. كانا قد وصلا إلى ممرّ جبلي. وضع جوسلين يده على سبطانة بندقية الصبي ليذكره بأن عليه أن يطويها ليلقّمها قبل أن يصعد. بمجرد أن قام بذلك نظر إلى الصبي، وفاجأه كم بدا أجنبيّاً. كان إيطاليّاً بكل ما فيه، بدا وكأنه واحد من أبناء ذلك الإيطالي الذي يعمل في متجره. بفم متصلب بالكاد يتحرك، لكن بلهجة لطيفة، قال له: لا، ليس من فوج الفرسان الثامن، ولو حتى في أحلامك. تابع الصبي رواية حلمه: وضعت يدي في جيب سترتي، وفي داخلها وجدت سلطعوناً! نعم سلطعون كبير الحجم ما كان منه إلا أن قرصني. سحبت يدي والشيء الذي صعقني هو أن يدي كانت قد أصبحت سلطعوناً! كان لي ذراع ومعصم، وسلطعون.

– يا له من حلم سخيف! لماذا تقص عليَّ حلماً كهذا؟

– أعتقد أن الحلم يحذرني من أنني سأصاب إذا انضممت إلى الجيش.

– إصابة طفيفة ربما.

– بل إصابة بالغة.

– رأيت حيوان غرير الزرع هذا الصباح، قال جوسلين، كان يجب أن تأتي معي.

– سمعتك عندما خرجت. كنت تصرخ على تيدر بسبب اعوجاج أسنان المهرة وتقدم فكها السفلي.

- لم أجد علاجاً لفم هذه المهرة حتى الآن. قال جوسلين.

بعد ذلك صمت الاثنان.

عندما أصبحا في المنحدر الضيق سأله الصبي: هل وردتك أيّ أخبار عن الخالة بياتريس؟

بدا جوسلين وكأنه لم يسمع. نظر إليه الصبي بطرف عينه.

كانت عينا الرجل نصف مغلقتين ومشدودتين وجبينه مقطب ووجهه مندفع إلى الأمام يشق الهواء الرطب الذي لا ينفك يبرد. بدا أشبه بشخص يحاول أن يحدد مكان شيء في الضوء الذي بدأ يتلاشى. أو رجل يغادر منزله عازماً على عدم العودة إليه مرة أخرى، رجل يشق الهواء بوجهه المندفع إلى الأمام يوحي لك بأنه سيغوص عما قريب في المجهول ويُغرِق في اللامبالاة.

بعد ذلك بعدة دقائق قال: أخبرتني أنه تسري شائعات في ديربان تفيد بأن الحرب تشارف على نهايتها. اللورد روبرتس[1] سيعود قريباً إلى المنزل.

- إذن ستكون بيننا قريباً.

قال جوسلين: كأنك نسيت أنها متزوجة.

١- اللورد فريديريك روبرتس، أحد أنجح القادة الإنجليز في القرن التاسع عشر، وهو الذي قاد إنجلترا إلى النجاح في حرب البوير الثانية.

- أين سيسكنان؟

- ليس عندي أدنى فكرة.

- لماذا ما زلنا نحتفظ بكل أشيائها في غرفتها.

- لأنها ما زالت غرفتها.

- هل سيأتيان إلى هنا؟

مرة أخرى بدا جوسلين وكأنه لا يسمع. خرجا من الممر ليلجا في قلب أجمة كثيفة. كان كلب جوسلين، وهو كلب صيد اسمه سيلفر، ينتظره في نهاية الممر.

- هل تعلم لماذا ترى أحلاماً سيئة؟ قال جوسلين، لأنك تقضي وقتاً أكثر من اللازم في المنزل، ولا تتمرن على الصيد بالقدر الكافي. النساء فقط تقضي معظم وقتها داخل المنزل، أما الرجال فلا. يجب أن تخرج معي بوتيرة أكبر.

فرد عليه الصبي: أعتذر إن كنت قد خيبت أملك. قالها بصلف وكأنه من غير المعقول أن يكون لدى خاله أيّ سبب ليخيب أمله به. عندما أحيي أول حفل موسيقي لي ستكون فخوراً بي.

- لم يعد أمامنا سوى عشرين دقيقة قبل أن يحل الظلام- قال جوسلين- دعنا نجتاز الغابة ونعبر حقل الحجارة. أنت تولى الجهة اليسرى وأنا سأتولى اليمنى. سيلفر، تعال إلى هنا يا سيلفر.

كان صوته يتغير عندما يتحدث إلى الكلب، يصبح أكثر حزماً ولطفاً في آنٍ معاً. أما عندما يتحدث إلى الصبي فكان يتحدث بصوت أكثر ارتفاعاً إلا أنه لم يكن يخلو من التردد.

ذهب كل منهما في طريق وتقدما عابرين الغابة. الأشجار وانحدار الأرض الشديد جعلا من المستحيل أن يبقى كل منهما على مرأى من الآخر.

- هب! هب! صرخ جوسلين ليبين للصبي المسافة التي يتقدم بها عنه.

- هب! هب! ردّ عليه الصبي ليبين له أنهما كانا يتقدمان على المستوى نفسه.

كانت تلك صيحة يُعتقد بأنها لا تنبه الطيور إلى اقتراب الخطر. كانت تبدو أشبه بصوت عصا تقرع إناءً خشبيّاً فارغاً، (خشب الإناء مشبع بالماء)، أكثر مما هو صوت صادر عن إنسان.

لم يتحرك شيء في الغابة. بدت جذوع الأشجار رمادية. كان الكلب يبحث بفتور وكأنه وجد الهواء الرطب المشبع برائحة الخضار الصادرة عن أوراق الشجر الندية كريهاً ومزعجاً.

- هب! هب!

بالنسبة إلى جوسلين تنتمي تلك الصرخة إلى لغة لامتناهية نظريّاً. هاتان الكلمتان المؤلفتان من مقطعين لغويين خشبيين ملأتا الأجمة

بعظمة عُرف سائد، كما لا تستطيع أن تفعل أيّ عبارة أو كلمات أو موسيقى. عبر تلك الصرخة والرد عليها خُلق نوع من التفاهم بين رجال أشراف يتصرفون بتوافق، ومن دون اتفاق، ليعيشوا معاً لحظات معينة من الرقي الذي لا تشوبه شائبة.

- هب! هب!

في هذه المرة كانت صيحة جوسلين موجهة للصبي بشكل خاص ول

طيف. كان يتحدث إلى الصبي... كان يشمله في هذا العُرف العظيم. انتبه الصبي إلى الاختلاف في صيحة الرجل، لكنه ردّ عليه كما فعل في السابق.

- هب! هب!

هذا العُرف وضع الرجال على تماس مباشر، لكنه تماس خاص، مع الطبيعة. هؤلاء ليسوا ملوثين بالرفاهية، لكنهم بالرغم من ذلك متحررون من الحاجة إلى استغلال الطبيعة. تراهم يقتحمون الغابة كسباح يمخر عباب نهر من دون الحاجة إلى عبوره. يعبثون في التيار، يعبثون فيه لكن مع ذلك لا يعبثون به. ما يحميهم من الانجراف هو قوانين تليدة رسخها الزمن ينصاعون إليها من دون جدال... قوانين تحدد طرق تعاملهم مع أدوات ومواقف معينة... الأسلحة، والأحذية، والحقائب، والكلاب، والأشجار، والغزلان وما إلى هنالك. وهكذا لا يُتاح لقوى الطبيعة (سواء الداخلية أم الخارجية) أن تتراكم أبداً... القوانين تفرض الاستقرار والهدوء دائماً، تماماً كدور الهويس في

النهر[1]. رجال كهؤلاء يشعرون بأنهم آلهة تفرض نظاماً جماليّاً على الطبيعة، وذلك فقط من خلال توقيت تدخلهم في سير حياتها وأسلوبهم الراقي في التعامل معها.

- هب! هب!

فكّر جوسلين: إذا تمكن سيلفر من أن يصادف دجاجة برية الآن، يكون الظلام قد حلّ.

بمقتضى هذا العُرف، يرغم التعب الرجال في النهاية على التوقف. يعودون إلى المنزل متعبين جائعين بأوصال جمّدها البرد وأجساد غارقة بالمياه ومسربلة بالطين. وفي المنزل يعرضون على نسائهم وأصدقائهم النفائس الخفية التي نجحوا بالظفر بها من قلب الطبيعة... يعرضونها عليهم وهي ملفوفة بالخرق الموحلة والممزقة التي تغطي أجسامها المتصلبة بعيونهم التواقة التي تنظر ولا ترى، ويقدمونها بأسمائهم وأسماء من شاركوهم الظفر بهذه النفائس.

- هب! هب!

كان دور الصبي هذه المرة ليردّ. فعل ذلك، كما السابق، برتابة خالية من ذلك التواطؤ الجليّ في صوت عمه.

مجارياً عمه في سرعة التقدم، منفذاً ما يُنتظر منه، معلناً عن وجوده بصيحة الردّ المطلوبة منه، خطر للصبي أنه يمكن أن يكون الآن مكان

١- الهَوِيسُ: قنطرةٌ على نهر أَو ترعة ذاتُ حاجز آليّ يحجزُ الماءَ الأَعلى عن الأَدنى.

أيّ رجل بالغ آخر يصعد المنحدر بصحبة عمه. كان قد دخل في الخفاء عالم الرجال.

خرجا من الغابة وتقدما عبر حقل الحجارة المفتوح. لم تعد الصيحات ضرورية بعد أن أصبح بإمكانهما رؤية بعضهما البعض. همس جوسلين بلطف إلى الكلب ليتحقق من مكان وجوده ويضمن ألّا يتقدم عنهما بمسافة كبيرة. كان حديثه إلى الكلب جزءاً من اللغة نفسها.

قفز أرنب بري من مخبئه على بعد خمس وعشرين ياردة منهما. أطلق جوسلين رصاصة نحوه. الصوت وصداه المرتد من مقدمة حقل الحجارة منحا الغسق الرمادي المتسق محوراً يدور حوله للحظة وجيزة، كان الصوتان، صوت الرصاصة وصداها، قطبين مغناطيسيين تتوجه وتشير إليهما كل ذرة من جسد الغسق.

تابع الأرنب البري الهرب، بقيت قوة قفزاته ثابتة لم تتغير. كان يجري في عرض المشهد ما منح الصبي مجالاً واسعاً للتصويب وإصابة الهدف.

رآه وهو يقفز هرباً. تراءى له كلطخة بنية مكسوة بالفراء. شاهد العضلات على طول كتفيه وتحت وركيه تتقلص وهو يراوغ ويسير في خط متعرج. غير مدرك أنه يضغط على الزناد، غير مدرك حتى لارتداد السلاح نتيجة الطلقة حتى بعد وخزة الألم التي تعقبها بثانية: ببساطة رأى الأرنب وهو في منتصف قفزته ينكمش على نفسه ويسقط.

تخيّلوا شبكة غير مرئية يمكنها التحليق في الهواء لكنها تبقى فاغرة فاها كقمع الرياح: الشبكة تحلق في اتجاه الأرنب، الأرنب يقفز داخل

الشبكة التي بالكاد يكفي فمها لاستيعاب رأسه وكتفيه، يضطر وهو يدخل الشبكة إلى أن يتكوّم على نفسه وكأنه يحثّ الخطى لدخول جحره. وبمجرد أن يتكوّم على نفسه ويصبح في داخلها، يمتلئ أسفل الشبكة بالرصاص... وتسقط في الحال إلى الأرض.

كان الكلب ينشج ويئنّ. قال جوسلين وهو يضع يده تحت مرفق الصبي ويمسك بالأرنب البري من قدميه الخلفيتين: في ضوء شحيح كهذا، ما كنت أنا نفسي لأتمكن من ذلك.

***

- ما الذي تعنيه كلمة «castrati»؟ كان قد سأل أمبيرتو بالإيطالية.

Castrati؟ castrati!

تفاجأ أمبيرتو وسُرّ بهذا السؤال. هذا هو السؤال الذي يحمل كل الأجوبة التي يريد أن يقدمها للصبي.

من يكون castrati لا يمكنه أن يكون أباً.

بدأ أمبيرتو يشرح له بشكل مطوّل ومملّ. صبّ كأساً من النبيذ وأصرّ على ابنه أن يشرب. كان أمبيرتو يقاطع أصابع يديه معاً وهو يتحدث مشكلاً منها خطافات تتأرجح.

كان الصبي قد شاهد توم وهو يخصي الحملان: ضربة واحدة من السكين وإذ بالخصيتين تُخرجان من الكيس وتُبصقان إلى الأرض. لكنه لم يربط بين الكلمة الإيطالية ومدلولها الإنجليزي.

استشهد أمبيرتو بنفسه كمثال عن الأب الذي ليس **castrati**، وضرب على الجزء السفلي من معدته براحة يده المنبسطة. انحنى أمبيرتو على الطاولة ليصبح وجهه الضخم قريباً من وجه ابنه. لكن أن تصف أحدهم بأنه castrati اليوم، قال أمبيرتو، فهذا يُعتبر إهانة. لم تعد الكلمة تحمل معناها الحرفي فقط، بل أصبحت تشير إلى الرجل الضعيف، الرجل غير القادر، الرجل الرخو العاجز. أما هو، أمبيرتو، فليس castrati. لم يعد من الممكن لأحد أن ينعته بذلك. كان أمبيرتو قريباً جدّاً من وجه ابنه لدرجة لم يتمكن معها من مقاومة رغبته الملحة في لمسه. أنت هنا يا بني، أنت ابني أنت ابني... قال له.

***

كانت غرفة الأسلحة مربعة وصغيرة ولها سقف عالٍ. في مكان مرتفع على أحد الجدران عُلّق قرنا وعل رماديان يغطيهما الغبار. ضوء مصباح زيتي كان ينعكس من زجاج النافذة التي لا تسترها أيّ ستارة. وقف جوسلين خلف طاولة تشبه الدكة ووضع عليها بندقيته المفكوكة إلى ثلاثة أجزاء. تمدد الصبي في كرسي متهتك أمام الموقد الذي لم تكن تشتعل فيه أيّ نيران.

– لماذا لا تبارك زواج الخالة بياتريس؟ سأل الصبي الذي لم يكن ينظر إلى جوسلين بل يركز نظره على النافذة المظلمة.

– هذه المسألة أكبر من عمرك، ولا يجوز أن أناقشها معك.

جال الصبي بنظره في أرجاء الغرفة المكتظة بالأشياء: أحذية، ومعاطف مطرية، وصنانير صيد، وسلال، وأكوام من إصدارات

قديمة لمجلة Sportman، وقناعان على هيئة وجه ثعلب، وصفّ من الأنابيب، وسُلّم، وعلى كل بروز أو حافة عُلّقت قبعة أو قلنسوة. تذكّر أن الغرفة كانت على هذه الحال منذ أن رآها لأول مرّة وهو طفل قادر على أن يدرك ما يراه. لم يكن يسمح له بدخولها أبداً. لكنه استطاع أن يلمح عبر بابها نصف المفتوح رجالاً بقمصان طويلة الأكمام ونيراناً تضطرم، والتقط أنفه منها رائحة استثنائية. بعد توقف قصير، استأنف الحديث نفسه الذي بدأه من قبل...

قال: تغيّر كل شيء منذ أن رحلت.

كان جوسلين يوصّل معاً أنبوبين نحاسيين بطولين مختلفين ليشكل منهما قضيب التنظيف. كانت الطاولة تعبق برائحة زيت تشحيم الأسلحة. ذكّرت الرائحة جوسلين بوالده. ارتبطت الذكرى في نفسه برائحة البارود والمعدن... برائحة الصيد. استحضرت في ذهنه رائحة طعام يُحضّر لرفاق الصيد. ارتبطت هذه الأخيرة بالعودة إلى المنزل مع الرفاق بعد طلعة صيد، لكن ربما كانت هذه الذكرى مرتبطة بتلك الرائحة عند كل الناس. رائحة زيت الأسلحة، بكل ما تحتويه من كربون، فيها أثر من رائحة الزبدة المنبعثة من الكعكة أو الفطيرة عندما تكون لا تزال ساخنة في الفرن المعدني. تلك هي الرائحة التي تتناقض مع رائحة الليلك. في الغرفة الباردة الخامدة نيرانها، ارتجف جوسلين وسمع نفسه يقول: لم يكن هناك شيء قادر على إيقافها.

- هل أسرها بحبه؟ سأل الصبي.

- بل ركع عند قدميها ككلب.

- هل هي سعيدة معه؟

- لا يمكنها أن تكون سعيدة معه. قال جوسلين، وبعد ذلك، وبحركة عازف تشيللو رومانسي، أدخل قضيب التنظيف في سبطانة البندقية. كانت هذه الحركة تسرّه دائماً. مرر يده على طول المعدن المزرق المصقول للجانب السفلي من السبطانة. من جديد كان يتحدث قبل أن يكون قد قرر البوح بما يوجِع روحه. هي إنسانة رائعة بكل المقاييس، ومن حقّها أن تحصل على الأفضل، قال، هكذا خُلقت لتكون الفضلى بين بنات جنسها.

- لكنه وسيم، قال الصبي بطريقة استفزازية.

- بل هو مجرد وغد، قال جوسلين وبدأت يده ترتجف.

- وهل كنتما على وفاق؟

- لم أحتمل أن نكون كذلك.

- تظن أنه وغد إذن؟

وضع جوسلين السبطانة والأدوات على الطاولة واتكأ بيديه الاثنتين عليها.

- لا يجب أن نواصل الحديث في هذا الأمر. قال.

لم يكن يفكر حينها في سن الصبي. لم يكن يحب أن يتحدث في هذا الموضوع مع أيّ كان.

لكن الصبي كان عازماً على إجبار جوسلين على الإفصاح أكثر، وهذا لم يكن نابعاً من كراهية شخصية أو رغبة في إزعاجه، بل للمطالبة بحقه، وأحقيته، بأن يعرف ويناقش أيّ موضوع مهما بلغت درجة حساسيته. بدا وكأنه لم يبقَ شيء مألوف في حياته الآن: من هنا أتى حقه في البحث عن أجوبة لكل أسئلته.

تابع قائلاً: لا أظن أنه يوجد زواج واحد تكون فيه عائلتا الزوجين راضيتين عنه تماماً.

- بل كان الحال كذلك في ما مضى.
- دائماً ما يوجد طرف يضحي، وعادة ما يكون الطرف الأقل ثراءً.

متفاجئاً بالإحساس الغريب والصياغة المنمقة لهذه الملاحظات، التفت جوسلين لينظر إلى الصبي الذي كان غائصاً في كرسيه ووجهه غارقاً في الظل. لم يرَ أيّ بارقة وقاحة في تعابير وجهه. عندما التقت عيونهما، قال الصبي:
- أنت لم توافق على زواج أبي وأمي، أليس كذلك؟
- كان الوضع مختلفاً بالنسبة إليهما.
- تقصد أنهما لم يكونا متزوجين في يوم من الأيام، صحيح؟
- من قال لك ذلك؟
- صبي في المدرسة يدعى تشارلز هاي.
التفت جوسلين ونظر إلى النافذة. فكر أن تربية الطفل ونشأته ككل كانت ضحية أنصاف الحلول التي لجأت إليها أمه والنزوات التي ارتكبتها في حياتها.

كان الصبي ما يزال يتحدث: بمجرد النظر إليهما وهما بقرب بعضهما تدرك أنهما لم يكونا متزوجين يوماً. لا يتعاملان مع بعضهما كزوج وزوجة. ليس لديهما أيّ شيء مشترك إلا أنا.

- تلك ليست طريقة لائقة للتحدث عن أبيك وأمك.

- وهل سيكون من اللياقة أن أكذب؟

- أمر محزن أن تضطر إلى سماع هذه القصص في المدرسة.

- يدعونني بـ «غاريبالدي» لأنهم يقولون إن أمي كانت عشيقة أبي على الأغلب.

- هذا فظيع.

- أضحك عندما يقولون ذلك.

- تضحك؟

- وهل تتوقع مني أن أدافع عن شرف أمي؟

أراد جوسلين أن يخبره بأنه كان قد دخل في جدالات كثيرة مع أمه ليقنعها بأنها يجب أن تخبره الحقيقة. لكنه شعر بأن أيّ شيء يقوله الآن سيكون غامضاً بعيداً عن الفهم لأنه بات ماضياً لا يعيش إلّا في ذاكرته.

التفت إلى طاولته مرة أخرى وبدأ ينظف مخزن الذخيرة.

- لماذا تعتبر النقيب بيرس وغداً؟ سأل الصبي بصوت لطيف يكاد يكون حنوناً بعض الشيء.

- لأنه مجرد أيرلندي متشدق نمرود، وخروف منتفخ بالخراء... مجرد ضابط هزيل له صوت مرتفع نكير لا يستحق أن يكون حماراً ينقلون عليه البضائع.

- تلك ليست طريقة لائقة للتحدث عن صهرك.

قال الصبي ذلك وانفجر بالضحك. جوسلين ضحك أيضاً. ضحكا على سقوط الرسميات التي كانت تحيط بهما. في إزاء هذا

الانهيار كانا للحظة متكافئين. نهض الصبي عن الكرسي ومشى في اتجاه الطاولة. جلس الرجل في الكرسي وغاص فيها. كان يرتجف.

لاحظ الصبي بعد أن أمسك بمخزن الذخيرة بيده، أن القوادح لم يتمّ تحريرها. بضغطه على مقدمة المخزن على سطح الطاولة قام بالضغط على كل مقداح فيه. الحوافّ الحادة للقادح انغرزت في خشب الطاولة وكسرت الصمت. كان سطح الطاولة مغطى بآلاف الندوب والجروح التي خلفتها عمليات تحرير القوادح على مرّ السنين، والتي كان الغرض منها الحؤول دون أن تضعف النوابض.

بدأ جوسلين يتحدث بصوت هادئ خفيض وكأنه يناجي نفسه وهو غائص في أعماق كرسيه يحدق في الموقد:

– لقد اقتلعها من جذورها، اقتلعها من منزلها. لا أحد يعرفها كما أعرفها أنا. مرهفة هي كدمية صينية ناعمة... كدمية صغيرة تحيط الأزهار الناعمة بخصرها. هي بحاجة إلى من يحميها ويمنحها حريتها.

لم يكن بإمكان الصبي أن يرى الرجل لأنه كان متوارياً في كرسيه. كان بإمكانه أن يرى رفّ الموقد القائم فوق الكرسي: توجد عليه دستة من المظاريف المغبرة، وكأس مدورة لشرب النبيذ، وحزام جلدي، وتمثال من البورسلين لراعية بطول ثماني بوصات تقريباً.

– لقد اقتلعها من منزلها. كانت جزءاً من هذا المنزل. كانت تعرفه حقّ المعرفة. لم يكن يخفى عليها أيّ سرّ فيه. كانت الروح التي تهب الحياة لهذا المنزل وكل ما حوله. كانت السبب الذي أعيش هنا من أجله.

حدّق الصبي في تمثال البورسلين... كان ورديّاً تنبعث منه لمعة بيضاء تقريباً في ضوء المصباح.

- بدأت أشعر بالسعادة لأنني قد أتممت عيش نصف حياتي. جزء كبير منها كان جيداً. ولكن من الآن وصاعداً سيصبح كل شيء أسوأ. أصبح الجميع جاهلين ومغرورين ومنهمكين في الحكم على من حولهم. سيكون لدينا خطب وتبادل زيارات وكل هذا الهراء. بتُّ أكره هذه المزرعة الآن. لم يعد أحد يعرف كيف يصبر وينتظر، ذلك أن لا أحد منهم لديه شيء يستحق الانتظار. أنا نفسي لم أعد أعلم كيف أنتظر. كنت في الماضي أنتظرها هي.

توقف الرجل عن الكلام.

- سأذهب لأبدل ملابسي، قال بعد برهة قصيرة، الجوّ بارد هنا.

اقترب الصبي من رفّ الموقد وهو لا يزال يحدق في تمثال الراعية المصنوع من البورسلين.

***

كيف حدث في ٢ مايو من العام ١٩٠٢ أن كانت بياتريس في غرفة نومها، شعرها مفرود ولا ترتدي سوى ملابس نومها ودثار فوقها في منتصف الظهيرة؟

في اليوم السابق، وأثناء سيرها في حديقة الخضروات المسيّجة، لاحظت أن العديد من الفروع الجديدة قد نمت من شجرة الليلك في الزاوية الشمالية من الحديقة. أرادت أن تقطف بعض الزهور لتأخذها معها إلى المنزل. لكن لتصل إليها كان عليها أن تعبر مسكبة

من الأرض الطينية الرطبة المليئة بنباتات الملفوف الفاسدة. نزعت حذاءها وجواربها وتركتها على جانب الممر الترابي. غاصت قدماها في الطين حتى الكاحلين. عندما وصلت إلى الشجرة اكتشفت أن طول قامتها لا يساعدها على الوصول إلى الأغصان. في مكان ليس ببعيد عنها رأت سلّماً أسود متهتكاً مسنداً على الجدار. (أثناء وجودها في جنوب إفريقيا تردّى حال المزرعة والمنزل بشكل كبير). جرّبت الدرجات الثلاث الأولى وبدت لها قوية بما يكفي لتحملها. حملت السلم إلى شجرة الليلك وصعدت عليه. دبور علق بين تنورتها والجدار لدغها في مشط رجلها. صرخت (صرخة صغير حادة وكأنها طفل أو نورس)، وألقت نظرة سريعة إلى مكان اللدغة، وقطفت الليلك ومضت إلى المنزل عارية القدمين لتغسل مكان الإصابة. التهبت قدمها، ولم تنم جيداً تلك الليلة.

في صباح اليوم التالي قررت أن تبقى في السرير. كانت تعلم أن ذلك قرار ما كانت لتأخذه قبل أن تغادر المزرعة. انتظر جوسلين منها أن تدير شؤون المنزل وأن تشرف على سير العمل في مصنع الألبان بعد عودتها. كان في ذلك الوقت يسافر من منطقة إلى أخرى في ليسترشير. كان مسّاح الأراضي الذي أتى إلى المنزل في ظهيرة ذلك اليوم ينتظرها لتحضر له الأوراق اللازمة. الجميع كان ينتظر منها أن تتعامل مع لدغة دبور صغيرة، كان تورمها قد بدأ يخفّ منذ الآن، على أنها شيء عرضي. قبل زواجها كانت تفعل دائماً ما ينتظر منها. الآن لم تعد كذلك.

أعطت تعليماتها ودخلت لتستحم. بجسد لا يزال مبتلّاً وقفت تنظر إلى نفسها في المرآة الطويلة الموضوعة في الحمام.

لم تتظاهر أنها كانت تنظر إلى نفسها بعيني رجل. لم تشعر بأي إثارة جنسية وهي تنظر إلى نفسها. كانت تعتبر جسدها نواة تختفي عندما تسقط الملابس عنه. حول هذه النواة رأت فضاء الحمام يدور. لكن شيئاً كان قد تغير بين هذه النواة والغرفة التي تحويها، ولهذا بدا وكأن كل شيء في المنزل والمزرعة قد تغيّر منذ عودتها. غطت ثدييها بيديها، وبعدها بدأت تحركهما ببطء نحو الأسفل في اتجاه وركيها، ومنهما إلى أعلى فخذيها من الأمام. لم تكن بشرتها ولا لمستها قد تغيّرتا خلال غيابها.

في السابق كانت تعيش داخل جسدها وكأنه كهف على قياسها تماماً. الصخور والأرض التي تحيط بالكهف كانت تشكل بقية العالم بالنسبة إليها. تصور أن تضع يدك في قفاز سطحه الخارجي متصل بكل شيء حوله.

الآن لم يعد جسدها كهفاً. كان جسدها ثابتاً، وكل ما حوله، ما عدا ما كان منها ولها، كان متحركاً. ما كان يُقدم لها الآن يتوقف عند حدود السطح الخارجي لجسدها.

عادت إلى السرير وهي لا تزال ترتدي قميص نومها ودثارها. استلقت على كومة من الوسائد وقلدت صوت الديك الرومي. عندما انتبهت إلى صورة والدها توقفت. بعض النساء قد يعتقدن أن ما تفعله يعكس احتمال أن تكون في طريقها إلى الجنون. بدأت تميل برأسها من جانب إلى آخر فوق كومة الوسائد لتغير زاوية رؤيتها للغرفة. عندما شعرت بأنها بدأت تدوخ، نهضت من السرير ورمت بنفسها على الأرض لتسقط على يديها وركبتيها. الأرضية المفروشة بالسجاد

كانت مستوية وثابتة. على الأرضية المستوية، في ذلك الفضاء الحرّ الذي كان يحيط بها... شعرت بالسعادة.

وقفت أمام رفّ زينتها وهي تحمل بيدها فرشاة شعر مطعمة بالفضة نُقش عليها صورة عروس بحر، وسألت نفسها، كما كانت قد فعلت أكثر من مرة على مدى الشهور الستة الماضية: لماذا لا أشعر بذاك الفقدان العميق. الأسلوب الذي اتبعته للإجابة عن هذا السؤال كان يقوم على البحث عميقاً في ذهنها لتتأكد من صحة افتراضها. بعد ذلك تأتي الإجابة نفسها كل مرة، وتكون مقنعة لها في كل مرة أيضاً: لأنني لا أشعر بذلك وكفى.

لقي الكابتن باتريك بيرس حتفه في ١٧ سبتمبر ١٩٠١ في الجبال الواقعة شمال كآرو العظمى[١] في مستعمرة كيب. تعرض أحد المعسكرات البريطانية إلى هجوم من قوات مغاوير البوير بقيادة الجنرال سماتس. كانت قوات المغاوير في وضع سيّئ تفتقر إلى المؤونة والذخيرة. وفي معركة شرسة وقعت بين الصخور أصيب الكابتن بيرس إصابة اقتلعت نصف رأسه. مقاتل البوير الذي أطلق النار عليه من مسافة قريبة استخدم خرطوشة متفجرة من نوع ماوسر (تُستخدم عادة في المعارك الكبرى) لأنه لم يكن لديه أيّ ذخيرة أخرى. ولاحقاً، بعد أن استسلمت القوات البريطانية، عثر مقاتل البوير على الضابط المشوّه الذي أرداه ميتاً، وشعر بالغضب لأنه اضطر إلى استخدام ذلك النوع من الذخيرة. لكنه عاد ليقول لنفسه إنه لا فرق أبداً بين قتل رجل برصاصة أو نسفه بقنبلة تحوله إلى أشلاء.

١- منطقة شبه صحراوية في جنوب إفريقيا.

الكولونيل الذي حمل إليها خبر موت زوجها قال لها: نحن الجنود رفاق النقيب خسرنا باستشهاده رجلاً وأخاً عظيماً وكسبنا شرفاً كبيراً بالقتال إلى جانبه. هو رجل من الرجال الذين نجلّهم ونبجلهم لأنه ضحى بنفسه في سبيل قضية عظيمة.

ما فجعها كان تصورها للصدمة التي شعر بها زوجها لحظة موته. تخيلته يموت شاعراً بخيبة أمل أخلاقية. لكن حقيقة أن حياتهما معاً قد انتهت جعلتها تشعر بأنها كسبت أكثر مما فقدت. أصبح بإمكانها أن تغادر إفريقيا. أصبح بإمكانها أن تتركه. أصبح بإمكانها أن تترك رفاقه الضباط.

لا أعرف كم من الوقت استمرت علاقة السفاح التي كانت قائمة بين جوسلين وبياتريس.

لا أعرف ما إذا كانت بياتريس قد قبلت بالزواج من الكابتن بيرس لتعيش حياة طبيعية.

السطوة التي مارسها جوسلين على شقيقته كانت في الأساس سطوة الأخ الأكبر التي كانت له أيام الطفولة واستمرت عندما كبرا. كان يفرض حمايته عليها وامتلاكه لها. كان بالنسبة إليها المشرّع الأخلاقي الأوحد في عالم يعرفه أكثر منها. كانت فضيلتها تتجسد في طاعته والانصياع لأوامره وعدم مبالاتها بما يقوله الآخرون. لكن بعد سنّ المراهقة أصبحت هذه السطوة تعتمد على تعاونها معه. فضلاً عن ذلك، فقد أسهم هذا التعاون في تعزيز علاقتهما أكثر مما ساهمت أيّ قدرة مرتبطة بنضوجه في تعزيز حنكته في ممارسة سطوته. هيمنته

عليها أتت نتيجة رغبتها في الانصياع إلى هذه الهيمنة. هكذا تشكلت تلك الحلقة الضيقة التي ولدت فيها علاقتهما وتشكّلت داخل حدودها شخصيتاهما الغريبتان...

وفجأة يأتي الكابتن بيرس ليقتحم هذه الحلقة الضيقة بجسده الضخم وشخصيته المتألقة وحديثه البسيط وصراحته وخلوّه من أيّ تكلف أو تعقيد كما يليق برجل يرتدي زيّاً عسكريّاً أن يكون. غازلها. تودّد إليها. ركع أمامها وأخبرها أنه يتشرف بأن يكون خادماً لها... خادماً عملاقاً لها، قال لها: أعبد الأرض التي تمشين عليها.

لم يبدُ عليه أنه يريد أن يلهو أو يمارس عليها أيّ ألاعيب. بل طلب يدها بشكل رسمي ومباشر لتمنَّ عليه بالزواج به. الاستعارات التقليدية تصبح مقنعة عندما تكون في غاية البساطة. أخذ بيدها ليرشدها... ليريها العالم على طريقته.

قبلت طلبه.

تزوجا في الكنيسة الأبرشية في سانت كاثرين.

رحلا إلى إفريقيا.

تُقدر مساحة سطح الكرة الأرضية بما يزيد عن ٥٢،٥٠٠،٠٠٠ ميل مربع. تحتل الإمبراطورية البريطانية ربع هذه المساحة تقريباً، وتغطي منطقة تبلغ مساحتها حوالي ١٢،٠٠٠،٠٠٠ ميل مربع. الحصة الأكبر منها تقع ضمن المناطق ذات المناخ المعتدل، وهي ملائمة لاستيطان

الرجل الأبيض. المنطقة التي تغطيها الإمبراطورية مقسمة بشكل متساوٍ تقريباً بين نصفي الكرة الشمالي والجنوبي. القطاعات الهائلة لأستراليا وإفريقيا الجنوبية تغطي في ما بينها ٥،٣٠٨،٥٠٦ أميال مربعة في نصف الكرة الأرضية الجنوبي، بينما المملكة المتحدة وكندا، بما فيها الولايات الأصلية في نصف الكرة الشمالي، فتغطي ٥،٢٧١،٣٧٥ ميلاً مربعاً. هكذا يصبح تغير الفصول مكتملاً... بينما يستمتع نصف الإمبراطورية الأول بدفء الصيف يعاني النصف الآخر من برد الشتاء.

بعد بضعة أسابيع من وصولهما، بدأت بياتريس تعاني من الوهام[1]: بدأت تعتقد أن كل ما يحيط بها يصبح مائلاً، وأن كل ما حولها يحدث على سطح مائل لا ينفك ميلانه يصبح أكثر حدّة تدريجيّاً. ومع ازدياد زاوية الميلان يبدأ كل شيء بالانزلاق إلى الأسفل، ويصبح أكثر قرباً من القاع. هكذا إلى أن تمدد السطح المائل ليشمل شبه القارة كلها، أما القاع الذي تنزلق إليه فكان المحيط الهندي.

في وقت مبكر من مساء أحد أيام فبراير من العام ١٨٩٩ في بيترماريتزبرغ استقلت إحدى العربات التي تسير على عجلتين، هذا بالرغم من أن الكابتن بيرس كان يصرّ عليها مؤخراً لأسباب غامضة ألّا تفعل ذلك. لكنها لم تعد تشغل بالها كثيراً بما يتفوّه به زوجها من ألغاز وأمور لا تفسير لها.

١- الوُهَام هو اضطراب عام في التفكير ويتسم باعتقاد خاطئ لا يتزعزع حتى لو اعتقد الآخرون من حوله خلاف ذلك أو برزت له أدلة دامغة تنفي ذلك. ويتصف هذا الاعتقاد بأنه زائف أو خيالي أو مبني على الخداع .وفي عالم الطب النفسي، يتم تعريف الوهم بأنه اعتقاد مرضي (ينتج عن مرض أو عن أحداث مرضية)، ويستمر المريض في تمسكه بوهمه على الرغم من وجود الدلائل التي تثبت له عكس ما يتوهمه.

ارتدى فتى الزولو الذي يجر العربة غطاء رأس ممزقاً من ريش النعام المصبوغ تفوح منه رائحة شعر محروق. ساقاه الطويلتان كانتا مطليتين بالأبيض على نحو غريب. كانت الليلة السابقة قد شهدت عاصفة رعدية، والسماء، التي غسلتها العاصفة، كانت زرقاء فاقعة إلى درجة تصل إلى حدّ الوقاحة. ريش النعام البالي الذي يهتز فوقها بينما فتى الزولو يجري ممسكاً عمودي العربة بيديه وهو بينهما بدا وكأنه يطلي السماء الزرقاء بألوانه لتصبح شبيهة بسطح مصبوغ يمكن لمسه.

مرّا بقرب فرقة من الجنود البريطانيين الراجلين. تحت السماء الزرقاء، تحت الأبنية الشبيهة بأكواخ بُنيت على عجل، على طول الشوارع المكشوفة المستقيمة تماماً، بدت كل فصيلة وكأنها صندوق حُشر فيه عشرون أو ثلاثون رجلاً يرتعشون بعجز وقلة حيلة.

هنا في ديربان لم يكن الناشطون من أبناء جلدتها يكفّون عن النشاط. هنا لكل دقيقة عملها. مرّ فتى الزولو بالقرب من ضباط يمتطون خيولهم ويحنون رؤوسهم بشكل طفيف لدى مرور العربة بجانبهم من دون أن ينظروا إليها. بالنسبة إليهم هي زوجة أحد الضباط. كانت قد اختارت من بين الضباط من رفاق النقيب بيرس هؤلاء الذين تريدهم أن يُقتلوا بمسدس ليدي سميث في حال وجب أن يموت عدد منهم.

بدأت تحدّق في الساقين المطليتين بالأبيض وهي تعدو... تنثني واحدة لتترك المجال للأخرى لتُفرد، وهكذا دواليك. كانت الحركة مختلفة جدّاً عن حركة سيقان حصان الجر من منظور الجالس في العربة، وذاك الاختلاف أربكها. لكن بالرغم من ذلك لم يفضِ شعورها إلى أيّ نتيجة. ما كان يميّزها عن الزوجات البريطانيات اللواتي كانت مضطرة إلى أن تقضي معظم وقتها بصحبتهن هو افتقارها إلى الآراء الشخصية.

كانت قد وصلت إلى مرحلة كرهت فيها صوت الكلام. كانت تثق بمشاعر معينة تسكنها لأنها بالتحديد لم تكن تفضي إلى أيّ نتيجة.

انعطفا إلى شارع أقل اتساعاً لكنه لا يقل استقامة عن باقي الشوارع، وكان يؤدي إلى درب يقع خلف بعض الأكواخ والمناطق غير المأهولة. ألقت الأشجار على العربة ظلالاً متقطعة. التقيا في طريقهما برتل من نساء إفريقيات يسرن على طرف درب عشبي. كان واضحاً من مظهرهن أنهن قد مشين إلى المدينة من مزرعة الماشية التي يعملن بها (كان يسمح للنساء في مناسبات معينة بالمجيء إلى المدينة لزيارة رجالهن الذين يعملون هناك). وكن يحملن علي رؤوسهن قرعات كبيرة الحجم. خفف فتى العربة من سرعته قليلاً. صرخت إحدى النساء على فتى الزولو ببضع عبارات لم تفهم بياتريس منها شيئاً. امرأة أخرى قامت بإيماءة ما وضحكت. لم تنظر أيّ من النساء إليها. اثنتان منهما كانتا عجوزين بأثداء ذاوية. إحداهن كانت تحمل طفلاً.

في نهاية الطريق الضيق التحقا بجادة مزدحمة ووصلا إلى وجهتهما: بوابة الدخول إلى الحدائق الاستوائية. خرجت من العربة وسألت فتى العربة عمّا تحويه تلك القرعات الكبيرة التي تحملها تلك النسوة على رؤوسهن. أخفض رأسه ونظر إليها، فقد كانت أقصر منه بكثير، وأخبرها أنها كانت تحوي بيرة الكافر[1]. تلك كانت اللحظة

١- Kaffir في النص الإنجليزي الأصلي، والتي تعني «غير المسلم» وفي العهد العثماني أصبحت تستخدم لإهانة «المسيحيين»، وكان يستخدمها المسلمون أيضاً في شرق إفريقيا للإشارة إلى الأفارقة المشركين، وعند مجيء البعثات التبشيرية الإنجليزية إلى إفريقيا بدأت تستخدم هذه الكلمة للإشارة إلى شعب قبائل البانتو في جنوب إفريقيا (١٧٣١)، من هنا أتى استخدامها في اللغة الإنجليزية للإشارة بشكل عام إلى «السود في جنوب إفريقيا» بغضّ النظر عن معتقداتهم.

التي مال فيها كل شيء حولها إلى الأسفل للمرة الأولى. اضطرت إلى أن تمسك بقضبان سور الحديقة الاستوائية خوفاً من الانزلاق. تعلقت بالقضبان وحشرت رأسها بين اثنين منها. لبث فتى العربة يحدق فيها مذهولاً حتى أتى شرطي لينذره ويبعده عنها.

المرة الثانية كانت في ديربان أثناء حضورها حفل عشاء في استضافة مدير الميناء. رأت طاولة العشاء تميل. رفعت يدها لتحمي نفسها من شمعدان فضي خشيت أن يسقط عليها ويحرقها. وبصدور هذه الحركة المفاجئة منها (والتي كانت غير مفهومة تماماً لكل الجالسين على الطاولة) أسقطت كأس النبيذ التي كانت أمام أحد الضيوف.

في وقت لاحق من تلك الليلة، الكابتن بيرس، الذي أصبح رقيقاً وشبقاً بتأثير الكحول، همس في أذنها بصوت يشبه الفحيح وينضح بعاطفة مشبوبة: العبدة الخرقاء، يا حمامتي، يجب أن تُعاقب، لا بدّ لي من أن أقيدك الليلة مرة أخرى. وإذا حاولتِ أن تفلتي يا بياتريس، سأحكم الوثاق أكثر. تحدثي إليَّ يا بياتريس، قدمي لي فروض الطاعة...

مع تفاقم حالة الوهام التي تعاني منها وارتفاع وتيرتها، تراجع الشعور بأن كل شيء يتعرض للإمالة ليفسح المجال لقناعة مطلقة بأن كل شيء مائل فعلاً. فجأة بدأت تقتنع بالأمر بدلاً من أن تشعر به.

تدرك أن هناك طريقة أخرى لرؤيتها ورؤية كل ما يحيط بها، والتي يمكن تعريفها فقط بأنها الطريقة التي لا يمكن لها هي نفسها أن تراها أبداً. هذه هي الطريقة التي تُرى بها الآن. فمها يصبح جافّاً. تضغط عليها المشدات التي ترتديها بقوة أكبر. كل شيء يميل. ترى كل شيء

بوضوح واعتياد. لا ترى أيّ شيء مائلاً، لكنها مقتنعة، ومتأكدة تماماً، بأن كل شيء قد تمت إمالته.

حتى عندما كانت نوبة الوهام تمرّ وتنقضي، لم تبدُ لها إمكانية أن تكون شبه القارة قد تمّت إمالتها فكرة غير قابلة للتصديق: على العكس بدت لها هذه الفكرة تتطابق تماماً مع الأشياء الأخرى التي تعيشها في حياتها اليومية وتمنحها مزيداً من المصداقية.

شيئاً فشيئاً بدأ الألم المصاحب لحالة الوهام يتضاءل. لم تستشر أحداً في الأمر. لم تعتبر حالتها الشاذة تلك باعثة على القلق. تقبلتها كنتيجة لعيشها في بيترماريزبرج في البداية، وبعدها في ديربان، ولاحقاً في كيب تاون. لم تعد تتساءل ما إذا كانت تفقد عقلها، بل كانت تتحين الفرصة للهرب بدلاً من ذلك.

كان الاضطراب الذي عصف ببياتريس عائداً على الأرجح في جزء منه إلى اكتشافها حقيقة زوجها عندما يخلع زيّه العسكري. لم يكن يطلب منها سوى أن تسمح له بأن يقيدها وأن يسيء معاملتها قليلاً. مجرد تقييده لها كان كفيلاً أحياناً بجعله يبلغ النشوة الجنسية... لم تكن تعاني من تعنيفه لها، بل من عارها وخيبة أملها. قد يكون المناخ غير المألوف لناتال ومستعمرة كيب قد فاقم من الاضطراب العصبي الذي عصف بها. لكن كان هناك عامل آخر...

خديعة أماكسوسا العظمى

في ٢٣ نوفمبر من العام ١٨٤٧ اجتمع السيد هاري سميث،

الحاكم البريطاني لمستعمرة كيب، بزعماء قبائل أماكسوسا عند الجبهة الشرقية. أخبرهم أن مقاطعتهم، وهي الأكثر خصوبة في جنوب إفريقيا، سيتم إلحاقها بملكية كافاريا البريطانية وجعلها تابعة لها. بعد فترة ليست بالطويلة كان واضحاً أن قبيلة غايكا وزعيمها سانديلا عازمون على المقاومة حتى آخر نفس. استدعى هاري سميث زعماء القبائل مرة أخرى. رفض سانديلا المجيء. عندئذٍ جرّده هاري سميث من زعامته للقبيلة، وعيّن بدلاً منه قاضياً إنجليزيّاً يدعى مستر براونلي زعيماً لقبائل غايكا. على يقين من أنهما قد تعاملا مع الوضع بحنكة، أصدر الرجلان الإنجليزيان أمراً باعتقال سانديلا. القوات التي أرسلت للقبض عليه تعرضت إلى كمين وأعلنت قبائل غايكا العصيان. تعرّض المستعمرون البيض في القرى الواقعة على طول الجبهة للهجوم، وقُتل عدد كبير منهم أثناء الاحتفال بأعياد الميلاد. هكذا اشتعلت حرب «الكافر» الرابعة، والتي كانت المرحلة قبل الأخيرة في صمود شعب أماكسوسا الطويل دفاعاً عن استقلاله، والذي تواصل ستين عاماً.

بحلول العام ١٨٥٣ تمكنت القوات البريطانية الجرارة بكل ما لديها من إمكانيات وميزات (كلفت تلك الحرب وزارة المستعمرات حوالي مليون باوند) من تحقيق نصر عسكري على القبائل. ومن ثم في العام ١٨٥٦ لجأ البريطانيون إلى ما سيسمونه بعد ذلك «خديعة أماكسوسا الكبرى» التي أسست للمرحلة الحاسمة التي قضت على كفاح شعب أماكسوسا دفاعاً عن أرضه وسيادته.

فتاة تدعى نونغويس أخبرت والدها أنها بينما كانت ذاهبة لتملأ الماء من أحد الينابيع التقت بغرباء تبدو عليهم السلطة والهيبة والوقار. ذهب والدها ليلتقي بهم. أخبروه بأنهم أرواح موتى أتت لتساعد

شعبه على إغراق الرجل الأبيض في البحر. قام الرجل بنقل القصة إلى ساريلي، أحد زعماء القبيلة، الذي أعلن أنه يتوجب على الشعب القيام بما أمرت به الأرواح. أمرت الأرواح أهل القبيلة بقتل كل ما لديهم من ماشية وأنعام، وبإتلاف محاصيلهم كلها حتى آخر حبة ذرة. كانت قطعانهم قد أصبحت نحيلة عجفاء ومحاصيلهم شحيحة نتيجة لفقدان الأراضي التي كان الرجل الأبيض قد استولى عليها. أخبروهم بأنهم عندما يقومون بقتل كل رأس ماشية وإتلاف كل حبة ذرة لديهم، ستنشق الأرض وتخرج لهم منها أعداد لا حصر لها من الأبقار السمينة، وستظهر أمامهم حقول شاسعة من الذرة الناضجة، وسيزول المرض والعناء، وسيصبح أهل القرية أكثر جمالاً وشباباً كل يوم، وسيهلك قوم الرجل الأبيض في اليوم ذاته وينقطع دابرهم.

أطاع أهل القرية الأمر. كانت حياتهم وثقافتهم تتمحور حول قطعانهم ومواشيهم. في تلك القرى كانت أعداد رؤوس الماشية مقياساً لثروة المرء. عندما تتزوج إحدى الفتيات يقوم والدها، إذا كان ثرياً بما يكفي، بمنحها بقرة، **ubulungu** «فأل الخير»، ولا يجوز إطلاقاً ذبح هذه البقرة، ويجب أن تؤخذ شعرة من ذيلها لتربط حول عنق كل طفل من أطفال المرأة عند ولادته. ولكن بالرغم من كل ذلك أطاعوا الأمر. ذبحوا مواشيهم، حتى أبقارهم المقدسة تلك، وأحرقوا محاصيلهم.

شيّدوا حظائر جديدة للأبقار السمينة الموعودة، وحضّروا أكياساً جلدية ليحتفظوا فيها بالحليب الذي سيتدفق أنهاراً وسواقي. حبسوا أنفاسهم وتسلحوا بالصبر وقعدوا ينتظرون فرصتهم لأخذ الثأر من الرجل الأبيض.

حلّ اليوم الموعود الذي كان من المفترض أن تتحقق فيه النبوءة. أشرقت الشمس وغربت مع آمال مئات الآلاف من البشر. أتى الليل وما أتت الثروات الموعودة.

قُدرت أعداد الذين قضوا جوعاً بخمسين ألفاً. آلاف مؤلفة رحلت عن أرضها بحثاً عن عمل في مستعمرة كيب. والقلة القليلة التي بقيت استُغلت كأيدٍ عاملة بلا مأوى أو أملاك. (بعد ذلك تمَّ استخدام الكثير منهم كعبيد يعملون بأجر يومي في مناجم الذهب والألماس في أقصى الجنوب). وفي أراضي أماكسوسا الخصبة الغنية، والتي تمَّ إخلاؤها من ساكنيها، استوطن مزارعون أوروبيون وبدؤوا يفلحون الأرض ويُفلحون فيها.

***

– من هو صاحب هذا التمثال؟ سأل الصبي.

– الدوق الأعظم، فيرديناندو بريمو. إنه الأب الروحي لليفورنو. هو من أسس المدينة، وهو في الأصل من فلورنسا، قال أمبيرتو.

– ممّ هو مصنوع؟

– لم أفهم.

– هل هو مصنوع من الحجر؟ سأل الصبي.

– بل من البرونز، معدن بديع Precioso

– لماذا هؤلاء الرجال مقيدون بسلاسل؟

– هؤلاء عبيد. عبيد من إفريقيا.

– يبدون أقوياء جدّاً.

– يجب أن يكونوا أقوياء، فقد كانوا يُستخدمون في... كيف أقول ذلك؟ بدأ يقلد رجلاً يجذف.

- تقصد التجذيف؟
- نعم... نعم، هذه هي.
- وما الذي جعلهم يبنون تماثيل لهم؟
- Ma perche’ son magnifici لأنهم رائعو الجمال.

***

وضعت بياتريس فرشاة الشعر المطعمة بالفضة المنقوش عليها صورة عروس البحر، ومشت نحو النافذة، ووقفت قرب الزهرية التي وضعت فيها زهور الليلك.

عندما دخل الصبي إلى الغرفة، قالت: لم يسبق لي أن رأيت ليلكاً يصدر عنه كل هذا العطر. بعد ذلك طلبت منه أن يرى ما إذا كان راعي الأبقار ما زال مريضاً. بعد أن غادر الغرفة فكرت في نفسها: عمري يزيد عن ضعفي عمره.

قصيدة مهداة إلى بياتريس

لا يكف الضباب عن تغيير حجمي
وحدها الأراضي لها وزن على الخارطة
والأصوات التي أصدرها تصدر في مكان آخر
أسيرٌ أنا في صمت صدري المذهل
سأجدل شَعري في عبارات
لن تنحل
أسير حيث أتمنى
أصفادي لن تقيد إلّا معصمَي
لكنها
ستكسر الصمت المذهل في صدري.

البويريون

«عصرنا هذا مرجل هائل تغلي فيه كل الحقب التاريخية وتمتزج».
أوكتافيو باز.

دُمرت الحضارة الإفريقية في جنوب إفريقيا على يد البويريين. احتل البويريون جنوب إفريقيا لصالح البريطانيين لاحقاً. كان البريطانيون يقدمون لهم العون والدعم على فترات متقطعة في عملية احتلالهم لها، إلا أن العلاقة الرئيسة بين المحتلين ومن وقع عليهم الاحتلال كانت قد صُنعت على يد البويريين. لكن البويريين أنفسهم كانوا لاجئين - بالمعنى الجغرافي والتاريخي للكلمة. كانوا يهزمون بغرض إيقاع الهزيمة... يهزمون هرباً من هزيمتهم. عندما بدؤوا يتغلغلون في هاي فيلد في القرن الثامن عشر، كانوا يفعلون ذلك هرباً من سيطرة شركة الهند الشرقية الهولندية في كيب تاون، وبمجرد أن فعلوا ذلك، تقهقروا تاريخيّاً. تخلّوا عن المزارع التي كانت تمنحهم الاستقرار، وتحولوا إلى رعاة رحالة وصيادين هائمين لا مستقر لهم.

الهجرة الكبرى التي حدثت في العام ١٨٣٥، وقادت البويريين إلى ناتال وترانسفال وولاية أورينج المستقلة، كانت تراجعاً عن المطالب والضوابط في كافة المجالات الاجتماعية والصناعية والسياسية والأخلاقية لأوروبا القرن التاسع عشر. بخلاف المحتلين الآخرين، لم يجلب البويريون أيّ «حضارة» إلى «القارة السوداء»... هم أنفسهم كانوا منكفئين عن تلك «الحضارة».

لم تعد وسائلهم الإنتاجية أكثر تطوراً من وسائل شعوب البانتو[1]

١- القبائل الإفريقية التي تتحدث لغة البانتو.

الذين استولوا على أراضيهم وأحرقوا محاصيلهم وسرقوا قطعانهم. أسلحتهم النارية وأحصنتهم وعرباتهم السريعة منحتهم الأفضلية التكتيكية اللازمة. لكنهم لم يكونوا قادرين على تطوير ما استولوا عليه. حتى إنهم لم يكونوا قادرين على الاستفادة من اليد العاملة المكونة من أهالي المناطق العشوائية التي أسسوها. مع كل حقوقهم في السيطرة على الأرض والعرض والمكان، وهي حقوق اعتبروها مقدسة وهبة من الله، كانوا عاجزين عن فعل شيء. كانوا عقيمين... كانوا بمفردهم وسط أولئك الذين هزموهم عبثاً.

في باقي العالم الذي احتلته واستعبدته واستغلته أوروبا، كانت الشعوب الأصلية تُذبح وتُقتل (في أستراليا وأمريكا الجنوبية) وتُهجر إلى مناطق أخرى (من غرب إفريقيا كعبيد): أو يتمّ توطينهم في مناطق أخرى وتكييفهم ضمن نظام اجتماعي وديني وأخلاقي يعقلن ويبرر الاحتلال (الكاثوليكية في أمريكا اللاتينية، والممالك الأميرية والنظام الطبقي الذي تمَّ توحيده في ظل الحكم الإمبراطوري للهند). في جنوب إفريقيا، لم يكن البويريون قادرين على تأسيس سلطة «أخلاقية» مبررة بحدّ ذاتها. لم يتمكنوا من التوصل إلى اتفاق مع هؤلاء الذين جردوهم من حقوقهم وأراضيهم وأملاكهم. لم يكن الاستقرار متاحاً لهم، ذلك أنهم لم يتمكنوا من استغلال ما استلبوه. وبالتالي كان النفاق أو الغرور أو الفساد بين البويريين أقل مما هو عند باقي المحتلين. لكنهم شعروا بأن وجود أيّ إفريقي هو بحدّ ذاته باعث على الانتقام الأسود العظيم الذي كانوا يخشونه طوال الوقت. ونظراً إلى أن الاستقرار لم يكن ممكناً، كانوا مضطرين إلى تبرير وجودهم وتفسير وضعهم وإثبات أحقيتهم من خلال شعور فردي. كل فرد من البويريين كان عليه أن يؤكد لنفسه ليلاً ونهاراً أن شعور التسلط

والسيادة عنده أقوى من شعور الخوف. لم يكن شيء قادر على إزاحة الخوف إلا الكراهية.

السياسة بالنسبة إلى بياتريس كانت واحدة من تلك المهن المتاحة للرجال فقط، لا أكثر ولا أقل. (كانت تنظر إلى تفرّغ لورا للسياسة على أنه دليل على قسوة قلبها). كانت مهتمة بالأساطير الإغريقية وشخوصها - إلا أنها لم تكن مهتمة بالتاريخ. لم تكن تعلم شيئاً عن المصير الذي لاقته أماكسوسا. عندما كان الناس يتحدثون، كما يفعلون دائماً في موسغريف رود، أو ديربان، أو في فندق رويال، عن «خيانة البويريين» و«فظاعات البويريين»، كانت تشعر بأن كل واحد منهم ينتظر الفرصة ليؤدي دوره ويتنافس في قول العبارات اللازمة مع ما يلزمها من إيماءات وإشارات شخصية عاطفية وكأنهم مطربون يقومون بتجارب الأداء. لم تكن المنافسة لتنتهي طالما أن هناك شخصاً آخر حاضراً في الجلسة. مواضيع الحديث الأخرى كانت تتضمن الإمبراطورية، وشخصية العبد الكافر، ومواصفات الجندي البريطاني، ودور البعثات التبشيرية. لم تكن تتعب نفسها أبداً في صنع الفرضيات والبحث عن المعاني المبطنة للعبارات التي تقال. كانت المنافسة والفرضيات يضجرانها على حدّ سواء. اكتسبت عادة التظاهر بأنها تستمع إلى الحديث بينما كانت تحلل حركة أصابع المتحدث، أو تنظر من النافذة، أو تتساءل ما الذي ستفعله بعد نصف ساعة من الآن. هكذا كان وقتها وانتباهها يبقيان في أغلب الوقت غير مشغولين، وهذا ما أودى بها إلى حالة الاضطراب التي عصفت بها، وأفسح المجال لاحتمال أن تكون شبه القارة تطارد روحها.

لأنها تفتقد للحماية التي توفرها التعميمات والأحكام الجاهزة، لأنها سمحت لأفكارها بأن تهيم على غير هدى، لأنها تفتقد لما

كان كل الحكام والقوات العسكرية التي تقمع شعوباً أخرى تحافظ عليه – وهو ذلك الشعور بالواجب الذي لا حدّ له – بدأت تشعر بعنف الكراهية التي تختبئ في فجوات العُرف الاجتماعي الرسمي... بالعنف الذي سيولد الرغبة في الثأر.

عندما كانت في بيترماريزبورغ شاهدت هولنديّاً مخلصاً (كان مخلصاً للملكة فقط) يضرب عبده الكافر. وهو يضربه كان يصدر صراخاً من حلقه شبيهاً بالضحك. فمه كان مفتوحاً ولسانه قابعاً بين أسنانه. بدا من انفعاله وكأنه لا يتمنى أن يتوقف حتى يفنى ذلك الجسد الذي يضربه: لكنه لم يكن قادراً على إفنائه مهما اشتدت ضرباته. من هنا نبعت الحاجة إلى تلك الصرخة الأشبه بالضحكة. كان تعبيره شبيهاً بتعبير طفل يتبرز عمداً على نفسه. الكافر، الذي كان صامتاً تماماً، تكوّم على نفسه ليخفف من وطأة الضربات التي يتلقاها.

في بعض الأحيان كانت ترى في الطريقة التي يركض بها أيّ إفريقي تحدياً لكل سلالتها.

لم تستطع أن تفسر شعورها لنفسها. هناك معادل تاريخي لعملية القمع النفسي في اللاوعي. ثمة تجارب معينة لا يمكن صياغتها لأنها قد حدثت قبل أوانها. يحدث هذا عندما تكون وجهة النظر الموروثة عن العالم غير قادرة على احتواء أو تفسير مشاعر أو غرائز أثارها وضع جديد أو تجربة كثيفة لم تكن متوقعة من وجهة النظر الكونية. تكبر «الألغاز» ضمن المنظومة الأيديولوجية أو في محيطها. في نهاية المطاف تدمّر هذه الألغاز المنظومة من خلال وضع أسس لوجهة نظر كونية جديدة. يمكن النظر إلى طقوس الشعوذة في القرون الوسطى في ضوء ما تقدم.

لحظة من تأمل الذات ترينا أن جزءاً كبيراً من تجاربنا لا يمكن التعبير عنه على النحو الأمثل، بل يقبع منتظراً فهماً أكثر للوضع الإنساني بشكل عام. في كثير من الجوانب قد يفهمنا من يراقبنا أكثر مما نفهم أنفسنا. لكن هؤلاء سيعبّرون عن فهمهم هذا لنا بمصطلحات غريبة عنا. سيغيرون تجاربنا المسكوت عنها بصورة يصعب علينا فهمها. تماماً كما قمنا نحن بتغيير تجربة بياتريس.

تدرك أن هناك طريقة أخرى لرؤيتها ورؤية كل ما يحيط بها، والتي يمكن تعريفها فقط بأنها الطريقة التي لا يمكن لها هي نفسها أن تراها أبداً. هذه هي الطريقة التي تُرى بها الآن. فمها يصبح جافّاً. تضغط عليها المشدات التي ترتديها بقوة أكبر. كل شيء يميل. ترى كل شيء بوضوح واعتياد. لا ترى أيّ شيء مائلاً، لكنها مقتنعة، ومتأكدة تماماً، بأن كل شيء قد تمت إمالته.

***

جلست متربعة على الحصيرة الموضوعة قرب سريرها لتتفحص لدغة الدبور في باطن قدمها. الحلقة الوردية، التي بحجم نصف بنس، كانت لا تزال في مكانها، لكن الورم كان قد اختفى. استلقت قدمها في يدها وكأنها رأس كلب ينظر في اتجاه الباب. فجأة بدأت تحل أزرار ردائها، وسحبت ثوب نومها إلى ما فوق ركبتيها، ورفعت رجلها وحنت رأسها إلى الأمام واضعة رجلها خلف عنقها. شعرت ببرودة شعرها الذي انسدل على جسدها. حاولت أن تجعل ظهرها مستقيماً قدر استطاعتها. بعد فترة أحنت رأسها، وأنزلت رجلها، وجلست متربعة من جديد وهي تبتسم.

أرى حصاناً وعربة قرب الباب الأمامي لمنزل المزرعة. في العربة يوجد رجل يرتدي ملابس سوداً وقبعة. تبدو عليه الهيبة، لكن لأسباب غامضة يبدو مضحكاً. الحصان أسود كما هو حال العربة باستثناء حوافّها البيض. أنظُر الآن إلى الحصان والعربة والرجل الذي يبدو دقيقاً ونظاميّاً بصورة هزلية من نافذة غرفة بياتريس.

على الطاولة القائمة بين النافذة والسرير الضخم ذي الأعمدة الأربعة أرى زهرية تضم أزهار ليلك بيضاً. رائحة الليلك هي العنصر الوحيد الذي أستطيع أن أعيد استحضاره في ذاكرتي بكامل اليقين.

لا بدّ وأنها قد أكملت السادسة والثلاثين من عمرها. شعرها، الذي عادة ما تسرحه على هيئة كعكة، منسدل على كتفيها. ترتدي رداءً مطرزاً. التطريزات المشغولة على هيئة أوراق تصل إلى كتفيها. أراها الآن واقفة على قدميها الحافيتين.

يدخل الصبي ويعلمها أن أوراق الرجل الذي في العربة كانت صحيحة.

عمره خمسة عشر عاماً. أطول قامة من بياتريس، شعره داكن، أنفه كبير، له يدان رقيقتان بالكاد أكبر من يديها. في المسافة الواصلة بين رأسه وكتفيه فيه شبه من والده – شيء من الثقة والاندفاع.

تمدّ بياتريس ذراعاً في اتجاهه وتفتح يدها.

يغلق الباب خلفه بدفعة واحدة. يقترب منها ويمسك بيدها.

تغيّر اتجاه يديهما بحيث يصبح كل منهما ينظر في اتجاه النافذة. يريان الرجل الذي يرتدي الأسود وهو يغادر ويبدآن بالضحك.

وهما يضحكان يؤرجحان أذرعهما التي يمسك كل منهما الآخر بها، وهذا التأرجح يبعدهما عن النافذة ويأخذهما في اتجاه السرير.

يجلسان على طرف السرير قبل أن يتوقفا عن الضحك.

يضطجعان إلى الخلف ببطء حتى يلمس رأسيهما غطاء السرير. تبتعد عنه قليلاً أثناء اضطجاعهما.

يعي كل منهما طعم الحلاوة الذي يشعر به في حلقه. (حلاوة لا يختلف طعمها كثيراً عن طعم العنب). طعم الحلاوة بحدّ ذاته لم يكن طاغياً لكن تجربة تذوّقه كانت كذلك. هي تجربة مماثلة لتجربة الألم الحاد. لكن بينما يغلق الألم أبواب انتظار شيء ما عدا رجوع الحال إلى ما كان عليه قبل الألم، الحال المنشود الآن لم يكن له وجود من قبل.

من اللحظة التي دخل فيها الغرفة بدا وكأن تسلسل الأفعال التي قاموا بها يشكل فعلاً واحداً... ضربة واحدة.

بياتريس تضع يدها وراء رأسه لتقربه إليها.

بشرة بياتريس تحت قميص نومها أكثر نعومة من أيّ شيء تخيله من قبل. يرى النعومة كصفة ترتبط بشيء صغير ومكتنز (كالإجاصة) أو بشيء مستفيض لكنه رقيق (كالحليب). نعومتها مرتبطة بجسد له جوهر ويبدو ضخماً جدّاً. ليس ضخماً بالنسبة إليه، بل ضخماً بالنسبة إلى أيّ شيء يشعر به الآن. هذا التضخيم لجسدها هو في جزء منه نتيجة

للتقارب والتركيز، لكنه إلى جانب ذلك نتيجة لحاسة اللمس التي تحلّ محلّ حاسة البصر. ليست محدودة الآن بالحيز الذي تشغله... هي الآن عالم كامل لا حدّ له.

تحني له رأسه ليقبل ثديها ويضع حلمتها في فمه. إدراكه لما يفعله الآن يوثّق موت طفولته. هذا الإدراك لا يمكن فصله عن الإحساس والطعم الذي يشعر به في فمه. يشعر بها كلقمة حية، ولأسباب غامضة، منفصلة إلى حدّ ما عن استدارة الثدي وكأنها موضوعة على عصا. ذلك الطعم مرتبط بشكل وثيق بقوام اللقمة وجوهرها ودرجة حرارتها، والتي سيكون من الصعب كثيراً التعبير عنه بمفردات أخرى. هو طعم يشبه إلى حدّ ما طعم العصير الأبيض الذي يسري في سويقة نوع معين من العشب. يعرف أن هذا الإحساس والطعم سيصبحان من الآن وصاعداً أمرين يمكن بلوغهما معاً متى أراد. ثدياها منحاه حريته... أراه الآن يدفن رأسه في الشق الفاصل بينهما.

اختلافها عنه يقوم مقام المرآة بالنسبة إليه. أيّاً كان ما يراه فيها ويتأمل فيه، يزيد من وعيه بنفسه من دون أن يحرف انتباهه عنها.

هي المرأة التي اعتاد أن يناديها بالخالة بياتريس. هي التي تدير المنزل وتعطي الأوامر للخدم. هي التي كانت تشبك يدها بيد شقيقها ليتنزها معاً فوق عشب المرج ذهاباً وإياباً. هي التي أخذته معها إلى الكنيسة عندما كان طفلاً. هي التي كانت تطرح عليه الأسئلة حول ما تعلمه في قاعة الدرس... أسئلة، مثل ما هي الأنهار الرئيسة في إفريقيا؟

فاجأته أكثر من مرة أثناء طفولته. مرة رآها تقعى في زاوية الحقل وبعد ذلك تساءل ما إذا كانت تتبول حينها. كان قد صحا في منتصف

إحدى الليالي ليسمعها تضحك بشكل هيستيري حتى ظن أنها كانت تصرخ. في أحد المساءات دخل المطبخ ورآها ترسم بقرة بقطعة من الطباشير على الأرضية المائلة... رسم طفولي كالذي كان قد يرسمه وهو أصغر عمراً. في كل واحدة من هذه المناسبات كانت المفاجأة تأتي نتيجة لاكتشافه أنها تكون مختلفة وهي بمفردها، أو عندما تعتقد أنها بمفردها.

عندما طلبت منه في هذا الصباح أن يأتي إلى غرفة نومها، كانت قد ظهرت أمامه بذات مختلفة عن تلك التي يعرفها، لكنه عرف أن ذلك لم يكن مجرد اكتشاف بالصدفة بل نية مبيّتة من جانبها. شعرها كان مفروداً ومنسدلاً على كتفيها. لم يكن قد رآه أو حتى تصوره هكذا من قبل. بدا وجهها أصغر حجماً، أصغر من وجهه حتى. بدت قمة رأسها مسطحة على نحو غير متوقع، والشعر فوقها لامعاً للغاية. التعبير المنعكس من عينيها كان جديّاً إلى درجة الجاذبية. رأى فردتي حذاء موضوعتين قرب الحصيرة. كانت حافية القدمين. صوتها أيضاً كان مختلفاً، كانت تنطق الكلمات ببطء أكثر من المعتاد.

قالت: لا أتذكر أنني شممت ليلكاً له مثل هذا العطر من قبل.

لم يكن متفاجئاً هذا الصباح. تقبّل تلك التغييرات. لكنه بالرغم من ذلك كان لا يزال يفكر بها في صباح ذلك اليوم على أنها ربة المنزل الذي أمضى طفولته بين جدرانه.

هي شخصية أسطورية لطالما حاول أن يجمّع أجزاءها وخصالها جزءاً جزءاً وخصلة وخصلة. نعومتها، ولكن ليس امتداد هذه النعومة، كانت

مألوفة له أكثر مما يمكنه أن يتذكر. جلدها الحار المتعرق كنبع دفء متدفق هو ما كان يستشعره في ملابس السيدة هيلين. استقلاليتها عنه هو ما كان يشعر به في جذع الشجرة عندما كان يقبّله. بياض جسدها هو ما أوحى له بالعري كلما كان يسترق نظرة إلى قطعة لحم أبيض يكشفها له الحظ السعيد عندما ترتفع تنورة كاشفة له ما لا يجب أن يراه. رائحتها تشبه رائحة الحقول التي تفوح منها رائحة السمك في الصباح الباكر بالرغم من أنها تبعد عدة أميال عن البحر. ثدياها هما تماماً كما تخيلهما منذ زمن طويل، هذا بالرغم من أن تباينهما، ودرجة استقلالية كل منهما عن الآخر قد أذهلته. كان قد شاهد رسومات على الجدار تؤكد عدم امتلاكها أيراً وخصيتين. (مثلث الشعر الداكن الذي يشبه اللحية جعل غيابهما عن الصورة أكثر بساطة وطبيعية مما تصور). هذه الرسم التخيلي يجسد البديل المبتغى لكل ما كان ينفره أو يستثيره. من أجلها هي كان يتجاهل غريزة البقاء والحفاظ على الذات، كما فعل عندما مضى مبتعداً عن ذينك الرجلين اللذين كانا يرتديان الخيش وجثتي الحصانين يملؤه النفور. هي وهو معاً عاريان يلفهما الغموض... تلك كانت فضيلته... تلك كانت مكافأته.

امرأة أسطورية مألوفة له وأخرى اعتاد أن يناديها بالخالة بياتريس يلتقيان في الشخص نفسه. هذا الصدام يدمر الاثنين معاً بصورة تامة. بعد اليوم، لن يكون لأيّ منهما وجود.

يرى عيني امرأة مجهولة تنظران إليه. تنظر إليه من دون أن تركّز عينيها عليه بالكامل وكأنه، كما الطبيعة، مبثوث في كل شيء.

يسمع صوت امرأة مجهولة تتحدث إليه وتقول: حلو، حلو، آخ، أحلى... فلنذهب إلى ذلك المكان.

بلا تردد يغرز يده في شعر عانتها ويباعد ما بين أصابعه لتتغلل فيه. ما يشعر به في يده مألوف له بصورة غامضة.

تفتح ساقيها... يقحم أصابعه بينهما. مادة مخاطية تغلف أصابعه وتتماهى معها وكأنها طبقة تاسعة من جلده. يحرك أصابعه فيتمدد سطح السائل الذي يغلفها حتى يصل إلى نقطة ينفصل عندها أحياناً. في النقطة التي يحدث عندها الانفصال يشعر ببرودة في جانب أصابعه قبل أن تعود طبقة الجلد الحار الرطب للتشكل من جديد فوق نقطة الانفصال.

تمسك أيره بيديها الاثنتين وكأنه زجاجة توشك أن تصب ما فيها على جسدها.

تتحرك بشكل جانبي لتستلقي تحته.

بظرها يبدأ من أصابع قدميها. صدرها يقبع في داخل بظرها، وعيناها أيضاً. بظرها يغلفها كلها.

يغلفه هو أيضاً.

يأتي الفرَج.

في السابق كان من المتعذر تصوره. مثل ولادة من ولد من قبل.

***

إنها الساعة الثامنة من أحد صباحات ديسمبر. الناس إما في أعمالهم أو ماضون إلى أعمالهم. لم يبزغ النور بعد بشكل كامل ولا يزال بعض الظلام يفرض ضبابيةً على المشهد. غادرت للتوّ مغسلة الملابس حيث الضوء البنفسجي المتلألئ يزيل كل اللطخات الباقية على الملابس والتي لا تراها إلى أن تخرجها من غرفتك وتنظر إليها. وجه الفتاة الواقفة وراء النضد بدا أبيض وكأنها مهرج بعينين مظللتين بالأخضر وشفاه بنفسجيتين مبيضتين إلى حدّ ما. الأشخاص الذين أمرّ بقربهم في شارع أوديسا يسيرون برشاقة لكن بصورة متصلبة وهم منكمشين على أنفسهم مقاومة للبرد. من الصعوبة بمكان تصور أنهم منذ ساعتين فقط كانوا لا يزالون في أسرّتهم ينعمون بالدفء والاسترخاء. ملابسهم، حتى تلك التي اختيرت بعناية شخصية فائقة ومسحة رومانسية، تبدو كلها وكأنها زي رسمي يرتديه من تطوّع للعمل في الخدمات العامة. حتى الرغبة الشخصية والاختيار والأمل قد أصبحت مصدر إزعاج وضرباً من العناء. أنتظر عند موقف الباص. مؤشر باص باريس الأحمر المتأرجح يبدو وكأنه جمرة أخرجت للتوّ من النار وهو ينوس من زاوية إلى أخرى. عند هذه اللحظة أبدأ بالتشكيك في قيمة القصائد التي تتحدث عن الجنس.

النشاط الجنسي أمر واضح بطبيعته، أو بالأحرى، الهدف منه دقيق وواضح. وأيّ غموض تسجله أيّ من الحواس الخمس يميل إلى التشكيك في الرغبة الجنسية كلها. تركيز الرغبة الجنسية حادّ ومكثف. يمكن أن يُنظر إلى الثدي على أنه نموذج لهذا التركيز، حيث يتجمع من شكل متغير وغامض وهيولي، وفي منتصف كل هذا يبرز الرأس الدقيق والواضح للحلمة.

في عالم مبهم تتدفق الرغبة الجنسية يعززها التوق إلى الوضوح واليقين... بقربها تتخذ حياتي نسقاً ونظاماً ثابتاً.

في عالم تراتبي جامد تتعزز الرغبة الجنسية بالتوق إلى يقين بديل... معها أصبح حرّاً.

كل التعميمات تتناقض مع الغريزة الجنسية.

كل صفة تجعلها مرغوبة، تؤكد إمكانية حدوثها... هنا، هنا، هنا، هنا، هنا.

تلك هي القصيدة الوحيدة التي يجب أن تُقرض عن الجنس: هنا، هنا، هنا، هنا... والآن.

لماذا الكتابة عن التجربة الجنسية تكشف بشكل صارخ ما يمكن أن يفرض قيداً شاملاً على الأدب المرتبط بحيثيات التجربة ككل؟

في الجنس ينتاب المرء إحساس «أول مرة» بشكل مستمر كلما تكرر الأمر. يوجد عنصر في كل مناسبة من مناسبات الإثارة الجنسية يأسر الخيال وكأن الأمر يحدث لأول مرة.

ما هو الإحساس بـ «أول مرة»؟ كيف، في العادة، تختلف التجارب الأولى عن تلك اللاحقة؟

خذ مثلاً أحد أنواع الفاكهة الموسمية: توت العليق. ميزة هذا المثال هي أن تجربة الشخصْ الأولى لتناول توت العليق في كل عام تنطوي على إحساس «أول مرة» مصطنع قد يحفز ذاكرة الشخص على استعادة

التجربة الأولى الأصلية. في المرة الأولى، حفنة من توت العليق تجسد التوت الموجود في العالم كله. بعد ذلك، تصبح حفنة من توت العليق ناضجة/غير ناضجة/ بالغة النضج/حلوة/حامضة... إلخ. حسّ التمييز يتطور مع التجربة. لكن هذا التطور ليس كميّاً وحسب. التغير النوعي يمكن العثور عليه في العلاقة القائمة بين العام والخاص، إذ إنك تفقد الطبيعة الرمزية لما هو في متناول يدك. التجربة الأولى تكون محمية بشعور من القوة الهائلة... قوة تقبض على السحر وتحسن استخدامه.

تختلف التجربة الأولى عن التجارب المتكررة اللاحقة في أنها تجسد كل التجارب: لكن، الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة، وهكذا حتى لانهاية الأرقام، لا يمكنها ذلك. التجارب الأولى تجسد اكتشافنا للمعنى الأصلي الذي تخفق لغة التجارب اللاحقة في التعبير عنه.

يمكن توضيح شدة الرغبة الجنسية الإنسانية عبر الدافع الجنسي الطبيعي. لكن شدة الرغبة الجنسية يمكن قياسها بأحادية التفكير التي تفرزها. أحادية التفكير المتطرف أمر ملازم للرغبة الجنسية. تتخذ أحادية التفكير شكل العقيدة القائلة بأن ما يُرغب فيه هو أكثر شيء مرغوب على الإطلاق. الانتصاب هو بداية عملية إضفاء المثالية الكلية على الرغبة.

في لحظة معينة يصبح من المتعذر إخماد الرغبة الجنسية إلا بتلبيتها. حتى خطر الموت حينها يمكن تجاهله. المرغوب فيه يصبح مرغوباً بشكل حصري وكلّيّ... من غير الممكن الرغبة في أيّ شيء آخر الآن.

أقصر وقت يمكن أن تستغرقه حمأة الرغبة الجنسية هو لحظة

الذروة وحسب. وتستمر لفترة أطول عندما ترتفع شدة العاطفة وتطيل أمد الرغبة. بالرغم من ذلك، وحتى في أقصر حالاتها، لا يجب التعامل مع التجربة على أنها مجرد ردّ فعل عصبي/جسدي. أسلحة الخيال (الذاكرة واللغة والأحلام) يتمّ حشدها، ذلك أن الآخر الملموس والأوحد المحتضن بين ذراعي الشخص الآن هو، على الأقل لبضع لحظات وجيزة، مرغوب على وجه الحصر، هو/هي يجسد/ تجسد، بدون كفاءة أو تمييز، الحياة بحدّ ذاتها.

التجربة = الأنا + الحياة.

لكن كيف يمكن الكتابة عن ذلك؟ هذه المعادلة لا يمكن التعبير عنها باستخدام صيغة الغائب والبيان السردي. صيغة الغائب والبيان السردي هي عبارة عن بنود في العقد القائم بين الكاتب والقارئ الذي ينص على أنه يمكن لكل منهما أن يفهم الغائب أكثر مما يمكنه أن يفهم نفسه، وهذا كفيل بتدمير أطراف المعادلة بشكل كامل.

في كل اللحظات الجنسية المحورية التي يتم وصفها بالبيان نرى أن كل الدالات تشير إلى مدلولاتها بطريقة تُقصي معنى التجربة التي تستخدم للتعبير عنها. كلمات مثل بظر، مهبل، كس، زبر، شعر العانة، أير، زب... وإلى ما هنالك من مفردات تشير إلى أسماء الأعضاء الجسدية التي تنبع منها اللذة الجنسية تبقى بشكل متصلب مُستغربة وغريبة في كل اللغات عندما تُستخدم بشكل مباشر لوصف نشاط جنسي. يبدو لنا وكأن الكلمات التي تدور حولها والمعنى المتجمع في الفقرة الذي تحدث فيها تتم الإشارة إليها بحروف مائلة. هي كلمات غريبة، ليس لأنها غير مألوفة للقارئ أو الكاتب، لكن لأنها، وفقط لأنها، تستخدم بصيغة الغائب.

الكلمات نفسها التي تُستخدم في الكلام المنقول - سواء كان سباباً أم وصفاً، يكتسب شخصية مختلفة ويفقد حروفه المائلة، لأنها حينها تشير إلى الراوي لا إلى الأفعال الجنسية. الأفعال التي تشير إلى الحدث الجنسي (ينيك، يمص، يخرط، يقبّل...) تبقى بشكل ملحوظ أقل غرابة من الأسماء. لا يرتبط إحساس «أول مرة» بالأفعال المرتكبة، بل بالعلاقة بين الفاعل والمفعول به. في قلب التجربة الجنسية، المفعول به، لأنه المرغوب فيه حصريّاً وأحاديّاً وتماماً، يتحول ليصبح كليّاً وكونيّاً. لا شيء يبقى خارج إطاره، وهكذا يصبح بلا اسم.

إليكم هذين الرسمين اللذين ارتكبتهما على عجل:

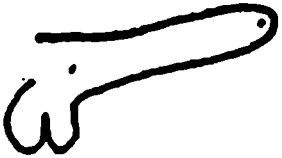

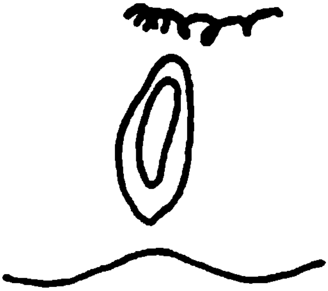

قد يكون هذين الرسمين أقل تحريفاً للحقيقة من الأسماء. من خلال هذين الرسمين ربما يكون من السهل استذكار ما أطلقت عليه صفة «أول مرة» في التجربة الجنسية. لماذا؟ كونهما مصوران ومرئيان هما أقرب للإدراك الحسي. لكنني أشك في أن يكون هذا هو التفسير الحقيقي للأمر. لوحة إباحية رومانية أو لوحة مرسومة بإتقان من عصر النهضة ستكون أقرب للإدراك المرئي أيضاً، لكن بالرغم من ذلك، بالنسبة إلى الهدف الذي نسعى إليه، ستكون أكثر إبهاماً.

هل يعود ذلك إلى أن الرسمين المرتكبين على عجل تخطيطيان وبيانيان؟ مرة أخرى أشك في صحة ذلك. الرسوم البيانية الطبية تكون تخطيطية أكثر من ذلك، ومن جديد أكثر تشويشاً وإبهاماً. ما يجعل هذين الرسمين أكثر شفافية إلى حدّ ما من الكلمات والصور المعقدة هو أنهما مشحونان بأدنى قدر من الحمل الثقافي. دعوني أثبت لكم ذلك بصورة عكسية.

خذ الرسم الأول. ضع كلمة «كبير» تحتها. لاحظ أن هذا يغيرها في الحال ويزيد الحمل الثقافي فيها. لقد أصبحت الآن رسالة موجهة من الكاتب إلى القارئ بصورة أكثر تحديداً. أضف إليها الآن ضميراً لتُقرأ «أيره كبير»، وسترى أن التغيير يصبح أكبر.

خذ الرسم الثاني وضع الكلمات الآتية تحته: «اختر اسم امرأة واكتبه هنا». على الرغم من أن عدد الكلمات قد ازداد، إلا أن الرسم بقي كما هو لم يتغير. الكلمات لا تلعب دوراً في تعديل الرسم أو وصفه أو وضعه في سياق كلامي. وهكذا يبقى الرسم عائداً نسبيّاً لرأي المتلقي. تابع الآن في تنفيذ التعليمات. اكتب اسم بياتريس مثلاً. من جديد نلاحظ أن زيادة الحمل الثقافي يمنح الرسم مزيداً من الإبهام. اسم بياتريس يعيد الرسم إلى نظام التصنيفات السطحي. ما يمثله الرسم الآن أصبح جزءاً من بياتريس، وبياتريس هي جزء من ثقافة أوروبية تاريخية. هكذا نُترك في النهاية أمام رسم غير متقن لعضو جنسي... بينما التجربة الجنسية بحدّ ذاتها تؤكد على الشمولية.

خُذِ الرسمين وضَع ضَمير متكلم متصل يدل على الملكية فوق كل واحد منهما.

اكتُب هنا عن عاشقين في السرير.

تعود عيناها لتركز عليه من جديد. نظرتها إليه تشبه شيئاً خصوصيّاً ودائماً وكأنه بيت أو بوابة قائمة لا تزول سيجد طريق العودة إليها ما دام حيّاً.

تلك نظرة كانت بنت روما قد هيأته لها منذ أربعة أعوام. وراء هذه النظرة تكمن ثقة مطلقة بأنها في تلك اللحظة إذا ما أرادت أن تعبّر عن أيّ شيء، حتى ولو كان بلا أفكار ولا كلمات، وفقط عبر عينيها المنفلتتين من عقال السيطرة، فإنها ستُفهم في الحال. أن تكون موجوداً في تلك اللحظة أي أن تكون مفهوماً ومعروفاً للآخر ككتاب مفتوح. وهكذا تختفي في تلك اللحظة أيّ فوارق بين الشخصي واللاشخصي وبين الذاتي والموضوعي.
لا تدعونا نسيء تفسير تلك النظرة ولو بمقدار شعرة. تلك النظرة هي في آنٍ معاً، وبشكل متكافئ بصورة مطلقة، ممتنة ومتضرعة. لكن هذا لا يعني أن بياتريس ممتنة لما حدث، وتتوسل حدوث ما سيحدث.

لا تتوقف، يا حبيبي، لا تتوقف، تابع... هذا ما يمكن أن تكون قد قالته له أو ما ستفعله: لكن ليس وهي تنظر تلك النظرة.

تفسير كهذا يقتضي، في حال سار كل شيء على ما يرام، بأن هذه النظرة ستتحول في نهاية المطاف إلى نظرة تعبّر عن امتنان صِرف. وهو تفسير عزيز على قلب الذكر خصيصاً لأنه السيّد والمصدر. لكنّه تفسير مزيف.

حقيقة أن تلك النظرة في عيني بياتريس هي في الوقت نفسه، وبمقاييس متكافئة تماماً، متضرعة وممتنة، لم تأتِ نتيجةً لتلازم هذين الشعورين وتواجدهما معاً. ثمة شعور واحد فقط. لديها شيء واحد فقط تعبّر عنه بعينيها الزائغتين. بالنسبة إليها لا يوجد شيء أبداً خلف هذا الشعور. هي ممتنة لما تتضرع للحصول عليه: تتضرع لما هي ممتنة إليه أصلاً.

لنلاحق نظرتها تلك، علينا أن ندخل كينونتها. هناك، الرغبة هي مصدر رضاها، أو ربما لا الرغبة ولا الرضا يمكن المناداة بوجودهما لأنه لا تناقض بينهما: كل تجربة تصبح تجربة مرتبطة بالحرية... الحرية هناك تمهّد لكل شيء ما عدا الحرية نفسها.

النظرة في عينيها هي تعبير عن الحرية التي يتلقاها بحدّ ذاتها، لكن التي بالنسبة إلينا، لكي نتمكن من وضعها في عالمنا المؤلف من الغائبين، يجب أن ندعوها نظرة امتنان وتضرع في آنٍ معاً.

بعد ذلك بوقت قصير تربّت على ظهره وتهمس له: أترى. أترى.

العالم الآن ليس كما كان عليه عندما سقطنا إليه. في دواخلنا هناك حرص على الإمساك بمبضع الجرّاح لنبدأ التشريح والتمحيص. في دواخلنا، في حال كان لدينا الجرأة على السيطرة عليها، توجد رغبة قاطعة بأن نحطم العالم كله بالحالة التي هو عليها الآن، العالم الذي يتظاهر بأنه جزء منا، العالم، الذي نرى بوجهة نظر مترهلة ومفضوحة، أننا ننتمي إليه. قل لي الآن. الآن قل لي... قل لي.

وضعت يدها بحيث تتيح لخصيتيه أن تسترخيا في راحتها.

من البرعم الطويل الضيق تنطلق البتلات الأكثر طولاً: تبدأ أطرافها بالانفصال لكي يتشكل في الطرف القصي للزهرة ما يشبه الفم المفتوح. بعد ذلك تستدير البتلات ببطء وتتشكل كمراوح عندما تتحرر: خلال ثماني ساعات قد تدور الواحدة منها ما يتراوح بين خمس وأربعين درجة وتسعين درجة. وبينما تستدير تلتف لتصبح مصوبة إلى الخلف من ناحية قمعها الصغير المدور الذي يندفع الآن إلى الأمام.

هكذا تتفتح زهرة السيكلامين. وهكذا أيضاً، بشكل متسارع للغاية، يشعر بالانتصاب من جديد، ومن جديد تنحسر القلفة كاشفة رأس الأير مرة أخرى.

الساعات تحتفظ بزمن آخر.

كنت أسير في الغابة بصحبة امرأة، امرأة شقراء وأصغر حجماً مني. كنا سعيدين، لكن لم يكن أيّ منا منهمكاً بالآخر بشكل خاص.

وصلنا إلى مكان رأينا فيه رأس حيوان ميت مفصول في جزء منه عن جسده. ربما كان الحيوان ثعلباً أو حماراً أو غزالاً. كان الرأس فارغاً كقناع أو قفاز. حريّ بمنظر كهذا أن يكون مقززاً، لكنه لم يكن كذلك. على العكس من ذلك كان له تأثير مشجع لنا. بدا فم الحيوان وكأنه يبتسم، عينه كان فيها سلام. جلد العنق المتشقق كان يشبه كمّاً واسعاً ممزقاً. التكشيرة الجانبية المائلة التي قسمت رأسه المتوسط الحجم لم تكن علامة على موت الحيوان، بل كانت مجرد علامة وضعت هناك لتحثنا على الاستمرار.

خرجنا من الغابة إلى سهل منبسط كبير. كانت السماء هناك قاتمة وبنفسجية لكن السهل كان ذهبيّاً شاحباً. جمال ذلك السهل المتألق، الذي كان أكثر إشراقاً من السماء بدرجات، جعلني سعيداً بصورة مطلقة (وأعتقد أن من معي شعرت بالسعادة نفسها). بقربنا تماماً كان يقوم صفان من الأبنية التي تشبه الإسطبلات، إلّا أن كل واحد منها كان مفصولاً عن الآخر مثل الأكواخ الخشبية الروسية الصغيرة. حول هذه الأبنية ترى نساءً ورجالاً يرتدون ملابس طويلة بيضاً. كانوا يبيعون ويشترون رؤوس الماشية. (لم يكن هؤلاء تجاراً أغنياء، بل رعاة من البدو). رأينا رهطاً من الأبقار البيض (أكانت من الثيران الأمريكية؟) ترعى في السهول وتتجه بصورة غامضة نحونا. كنّ يرفسن غيوماً من غبار ذهبي نحو السماء القاتمة. فجأة شعرت المرأة التي معي بالخوف. لم أشعر أنا بذلك، ربما بسبب العلامة التي قدمتها لنا الغابة. طوقتها بيدي وضممتها بقوة. المتعة الجمة الناجمة عن القيام بذلك أصبح من المتعذر تمييزها عن تلك المنبعثة مما يحدث حولنا. لكن بالرغم من ذلك قلت لها، إذا ما بقينا ثابتين في مكاننا لن يقتربن منا. مرّ القطيع هادراً بقربنا، غطانا بغباره الذهبي ونحن ملتصقين ببعضنا وكأننا جسد واحد. لم يمسّنا ولا حتى ذيل واحدة منها.

***

يستلقيان عاريين جنباً إلى جنب. الرياح القادمة من النافذة المفتوحة تبرّد جسديهما وتجعلهما مدركين كم هما نديين وكيف تغطي الرطوبة معدتيهما.

- يجب أن يستمر هذا إلى الأبد، تقول. هذه ليست شكوى. تمسك بإصبعين من أصابع يده. تعلم أن سرعة مرور الوقت قد عادت

إلى وتيرتها الطبيعية. لقد عبرت عتبة أصبح المكان والمسافة والزمن بعدها بلا معنى. كانت العتبة دافئة وندية ومضطربة: حيية إلى درجة يصبح معها أيّ شيء خامداً بلا أيّ مكافئ كميّ - اللهم إلا إذا كان ذلك جبلاً من العصر الجوراسي مسكوناً بديناصورات ميتة: حيية إلى درجة تبدو معها المادة قد تحولت إلى مصدر صوتي فقط.

- يجب أن يستمر هذا إلى الأبد.

يستلقيان على ظهريهما. يسكنه الشعور بأنه قد انتشر وتمدد أفقيّاً. يدرك أن السرير من تحته، وأرضية الغرفة، وسطح الأرض تحت المنزل كلها مستوية. يبدو له كل ما هو قائم ناقصاً وغير متجانس. هو على وشك أن يضحك. فجأة ينتبه إلى صورة والدها على الجدار المواجه للسرير. ولأنها لوحة ريفية غير متقنة تجد صورة الرجل تتذبذب بين كونها صورة محببة من جهة، ومن الجهة الأخرى طفولية ونمطية ترى فيها وجهاً محمرّاً لرجل ريفي مهيوب يجلس في نزل. يبدو الوجه وكأنه قد طلي باللون الوردي. العيون جامدة وفارغة. يلوّح بيده وهو ينظر إلى لوحة الأب.

قصيدة مهداة إليه

وميض مبهر
كالحرير
جسدها بلا حدود
مركزه فم الأرض

حلقٌ ندي

البيت الشعري اللاحق مأخوذ من قصيدة معروفة.

درب الكائن الذي لا حصن يحميه... طريق مسدود

أن تصل إلى هناك
أن تبهر الأرض
بالوميض.

-٥-

البداية كحلم

أغرب ما في الأحلام ليس ما يحدث خلالها، بل ما يشعر به الحالم وهو فيها. تنتابنا في الأحلام أنماط جديدة من المشاعر والانفعالات. في كل الأحلام، حتى السيئة منها، ثمة إحساس بحلّ وشيك نادراً ما يختبره المرء في اليقظة. وبكلمة حلّ أقصد الإجابة عن كل الأسئلة. في حلمي كنا نعبر مدينة ما. ربما تكون تلك المدينة لندن، لكنها كانت مدينة مألوفة على أيّ حال. كانت مدينة كل ما فيها مثير للاهتمام... مدينة كل ما فيها مدهش وحميم في آنٍ معاً. كنت أعبر هذه المدينة على متن حافلة، وفي البداية كنت على قمة الحافلة (كانت حافلة من دورين وليس لها سقف). في بداية الرحلة كان الوقت غسقاً أو ليلاً. أذكر برودة الهواء في الخارج، وبرودة الرياح التي تهب على المقاعد في قمة الباص المنزوع السقف، وفي الوقت نفسه أذكر الدفء المطمئن الذي كنت أشعر به في ملابسي. عبر الباص عدة شوارع مزدحمة بالأشخاص والأضواء ودور السينما ومحطات مترو الأنفاق. كانت رحلة طويلة، وكان لدينا موعد في الطرف الآخر من المدينة، موعد بدا في تلك اللحظة مهماً ومن الواجب الوصول إليه بدون تأخير. لكن بعد مضي ساعة كاملة من السير، أصبح من الواضح أن الرحلة ستستغرق وقتاً أطول بكثير مما كنا نتخيله، هذا

بالرغم من أن الحافلة كانت تسير في الاتجاه الصحيح. وهكذا قررت أنه من الأفضل أن نترجل من الحافلة في المحطة التالية، وأن ننزل في مكان مزدحم حيث يمكننا العثور على سيارة أجرة. كنا سنجتاز المسافة المتبقية على متن سيارة أجرة. اتخاذ ذلك القرار لم يجعلني أشعر بالندم ولو للحظة واحدة على ما فعلناه... لكن بالرغم من ذلك بدا ركوب الحافلة فكرة صائبة منذ البداية. لم أتأخر لحظة واحدة عن اتخاذ هذا القرار بعد أن غادرت الحافلة الطريق العام وبدأت تغذّ السير بدون توقف على طرقات خلفية ضيقة عابرةً المستودعات والجسور وجدران القرميد المرتفعة التي لم نكن قادرين على رؤية ما خلفها. تلك كانت ضواحي المدينة، وبالرغم من ذلك كانت ودودة وحميمة وممتعة للناظر. انتابني الشعور بأننا نقترب من مصب نهر أو ربما من البحر. بات من الواضح في تلك اللحظة أن الدرب الذي سلكته الحافلة لم يكن الدرب الصحيح، وكان علاوة على ذلك درباً مهجوراً، نعم، هذا ما شعرنا به، بالرغم من أنني لم أصغ الفكرة بالعبارات نفسها تماماً في حلمي. مع ذلك كان ركوب تلك الحافلة التي تسير على درب مهجور لا يزال ينطوي على ذلك الإحساس بالصواب. وقد تأكد هذا الإحساس عندما اختفى فجأة الجدار المرتفع الذي إلى جانب الحافلة ليطالعنا بعد ذلك مشهد المياه والسفن تمخر عبابها في الأسفل. وعلى مقربة من السفن رأينا بركة مكونة من ضوء أخضر ساطع في قلب المياه يحلّق عبرها طائر أبيض كبير الحجم. لم يكن يحلّق كما تفعل البجعة... لم تكن ساقاه مطويتين تحته بل كانتا مفرودتين تتدليان من جسده، وعنقه ملتوياً وغير ممدود، وجناحاه الكبيران الثقيلان، واللذان بديا وكأنهما ليسا له، أبيضان مخضبان بلطخات من اللون الأخضر المنعكس من البركة تحته. كانت تلك رؤية لطائر لم يسبق لي أن اختبرتها من قبل، وكانت كافية لتبرر وتفسر كل ما حدث أو يحدث

أو سيحدث. لم تتوقف الحافلة. عدنا إلى الجلوس في مقاعدنا. كانت رياح الليل الباردة تهبّ على وجوهنا.

بعد ذلك تحوّلت الحافلة، التي لم تكن تسير بسرعة كبيرة، إلى قطار... قطار نحن كنا مسؤولين عن قيادته. لم تكن قيادته صعبة من الجانب الميكانيكي. كنا الآن في مقدمة العربة التي تسير على طول السكة الحديدية، والتي ما زالت تتبع خط السير نفسه الذي سلكته الحافلة. أستمر في قول «نحن» عن نفسي، ذلك أنني لم أكن وحدي، لكنني في الوقت نفسه لم أكن بصحبة أحد، كنت أنا المتكلم الحاضر بصيغة الجمع... كنت «أنا» «نحن». أصبحنا الآن في مقدمة القطار الذي بات يسير بسرعة أعلى قليلاً وعلى مسار باتجاه واحد. ومع أننا كنا في نفق عميق بجدران صخرية مرتفعة (أم إنها كانت من القرميد؟ نعم كانت من القرميد الأسود)، كنت أقول بالرغم من أننا كنا في نفق عميق، شعرت بأننا على علوّ مرتفع.

رأيت انحناءً على سكة الحديد أمامنا، لم أكن من يقود القطار في تلك اللحظة، لكنني كنت أراقب تشكيلات خطوط القرميد على قمة جدار النفق الشامخ فوق رؤوسنا، وعلمت من الطريقة التي تتقارب فيها من بعضها بأنه ما بعد الانحناء القادم على السكة سينفرج النفق فاتحاً ثغره ليغمرنا الضوء. كان الليل قد انجلى وقتها. كوني تمكنت من استشراف ذلك من خلال الجدران منحني شعوراً عظيماً بالرضا. (بالرغم من أن شعوري بالسعادة ربما كان عائداً في جزء كبير منه إلى توقعي بأن النفق سينتهي بفتحة وأن الضوء الساطع سيكون في انتظارنا بعد المنعطف). كان القطار يسير بسرعة الآن. وبمجرد أن استدرنا حول المنعطف، تماماً كما كنت قد توقعت، تلاشت جدران النفق، كنا على علوّ شاهق، علوّ شاهق جدّاً، ونرى تحتنا مشهداً كاملاً وخليجاً برمته... يا له من

مشهد شاعري ساحر: بحر أزرق، هضاب، شطآن وديعة، غابات... كل هذا كان قائماً تحتنا. لكن في اللحظة نفسها التي استدرنا فيها حول المنعطف رأينا أن السكة الحديدية كانت تنحدر بشدة نحو الأسفل وكأنها سكة حديدية متعرجة، ليس هذا فقط، رأينا أنها تؤدي مباشرة إلى البحر على عمق مئات الأقدام في الأسفل.

شكّلت تلك واحدة من لحظات الحل الوشيك التي تحدثت عنها منذ قليل. نهاية خط تؤدي إلى البحر، مثل خط سيرنا هذا، فسّرت الطبيعة الغريبة لرحلتنا السابقة كلها وأعطت سبباً لكون الدرب مهجوراً موحشاً. المشهد في الأسفل كان ذا جمال يفوق الوصف، وهذا ما برّر الرحلة برمتها وأعطاها معنى أكثر حتى مما فعل الطائر الأبيض... الطائر الأبيض في هالة الضوء تلك. والآن نرى تحتنا ذلك المشهد الطبيعي البحري كله. لم يكن إيقاف القطار وارداً الآن. للحظة لبثنا في حالة توازن على قمة المنحدر السحيق، وبعدها بدأنا السقوط بسرعة وبلا هوادة. كان هذا متوقعاً منذ اللحظة التي استدرنا فيها حول المنعطف، لكن ذلك لم يقلل من سعادتي أبداً. وعلى الرغم من أن الموت كان قدرنا المحتوم، إلا أن ذلك لم يبدُ مأساويّاً ولا باعثاً على اليأس. قلت صارخاً لمن كانوا معي: اسبحوا! ونحن نندفع بعنف إلى الأسفل. غاص القطار عميقاً في قلب المياه وتلاشى تماماً. عن نفسي لم أكن أغرق، لكن بعضاً منا (من أولئك النابعين من ضمير الجمع المتكلم خاصتي) كانوا يغرقون.

***

«التطور اليوم في أيّ مجال من المجالات ليس سوى عبث الأمس»
لويجي بارزيني، صحيفة كورييرديلا سيرا ، ١٩١٠

أرغب اليوم في الكتابة عن حدث جرى في سبتمبر العام ١٩١٠.

كان نادي الطيران الشراعي في ميلان قد عرض جائزة قدرها ٣٠٠٠ جنيه إسترليني لأول رجل يحلّق فوق جبال الألب. جيو تشافيز الشاب البيروفي البالغ من العمر أربعة وعشرين عاماً والذي تسبقه شهرته في عالم الطيران، كان قد لبث في بلدة بريغ منذ عدة أيام تحت ممر سيمبلون في سويسرا منتظراً أن يتحسن الطقس. العديد من المتسابقين الآخرين كانوا ينتظرون هناك أيضاً.

أغلب الطيارين كانوا من أنصار الرأي القائل إنه قد تأخر الوقت للقيام بهذه المحاولة هذا العام، وإن يونيو أو يوليو سيكونان شهرين مناسبين أكثر لذلك. خلال الأيام الخمسة الماضية كانوا قد قاموا بعدة محاولات للطيران وحلّقوا على ارتفاع يزيد على ١٠٠٠ متر، لكنهم عادوا أدراجهم إلى منطقة صغيرة تدعى سيبيريا حيث تنتصب مرائب من القماش. الكل كان يشتكي من غدر التيارات الهوائية التي تضرب طائراتهم بقوة بمجرد الاقتراب من دخول النجد، كلهم كانوا يشتكون ما عدا وايمان الأمريكي الذي كان يرتدي نظارة أنفية ويتحدّث عن كل ما يجب على الطيار أن يقاسيه ويحتمله ليصل إلى هدفه.

منذ بضعة أسابيع، حطم تشافيز الرقم القياسي العالمي في التحليق على أعلى ارتفاع في الجو. لم يكن هناك حاجة إلى الارتفاع إلى المستوى نفسه ليعبر جبال الألب. لكن بالرغم من ذلك بدت الجبال وكأنها حاجز هائل لا يمكن تجاوزه. كانت أبنية بريغ تجثم واطئة على الأرض أمامهم، والجبال شامخة تُشعر الناظر إليها ألا شيء موجود وراءها. الاعتقاد بأن إيطاليا ودومودوسولا موجودتان على الطرف الآخر هو فعل إيمان محض لا برهان عليه سوى حركة المرور على

ممر سيمبلون، والتاريخ الذي يشهد بأن هنيبعل ونابليون كانا قد عبرا جبال الألب بجيشهما في بقعة قريبة من هنا، لكنه إيمان تنكره الحواس الخمس التي تأسر المرء ضمن هيكلها الخماسي الأضلاع.

أقتبس هنا من تقرير للويجي بارزيني، وهو صحفي إيطالي معروف، نُشر في صحيفة كورير ديلا سيرا في ٢٣ سبتمبر، «الأخبار التي وردت من سيمبلون حوالي الساعة العاشرة من هذا الصباح لم تكن مبشّرة أبداً. في الطرف الشمالي كان الجو هادئاً. لكن رياحاً كانت تهب عبر أسفل الوادي تشكلت على أثرها طبقة من الثلوج على سطوح منازل القرية الصغيرة لتبدو شبيهة بالصخور البيض التي تغطي الأرض بعد انهيار صخري. في مونسيرا وإيطاليا كان الطقس رائعاً.

«كم أتمنى لو يمكنني الذهاب الآن». قال لي تشافيز بحزن: «لن أحظى أبداً بظروف مناخية أفضل من هذه على الجانب الإيطالي».

«لم يتوقف عن مهاتفة صديقه كريستيان الذي كان يدوّن ملاحظات عن الأحوال الجوية التي يراقبها في كولم».

«فجأة سمعت تشافيز يقول: «يجب أن أذهب وأرى بنفسي. أحضروا لي سيارة». أخذنا سيارة سباق تعود لشاب أمريكي، وقدنا صاعدين الجبل بأقصى سرعتنا يصم آذاننا هدير المحرك، وكل منا يجلس متشبثاً في مقعده وكأنه يخشى من أن يُقذف من النوافذ عند الالتفاف بسرعة على المنعطف القادم».

«رياح شرقية قوية للغاية كانت تهب على القمم الأكثر ارتفاعاً التي تشمخ ٣٠٠٠ متر تقريباً في الهواء وتسحب الغيوم معها. أما

في الأسفل فكان الطقس مثاليّاً. كانت الأشجار ساكنة لا يتحرك فيها غصن ولا ورقة. دخان النيران التي أضرمها السياح في الغابة تتصاعد ببطء نحو السماء. لم يكن الجو بارداً جدّاً، بالرغم من أنه على ارتفاع ١٣٠٠ متر كان الثلج يصبغ كل شيء بالأبيض».

«نظر تشافيز حوله ليدرس حالة الهواء وسرعته. الحركة المستمرة في فكه أظهرت أنه كان يكزّ على أسنانه ويطحنها ببعضها. لم تبدر منه أيّ إشارة أخرى تفضح قلقه وانشغال باله. لم يكن حليق الذقن، كان قد استيقظ على عجل في الصباح ونسي هذا التفصيل المتعلق بمظهره في مطلع فجر يوم نصره المُشتهى».

لم يتحدث إلا لماماً. سأل عن الوقت. «يجب أن أذهب» هتف وكأنه يطلق حكماً لا رجعة فيه. وبعد بضع دقائق أضاف: «إذا لم أتمكن من المرور، سأهبط في نزل سيمبلون، سأكون قادراً بالتأكيد على الوصول إلى ذلك الحد.»

ركب كريستيان في السيارة وتبادل بضع كلمات مع الطيار... كان الحديث جديّاً.

- ماذا عن الرياح؟ سأل تشافيز.
- ما زالت الرياح تعصف. أجاب كريستيان.
- وليس هناك فرصة للعبور؟
- لا.
- ما هي سرعة الرياح؟
- خمسة عشر وما زالت في ازدياد.

في وادي كرومباكْ أشجار الصنوبر ترنح وتمايل والأغصان تنحني والأعشاب تفترش الأرض من هول الرياح الجليدية.

- إنها قوية للغاية!. قال تشافيز: انظر كيف تجعل أشجار الصنوبر تتمايل، وحدها الرياح القوية قادرة على فعل ذلك...

سيارة كانت تتقدم إلينا صاعدة من الوادي. كان هذا باولهان الذي أتى ليستكشف الوضع بدوره. توقفنا فأخبرنا باولهان أنه في اتجاه مونسيرا كان الطقس صافياً تماماً. كان الطياران منهمكين في دراسة التيارات الهوائية المحتملة.

كانت الرياح تهب من ناحية فليشهورن التي كانت مغطاة بالثلوج.

- من غير المرجح أن تتغير. قال باولهان: وهذه التيارات ستُحدث دوامات. وإذا ما علقت في واحدة منها... أنهى حديثه بإيماءة معبّرة.

صعد تشافيز وباولهان بضع مئات من الأمتار في اتجاه هابشهورن ولبثا يراقبان من هناك لبعض الوقت. بدت الرياح أقل شدة. كان الشك يعصف بتشافيز عندما عادا.

- انتظر إلى الغد. قال كريستيان.
- أنا ذاهب الآن. قال تشافيز فجأة: فلنذهب بسرعة إلى بريغ.

كان عليه أن يرتدي ملابس تناسب الظروف الجوية القاسية. لم تكن هناك قوانين إلا تلك الخاصة به. لكنه كان يراجعها مع نفسه مراراً وتكراراً لكي لا يبدو ما يفعله اليوم وكأنه يحدث للمرة الأولى. لا شيء سيبدو أصليّاً من الآن وصاعداً، ما عدا حظه الذي لم يكن له سلطة عليه، والترحيب الذي سيحظى به عندما يحط في ميلانو. ارتدى بدلة ضيقة ملتصقة بالجسد مصنوعة من ورق صيني سميك - من نوع

الورق نفسه الذي يستخدمه الخطاطون الصينون المهَرة للكتابة. مرأى ساقيه وهو يرتدي ملابسه منحه بعض التشجيع. كان في السابق بطلاً في الجري. كثيراً ما كان يشعر بضعف في ساقيه قبل بدء السباقات التي كان يخوضها، وها هو يشعر بمثله الآن، لكنه اكتشف بعد تجارب عدة أن ذلك لم يكن ضعفاً بل ترقباً لصافرة البداية. طلب بعفوية من أحد التقنيين أن يعيره قلم رصاص وكتب على القماش الورقي الذي يغطي ساقيه: يحيا تشافيز! فوق البدلة الورقية ارتدى معطفاً ضد الماء مبطناً بالقطن، وفوقه بعض السترات الصوفية، وفوق كل هذا ارتدى سترة صيد جلدية.

عندما تمَّ التحقق من كل شيء وتمَّ تغليف المواسير بالقماش لصد البرد، استعد تشافيز للإقلاع. نظر إلى الجبال التي بدت قبالة السماء الزرقاء أكثر قرباً مما كانت عليه خلال الأسبوع الماضي، وجّه نظرة إلى جمهور المتفرجين المصطفين على طول الحقل: كان عازماً على ألّا يعود وأن يحط مرة أخرى في سيبيريا.

قال لأحد التقنيين العاملين معه: ثمة كاهن هناك، لم يعد ينقصنا الآن سوى حفار قبور.

لوّح بيده لأصدقائه. كان هدير المحرك يطوّقه ويشعره بالأمان، وبعد أن جرى مسافة ٦٠ ياردة رفعه في الهواء.

المتفرجون يرون الطائرة وهي تقلع وتعلو بسهولة ويسر. صوت المحرك يبدو طبيعيّاً. ينظرون عالياً في اتجاه الطائرة بجناحيها الأنيقين المنحنيين نحو السماء ويفكّر الجميع بها، كلٌ بطريقته، كطائر يحلق في السماء. لكنهم لم يعودوا قادرين على رؤية الطائرة بعد أن توجّه تشافيز إلى مدخل النجد. الطائرة تختفي تماماً من مجال الرؤية.

– لقد تحطمت طائرته. يصيح أحدهم.
– لقد ذهب ناحية سفح الجبل حيث توجد أشجار الصنوبر.
– هذا غير ممكن، كان أكثر ارتفاعاً من ذلك.
– لا يمكنك معرفة ذلك.
– انظروا! انظروا! ها هو...
– أين؟
– ها هو يحلق فوق الغابة.

هكذا يعثرون على الطائرة مرة أخرى. لكنها لم تعد الآن تشبه طائراً في السماء. تبدو مقابل أشجار الصنوبر الذي يميل لونها إلى الرمادي، وقرب صلصال الجبل الرمادي بعد ذلك، كحشرة عثّ صغيرة، لكنه عثّ لم يعد قادراً على الطيران، بل يزحف ببطء على سطح نافذة رمادية.

تشافيز يقاوم الرياح التي تهب عليه وتجرفه نحو أقصى الشرق، لكنه يقاوم أيضاً حالة من الوهم. لم يكن قد حلّق هكذا من قبل: كلما يعلو أكثر، يشعر بأنه ينخفض أكثر... وكأن الجبال هي التي تزداد ارتفاعاً.

عندما أصبح من المؤكد أن ذلك لم يكن طيراناً تجريبيّاً آخر، وصل الخبر إلى المدن الأوروبية. في ميلانو رُفع علم أبيض فوق سطح الكاتدرائية. تلك كانت الإشارة المتفق عليها عندما يقلع أحد الطيارين من براغ ليعبر جبال الألب متوجهاً إلى ميلانو. وبمجرد أن يتجاوز الجبال، يُرفع علم أحمر مكان الأبيض. في الساحة المحيطة بالكاتدرائية بدأت بعض الحشود بالتجمع. وفي انتظار رفع العلم الأحمر، كانوا يتبادلون الأحاديث وينظرون بين فينة وأخرى في

اتجاه السماء. كان هذا الحشد، في الشكل والمضمون، وفي الروح والتنظيم، يختلف كثيراً عن الحشد الذي تجمع في الساحة نفسها في العام ١٨٩٨.

فندق فيكتوريا في بريغ يمتلئ بالصحفيين وهواة الطيران ومتتبعي أخباره، هذا بالإضافة إلى أصدقاء الطيارين، ومن ضمنهم الشخصية الرئيسة في هذا الكتاب، والذي سأدعوه الآن، توخياً للراحة والاختصار، جي. هو في عمر الثالثة والعشرين الآن وصديق لتشارلز وايمان، الطيار الأمريكي صاحب النظارة الأنفية.

كان قد حلّق منذ بضعة أشهر مضت كمسافر في واحدة من أولى الرحلات الليلية التي قام بها وايمان. أُعجب وايمان بهدوئه وبحسه الملاحي الدقيق. فجأة ومن دون مقدمات حجبت الغيوم القمر، وأجبرهم الظلام المفاجئ على الهبوط اضطرارياً في بلد مجهول كثير المرتفعات. كانت تلك تجربة قال عنها وايمان، حسب ما ورد في الصحف: أتمنى ألا تتكرر مرة أخرى، لكن لا شك في أنها ستكون أسوأ بكثير لو كنت قد مررت بها وحدي.

تعذّر على وايمان أن يفهم لماذا لا يرغب هذا الشاب، المتحمس كثيراً للطيران، في أن يتعلم كيف يطير بنفسه. أنا مستعد لأن أعلمك، قال له، وعلى فكرة، كثر يصطفون في طوابير من أجل هذه المكرمة في باو ونيويورك.

جي في الثالثة والعشرين الآن، ولا يزال إلى حدّ بعيد كما كان وهو فتى في الخامسة عشرة. ما كانت بياتريس لتجد أيّ صعوبة في التعرف

إليه من أول نظرة لو رأته الآن. لكن بشرته كانت قد أصبحت أكثر شحوباً، ووجهه أكثر نحولاً، وهذا ما جعل أنفه يبدو أكبر مما كان في السابق. ما زالت الثغرات بين أسنانه تجعله يبدو شخصاً خبيثاً وماكراً عندما يبتسم.

قال وايمان بصوته الأمريكي المتأني: سيكون الأمر مختلفاً لو كنت لا تمتلك ما يكفي من النقود، فأنت بحاجة إلى المال-لكي تمارس الطيران. لكنني أظن أن لديك منها ما يكفيك وأكثر.

– لديَّ الكثير من الاهتمامات الأخرى.

– وما هي هذه الاهتمامات الأخرى. ما هو عملك في الحياة؟

ابتسم لوايمان بصورة ساخرة، ذلك أنه كان يعلم أن وايمان غير قادر على اكتشاف الحقيقة حتى ولو كانت أمام أنفه، وقال: أحب السفر كثيراً.

أبرزت النظارة الأنفية براءة عيني وايمان الزرقاوين أكثر. قال له: طيب، عظيم، بإمكانك أن تطير إذن. لديك الشخصية والإصرار اللازمان للنجاح في عالم الطيران.

رفع وايمان اثنين من أصابع يده وهو يقول ذلك محصياً هذين الشيئين.

– أنا قليل الصبر كثيراً على هذه المهنة. لن أحتمل شهراً واحداً بمفردي.

قال وايمان: يجب أن تكون سريعاً. كان ضئيلاً متأنقاً يرتدي ربطة عنق من نوع البابيونة.

– عقلي سيكون منشغلاً بأمور أخرى.
– مثل ماذا؟ سأل وايمان فاتحاً عينيه على اتساعهما.
– الخادمة التي قدمت لنا طعام الإفطار.
– إنها لطيفة، قال وايمان موافقاً وهو يرمش بعينيه.
– إنها تملأ حياتي الآن.
– لكننا لم نلبث هنا سوى يوم واحد.
– هي مخطوبة لموظف يعمل في مجلس المدينة، وسيتزوجان في عيد الميلاد.
– أنت تمزح بالتأكيد، قال وايمان الذي بدأ يعتقد أنه يقول ذلك لاستفزازه.
– لا أبداً، قال جي.

تحدث وايمان وكأنه معلم مدرسة صبور: نحن نصنع التاريخ. نحن روّاد العصر، نحن من سيفتح فصلاً جديداً في كتاب الحياة. قد نكون مجانين إلى حدّ ما، لكن كيف يمكنك أن تقارن ما نفعله، نحن الطيور التي تصحو قبل الجميع، بافتتان لا يدوم أكثر من أربع وعشرين ساعة بخادمة سويسرية صغيرة لم تتبادل معها كلمة واحدة بعد. كيف يمكنك أن تفضّل هذه المتعة المؤقتة على ذلك الإنجاز الضخم. أنت لم تعد طالباً مراهقاً في المدرسة. لا يمكن أن تكون جادّاً. لا يمكنني أن أصدقك. أمسك بيد رفيقه وقال له: أخبرني الآن ما الذي يشغل بالك بصدق؟

– ما إذا كانت قد قرأت رسالتي التي أرسلتها إليها قبل الغداء.

انفجر وايمان بالضحك. وبما أن هذا الشاب القبيح العاطفي

(الذي يحبه بحكم ما مرّا به معاً) لا يريد أن يتحدث بصدق عن نفسه، فقد قرر أنه من الأفضل أن ينهي الحديث. كانت ضحكته هي وسيلته للانسحاب من هذا الحوار. الليلة سنلعب البوكر، ستنضم إلينا أليس كذلك؟ سأل.

في اليوم الذي بعده قال وايمان لصديق آخر: هذا اللعين كتوم للغاية ومليء بالأسرار. لا أعلم ما الذي يخطط له. لا أستطيع أن أجزم ما إذا كان مهتمّاً بالنقود أم بالمغامرة، أم بكليهما معاً، مثلنا نحن على ما أظن.

تصل أخبار إقلاع تشافيز بطائرته ونيته عدم العودة إلى فندق فكتوريا أثناء تناول النزلاء طعام الغداء. يندفع الجميع إلى الشرفة ليشاهدوا الطائرة وهي تحلّق عبر وادي رون قبل أن ينعطف في اتجاه النجد. يرونه فيبدؤون بالصراخ والتلويح بأيديهم.

بعد أسبوع من الشائعات الكاذبة وخيبات الأمل أصبح الجميع مقتنعاً بأن جبال الألب لن يتمّ اجتيازها بالطائرة هذا العام. لماذا لا تخطر في بالهم إذن إمكانية أن تنتهي هذه المحاولة بخيبة أمل أيضاً، ولا يضعون في اعتبارهم احتمال أن يواجه تشافيز تياراً قويّاً جدّاً يجبره على العودة عندما يصل إلى مضيق سالتينا؟ ربما يعود ذلك إلى أنها الفرصة الوحيدة المتبقية لهم: في الغد سيرحل الجميع، ولهذا يتمسكون بهذا الأمل الأخير. وربما لأنهم كانوا قد رأوا تشافيز، وراقبوه على مدى أسبوع، وقرؤوا ملامح وانطباعات وجهه. هنا لا نتحدث عن مصيره وحظه، بل عن شخصيته.

يرى تشافيز الحشد على الشرفة في الأسفل لكنه لا يلوّح لهم. كان

واقعاً تحت تأثير الخرافة في تلك اللحظة... المرة القادمة التي يلوّح فيها لأحد ستكون عند وصوله إلى هدفه.

على مدى الأسبوع الماضي كان العديد من الفلاحين قد أتوا إلى بريغ يحدوهم الأمل برؤية الطائرة وهي تختفي فوق الجبال. ها هم عمال الفندق، النادل والنادلات، والطاهي، وغاسلو الصحون، والبستاني وزوجته يملؤهم الحماس مثلهم مثل نزلاء الفندق. هذا الحماس ينطوي على العديد من العوامل... الفضول، عدم التأكد من النتيجة، إحساس بالظفر وتحقيق الإنجاز لأنهم كلهم كانوا في وقت ما على مقربة من هذا الرجل الذين يرونه الآن محلقاً في السماء... لكن ما قد يكون أعمق من هذا وذاك هو الرضا المنبعث من عيش لحظة يؤمنون إيماناً مطلقاً بأنها ستكون تاريخية. هذا نمط من أنماط الرضا الغريزي جدّاً، رضا يربط الزمن الذي عاش فيه الإنسان حياته بزمن أسلافه وأخلافه. هكذا تنتصب راية الأحداث التاريخية العظيمة بجوار حياة الإنسان البسيط الذي عايشها وشهد عليها.

عندما غادر جي غرفة تناول الطعام، لم يخرج إلى الشرفة، بل اندفع مسرعاً إلى الفناء في مؤخرة الفندق حيث يوجد بناء خشبي ضخم. الدور الأرضي منه كان مفتوحاً مثل إسطبل، وفيه ترى حوضاً حجريّاً ونافورة تتم حولهما أعمال الغسيل الخاصة بالفندق. وفوقه، في الدور الثاني، تقيم الخادمات العاملات في الفندق. كانت تقف على السلم الخشبي الخارجي محدقة في السماء. ناداها باسمها، ليوني، وأشار لها بيده أن تنزل. أمسكها من ذراعها وقال لها أن تسرع وأخبرها بأنه يمكنهما الرؤية بشكل أفضل من شرفة غرفته.

كان بإمكانها أن ترفض حينها. كانت تلك اللحظة الأضعف في خطته. كانت تعلم علم اليقين أن أمرين يحدثان في الوقت نفسه: الطائرة تحلق عالياً فوق رؤوسهم في تلك اللحظة، والرجل الذي طاردها بالرسائل، والنكات، والهمسات، وعبارات الحب، والإطراء البليغ والمبالغ فيه على مدى خمسة أيام يستعجلها لتذهب معه إلى غرفته، وفوق هذا وذاك، عرفت أنه كان يعرف أن لديها استراحة تستمر ساعتين بعد ظهر كل يوم. تبعته لأن غرابة الحدثين اللذين كانا يقعان في الوقت نفسه أكدت أن تلك اللحظة كانت استثنائية. صوت هدير المحرك، والصرخات المليئة بالحماس، وحقيقة أن الجميع كانوا يشيرون بأيديهم إلى السماء وهم يديرون ظهورهم لها... كل هذا شجعها على استغلال ذاتها الاعتيادية، غير الاستثنائية. وقف في مدخل الغرفة وأفسح لها المجال لتدخل. بدت وكأنها تتسلّل من خلف ذاتها مختبئة وراء حضوره. كانت قد بدأت بالضحك وهي ما تزال على السلم.

في غرفته خيَّم عليها الصمت. مشى بخطوات واسعة عابراً الغرفة في اتجاه النافذة الفرنسية في الشرفة الواقعة فوق المصطبة الكبيرة التي تجمّع فيها الحشد وفتحها على مصراعيها. كانت الطائرة تميل أثناء انعطافها، واستطاع كل منهما أن يرى تلك البقعة الصغيرة والخطين الصغيرين التي شكلت رأس تشافيز وكتفيه.

كانت ليوني تتحاشى أن تقترب من النافذة خشية أن يلمحها أحد من أولئك المتجمعين على المصطبة. وقفت في منتصف الغرفة مبتعدة عن النافذة قدر المستطاع، ومن دون أيّ محاولة للتظاهر بأنهما كانا هناك لمشاهدة الطائرة وهي تحلق فوق الجبال. (كان بإمكانها

أن تهرب من الغرفة، قد يقول قائل منكم: لكنها لم تكن رعناء. لم يكن قد عرض عليها شيئاً بعد. كانت تعرف نُتفاً مما يمكن أن يكونه ذلك العرض. لم تكن رعناء، ولم تكن ساذجة في الوقت نفسه. لكن كان هناك ذلك الجزء الآخر المتعلق بما يمكن أن يعرضه على ذاتها الاستثنائية الأخرى، تلك الذات التي كانت محاطة بحياة غير حياتها، كما يحيط الهواء الصامت بالهدير المنحسر لمحرك الطائرة).

أغلق النافذة واستدار ليقف مقابلها خلال ثوانٍ مرّت كلمح البصر. حقيقة إنه قد نجح في مبتغاه وحصل على مراده، إنها كانت بالفعل هي، ليوني، من يقف أمامه الآن وينظر إليه بارتياب، كانت قد حُفرت في ذهنه مرة واحدة وإلى الأبد بفعل سماتها الجسدية التي تجسدت أمامه كحقائق لا تقبل الشك... أصابعها الضخمة، أنفها العريض الأفطس، خصلات شعرها الخشن التي تتسلل من قبعة الخادمات التي ترتديها، بشرة وجهها الخالية من المساحيق التي تفضح منشأها كفلاحة، تلك اللطخة الشاحبة عديمة اللون التي بحجم عقلة الإصبع على الجانب الأيسر من وجهها، كتفاها وثدياها المستديران، عيناها البنيتان بلون الخشب الداكن... كان بالكاد قد لاحظ من قبل تلك الملامح التي جعلت وايمان ينعتها باللطيفة، والتي تشترك بها مع الكثيرات من بنات جنسها.

ضمَّها بين ذراعيه. وقفت جامدة بلا حراك، خدها ملتصق بصدره، تنتظر. استمعت إلى كلماته: قلبي، فرحتي، حملي الجميل داكن العينين، ليوني، ملكة جبال الألب. (لكن كلمات كتلك ينقلها لنا طرف ثالث بصيغة الغائب تفقد وضوحها وبلاغتها الفاحشة). لم يكن الانفعال بادياً على ليوني لا في استماعها إليه ولا في خضوعها

الظاهر لرغبته. كانت تَصيغ في عقلها، بكل دقة واهتياج، معنى ما كان يحدث معها في تلك اللحظة.

منذ أسبوع لم تكن قد رأته بعد ولا تخيلت وجود رجل مثله. كان غنيّاً. كان صديقاً لرجال يقودون طائرات ويحلّقون فوق الجبال. كان هو نفسه قد حلّق على متن طائرة من قبل. كان يسافر من بلد إلى آخر. كان يتحدث بلغة ألمانية فريدة. كان له وجه رجل من رجال القصص. لكنها لم تكن تعوّل على أيّ من هذه الحقائق بحدّ ذاتها. كانت تلك مجرد دلائل على أنه مختلف عن أيّ شخص آخر قد عرفته من قبل. وبالرغم من ذلك، إذا كان هذا كل ما في الأمر، لم تكن لتعلق أهمية كبرى على كونه مختلفاً. آمالها في الحياة كانت متواضعة. كانت تعرف أن العالم مليء بأشخاص مختلفين كليّاً عن أبناء بلدة بريغ أو فلاحي فالايز، وهؤلاء لم يكن لديهم شيء يقدمونه أو يقولونه لها. لكنه هو - وهذا ما ترك الأثر البالغ في نفسها- كان قد توجّه بحديثه وخطابه ومشاعره إليها، هي ليوني بشحمها ولحمها ومنشئها وخصالها وكل ما فيها. على مدى أسبوع لم يفعل شيئاً سوى مطاردتها وخطب ودِّها بالهدايا والمجاملات والإطراء، وهو يتحدث إليها ويظهر لها كم هو شخص فريد ومختلف عن كل من عرفتهم وستعرفهم. مثلها مثل هؤلاء الذين لا يقعون في فخ خداع أنفسهم، كانت ليوني قادرة على التمييز بشكل فطري بين الصدق والخداع. عرفت أنه لم يكن يكذب عليها، ولم يكن يخدعها، حتى لو بقيت جاهلة بحقيقة ما يقوله لها. كانت قادرة على أن تميّز أيضاً، كباقي النساء، بين رجل يتوسل للحصول على مراده، وإن لم ينجح في ذلك يسعى إلى وضع يده عليه بكل الطرق حتى لو اضطر إلى اغتصابه، وبين رجل يشعر بأنه مدفوع إلى تقديم نفسه كما هو في حضرة امرأة بعينها. كان هذا جزءاً مما عنته عندما قالت لنفسها: إنه يقصدني أنا دون سواي.

عندما كان زيوس يتخفّى في هيئة ثور، أو مخلوق جنسي خرافي، أو نسر، أو بجعة بغية التقرب من امرأة وقع في هواها، لم يكن يهدف فقط إلى استخدام الدهشة كسلاح، بل كان يفعل ذلك ليلتقي بها (حسب قوانين هذه الأساطير الغربية) كغريب. الغريب الذي يشتهيك والذي يقنعك بأنك أنت المشتهى بصدق ودون مواربة، هو ذلك الغريب الذي يحمل لك رسالة من كل شخص كان يمكن أن تكونه ولم تكنه إلى الشخص الذي أنت عليه الآن فعلاً. توقك إلى استلام هذه الرسالة سيكون شديداً جارفاً مثل غريزة الحياة. رغبة الإنسان في معرفة نفسه تفوق فضوله لمعرفة أيّ شيء آخر. لكن يجب أن يكون من يفعل هذا غريباً، فكلما عرفك على حقيقتك بشكل أكبر، وفي الوقت نفسه، عرفته كما هو بشكل أفضل، كان ما يمكنه أن يكشفه لك عن ذاتك المجهولة أو المحتملة أقل. يجب أن يكون غريباً. لكنه يجب أن يكون بالقدر نفسه حميماً إليك بصورة غامضة، وإلا فإنه بدلاً من أن يكشف لك ذاتك المجهولة، سيجسد لك كل من هم فوق مستواك وخارج نطاقك، ومن أنت دون المستوى المطلوب للقاء بهم. الغريب الحميم... الحميم الغريب. من هذا التناقض في المصطلحات، من هذا الحلم يولد الإله الإيروتيكي العظيم التي تقوم كل امرأة إما بتغذيته أو تجويعه حتى الموت في خيالها.

عندما أجاب عن سؤال وايمان عن عمله في الحياة بالقول: السفر، لم يكن جوابه سطحيّاً أو مراوغاً. على من يعيشون حياتهم بأكملها كغرباء أن يبقوا دائماً في حالة سفر وارتحال.

للحظة أبقت ذراعيها ملتصقتين بجسدها. رأت من خلال النافذة السماء مزدانة فوق الجبال بأزرق سبتمبر المألوف لها كلون الطبق

الذي تغسله كل يوم. محرك طائرة بليريوت كان لا يزال مسموعاً ولكن بصوت خافت جدّاً.

سقطت الطائرة مسافة خمسين متراً في الهواء كما تسقط سمكة ميتة في الماء. أراد تشافيز أن يعود من حيث أتى. ما منعه كان ما قاله لنفسه سابقاً، هذا بالرغم من أنه في وقت قوله هذا لم يكن من الممكن أن يتخيّل أن طائرته قد تسقط كسمكة ميتة هكذا.

لم تروَ بعد ذلك أيّ قصة أخرى وكأنها كانت القصة الوحيدة التي حدثت في عالم من شهدوها وسمعوا بها.

نشأتها والتعليم الذي تلقته في مسقط رأسها، سواء في المدرسة أم في الكنيسة، قد أعدّاها للموقف الذي تجد نفسها فيه الآن. يجب عليها أن ترفض هذا الرجل الغامض الذي يوشك أن يدمر حياتها. عليها أن تحافظ على شرفها. يجب أن تصون نفسها، أن تقف حارساً على بوابة جسدها وأنوثتها من أجل حبيبها إدوارد الذي تودّد إليها على مدى عامين، والذي ستقضي حياتها معه في منزلٍ قرب النهر حيث يقيم مناحله التي يعتاش منها، والذي سيكون والد أطفالها الذين سيذهبون إلى المدرسة نفسها التي أمضت فيها أيام دراستها في بريغ. هي معرّضة الآن لارتكاب خطيئة تلوح لها كقدر لا مفرّ منه. يجب أن تقاوم هذا الإغواء، هذه الخطيئة. هكذا تمَّ إعداد ليوني للتعامل مع ما تعيشه الآن. يجب عليها أن تفكر في أمها الآن وبما تتمناه لابنتها. «هي» بنت أمها، «هي» بنت الرب، «هي» الوعد الذي ينتظره حبيبها إدوارد، «هي» عروس عريسها بعد شهرين، «هي» أم أطفالها المستقبليين، «هي» أكبر شقيقاتها... عليها «هي» أن تحافظ

على شرفها كابنة ومسيحية ووعد وعروس وأم وشقيقة. لكن ماذا عنها كـ «أنا»؟ تسأل ليوني أناها: ما الذي عليَّ أن أفعله «أنا» لأحافظ على شرفي؟ *لم أعرف ما الذي عليَّ فعله*. هذا ما لم تكن قد أُعدت له. لم تكن قادرة في حياتها، كما هي عليه الآن، على تقبيل هذا الرجل. لكنه ليس موجوداً في حياتها... هو يعيش في مكان خارج نطاق حياتها. *كنت وحدي معه. لم يكن هناك أحد آخر بيننا*. شعرت بأنها لن تجد نفسها مرة أخرى أبداً في أحضان رجل قادم من خارج نطاق حياتها. كأن الأمر أشبه بحلم. ما تفعله معه ليس جزءاً من حياتها - بالرغم من أن الآخرين سيعتبرونه كذلك، وعواقب ما ستقوم به ستصاحبها طوال حياتها. ما تفعله معه يقوم به ذلك الجزء منها الذي يقع خارج إطار حياتها. *ضعفي كان أقوى مني*.

مرَّر يده على طول ظهرها حتى أصبحتا تحت ردفيها. بعد ذلك ببطء وعن عمد رفعها إلى الأعلى. ارتفعت قدماها عن الأرض. أنزلها، لكن ليس بحيث تصبح قدماها تحملان عبء ثقل جسدها بالكامل.

انتابها إحساس بأنه كلما لمست يداه موضعاً يحملها منه ويأخذ شيئاً من وزنها. كان يضع يديه حائلاً بينها وبين الجاذبية. رفعت عينيها لتنظر في عينيه اللتين كانتا مركزتين بالكامل عليها. كان يتبسم والفجوات بين أسنانه بدت داكنة كلون عينيه. بالرغم من أنها كانت لا تزال واعية لأشعة الشمس التي تتسرب من النافذة، انتابها إحساس بوجود ستار سوداء خلف ظهرها... ستارة سوداء كعينيه والفجوات بين أسنانه، وبأن هذه الستارة كانت تنسدل ببطء عليهما حتى أصبحت تشكل خيمة تحيطُ بهما. شعرت به يلمس تلك الأجزاء التي كانت مكتنزة وثقيلة ومتدلية منها، وفي كل مرة كان يلمسها في هذه المناطق

يرفعها عالياً ويأخذ بعضاً من وزنها. حينها فقط رفعت ذراعيها ووضعتهما حوله.

يداه اللتان أبطلتا عمل الجاذبية في تلك الأجزاء من جسدها، والتي كانت تشعر بالإحراج من حجمها، وذلك بغضّ النظر عن خفتها وعدم امتلائها، كان لهما تأثير أكثر عمقاً. ضمن الكتلة الخاصة بكل جزء من هذه الأجزاء شعرت بقوة الجاذبية التي كانت تشدها، ليس بشكل متواصل بل بوتيرة متقطعة، نحو الكتلة الأكبر من جسده. (كان الإحساس مشابهاً لذلك الذي تشعر به في ثدييها لكنه أعمق وأوسع نطاقاً).

بدأت تردّد اسمه.

أي محاولة لتقديم شرح مفصل وشامل عما كانت تختبره ستكون من قبيل العبث ومحكومة بالفشل. كانت تلك التجربة محورية في حياتها: كل ما كانت عليه من قبل أحاط بتجربتها الحالية كما تطوّق اليابسة البحيرة. كل ما كانت عليه يوماً تحوّل إلى رمال اصطفت على حدود هذه التجربة وتسرّبت تحت مياهها لتشكل قاع البحيرة الغامض الذي لا يراه أحد. للتعبير عن تجربتها سيتوجب علينا أن نعيد تشكيل اللغة الفريدة التي تستخدمها ونحيط أنفسنا بهذه اللغة، وهذا ضرب من المستحيل. امتلاكنا لمخزون كامل من اللغة الأدبية لا يمنحنا حق الولوج إلى صلب تجربتها: لا يمنحنا الحق بأن نمارس الحب معها. لماذا عليَّ إذن أن أصف تجربتها بالتفصيل وبصورة قطعية وأنا مدرك تماماً لاستحالة تمكني من ذلك؟ هذا لأنني أحبها. أنا أحبك يا ليوني. أنتِ جميلة. أنتِ لطيفة. يمكنكِ أن تشعري بالألم والمتعة. لأنكِ ناعمة صغيرة بحيث أستطيع أن أحتويكِ في راحة يدي. وكبيرة واسعة كالسماء بحيث يمكنني أن أسير في ظلكِ. كان هو، جي، من قال ذلك.

أجلَسها على السرير ومضى في اتجاه الباب. من موضعها على السرير مدَّت ذراعيها نحوه.

- لا، قال، ليس كما يفعل الفلاحون السكارى.

القسوة المباغتة لكلماته لم تفاجئها أو تجرح شعورها. انتظرت بكل بساطة لترى ما الذي سيفعله بعد ذلك.

طلب منها أن تتعرى. تـرددت... ليس لأنها لم تكن راغبة في ذلك بل لأنها لم تعلم كيف لها أن تتعرى وهو يراقبها. بدأ هو بخلع ملابسه. حلَّت أزرار كمّي قميصها وتوقفت بعد ذلك. وقف هناك في آخر الغرفة عارياً كما ولدته أمه. هذه الغرفة نفسها التي لطالما كنستها ونظفتها من قبل. وقف هناك عارياً. متذكّرةً الماضي، متذكّرةً أنها قد غسلت تلك الستائر التي أُسدلت فوق النافذة، طأطأت رأسها.

- ليوني، ارفعي رأسكِ. إنه ينظر إليكِ. انظري إليه كيف يراكِ. إنه يراكِ الآن كما أنت. عندما ولدتِ، وقبل أن تفتحي فمكِ المستدير المتغضن لتطلقي أولَ صرخة لكِ في الحياة، رأوكِ، ليس كما أنتِ، بل كبديل لصبي منتَظر. كانت نظراتهم تتحرك على جسدكِ لتكتشف جنسكِ، وتتوقف عند ذلك الخط المرسوم أسفل بطنكِ الزهري الندي قبل أن ينظروا إلى عينيكِ الواسعتين. كنتِ فتاةً وأطلقوا عليكِ اسم ليوني. انظري كيف يحاصركِ بنظرته. يعرفكِ كما تعرفكِ أيَّ مرآة وقفتِ أمامها يوماً وعكست حقيقتكِ كما هي. المرآة تعكس، أما هو فيعرف. ها هو يقف عارياً وينظر إليكِ. وأنتِ تنحنين إلى الأمام لتنزعي قميصكِ الداخلي الرث الذي يحتوي على فجوة ظاهرة تحت

كمه، يرى ثدييكِ يتدليان إلى الأمام ليصدر عنهما صوت خافت يكسر الصمت قليلاً.

صورتكِ تغطي سطح جسده كاملاً وكأنه جلد آخر فوق جلده. كل لحظة من لحظات حضورك تحيط بقضيبه الآن.

لم يسبق لكِ أن رأيتِ نفسكِ هكذا من قبل.

يمكنه معرفتكِ بمجرد النظر إليكِ. معرفته شيء لا يمكن صياغته أو التلفظ به. معرفته تحرق ما تعرفه. ومن خلال الضوء المنبعث من هذا الاحتراق تزداد أكثر وأكثر حتى تصبح ساطعة للغاية بحيث يصبح ما لم تكن قد رأته بعد مألوفاً بالنسبة إليها.

لم يكن قد رآكِ عارية من قبل وها أنتِ عارية أمامه الآن.

يصف البعض كتاباتي بأنها مثقلة بالمجازات والتشابيه، وأن لا شيء فيها يذكر كما هو وإنما في سياق تشبيهه بشيء آخر. هذا صحيح. ولكن ما السبب؟ أيّاً كان ما أراه أو أحسه أو أتخيله يذهلني بخصوصيته. السمات المشتركة بينه وبين باقي الأشياء... الأوراق والجذع والأغصان، إذا كنا نتحدث عن شجرة، الأطراف والعيون والشعر، إذا كنا نتحدث عن شخص، تبدو لي أشياء سطحية. شغوف أنا بشدة بخصوصية كل حدث وجزء وملمح. من هنا تأتي الصعوبة التي أواجهها ككاتب... وربما الروعة المتجسدة في استحالة أن أكون كاتباً. كيف يمكنني أن أعبّر عن هذا الخصوصية؟ الأسلوب الواضح يكون بأن أؤسس لهذه الخصوصية عبر التوسع في السرد. أن أقنعك،

على سبيل المثال، بخصوصية تجربة ليوني، بأن أروي لك ما حدث بعد أن اكتشف إدوارد أن ليوني قد خانته. بهذه الطريقة يمكن توضيح الخصوصية التي يتمتع بها حدث ما بسرد أسبابه ونتائجه. لديَّ فهم بسيط لعامل الزمن. الروابط التي أراها بين الأشياء - وهي غالباً ما تشمل الروابط السببية والتاريخية - تجنح إلى أن تشكل في ذهني نمطاً متزامناً ومعقداً. ما يراه الآخرون كفصول أراه أنا حقولاً. لهذا أجد نفسي مجبراً على استخدام طريقة أخرى لسرد الأحداث ووضعها في سياقها المكاني، وهي طريقة تبحث عن ترتيب الأحداث بشكل موسع في المكان أكثر من ترتيبها في الزمان. أكتب بروح عالم في الهندسة. إحدى الطرق التي أتبعها لإنشاء تنسيق مكاني موسّع تتجسد في تشبيه جانب بآخر عبر الاستعارة والمجاز. لا أتمنى أن أصبح حبيس التسمية، وأن أسجن نفسي في القناعة القائلة إن الأشياء هي عبارة عن الأسماء التي أطلقها عليها. في السرير لم يكونا سجينين هكذا.

في الطريق الممتد على طول معبر كولم يرى تشافيز أشخاصاً يلوّحون له. من بينهم كريستيان وبارزيني. خلال بضع ساعات ستنشر صحيفة كورير ديلا سيرا تقريراً عن هذه اللحظة.

«شعور عميق يجعلنا نتسمّر في مكاننا. نقبع بلا حراك وكأننا فارقنا الحياة. أرواحنا تخرج من عيوننا، وقلوبنا تنبض في صدورنا بسرعة مؤلمة. روعة ما نراه تسحرنا وتدوخنا. لن يزول سحر هذه الذكرى ولو عشنا ألف سنة أخرى».

«نعود بسرعة إلى داخل السيارة بعد بضع ثوانٍ. يجلس كريستيان إلى جانبنا. حارسان سويسريان يستقلان السيارة معنا أيضاً. وننطلق.

ننظر إلى بعضنا البعض: عيوننا محمرّة ومخضلة. عيون الحارسين السويسريين مبتلة بالدموع أيضاً وهما يتمتمان بالألمانية: Mein Gott, Mien Gott «يا إلهي، يا إلهي». توشك الطائرة الآن أن تدخل وادي كرومباخ الذي كانت الرياح تعصف به والبروق تروعه منذ ساعتين. هي الآن فوق الحقول المحيطة بنزل المسافرين. يبدو وكأنه قد بدأ يخسر الارتفاع الذي كان قد بلغه.

- إنه يحط بطائرته. نصرخ: ها هو! إنه يهبط!

«من الواضح أن الطيار يمرّ في لحظة من الشك. ربما يفكر في الهبوط: بعد ذلك يقرر أن الرياح لم تكن بتلك الفظاعة التي صورها له خوفه. يواصل طريقه».

في تلك الفترة كان كل الطيارين يحددون اتجاهاتهم حسب ما يمكنهم رؤيته على الأرض. الأرض كانت تبثّ في نفوسهم الطمأنينة، فعليها يمكن أن يهبطوا ويحصلوا على المساعدة في أيّ وقت. عندما حلّق بليريوت فوق القناة منذ عام مضى كانت ترافقه مدمرة فرنسية. لفترة وجيزة، عشر دقائق تقريباً، فقد الاتصال بالسفينة ولم يجد أمامه وحوله إلّا البحر، صرّح بعد ذلك أنه شعر خلال تلك الدقائق القليلة بهلع شديد ووحدة لا تُحتمل. قرار تشافيز الآن يجعله أول إنسان يحلّق عمداً وهو محجوب عن أيّ رؤية وخارج نطاق أيّ مساعدة.

البرد يحيط به كما تحيط جدران الزنزانة بسجينها... البرد وحده يدخل هذه الزنزانة. أحد الجدران يضيّق الخناق عليه بلا رحمة وبصورة متواصلة. الطرف الأيسر من وجهه وجسده بارد كالثلج.

جدار الرياحٍ فعلت هذا: الرياح نفسها الذي كان من قبل (منذ عشرين دقيقة تقريباً) قد أساء تقديرها وحط من قدرها. لا يبدو له الخطأ الآن إساءة تقدير، بل خطيئة. خطيئته الأصلية هي أنه يعتبر حياته كلها الآن في كفة وهذه الرحلة في الكفة الأخـرى. الجدار المواجه للرياح مصنوع من الصخر والثلوج.

على يساره يرى جبل مونت ليون. الثلج، الذي يتألق ببياضه تحت ضوء الشمس، يجعل الجبال تبدو أعظم مما هي عليه، وفي الوقت نفسه يحوّلها إلى نوع من العدم.

ما كان هذا البياض ليسمح بأن تبقى لطخة واحدة عليه.

يحاول أن يخترق جدار الريح. كلما استدار إلى اليمين، أصبح هدير المحرك أكثر صخباً، ذلك أن الرياحٍ ترد عليه بالعصف أكثر، لكن الطائرة تثبت في مكانها متجمدة تماماً في الهواء. كان قد خسر الارتفاع الذي بلغه سابقاً وعليه أن يستعيده مجدداً إذا أراد أن يعبر مونسيرا. لكنه بالرغم من ذلك يخشى الارتقاء. الريح فوقه أشد وطأة من الريح التي تعصف به الآن، وهناك في الأعلى تهب رياح من كل اتجاه تقريباً. أمر سيئ أن تهبط الطائرة، لكن الأسوأ أن ترتفع إلى الأعلى بتأثير الرياح. ساقاه، وقدماه تتحركان داخل فردتي حذائه المستندتين على المحرك بطريقة سقيمة: القماش الواقع فوق السطح العلوي للأجنحة يبدأ بالتجمع بصورة مضطربة وكأن الرياح قد فتحت فجوات في سطحه الداخلي.

تحت كتفي جبل مونت ليون وأكثر قرباً منه، بدت الجبال الأقل علوّاً كأروقة مكسرة ومتآكلة لمدرج نصف دائري يقف في منتصفه وحيداً.

تذكّر الكلمات الأخيرة التي نصحه بها باولهان: ارتفع، ارتفع... بدت تلك الكلمات عبثية بالنسبة إليه في تلك اللحظة.

أولى الصعوبات التي سيواجهها هي تجاوز الأخدود البعيد للمدرج بعد أن يحلق عبر المسرح. الرياح تدفعه أكثر وأكثر للدخول في شبه الدائرة نحو الأروقة المظلمة العمياء. وفي حال استطاع أن يتجاوز الحافة حيث توجد الثغرة (إلى الجهة الغربية من غلاترون) ستواجهه صعوبات أكبر. هو الآن بعيد جدّاً إلى جهة الشرق ويرى أن عليه أن يحلق مسافة ثلاث مئة أو أربع مئة متر ليجتاز مونسيرا. الرياح، التي تسحبه إلى الأسفل وتجبره على التوجه إلى الشرق، تحشره في الزاوية، والزاوية التي ستهشمه فيها وتحطمه إلى أجزاء ستكون في مضيق غوندو.
يجب عليه أن يرى ما إذا كان يجب أن يلتفَّ في اتجاه الرياح ويدور حول المسرح ليكتسب بعض الارتفاع. لكنني أعتقد أن فكرة الالتفاف قد ملأته بالرعب، وإن كان ذلك بشكل مؤقت. بمجرد أن يلتفَّ حول المسرح المليء بالأخاديد والحوافّ العمياء، لن يتمكن أبداً من الإفلات من تلك الحلقة، بل سيموت محاصراً في داخلها عندما يتوقف محركه عن العمل. سيفضّل أن يكافح حتى النهاية وهو محشور في الزاوية.

لم يعد قادراً على التفريق بين الصمت والصخر. سطح جسده الآن مخدر تماماً من البرد. الهواء وضجيج المحرك الذي يسمعه ابتداءً من قدميه هما جلّ ما يمكن لوعيه أن يستخدمه ليقاوم الصخور التي تحيط به من كل اتجاه. يحلّق في اتجاه الغلاترون كسهم ينطلق إلى هدفه.
يرى نفسه قرب صخرة تشبه جلداً رخواً لبغل عملاق ممتد على طول منطقة لها شكل حرف A، ويبدو وكأنه منفوخ من الداخل بين ساقي الحرف A بفعل الرياح نفسها التي تهب عليه وعلى طائرته. على جلد

البغل الصخري يرى تشافيز ظل جناحيه وهما يترنحان أحياناً، ويندفعان نحوه أحياناً أخرى بمجرد أن تعبر الظلال طيات الجلد الصخرية. ينظر إلى الأسفل فيرى صخوراً تمدّ رؤوسها نحوه. وفي الأمام يرى قمماً أكثر ارتفاعاً في انتظاره. بفعل الدويّ وارتداد الصدى من الصخور حوله وتحته، يعلو صوت محركه وينخفض كما يفعل ظله على الصخور فيبدو وكأن الظل يتبعثر مع صخب محركه وانحدار الصخور.

هنا لا مجال للحديث عن القرارات الواعية. هنا لا أستطيع أن أسرد معلومات دقيقة وأنا أكتب.

يتملّك تشافيز إحساس بأنه يلج في فك حيوان شرايينه وقنواته ومريئه ومعدته وعجيزته قد قدّت من الصخر، حيوان جهازه الهضمي عبارة عن طبقات جيولوجية. حيوان قادر على القتل قبل أن يصبح حيّاً، وقادر على الأكل وهو ميت.

هنا لا يتعلق الأمر بارتفاع منسوب الشجاعة أو نقصانه، هنا ينقسم الرجال بين هؤلاء الذين ما زالوا يرغبون في العيش وهؤلاء الذين لا تعني لهم حياتهم شيئاً، وهو شيء يتجلّى في طريقة صراخهم. بعضهم يرتفعون مع صرخاتهم، وبعضهم تموت صرخاتهم معهم. أما تشافيز فقد اختار أن يرتقي، غير عابئ بخطورة المراوغة، غير عابئ بأيّ شيء إلّا ضرورة الإفلات من فك هذا الحيوان عبر الارتفاع أكثر وأكثر.

وجد نفسه داخل مضيق غوندو.

***

في دومودوسولا الكل يقبع قرب الهاتف منتظراً مكالمة الفرج من بريغ. المعامل كانت قد توقفت عن العمل. العمال تركوا كل شيء وها هم جالسون يراقبون السماء. كبار السن يقاومون نعاس فترة الظهيرة بعد أن تخلّوا عن قيلولتهم. الشبّان يشقون طريقهم باتجاه الحقول حيث يُتوقع أن يهبط تشافيز بطائرته ليتزود بالوقود ويكمل طريقه إلى ميلانو. على كل شرفة ونافذة مطلة على وادي أوسولا الأخضر الهادئ، لكن الذي يصعد نحو سفوح تغطيها أشجار الصنوبر الشامخة التي تعلوها صخور متوحشة، تجد الناس واقفين بعيون نصف مغمضة وشاخصة إلى السماء فوق جبال الألب. ما من رياح تهب هنا.

– إنه لأمر مؤسف! يجب أن نكون قادرين على رؤيته الآن.

– ربما قد عاد أدراجه.

– لكنه عبر سيمبلون.

– وكيف عرفت أنت؟

– روبيرتو أخبرنا بذلك.

– صحيح يا روبيرتو؟

– سيغنو لوتشيني، الموظف في مكتب المحافظ، أتى إلى ساحة غاريبالدي منذ عشرين دقيقة وأخبرنا بأنه قد مرّ من فوق نزل المسافرين.

– ليتمجد الرب!

– منذ الصباح ينتابني شعور بأن الوضع سيكون مأساويّاً. لقد حلمت به في الليلة الفائتة.

– هذا لأنك واقع في غرامه.

– فقط لو تقع عيناي عليه مرة واحدة!

– وسنهتف جميعاً باسمه وبأعلى صوتنا: جيو جيو...

الآلاف يلمحون الطائرة لدقيقة قبالة غابة الصنوبر. هي أكثر انخفاضاً من المتوقع. المحتشدون يحاولون أن يسكتوا بعضهم بعضاً بالصراخ ليتمكنوا من سماع صوت المحرك. الطائرة بعيدة جدّاً. يستطيعون رؤية حركة الطائرة بشكل أوضح شيئاً فشيئاً. الطائرة تميل الآن في اتجاه دومودوسولا.

دوراي، سائق سيارة السباق وصديق تشافيز، يبسط قطعتين طويلتين من القماش القطني الأبيض على العشب في حقل الهبوط على شكل صليب متقاطع يمكن رؤيته من الجو، حشد من الصبيان يتدافعون ليقدموا له المساعدة.

الطائرة تحلّق وتنخفض بشكل بالغ الانتظام والهدوء لدرجة يشعر معها كل من يراقبها بالابتهاج يملأ نفسه.

إنه أول رجل في التاريخ يحلّق فوق جبال الألب... استطاع أن يحقق ما ظنّه الجميع مستحيلاً من قبل. حدث هائل نشهده بأعيننا. لكن بالرغم من ذلك، انظر! إنه أبسط مما تخيلنا، ها هو يطير بشكل مستقيم ومن دون أيّ عناء كطائر في السماء، وعلى هذه الصورة كان قد حلّق فوق جبال الألب... قد يكون تحقيق العظمة أقل صعوبة مما أوحي لنا. سلسلة المشاعر (التي تشكلت بطرق مختلفة) أدت في النتيجة إلى شعور مفاجئ بالابتهاج. ما الذي يمنعنا جميعاً إذن من تحقيق ما نتمناه؟

المحافظ، الذي يجلس في المقعد الخلفي للسيارة المتجهة إلى موقع الهبوط مرتدياً زيّه الرسمي ليستقبل الطيار العظيم، يعلن لمن كان

بصحبته في السيارة أن المدينة ستطلق اسم تشافيز على أحد الشوارع تكريماً لانتصاره على الجبال وقهره لها.

قطار سريع متجه إلى ميلانو يغادر محطة دومودوسولا عند الساعة الثانية وثماني عشرة دقيقة. شاب داخل القطار يلمح طائرة بليريوت عبر نافذة العربة فيطلق إشارة التنبيه. يتوقف القطار بشكل مفاجئ. يقفز الشاب إلى السكة ويجري بجوار القطار صارخاً على باقي المسافرين لينتبهوا ويشاهدوا الطائرة التي كانت قد أصبحت الآن تطير على علوّ منخفض يزيد قليلاً عن ارتفاع شجرة، والتي يُرى تشافيز بوضوح داخلها. وعندما يصل إلى القاطرة، يتوقف الشاب ويلوح بيديه الاثنتين إلى السماء ممنّياً النفس بأن يراه تشافيز ويردّ له التحية... وهكذا سيكون أول شخص يرحب به عند وصوله. لكن تشافيز لم يردّ له التحية، وهو أمر سيفكر الشاب وأصدقاؤه من المولعين بالطيران في أسبابه لسنوات عدة.

رأس ليوني ملقى إلى الخلف كمغنٍ يؤدي مقطعاً شجيّاً من أغنيته. قلبت عينيها إلى الخلف فلم يعد يُرى منهما سوى بياضهما واختفت القزحية خلف جفونها. فمها مفتوح على مصراعيه وحلقها غائر. تصدر صوتاً من حلقها يشكل كلمة تُقال ببطء شديد لكنه لا يستطع أن يفك شيفرتها أو يفهم معناها.

بعضهن يبكي، وبعضهن يلبثن بلا حراك، وأخريات يضربن بقبضاتهن، ومنهن من يتكومن على أنفسهن، وهناك من يخرجن ألسنتهن ويبقينه بين شفاههن، وثمة من يقطبن حواجبهن ويطبقن أفواههن بإصرار، والبعض منهن يلوّحن بأيديهن أو يفتحنها لتصبح

شبيهة بسمكة النجمة... ما من امرأتين تشبهان بعضهما إلى أن تترك كل منهما آداب السلوك وراءها، وتصلا بمعيته إلى تلك اللحظة التي يصبح كل شيء فيها متزامناً ويبلغ كل منهما ذروة النشوة معاً.

يختبر كل نشوة جنسية وكأنها متزامنة مع كل نشوة أخرى. كل ما قد حدث، وكل ما سيحدث بينهما، كل الأحداث، كل الأفعال والعواقب التي قد فرّقت وستفرّق بمرور الوقت امرأة عن أخرى... كل هذا يحيط بتلك اللحظة المنفلتة من الزمن كما يحيط محيط دائرة بالدائرة التي يحددها. كل هذا يجتمع في الحيز نفسه. كله بالرغم من كل الاختلافات يجتمع في اللحظة نفسها. إنه هو من يجمع كل هذا معاً...

لكن الرغبة الجنسية تستثار وتتولد بحكم الظروف، وربما بغضّ النظر عن شروطها الموضوعية ومدتها تكون مرتبطة موضوعيّاً بلحظتين: لحظة البداية ولحظة النهاية. عند تحليل الرغبة الجنسية نكتشف أنها تحتوي على عناصر توقظ فينا حنيناً قاتلاً يعود بنا إلى أقصى مكان يمكنها إيصالنا إليه وكأنها تجربة الولادة نفسها: المكونات الأخرى هي حصيلة شوق متأصل للمجهول يأخذنا إلى أبعد ما يمكن، إلى ذروة الحياة، والتي لا يمكن العثور عليها إلّا في نقيضها... الموت. في لحظة الذروة، هاتان اللحظتان في الزمن... بدايتنا ونهايتنا، قد تبدوان وكأنهما تنصهران معاً لتصبحا لحظة واحدة. عندما يحدث هذا يصبح كل ما هو ماثل بين هاتين اللحظتين، حياتنا كلها بتعبير أصح، متزامناً. هكذا أوضّح أبعاد البطل في كتابي لنفسي.

كان يستلقي على ظهره إلى جانب ليوني ممسكاً بيدها وهو مغمض عينيه. كانت قد توقفت عن رؤية وعود سرية في وجهه. عرفت ما

الذي كان يعدها به وأصبح السر يجمعهما معاً. باليد الأخرى لمست وجهه. مرّت برؤوس أصابعها على محيط حاجبه نزولاً بعد ذلك إلى الخط الجانبي لأنفه مروراً بزاوية فمه الذي اختلج عندما مرّت عليه، ومنها إلى ذقنه. من خلال لمس وجهه بهذه الطريقة استطاعت أن تجعل شعورها بالألفة أكثر طبيعية وأن تقوّض قليلاً من غموضه. استطاعت أن تحدد شعورها بالألفة من خلال ما شعرت به في رؤوس أصابعها. وهكذا كانت أقل انبهاراً به. أرادت أن تغطي أنفه بيدها. رفعت يدها إلى أنفها لكي تشمها. وضعتها على جبهته بدلاً من ذلك. كانت ستكمل العبث بهذه الطريقة مستخدمة كلمات مفككة تتوارد إلى ذهنها بإحساس غريب من الوضوح (وكأنها كانت تعلم أن هناك ضوءاً، ضوءاً أبيض كالثلج، وراء كل ما رأته أو تصورته وأن هذا الضوء قد منح كل شيء إطاراً أبيض حتى اللحظة التي رأته فيها) كانت ستستمر كذلك إلى أن يتحدث أو يتحرك. لكن رجلاً صرخ على السلم قاطعهما. بعد ذلك بدقيقة صرخت امرأة على المصطبة الواقعة تحت النافذة مباشرة. وبدأت تتوالى الصرخات بعد ذلك.

لو أن ليوني كانت تنتمي إلى طبقة اجتماعية مختلفة لكان ردّ فعلها مختلفاً. قد يكون ردّ فعلها الأولي هو أن تتساءل ما إذا كان من حق الآخرين في الفندق أن يرفعوا أصواتهم ويزعجوها بهذا الشكل. ولأنها كانت قد تعلمت منذ طفولتها أن الصوت المرتفع هو عبارة عن إنذار، وأنها عندما تسمع شخصاً يرفع صوته، عليها إما أن تختبئ أو أن تُعدّ نفسها لإساءة مجحفة. خشيت أن يكون هؤلاء الأشخاص يصرخون لأنهم يبحثون عنها.

سحبت يدها من يده بسرعة. فتح عينيه.

- إنهم يبحثون عني، همست له، هم قادمون بحثاً عني.
- لا أحد سيأتي إلى هنا، قال، وأغمض عينيه من جديد. قرع أحدهم باب الغرفة.

- ماذا هنالك؟ سأل.

سمع صوت رجل من الطرف الآخر من الباب يقول: لقد تحطمت طائرة تشافيز.
- أين؟
- وهو على شك الهبوط في دومودوسولا.
- أتعني أنه تمكن من اجتياز الجبال وبعد ذلك تحطم؟
- في اللحظة الأخيرة، نعم، على ارتفاع بضعة أمتار فوق منطقة الهبوط. لم يتمكن من التوازن، اصطدم بالأرض بسرعة ١٠٠ كيلومتر في الساعة.
- هل مات؟
- لا، لكنه كسر ساقيه الاثنتين، لكنهم أخبرونا بالهاتف أنه لم يتعرض لإصابات خطيرة أخرى.
- حسناً، أشكرك على إخباري.
- ألا تريد أن تنضم إلينا في الأسفل؟
- سأراك لاحقاً. التفت إلى ليوني. أرأيتِ، لم يكونوا يبحثون عنك. وبدأ يضحك.
- كيف يمكنك أن تضحك، سألته، وصديقك يعاني بشدة الآن؟
- أنا أضحك على ما يحدث معنا هنا.
- أتضحك لأنني خائفة؟
- لا، علينا أنا وأنتِ بينما هو كان يحلّق فوق جبال الألب.

– قد يموت.

– أنا وأنتِ سنموت يوماً ما، أنت بعينيك البنيتين الجميلتين وأسنانكِ البيض الناصعَة. الحياة قصيرة جدّاًَ لا تمنحنا رفاهية هدر أيّ لحظة.

– ألا تكنّ له أيّ مشاعر؟

– ليس لديَّ الوقت لمشاعر كتلك.

– لا أفهم ما تقوله.

– ما من فرصة تأتي مرتين.

– لقد أخبروك للتوّ أنه اصطدم بالأرض وتحطم.

– ولهذا سأعمل ما في وسعي لأعزي خطيبته.

– من أنت؟ قالت بشراسة وعنف لكن همساً خوفاً من أن يردّ عليها بصوت مرتفع يسمعه كل من في الفندق. اعتقدت أن من أمامها قد يكون الشيطان بشحمه ولحمه. أدارت ظهرها له بفظاظة وعدائية ودفنت رأسها في الوسادة. لماذا أنا بالذات؟ سألت.

– لأنكِ تشبهين نفسكِ، لهذا.

– لماذَا أنا دوناً عن غيري؟ هناك نساء كثيرات حولك.

– أنتِ وكثيرات غيركِ.

– هل أنا... رفعت رأسَها لتنظر إليه ومن ثم غيّرت رأيها بخصوص ما كانت توشك أن تقوله. يجب أن أذهب، قالت، سيبدؤون بالبحث عني قريباً. دعني أذهب.

– طيب، قال.

– ألا تكترث فعلاً لصديقك الذي أصيب؟

– أنت تتحدثين عنه لكنكِ لا تعنينه هو بالذات.

– لا أَفهم ما تقوله.

– أنتِ تسألين عنه، لكنكِ تفكرين في نفسكِ.

– لا، عندما رأيته يحلّق...

- لكنني وقتئذ كنت قد أتيت لأجدكِ وآتي بكِ معي.

وضع يده على كتفها. استدارت بكامل جسدها لتصبح قبالته واستلقت على ظهرها شاخصة بعينيها إليه. استطاعت أن ترى في وجهه كل ما حدث لهما معاً بعد أن أتى بحثاً عنها... كان وجهه مختلفاً، لكنه لم يكن وجهاً لشيطان.

كانت تعلم أنه لن يأخذها معه عندما يغادر. لم يكن الأمر يستحق السؤال حتى. لم يكن الأمر يستحق أن تسأل حتى ما إذا كان سيغادر غداً أم بعد غد. يمكنها أن تعرف كل هذا من عامل الحقائب. ربما كانت ستسأل ما إذا كان سيعود إلى بريغ. لكنها كانت تعرف الجواب مسبقاً. كان تشافيز قد حلّق فوق جبال الألب. لن يحاول طيار آخر القيام بذلك من هنا مرة أخرى. ما كان ليعود سالماً. كل شيء في عالمها كان يقف حائلاً بينها وبينه.

- هل سأراك غداً؟

- أجل، سأعثر عليكِ.

عرفت أنه كان يكذب. الفجائية المطلقة التي حدث بها ما حدث لم تعنِ أنه سيحدث مرة أخرى. امرأة ذات نفوذ وخبرة أكبر كانت لتستصعب كثيراً فكرة أن يكون لقاؤهما الأول هو الأخير، ولهذا كانت على الأرجح ستحتاج إلى سماع هذه الكذبة ولن تعرف أنها كذبة. بالنسبة إلى ليوني لم يكن من الصعب تقبّل ذلك. لطالما كانت الخيارات المتاحة أمامها محدودة... كانت تفكر في معظم ظروف الحياة كواقع ثابت غير قابل للتغيير، ولهذا كانت فكرة الاستثنائي محورية في حياتها. كانت تؤمن بالخرافة.

ارتجفت. سحب ملاءة السرير ليغطيها. أثناء فعله ذلك لاحظ جسدها ممدداً بالكامل بشكل مستقيم تقريباً ما خلا ردفها المرتفع قليلاً عن مستوى جسدها. هناك من النساء، خاصة عريضات الوركين والممتلئات، من تصبح أجسادهن جميلة بشكل غير متوقع وهن مستلقيات. تكوينهن الجسدي الطبيعي، الشبيه بمشهد تراه أمامك، يبدو وكأنه ممتد بشكل أفقي. كما هو الحال مع المشاهد التي تبقى متواصلة دائماً فينحسر الأفق بينما تتقدم عين المسافر، كذلك، بالنسبة إلى حاسة اللمس، تبدو هذه الأجساد بلا حدود وممتدة بشكل لانهائي، بغضّ النظر كليّاً عن حجمها الحقيقي. بدأ يحرك جسده على طول جسدها. مثلث الشعر الداكن الكبير على بشرتها الشاحبة فضح السر الذي يخفيه تحته.

كانت تودّ لو تقول له قبل أن تستحم، وهما لا يزالان في وضع استثنائي مستلقيين جنباً إلى جنب على السرير، إنها ستقبل أن ترحل معه إذا طلب منها ذلك. ستكون تلك طريقة تعبّر له من خلالها عما تشعر به: وهو أن كل ما توقّعه بخصوصها كان صحيحاً... أنه يعرفها أكثر مما عرفها أيّ شخص آخر: ولهذا عليه الآن أن يعلم، لأنها لم تكن تعتقد أنها ستراه مرة أخرى... أنها أحبته، أحبته وكأنه طفل خرج من رحمها. لكنها لو حدثته عن الذهاب معه، كان ليكذب ويسيء فهمها. يجب أن تجد طريقة أخرى لتخبره بذلك. كانت تخشى أنها إذا لم تقل له ذلك، فإن إدوارد قد يقتل نفسه أو يقتلها. كانت تؤمن بأن قولها ذلك كان ليحميهما من كل ما يمكن أن يحدث بعد ذلك.

وهكذا حدث أن قامت العروس الفلاحة الشابة التي، منذ ساعة ونصف فقط، كانت تخجل من أن تتعرى أمامه، برفع ملاءة السرير عن

جسدها فجأة، وركعت على السرير ممسكةً برأسه بين يديها، ضاغطةً وجهه على معدتها، وبرأسها الملقى إلى الخلف، حيث تمكنت من رؤية الضوء الأزرق المنبعث من المصباح الزجاجي المتدلي من الشمعدان المعلق وسط السقف والذي يتخذ شكل إجاصة، رددت اسمه أكثر من مرة والدموع تنهمر على وجهها.

***

في وقت لاحق من ذلك المساء، التقى جي بوايمان. كان وايمان، الذي عادة ما يكون هادئاً، متوتراً بشكل واضح. في المساء، بعد أن انتشرت أخبار اصطدام تشافيز، أقلع بطائرته وحاول أن يحلّق في اتجاه سيمبلون: ما زالت جائزة الوصول إلى ميلان لم تحصد بعد. لكنه وجد الرياح شديدة للغاية فعاد أدراجه ليحط مرة أخرى في الحقل الذي ترتسم فيه علامة الهبوط.

- في أيّ ساعة أقلعت؟
- في الـ٣,٤٣، حوالي ساعتين بعد جيو.
- أكانت الرياح أقوى بكثير؟
- ليس بشكل ملحوظ على الأرض. لكن عندما ارتقيت مسافة ١٠٠٠ متر في الهواء، مباشرة بعد جسر نابليون، كانت تهب هناك بكل قوتها. لطالما كانت قوية هناك، في النقطة نفسها تقريباً. تهب عليك فجأة وتضربك من الجانب وكأنها تيار مروحة القطار السريع. لا أعتقد أنها كانت أضعف من ذلك عندما اجتاز المنطقة نفسها. لكنني لا أؤمن في ارتكاب مجازفات لامنطقية، وهذا ما فعله هو.
- لكنه نجح بالرغم من ذلك، ألا يجعل ذلك المخاطر تبدو أقل؟ لقد أثبت أن المجازفة لم تكن لاعقلانية إلى ذلك الحد.

- أخشى أنه يثبت ذلك وهو طريح الفراش في المستشفى...
- لكنه نفّذ المهمة وحلّق فوق الجبال!
- لن تفكر بالطريقة نفسها عندما تهب عليك تلك الرياح. تشعر بها وكأنها تغرز أنيابها في كل مفصل ودعامة من طائرتك.
- لنفترض أنه تمكن من العبور والهبوط بسلامة لكنه بعد ذلك تعرض لعطب في المحرك وهو على الأرض، هل كنت سترجع لو كنت مكانه؟ لنفترض أنه قد أثبت ذلك من دون أن يتعرض إلى ذلك الحظ العاثر، هل كنت ستعود أدراجك من حيث أتيت؟
- أجل، أنا أدرس حالة طائرتي والظروف المناخية، لا أكثر ولا أقل. يجب أن تكون يقظاً إلى أقصى الحدود وأنت في الجو يا صديقي. يجب أن تكون واثقاً تماماً بما يمكنك فعله وبما تعجز عن القيام به. وإذا كنت مرتاباً ولو قليلاً، عليك ألّا تقدم على ذلك. أراد جيو أن يكون بطلاً. وهذا خطأ قاتل عندما تكون بين السماء والأرض.
- لقد أثبت أن ما ظنه الآخرون مستحيلاً هو أمر ممكن التحقيق. ألا يعتبر هذا إنجازاً؟
- لا تسئ فهمي، أنا أكنّ كل الاحترام لشجاعته، لكن ما أقدم عليه كان مجازفة خطيرة.
- ولهذا بالضبط خصصوا جائزة لمن يقوم بذلك. لو لم يكن هناك أيّ خطر...
- لا لا، أنا لا أقصد المخاطر الاعتيادية التي ينطوي عليها الطيران، بل أتحدث عن التهور وتشجيع الآخرين عليه، وتعريض الإنسان نفسه لمخاطر غير ضرورية. في نهاية المطاف سر النجاح في الطيران، مثله مثل أيّ شيء آخر، هو احترام القوى التي تواجهها. إذا أردت أن تركب الرياح لا تتبول عليها. أنا لست جباناً، لكنني لست أحمق في المقام نفسه.

– هو أحمق في رأيك إذن!

– هو بطل يا سيدي... لكنني أراهنك بأنه يلعن نفسه الآن في المستشفى وينعت نفسه بالأحمق. يقولون إنهم غير قادرين على التأكد ما إذا كانت ساقاه ستشفيان بشكل كامل.

– أيضايقك أنك عدت أدراجك ولم تكمل؟

– تعال معي. سأقود سيارتي غداً إلى دومودوسولا لأراه وأطمئن عليه. لقد استعرت سيارة. أم إنك ما زلت تنتظر ردّاً على مكتوبك من تلك الخادمة؟ ما كان اسمها؟

– ليوني.

– مثل اسم الجبل القريب من هنا، ليون.

– لا، يُلفظ بشكل مختلف.

– ما كنت لأثق بأيّ منهما، لا الجبل ولا الفتاة، قال وايمان ممازحاً.

– سآتي معك إلى دومودوسولا.

-٦-

وأنا أحلق شعر ذقني صباح هذا اليوم تذكّرت صديقاً لي يعيش في مدريد لم أره منذ خمسة عشر عاماً. ناظراً إلى انعكاس صورتي في المرآة تساءلت ما إذا كنا سنتعرف إلى بعضنا فوراً لو التقينا صدفةً بعد وقت طويل كهذا. صوّرت لنفسي لقاءنا في مدريد وبدأت أتخيّل كيف سيكون شعوره. هو من هؤلاء الأصدقاء الذين كانت تربطني بهم علاقة قوية وعميقة. لكنه لم يكن يتواصل معي سوى مرة أو مرتين في السنة ولا يحتل حيزاً ثابتاً في تفكيري. بعد أن انتهيت من الحلاقة مضيت إلى صندوق البريد لأجد رسالة من عشر صفحات واردة من هذا الصديق نفسه.

«مصادفات» كتلك ليست نادرة الحدوث وقد تحدث للجميع بنسب متفاوتة. تظهر لنا تلك المصادفات كم هو تقريبي وعشوائي تفسيرنا للزمن. الروزنامات والساعات هي من الاختراعات القاصرة التي أتينا بها. رُكّبت عقولنا بحيث يفلت منا إدراك الطبيعة الحقيقية للزمن. بالرغم من ذلك نعرف أنه ثمة سرّ يخفى علينا. هذا السرّ شبيه بشيء لا يُرى أبداً في الظلام، لذا نتلمس طريقنا إليه عبر سطوحه، إلا أننا لم نستطع تحديده بعد.

الطريقة التي أجبرتني فيها مخيلتي على كتابة هذه القصة قررتها

تلميحاتها إلى تلك الجوانب المتعلقة بالزمن والتي تلمستها من دون أن أتمكن من تحديدها. أكتب هذه الرواية في قلب الظلام نفسه.

وضع المرأة

حتى ذلك الحين كان الحضور الاجتماعي للمرأة مختلفاً تماماً عن الحضور الاجتماعي للرجل. كان حضور الرجل يعتمد على السلطة الموعودة التي يجسدها. إذا كانت تلك السلطة مرموقة ومؤكدة، يكون حضوره طاغياً. وإذا كانت قليلة الشأن ومستبعدة، يكون حضوره طفيف الأثر. كما كان هناك رجال، عدد كبير منهم في الحقيقة، لا حضور لهم على الإطلاق. تلك السلطة الموعودة قد تكون أخلاقية، أو جسدية، أو عقلية، أو اقتصادية، أو اجتماعية، أو جنسية - لكن تأثيرها يكون دائماً خارج نطاق الرجل بحدّ ذاته... حضور الرجل كان يحدده ما يمكنه فعله لكِ ومن أجلكِ.

على النقيض من ذلك، كان حضور المرأة يعبّر عن موقفها تجاه ذاتها، ويحدده ما يمكن وما لا يمكن ارتكابه بحقها. لم تعدم أيّ امرأة الحضور بشكل كامل. كان حضورها يتجسد في حركاتها، وصوتها، وآرائها، وتعابيرها، وملابسها، والمحيط الذي اختارته لنفسها، وذائقتها... في الواقع كان كل ما يبدر منها يساهم في تشكيل حضورها.

أن يولد الإنسان في جنس امرأة يعني أن يوضع ضمن فراغ محصور مخصص له، وتحت وصاية وسلطة الرجل. كان حضور المرأة يتطور حسب السرعة التي تكتسب بها براعة العيش والتأقلم تحت وصاية كهذه ضمن الزنزانة المخصصة لها. كانت تؤثث زنزانتها، إن صحّ التعبير، بحضورها، لا لتجعلها مناسبة لها في المقام الأول، بل أملاً في إقناع الآخرين بدخولها.

حضور المرأة كان نتيجة انقسام ذاتها إلى اثنتين، وتوجيه طاقتها إلى الداخل. الصورة التي كوّنتها عن نفسها كانت تلازمها دائماً، خلا تلك الأوقات التي تكون فيها وحيدة تماماً. لم تكن تستطيع أن تتجنب مراقبة ذاتها في كل وقت ومناسبة، وهي تسير في غرفتها أو تبكي على موت والدها أو غير ذلك. منذ نعومة أظفارها يتمّ تلقينها وإقناعها بألّا تتوقف عن مراقبة ذاتها. وهكذا تبدأ باعتبار ذاتها الرقيبة وذاتها المُراقَبة مكونين منفصلين دائماً لشخصيتها كامرأة.

كان على المرأة أن تراقب كل ما هي عليه وكل ما تفعله لأن الصورة التي تظهر بها أمام الآخرين، وفي المحصلة، الصورة التي تظهر بها أمام الرجال، كانت ذات أهمية جوهرية لإثبات ذاتها. شعورها الخاص بوجودها «في ذاتها» كان يستبدل بشعور التقدير الذي تتلقّاه من الآخر لتكوّن «ذاتها» على أساسه. كانت حياتها وتجربتها تكتسب معنى فقط عندما تشكّل موضوعاً لتجربة شخص آخر. لكي تعيش كان عليها أن تضع نفسها في حياة شخص آخر.

كان الرجال يراقبون النساء قبل أن يتعاملوا معهن. نتيجة لذلك كانت الطريقة التي تُعامل بها النساء تتحدد بالصورة التي تظهر فيها أمام الرجال. كان على المرأة أن تحتوي هذه العملية لتمتلك بعض السيطرة عليها، وبالتالي أن تندمج بها وتتبناها. ذلك الجزء من ذات المرأة الذي كان يأخذ دور الرقيب هو الذي يتعامل مع الجزء الذي يأخذ دور المراقَب ليبين للآخرين كيف يجب أن يتم التعامل مع ذاتها ككلٍ. نمط التعامل الذي تعتمده ذاتها الرقيبة مع ذاتها المُراقبة كان يشكل حضورها. كل فعلٍ من أفعالها، بغضّ النظر عن هدفه المباشر، كان مؤشراً على الطريقة الواجب اتباعها للتعامل معها.

إذا ما قامت امرأة برمي كأس على الأرض مثلاً، يؤخذ فعلها هذا على أنه نموذج عن طريقتها في التعامل مع مشاعر غضبها، وبالتالي كيف تتمنى أن يتعامل الآخرون معها في هذه الحالة. وإذا ما قام رجل بفعل الأمر نفسه، يؤخذ فعله هذا على أنه تعبير عن غضبه ولا شيء غير ذلك. إذا ما قامت امرأة بصنع خبز شهي، يؤخذ فعلها هذا على أنه نموذج عن الطريقة التي تعامل فيها الطاهية في ذاتها، وبالتالي كيف يجب أن يتعامل معها الآخرون كطاهية. وحده الرجل بإمكانه أن يصنع خبزاً شهيّاً حبّاً في ذلك وحسب.

هذا العالم المشروط الذي تعيش فيه المرأة، ومملكة حضورها تلك، تكفّلا بألّا يكون أيّ فعل يتمّ ضمنهما متكاملاً... كان كل فعل ينطوي على غموض يقابله غموض آخر في الذات موزع بين الذات الرقيبة والذات المُراقَبة. تلك الازدواجية المزعومة للمرأة كانت نتيجة سيطرة الرجل المطلقة على حياتها.

حضور المرأة كان يعطي الآخرين نموذجاً عن الكيفية التي تريد من الآخرين التعامل معها على أساسها، وكيف تحب أن يسير الآخرون على النهج الذي تتبعه في التعامل مع ذاتها. لم يكن بإمكانها التوقف عن طرح هذا النموذج، لأن ذلك كان الهدف الأوحد لحضورها. لكن عندما يفرض العرف الاجتماعي أو منطق الأحداث عليها أن تتصرف بطريقة تتعارض مع النموذج الذي تريد أن تقدمه، كانت تُنعت باللعوب. كان العرف الاجتماعي يفرض عليها أن تتظاهر برفضها لأشياء معينة قد يقولها لها أحد الرجال. تلتفت إليه بغضب واضح، لكن في الوقت نفسه تعبث بقلادتها بأصابعها وتتركها تسقط من يدها لتلتقطها مرة بعد أخرى برقّة فائقة كرقّة النظرة التي توجهها إلى ثدييها.

عندما تكون وحيدة في غرفتها ومتأكدة من أنها وحدها هناك، قد تنظر المرأة إلى انعكاس صورتها في المرآة وتمدّ لسانها لنفسها. هذا التصرف يجعلها تضحك في مناسبات، وتبكي في مناسبات أخرى.

حضور المرأة هو ما كان الرجل يقع في حبّه. ذلك الجزء الخاضع من الرجل كان يُفتن بالاهتمام الذي توليه لنفسها، ويحلم بأن تمنّ عليه بدرجة الاهتمام نفسها. كان يتخيل جسده وقد استُبدل بجسدها داخل مملكتها. كانت تلك لازمة تتردد باستمرار في القصائد الرومانسية التي تتحدث عن الحب من طرف واحد. ذلك الجزء من الرجل الذي اعتاد أن يكون متسلطاً لم يكن يحلم بامتلاك جسدها، فذلك يسميه شبقاً، بل بامتلاك ذلك السر المتقلب لحضورها.

حضور المرأة العاشقة قد يكون بليغاً جدّاً. الطريقة التي تنظر بها إلى حبيبها أو تسير نحوه أو تتحدث معه أو تلتفت إليه لتسلّم عليه قد تحتوي على بذور الإلهام الشعري. كان هذا واضحاً ليس فقط للرجل الذي تحب، بل لأيّ مشاهد حيادي. لماذا؟ لأن الذات الرقيبة والذات المُراقَبة في داخلها تتحولان إلى ذات واحدة بشكل مؤقت. وهذا الاندماج الاستثنائي يولّد في داخلها نوعاً من وحدة التفكير والهدف. الذات الرقيبة تتوقف عن المراقبة. يصبح موقفها من ذاتها غائباً تماماً كما تتمنى أن يكون موقف حبيبها. هنا يكون النموذج الذي تقدمه، لمرة واحدة على الأقل، نموذجاً غائباً. فقط في لحظات كتلك كان يمكن للمرأة أن تشعر بأنها إنسان كامل ومكتمل بحدّ ذاته.

حالة الوقوع في الحب كانت في العادة قصيرة الأجل، باستثناء الحالات الحزينة للحب من طرف واحد. أقصر أجلاً من الحب الذي

حاولت المدرسة الرومانسية في القرن التاسع عشر أن تقنعنا به. ربما تكون الشهوة الجنسية قد تغيرت قليلاً على مرّ التاريخ المدوّن. لكن القصة التي يرددها المرء لنفسه عن الوقوع في الحب يتمّ نقلها وتعديلها عبر الروابط الاجتماعية والثقافية للفترة التي عاصرها.

بالنسبة إلى الطبقات الوسطى في أوروبا القرن التاسع عشر اتسم العشق بشعور من الشك المفرط في عالم يعيش حالة من الاستقرار. كانت تلك حالة مستثناة من وعد التطور. ذلك الشك الذي ميّز تلك الحقبة كان نتيجة اعتبار الحبيب أو الحبيبة إنساناً حرّاً. لا شيء مما كان تعبيراً عن أمنيات المحبوب يمكن أن يسلّم به جدلاً. لم يكن أيّ قرار من قرارات المحبوب يضمن القرار التالي. كل إشارة يجب أن تُقرأ بمعناها الحاضر والآني. كل استعداد يكون موضع شك إلى أن يحدث ويصبح أمراً واقعاً. كان الشك يولّد نموذجاً خاصّاً به من الإثارة الجنسية: يصبح العاشق أداة في يد المعشوق بمحض إرادته، أو هكذا بدا الأمر لكل من العاشق والمعشوق. في الواقع كان منح حرية كتلك للآخر، والافتراض بأن الآخر مطلق الحرية، هو جزء من سيرورة يصبح الحبيب فيها مثاليّاً وفريداً لا عيب يعيبه.

كان كل عاشق، أو عاشقة، يؤمن بأنه، أو تؤمن بأنها، الأداة الطيّعة التابعة لمطلق حرية الآخر، وبأن حريته أو حريتها، المحدودة جدّاً حتى الآن، كانت مؤكدة في النهاية ضمن حدود عبادة الآخر على أقل تقدير. هكذا يقتنع كل منهما بأن الزواج هو السبيل ليحرر نفسه. لكن بمجرد أن تقتنع المرأة بذلك (وقد يحدث هذا قبل خطوبتها الرسمية بوقت طويل) لا تعود حينها موحدة التفكير والهدف، ولا تعود إنساناً كاملاً ومكتملاً بحدّ ذاته. عليها الآن أن تراقب ذاتها كخطيبة

المستقبل، وزوجة المستقبل، والأم المستقبلية لعدد لا يمكنها التكهن به من الأطفال.

بالنسبة إلى المرأة كانت حالة الوقوع في الحب عبارة عن فترة مليئة بالهلوسة تشهد فراغاً في السلطة حيث ينتقل فيها المُلك من مالك إلى آخر... عريسها يحل محل والدها، وربما، لاحقاً، حبيبها يحل محل زوجها.

سرعان ما تتماهى الذات الرقيبة في داخلها مع المالك الجديد. ستبدأ بمراقبة نفسها وكأنها قد تقمصت شخصيته. ما رأي موريس بذلك؟ هكذا ستسأل نفسها، كيف يجب أن تتصرف زوجته (أي هي نفسها) ؟ انظري إليّ، ستخاطب المرآة، وترى كيف يجب أن تتصرف زوجة موريس لتليق بكونها زوجة موريس. الذات الرقيبة في داخلها أصبحت الوكيل الجديد للمالك. (علاقة قد تنطوي على الكثير من الخداع أو الخيانة كما يمكن أن يحدث بين أيّ مالك ووكيله).

الذات المُراقَبة في داخلها تصبح مخلوقاً تابعاً للمالك ووكيله... مخلوق يجب أن يكون كلاهما فخورَين به. تصبح الذات المُراقَبة دميتهما الاجتماعية وأداتهما الجنسية. الذات الرقيبة تجعل الدمية تتحدث كزوجة فاضلة على العشاء. وعندما يبدو الوضع مناسباً لها، تلقي الذات المُراقَبة على السرير وتتركها للمالك ليتلذذ بها. قد يفترض أحدكم أن المرأة عندما تحبل وتلد تتوحد عندها الذات الرقيبة والذات المُراقَبة بشكل مؤقت. ربما يحدث هذا في بعض الحالات. لكن لطالما كانت الولادة محاطة بالكثير من الخرافة والرعب اللذين تخضع لهما المرأة وهي تصرخ مضطربة، أو وهي فاقدة للوعي وكأنها

تُعاقب لارتكابها هذه الازدواجية على صعيد الذات. عندما يستيقظن من عذابهن ويقمن باحتضان المولود يكتشفن أنهن كن عبارة عن وكيلات الأم المحبة لطفل الزوج.

آمل أن تلقي الصفحات القادمة بعض الضوء على القصة التي سأرويها، وبالتحديد قصة إصرار جي على كاميل لكي تكون «**فرداً واحداً موحداً**» (ألا تسمح لذاتها الرقيبة الموكّلة من مالكها بمراقبتها والتحكم فيها).

***

كارل ماركس تمَّ استبعاده ووضعه في العليّة.
جيوليتّي في العام ١٩١١

هذه هي أول مرة يعود فيها جي إلى إيطاليا منذ وفاة والده في العام ١٩٠٨. قام المحامون بتسوية كل الأمور والتعقيدات الخاصة بتركته من أبيه، وبات يمتلك الآن ثلاثة مصانع وباخرتي شحن وخمسة عشر منزلاً قرب مركز المدينة.

ضباب المساء فوق بحيرة ماغيوري يجعل كل شيء يبدو شبيهاً بستارة خلفية لمسرح. الجُزر تبدو وكأنها مصبوغة بالطلاء. على التلة تشمخ القصور الهائلة التي يقطنها الأغنياء خلف بلدة ستريزا. معظمها قد بُني في القرن التاسع عشر. حول نوافذها وأبوابها ترى رسوماً لأوراق الكرمة والبرتقال والطيور. وايمان وجي مدعوان لتناول العشاء في واحد من أضخم تلك القصور الذي يحاكي في بنائه برج مراقبة من عصر النهضة.

لماذا تحطمت طائرته؟ كيف اصطدم بالأرض هكذا؟

بالرغم من وجود المئات من الشهود على ما حدث، فقد اختلفت الروايات حول ما حدث بالفعل، كذلك الأمر بالنسبة إلى التفاسير. العديد من النظريات تمَّ طرحها على مائدة العشاء.

كان تشافيز مسيطراً تماماً على كل شيء وعلى وشك أن يقوم بهبوط مثالي، ولكن يا للحزن، فنتيجة لجهد الطيران ومقاومة الرياح، انطوى أحد جناحيه قبل أن تلمس العجلات الأرض. هذا ما أدّى في الحال إلى إرغام مقدمة الطائرة على التوجه إلى الأسفل فانغرست في الأرض ابتداءً بالمحرك.

يطرح هذه النظرية ويدافع عنها المسيو موريس هينيكن، وبما أنه يعمل مهندساً لصالح شركة بيجو فقد كان فعليّاً الممثل شبه الرسمي لشركة بيجو في المسابقة، وكان يجب الإنصات إليه باحترام وتقدير. له عادة مميزة تساعده على شدّ انتباه المستمعين إليه عبر التوقف فجأة في منتصف الجملة ليزدرد لقمة من الطعام. يلوّح بيديه الضخمتين بشكل متصلب، وكأنهما بابان خشبيان يُفتحان ويُغلقان لتنفذ الكلمات من بينهما وتمنعا أيّ شخص من الدخول إلى معقل حديثه إلّا بإذنه.

ما كان له أن يؤدي هبوطاً مثاليّاً. أساء تشافيز تقدير سرعته. كان يحاول أن يهبط بسرعة تسعين كيلومتراً في الساعة بدلاً من ستين. لكن ما أدّى فعليّاً إلى الاصطدام والتحطم لم يكن انطواء جناح واحد، بل انطواء كلا الجناحين اللذين انثنيا كجناحي فراشة أضرمت فيهما النار.

صاحب هذه الرأي هو المضيف الإيطالي ومالك القصر، وهو مدير شركة بيريللي للمطاط في ميلان الذي تبرع بمبلغ كبير لنادي الطيران والذي يعتقد، مثله مثل لورد نورثكليف، أن للطيران مستقبلاً عظيماً على الصعيد التجاري والعسكري. عادة ما يلطّف صوته ليعبّر عن عذوبة تجعله يبدو وكأنه يتحدث بصوت العقل والمنطق. موقع قصره، وأسقف غرفه المزينة بالرسومات، وفكرة تناول العشاء على ضوء المصابيح الصينية على المصطبة المفتوحة التي تحاكي أبراج المراقبة، وطيور الفلامنكو الحية في الحديقة التي تطل عليها المصطبة، كله يثبت، أو هذا ما يشعر به، منطقية وعقلانية آرائه. يؤمن هو بتشجيع نقابات العمال وتقديم الحوافز للعمال والموظفين. يستشهد أكثر من مرة لأصدقائه رجال الأعمال الأقل منه نجاحاً والأكثر عدوانية بكلمات رئيس الوزراء العظيم جيوليتي:

«حركة بروز الفئات الشعبية تتسارع يوماً بعد يوم، وهي حركة منيعة لا تقهر، ذلك أنها قد أصبحت ظاهرة عامة في كل البلدان المتحضرة، وتقوم على مبدأ المساواة بين كل البشر. لا يحاول أحدكم أن يوهم نفسه بأنه قادر على منع الفئات الشعبية من الظفر بحصتها من النفوذ السياسي والاقتصادي. الأمر يعتمد علينا بشكل رئيس، على موقف الأحزاب الدستورية في علاقاتها مع الفئات الشعبية... هذا سيحدد ما إذا كان بروز هذه الفئات سيشكل قوة محافظة جديدة، وعنصراً جديداً من عناصر الازدهار والعظمة، أو، على العكس من ذلك، زوبعة ستدمر ثروة البلد ومستقبله».

ما كان المضيف الكريم ليفكر بحلول شبيهة لتلك التي يلجأ إليها عمه: سلاح الفرسان! من دون تأخير! الأحكام العرفية وسلاح

الفرسان! إلّا كحلٍّ أخير، وحينها ما كان ليصرخ بهذه الكلمات في بهو فندق من فنادق ميلانو... بل سيرفع سماعة الهاتف بهدوء ويصرّح بها بصوت منخفض.

تسأل زوجته: أما كان أكثر أماناً له لو أنه حط في البحيرة؟

نتيجة للبرد الذي تعرض له أثناء اجتياز الجبال، أصبحت يدا الطيّار خدرتين ومتجمدتين للغاية لدرجة لم يستطع معها أن يتحكم بأجهزة القيادة كما يجب.

ترفع الكونتيسا يدها، أصابعها تتقارب بنعومة متناهية كلما اقتربت من رؤوسها. تلك حركة تبدر عن راقصة تحاكي بيدها وردة توشك أن تتفتح، هي أيضاً حركة تشبه ما يفعله طفل يحاول أن يلتقط شيئاً من داخل جرّة. فجأة، عند ذكر كلمة «متجمدتين» تقذف أصابعها وإبهامها وتبقيها ممدودة بشكل متصلب وتمرر يدها فوق اليد التي كانت متجمدة على سبيل التشبيه موضحة بلمسات مقتضبة كم كان سطحها متجمداً.

- ما هذا الذكاء؟! يهمس رجل إلى السيدة الشابة الجالسة إلى جانبه، يا للذكاء المخبوء خلف تلك الشعرات الرمادية! فتجيبه الشابة: بحلول عيد الميلاد ستكون قد تعافت من فقدان جيو، وسيصبح شعرها أسود كما كان منذ خمس سنوات.

- لماذا لا يسأل أيّ منكم المسيو تشافيز نفسه؟ امرأة في حوالي الثلاثين من عمرها تطرح هذا السؤال. صوتها مجروح قليلاً، إذا جاز التعبير، وكأنه قد تمزّق من قبل بنوبة ضحك شيطانية جامحة. ألا يتمّ التحكم بكل أجهزة القيادة بالقدمين؟

- هلّا أخبرتني باسمها من فضلك؟

- السيدة هينيكن. ألم يعرّفك أحد إليها؟

- أقصد اسمها قبل الزواج.

- لا أعرف.

- أعني اسمها الأول prenom

- أيوى. اعذرني. اسمها كاميل.

- جيو لا يتذكر شيئاً بعد مضيق غوندو.

- مسكين جيو.

صاحبة المنزل، المضيفة التي كانت ترتدي سواراً ذهبيّاً مصمماً على هيئة الأساور البابلية القديمة، تدعو وايمان بحركة من يدها للمشاركة في الحديث. تقول: مسيو وايمان (وايمان يخاف من موريس هينيكن، ولذلك ترعبه هذه الدعوة)، حضرتك طيار وضيف الشرف في جلستنا هذه، أخبرنا ما هي وجهة نظرك.

يتسم وايمان لكنه يجيب بشكل مقتضب بالإنجليزية: لا يمكنك الوثوق بطائرة كتلك. أتعرفون أن جناحيها مصنوعان من القطن والخشب؟

كان تشافيز يمرّ بحالة من فرط النشوة. ظن أنه قد نجحٍ في مهمته وأنه قد اجتاز الأسوأ... في اللحظة الأخيرة أصبح مستهتراً.

تلك نظرية هاري شواي، أحد أصحاب المصانع البلجيكيين.

امرأة كانت تبتسم منذ قليل لكاميل هينيكن وتتبادل النكات معها تقول: لم تقنعني نظريتك كثيراً يا هاري. أسلوبها في مخاطبته يوحي بأنها عشيقته على الأغلب.

- ومن هي هذه؟
- ماتيلدا، ماتيلدا لو ديريسن.

يجيبها البلجيكي: هذا لأن خيالك محدود للغاية يا ماتيلدا العزيزة. شاب في الرابعة والعشرين نجح في التحليق فوق جبال الألب لأول مرة في تاريخ البشرية سيعتقد بالتأكيد أنه قد أصبح خالداً، ويشعر بأن العالم قد أصبح طوع بنانه (يطلق البلجيكي ضحكة وجيزة)، صدقيني، لحظات النجاح هي الأكثر خطورة.

- لكنه خالد بالفعل، قالت المدام هينيكن، طلاب المدارس سيقرؤون اسمه ويدرسون إنجازاته في كتب التاريخ.

لو لم تكن متأنقة وترتدي ملابس فاخرة لاعتقد من يراها أنها مدرّسة. توحي ملامحها وقوامها بنوع من الميلان يضفي عليها استقلالية مميزة، ولو كانت محدودة، على صعيد التفكير.

يقول زوجها: هذا يعتمد على ما سيحققه من مآثر في المستقبل. (في اختيار السيد هينيكن لكلمة «مآثر» ثمة نوع من التكبر غير الواعي نتيجة للغيرة). ما حققه إنجاز عظيم، أنا أول من يعترف له بذلك

وآخر من ينكره، لكن في السنوات المقبلة سيكون هناك العديد من الإنجازات التي ستفوق هذا الإنجاز روعة وعظمة. ألست محقّاً؟ ألا تتفقون معي؟ توجّه بسؤاله لمضيفه الواثق من موافقته على ما يقوله.

بعد عشر سنوات من الآن سيقوم أحدهم بعبور الأطلسي من الجو.

- أول رجل يطير حول العالم! قالت زوجة المضيف بنوع من السأم.

- هل سيأتي يوم يطير فيه أحدهم إلى القمر؟ تسأل السيدة هينيكن.

يبتسم السيد هينيكن برحابة صدر لزوجته الغريبة الأطوار ويقول بفخر: هي تغالي قليلاً، هكذا هي كاميل، حالمة ومتطرفة.

اهتمامي بها لا يقل كثيراً عن اهتمام جي بها. سأصفها لكم كما أراها الآن. هي امرأة نحيلة. تبدو عظامها وكأنها كبيرة للغاية ليحتويها جلدها: تذكرك بطفل يرتدي ملابس أصبح كبيراً عليها فضاقت به. حركاتها حساسة ومرهفة، وكأنها هي أيضاً صغيرة عليها، ويجب أن تحذر من المبالغة في القيام بها. وجهها متوهج، وعيناها رقيقتان وشفافتان للغاية، وكأنهما ماء بالغ النقاء تظهر على صفحته أدق الأشياء.

تلاحظ أن جي يحدق فيها. عندما يحدق معظم الرجال في امرأة مجهولة تثيرهم وتوقظ شهوتهم يكونون قد بدؤوا مسبقاً بإغوائها وتعريتها في خيالهم، وتصوّرها في وضعيات معينة، وتخيّل تعابير معينة ترتسم على وجهها... يكونون قد بدؤوا مسبقاً بالحلم بها. وهكذا عندما تواجه نظرتهم، يحدث أمر من اثنين: إما يواصلون التحديق فيها بلا حياء لأن وجودها لا يقلق حلمهم بها، أو تلمح وميضاً من الخجل في أعينهم يفضحه ارتباك عابر تكون مضطرة إلى الردّ عليه إما بالردع أو بالتشجيع.

يرمقها بلا خجل، لكن بلا وقاحة في الوقت نفسه. لم يكن قد لمسها ولو بإصبع واحد في خياله. هدفه هو أن يقدّم نفسه لها كما هو. والبقية ستأتي بالتأكيد. يبدو وكأنه يتخيل نفسه عارياً أمامها الآن، وهي مدركة لذلك. تدرك أن الرجل الذي يرمقها بنظراته واثق بنفسه تمام الثقة بحيث لا يضطر إلى إخفاء شيء، ولا حاجة له إلى الخداع أو التستّر. كيف لها أن تردّ على تهور كهذا؟ في هذه المرة لا ينحصر الخيار بين التشجيع والردع. إذا أشاحت بنظرها بعيداً أو أخفضت عينيها، سيكون ردّ فعلها هذا معادلاً لاعترافها بالإعجاب بهذا التهور، وإذا أدارت وجهها إلى الجهة الأخرى، سيكون هذا اعترافاً بأنها قد رأته كما هو. (ستحمي نفسها، ستحتفظ بهذه الذكرى التي رسمها تهوره البديع). ردّ الفعل الأكثر اعتدالاً هو أن تستمر في التحديق به، أن ترمقه بنظراتها بشكل سافر، أن تنتقم منه من خلال الادعاء بأنها لا تلاحظ شيئاً ولا تكترث لشيء. وهذا ما تفعله الآن. لكن كلما طال أمد تحديقهما ببعضهما البعض، أصبحت أكثر وعياً بمحاولته توجيه نظراته إليها وتركيز انتباهه عليها تحديداً دون غيرها وبلا أيّ تحفظ. بالرغم من أنه محاط بمن يراقبه، ومع أن العديد من الأمتار تفصل بينهما، ومع أنها لا تعرف اسمه بعد، إلّا أن تلك النظرات التي يتبادلانها كانت قد تحولت إلى أول لقاء سرّي جمع بينهما.

- ما هي تلك الأبيات الرائعة لمالارمي التي قرأتها لي هذا الصباح؟ يسأل السيد هينيكن.

تبدأ بالإلقاء ببطء ووضوح:

المرأة الراقصة
ليست امرأة ترقص
لأنها من المحال أن تكون امرأة
وهي لا ترقص...

يحرك البلجيكي كأس نبيذه بلطف ليتمايل السائل في داخله.

– يا له من شعر جميل، تقول الكونتيسا، وهو حقيقي جدّاً. الفنان العظيم لا يمكن تقييده بجنس، ليس رجلاً ولا امرأة، الفنان العظيم إله.

– برأيي، كان مالارمي يحاول أن يهدم اللغة، قال السيد هينيكن، أراد أن يحرم الكلمات من المعاني الملتصقة بها، وأعتقد أن ذلك عبارة عن فعل انتقام طويل الأمد.

– انتقام؟ لم أفهم قصدك، يقول المضيف وهو ينظر إلى ظلال أشجار النخيل المنعكسة على سطح البحيرة وفي خلفية ذهنه يعبث بفكرة تركيب مولد كهربائي لتتم إنارة المنزل والحديقة بالمصابيح الكهربائية.

– انتقام من العوام، العوام الذين لم يقدروه حق قدره عندما كان يبحث عن التقدير.

– يا له من شعر جميل، تكرر الكونتيسا، الراقصة ليست راقصة، المغني ليس مغنياً. كم هذا حقيقي. أحياناً أنا نفسي أتساءل من أكون.

يقول البلجيكي: لا أعتقد أن البعض من معارفي في بروكسل سيتفقون معك في هذا الشأن، فقد كان لهم تجربة مباشرة مع عدد من النساء الراقصات، إذا كان لي أن أعبّر عن الأمر بهذه الصورة. لا يضحك أحد سوى ماتيلدا، بينما يحني البلجيكي رأسه في تعبير مصطنع عن الامتنان. (هو شخص يحسن استعمال القوة. يجلس بمؤخرته الهائلة على كل شيء وأيّ شيء قد يعطيه سبباً للشك في أيّ شيء يقوله أو يفعله).

– ألا تؤمن يا موريس بعبقرية شاعركم مالارمي؟ يسأل المضيف. يرغب هو في تشجيع أحاديث الشعر والأدب في منزله المطل على الحديقة.

– قد يكون مالارمي عبقريّاً وقد لا يكون كذلك. لست في موقع يتيح لي الحكم عليه. لكنه كان ظلاميّاً وغامضاً، وأنا أؤمن بالوضوح. خاصة وأن مهنة الهندسة هي إلى حدّ كبير مهنة قائمة على الإيمان. من غير الممكن أن ترى آلة مضطربة ومشوشة قابلة للعمل.

تقول السيدة هينيكن: مالارمي كان عبقريّاً، بل كان خالداً وشخصاً سابقاً عصره.

يقول جي: لو كان بإمكاننا جميعاً أن نعيش ألف عام، سيكون بإمكان أيّ منا أن يُعتبر عبقريّاً مرة واحدة على الأقل خلال هذه الفترة. وهذا لا يعود إلى عمرنا المديد أو العصر العظيم الذي نعيشه فيه، بل لأنه لا بدّ وأن تتقاطع إحدى مواهبنا أو كفاءاتنا، مهما كانت صغيرة بحدّ ذاتها، مع ما ينظر إليه الناس في تلك الفترة على أنه علامة على النبوغ والعبقرية.

– أنت لا تؤمن بالعبقرية!؟ تقول الكونتيسا مصدومة.

– لا، أعتقد أنها بدعة وتلفيق.

كان العديد من الضيوف قد غادروا المائدة ليتفرجوا على الحدائق المضاءة بنور القمر من فوق الدرابزين. يُشاهَد تمثال أبيض منحنٍ وغير واضح المعالم عند حوافه. لكن الطريقة التي وُضع فيها جعلته يبدو وكأنه جزء من هندسة الحديقة بممراتها المستقيمة ودرجاتها الحجرية ونوافيرها المتعددة الأضلاع. الأضواء تتلألأ على سطح الجزر المنتشرة عبر البحيرة، أما ما عداها فكل شيء جامد وصامت كالماضي.

صمت تاريخي كهذا لا قبل له بأن يستمر طويلاً.

يلتفت جي ليخاطب السيد هينيكن: لا أعرف إلا القليل عن مالارمي، فأنا لا أقرأ الشعر، لكن هل الفكرة التي سردتها لنا السيدة

زوجتك بكل براعة هي فعلاً غامضة إلى هذا الحد؟ بعض التجارب تكون عصية على الوصف، لكنها مع ذلك حقيقية. هل يمكنك، على سبيل المثال يا سيد هينيكن، أن تصف جرس صوت زوجتك وطبيعته؟ لكنني واثق من أنك ستميزه أينما سمعته، كما سأفعل أنا أيضاً عندما أسمع صوتكِ يا سيدة هينيكن.

تراقب السيدة هينيكن زوجها لترى كيف سيردّ على هذا الشاب الغريب الذي توجّه بحديثه إليها.

- لنأخذ المأساة الغامضة التي حلت بتشافيز مثلاً، -يتابع جي-، مئات الأشخاص شهدوا عليها، لكن بالرغم من ذلك لم يتمكن أحد من وصف ما رأى، لماذا؟ لأن ما حدث لم يكن متوقعاً. غالباً ما يكون غير المتوقع عصيّاً على الوصف.

ينظر إلى كاميل. سيناديها كاموميل. هكذا يقرر.

- مالارمي، -يكمل جي حديثه،- يقول إنه عندما ترقص المرأة يمكنها أن تتحول إلى شيء آخر. الكلمات التي يمكن استخدامها لوصفها من قبل، لا تعود صالحة لوصفها الآن. قد يكون من الضروري أيضاً أن نطلق عليها اسماً آخر.

يضع السيد هينيكن نفسه بين الشاب الغريب وزوجته. يُعتبر نحيلاً بالنسبة إلى عمره، لكنه يتميز بأفخاذ ضخمة: تبقى النساء نساءً، -يقول وهو يرفع يديه عالياً ليمنع أحداً من التدخل،- سواء وهن يلبسن، أم يرقصن، أم يكرمن وفادة ضيوفنا، أم يعتنين بأطفالنا، أم وهن يمنحننا المتعة. ولنكن ممتنين لذلك.

يقول المضيف: لا بدّ وأن سيداتنا الجميلات قد بدأن يشعرن بالبرد من هواء الليل الذي يهب من البحيرة. دعونا ننتقل إلى الداخل.

يتحدثون عن الجاذبية والانجذاب: هذه الأفكار تخلق نوعاً من الطاقة التي تعتمل بين جسدين متاحين: ما تغفله الحكاية هو كيف يبدو هذان الجسدان وكأنهما يتغيران من الداخل... لا يعود ذانك الجسدان متاحين. فكرة أنهما متاحان قد غيرتهما.

أنت لا تراها بصورة مختلفة... بل هي من تشكل الآن عالماً مختلفاً. شكل أنفها لم يتغير كثيراً. في الشكل ما زالت هي نفسها. لكن كل ما تراه يصبح مختلفاً ضمن معالمها غير المتغيرة. شبيهة هي بجزيرة ما زال شريطها الساحلي مخلصاً لصورته على الخريطة، لكنك الآن تعيش فيها محاطاً بها. صوت البحر الذي يأتيك من كل اتجاه هو الشيء الوحيد الذي يمكنك أن تواجه به الموت، إلا إذا تركت نفسك لديكتاتورية ذكائك.

الرمل ينزل على الكدمات برداً وسلاماً وكأنه لمسة من الحرير. لكنه قاسٍ على الجروح يشعل الألم فيها، وكل ذرة منه تزيد الوجع درجة.

لكنني أبعد نفسي عن تصوري الفريد لها عبر هذه الاستعارة المختصرة.

رأس كل إصبع من أصابعها، بأظافره المتآكلة، معبّر وكأنه عين تحدق بي. أسير من رؤوس أصابعها عابراً المفاصل التي تربطها بيديها. يداها تبدوان نحيلتين وضعيفتين بصورة غريبة. تبدو يدها وكأنها أداة أهملت ولم تُستخدم منذ وقت طويل. يمكنني أن أتخيلها

أو أراها بصورة مختلفة. أراها تداعبني. أتخيلها تضربني بقوة على ظهري. أتصورها تقدّم نفسها لي كضرع من خمس حلمات لأضعها في فمي وأمص كلّاً منها. لكن لا شيء من هذا له أهمية. اهتمامي توجّه بالصدفة إلى يدها. قد تكون أيضاً مجرد جزء آخر منها. مرفقها الحاد مع عظمة ذراعها يضغطان على جلدها ويجعلانه يبدو شاحباً أبيض وكأنها مصابة بفقر الدم. ما الذي يمكنني أن أتكهن بما يمكن أن يفعله؟ لا شيء مهم. لكنني أراه بالطريقة نفسها التي أرى فيها يدها. أتلقى منه الوعد نفسه وبالصورة نفسها يفي بوعده. أعزل الأجزاء عن بعضها لأتبع حركة عيني لحظة بلحظة، وبكل صدق. لكن عينَي تتحركان، تقرآنها بسرعة فائقة. إلا أن البرهان الذي يقدمه كل جزء منها، كل رؤية جديدة لها، تساهم في إدراكي لها ككل، ويجعل هذا الكل يتحرك وينبض باستمرار كقلب... ينبض باستمرار كقلبي.

ما هو وعدها هذا؟ أهو وعد بالحب في المستقبل؟ لكن هذا الوعد لم يتمّ الوفاء به بعد. لو أنني مارست الحب معها سيكون هذا لتكملة القصة، لوضع نهاية لشيء قد حدث مسبقاً بيننا. عندما تصف شيئاً، عندما تسميه، فأنت تفصله عن نفسك... على الأقل لدرجة معينة. أن تنيك يعني أن تسمي وتصف ما حدث باستخدام اللغة الوحيدة اللائقة للتعبير عنه. (فقط عندما لا يكون قد حدث شيء يكون بالإمكان فصل الحب عن الجنس). كل ممارسات الحب الجسدي متوقعة وذات مفعول رجعي... من هنا تنبع أهميته التي لا تضاهيها أهمية.

عيناي تلمسانها تقريباً، لكن ليس كما تلمسها يداي. لو لمستها، لمست جلدها وسطح جسدها، فإن إحساساً متناقضاً سيصاحب حاسة اللمس لديَّ. سينتابني شعور بأن ما ألمسه يغلفني أيضاً: إن هذا السطح الخارجي (وأتحدث عنها عن جلدها بمختلف مساماته

ودرجات نعومته وحماوته وروائحه) إن هذا السطح الخارجي كان في الوقت نفسه، في شق آخر من التجربة نفسها، سطحاً داخليّاً أيضاً. لا أتحدث بشكل رمزي هنا، بل أتحدث عن الإحساس. لمسها من الخارج سيجعلني مدركاً أنني موجود في الداخل.

أنظر إلى أصابعها وكأنني قاب قوسين أو أدنى من أن أستقر على كل واحد منها، وكأنني قد أصبحت المضمون الذي يخبئه شكلها. أنا وسلاميات أصابعها. عبثي؟ ربما. لكن ما هو العبثي؟ مجرد لحظة من التباين بين نمطين مختلفين من التفكير. أتحدث هنا عن أصابعها، عن لحم شخص آخر وعظمه، وأتحدث هنا عن خيالي أيضاً. لكن خيالي لا يمكن فصله عن جسدي، ولا عن جسدها...

الضوء الذي ينهمر عليها يغلفها كما يغلف المدن والمحيطات التي يسقط عليها. وقائع كيانها الجسدي هي أحداث العالم، الفضاء الذي تتحرك ضمنه هو فضاء الكون، ليس لأنني ساهٍ عن كل شيء ما عداها، بل لأنني مهيأ لأجازف بكل ما لا يمتّ لها بِصلة في سبيل كل ما له علاقة بها.

الطريقة التي تثبّت بها قدميها، الطول الدقيق لظهرها، جرس صوتها المجروح (الذي قال إنه سيتعرف إليه في أيّ مكان) كل هذه الصفات وكل الصفات الأخرى التي أراها فيها، تبدو جليلة كمعجزة. لا حدّ لما يمكنها أن تجود به... لا نهاية له. وأنا لا أوهم نفسي هنا. أشتهيها بكل وجودي، أشتهيها دون سواها. القيمة التي يكتسبها كل شيء يمتّ لها بصلة، الجلال الذي ينبعث من أصغر حركاتها، القوة التي تميزها عن أيّ امرأةٍ أخرى... وهذا أمر يقرره ما أنا مستعد لأن أجازف به من أجلها. ذلك هو العالم. وهكذا ستستحوذ هي على

كل ما لهذا العالم من أهمية. ستحتوي كل ما هو خارج نطاقها، ومن ضمنه أنا في هذا العالم الصغير الكبير الذي يضمنا. ستغلفني. ولكني مع ذلك سأكون حرّاً، ذلك أنني سأكون هناك بمحض إرادتي كما لم يسبق لي أن أردت من قبل في العالم والحياة التي سأقدمها لها هدية.

أحبك يا كاموميل، آه كم أحبك. هذا ما يجب أن يقوله.

دخل الضيوف الغرفة الكبيرة حيث الأثاث كان داكناً وثقيلاً والمصابيح تلقي حلقات ساطعة من الضوء على أرجاء الغرفة كتلك الأضواء التي تُسلط على طاولات المؤتمرات التي يقوم رجال السياسة بالتوقيع على الاتفاقيات فوقها. كان ترتيب الغرفة يوحي بأنها تستخدم في الأساس كمكان يأتي إليه رجال السياسة والأعمال من ميلانو ليناقشوا خططهم من دون أن يزعجهم أحد. كانت توحي بالراحة لكنها لم تكن تشتت الانتباه... كانت غرفة ذكورية، مثل غرفة استقبال الوزراء في مبنى مجلس النواب. لم تكن تحتوي على شيء يمكن مقارنته بطيور الفلامنغو في الحديقة (ما عدا أذرع النساء العارية التي تملؤها الآن). بمجرد دخول الضيوف إلى هذه الغرفة الباهتة، لكن المريحة، عبر الباب المزدوج الضخم القائم تحت لوحة كبيرة مرسومة لجيوليتّي، لاحظ أن السيدة هينيكن تتحدث إلى صديقتها ماتيلدا لو ديريسن، وكان هناك شيء في هذه العلاقة بين المرأتين قد اجتذبه وأثاره. شعر بأن بينهما نوعاً من المؤامرة، كتلك التي تحتفظ بها الأخوات في ما بينهن حتى بعد أن تكبرن.

في الممر عبرت السيدة هينيكن من أمام مرآة ضخمة مصممة على هيئة شمس، وفي المرآة رأت نفسها وهي تحاول أن تتحقق من

الوشاح فوق كتفيها والأهداب فوق جبهتها كونه يمكن أن يراها. من خلال عينيه رأت نفسها ورضيت عمّا رأت.

وهم في الغرفة كانت تقارنه بزوجها. كانا متشابهين بصورة غير متكافئة. كان السيد هينيكن أكثر قوة ويتمتع بسلطة كبيرة. كان مثلٍ الأب. وهي مع ولديها في المنزل كانت تناديه «بابا»... كان رجلاً يفهم العالم. حتى تكتّمه على موضوع عشيقته كان دليلاً على مدى فهمه للعالم. أما الآخر، الذي يتحدث الفرنسية بصورة سيئة، والذي لم يكن يقرأ الشعر لكنه قادر على تفسير مالارمي، مالارمي الذي تحب شعره كثيراً لأنه عصيّ على التفسير... فكان متهوراً ولامبالياً. ولكن بما أنهما كانا متشابهين بصورة غير متكافئة فقد سمحت لنفسها بأن تبتسمٍ له. بحذر، وبطريقتها التي يمكن وصفها بغير الودية، وباللجوء دائماً إلى زوجها الذي يستطيع في أيّ لحظة أن ينقذها من عواقب تصرفها الطفولي، كانت مستعدة، طوال هذه الأمسية، لأن تتودد إلى صديق الطيار الأمريكي هذا... أن تتظاهر بوجود علاقة لم تكن موجودة بينهما.

سألته أيّ نوع من الرجال كان تشافيز؟ أجابها بأنه التقى به مرة أو اثنتين فقط، ولكنه أخبرها أيضاً أن تشافيز كان شخصاً عصبيّاً، وربما يائساً. لكنه وجّه جوابه إلى السيد هينيكن والسيدة حرمه على حدّ سواء. وكأنه كان مدركاً للمقارنة التي أجرتها في ذهنها والنتيجة التي خلصت إليها. بعد أن لفت انتباهها إلى اهتمامه بها، كان قد أصبح مقتنعاً الآن أن على كليهما أن يركزا على الزوج... المالك.

جلسوا بقرب طاوْلة منخفضة وُضع عليها تمثال زجاجي ضخم زهري اللون لبجعة معلقة على قرص دوار يتحرك. تلك لم تكن تحفة

فنية ولا دمية، بل مجرد زينة توحي بثراء مالكيها. نظرت السيدة هينيكن مباشرة إليه، وضعت يدها على عنق البجعة وتمتمت ببيت الشعر الشهير الذي كتبه مالارمي:

هكذا يرى نفسه
بجعة من الأزمنة الماضية
جميلة
لكن بلا أمل[1]

الزجاج القاسي زهري اللون جعل بشرة يدها النحيلة تبدو وكأنها شفافة بلون الحليب.

– هل من مزيد؟ سأل السيد هينيكن مشجعاً. كان مدركاً أن صديق الطيار الشاب هذا قد أثار اهتمام زوجته مما زاد كرهه لمالارمي، لكنه أراد أن يظهر تسامحه وتفهمه في مواقف كتلك.

يتابع على هذه الشاكلة، قالت السيدة هينيكن: لكن لا تحاول أن تفهم شيئاً منه، فقط استمع إلى وقع ما أقوله.

أنشدت المقطوعة الشعرية المؤلفة من رباعيات والمقطوعة التي تليها كلها تاركة لصوتها أن يتحول من نبرة الحنين التي تزخر بها القصيدة إلى نبرة توحي بالشهوة والتوق. تتحدث القصيدة عن الفرص السانحة التي تمَّ تفويتها، لكنها، وعبر إلقاء تلك الأبيات بصوت مرتفع، كانت قد انتهزت الفرصة ولم تفوّتها. عبر تلاوة بعض الأبيات من القصيدة اغتنمت الفرصة لتجعل وقع الكلمات يعبّر عن كل ما كانت

١– بالفرنسية في الأصل.

تشعر به من دون أن تفضح نفسها، كل هذا كان خارج الحسابات ما عدا الحماية التي يؤمنها لها زوجها. فكرت في نفسها كشجرة تنمو في تربة حديقة زوجها لكن أوراقها تتحرك بحرية في الرياح.

أثناء إلقائها للقصيدة، جلس السيد هينيكن متكئاً إلى الخلف على كرسيه وهو ينظر مبتسماً إلى السقف المزدان برسومات أكاليل الزهور. روحانيتها، -قال لنفسه مزهوّاً-، هي ما يجعل منها تلك الأم الرائعة، لكنها مع ذلك تفسر إذعانها له، وتواضعها المفرط تجاهه. فخذاه الثقيلان وبطنه الكبير كانت تضغط على ملابسه وتجعّدها. استنتج أنها كانت تفتقد إلى الدفء، لكنها من ناحية أخرى ستبقى دائماً بريئة.

أحجم جي عن النظر إليها.

قال المضيف: لكِ صوت شاعر متمرّس، وبعدها كرر آخر كلمتين بالإيطالية ليجعلهما تبدوان أكثر شاعرية.

بدأت الكونتيسا حديثها الخاص بسرعة مع أولئك الجالسين حولها.

انحنى جي إلى الأمام ودفع البجعة الزجاجية بقوة بحيث بدأ قرصها بالدوران. لم تعد تبدو كبجعة وصارت أشبه بقارورة من النبيذ الزهري طويلة العنق ومتعددة الجوانب.

- البجعة ثملة، قال أحد الشبان.

التفت جي نحو السيد هينيكن وقال: ثمة شيء لطالما تأملت فيه

ولم أتمكن من فهمه تماماً، وهو شيء أعتقد أن بمقدورك أن تشرحه لي يا سيد هينيكن.

– سأفعل ما في وسعي.
– ربما لم تُتح لك الفرصة لزيارة المعارض؟
– أتقصد المعارض التجارية؟
– المعارض التي تقام في الشوارع حيث ترى أكشاك الصيد والصور المتحركة ومسرحيات البراغيث والدويّخات والطرق المتعرجة...
– شاهدتها من بعيد، نعم.
– أنا من الرواد الدائمين لمعارض كتلك. تسحرني تماماً.
– ولماذا تسحرك؟ قاطعت السيدة هينيكن.
– تزخر جميعها بالألعاب الخاصة بالبالغين، وليست كثيرة تلك الأماكن التي يمكن أن تري فيها أشخاصاً بالغين يلعبون.
– بالغون صغيرو العقول، –قال السيد هينيكن–، هؤلاء الذين يتعهدون معارض كتلك منحطون جدّاً.
– معك حق تماماً يا سيد هينيكن. لا بدّ وأنك قد قمت بزيارة أحد هذه المعارض لتفهمها بهذا الوضوح، أليس كذلك؟ والآن نعود إلى سؤالي. هل تعتقد أن الطيران في حلقات بشكل متكرر، كما يحدث في أنواع معينة من الدويّخات، له تأثير مؤقت، وذلك لأسباب نفسية بحتة، على الدماغ؟
– يمكنها أن تسبب نوعاً من الدوار، نعم.
– أقصد أكثر من ذلك. هل يمكن أن تتغير الشخصية مؤقتاً تحت تأثيرها؟
ردَّ عليه السيد هينيكن: أرجو أن توضح أكثر ما يدور في ذهنك.

- في هذه المعارض ثمة أنواع معينة من الدويخات، مزيج من الدويخة وسلسلة من الأراجيح. المقاعد معلقة بالجنازير وعندما تدور... تخضع لضغط قوة نابذة، -قاطعه السيد هينيكن-، وهكذا تُقذف إلى الخارج. كنت قد رأيت هذا النوع من الدويخات الذي تتحدث عنه. نسميها لعبة الكراسي الصغيرة.

- عظيم. الآن يمكنك أن تتحكم - إلى حدّ معين - بالطريقة التي تتأرجح بها في اتجاه الخارج. يتعلق الأمر بمدى اتكائك إلى الخلف، وبالمسافة التي ترفع بها قدميك، وبالطريقة التي تؤرجح بها كتفيك، وكيف تشد الجنزير من كل جانب بيديك. ليس ذلك مختلفاً جدّاً عن الكيفية التي تتعلم فيها كل فتاة كيف تتأرجح.

- أعرف، قالت السيدة هينيكن.

- الحيلة التي يتبعها معظم الراكبين بمجرد أن تبدأ الدويخة بالدوران هي محاولة أرجحة أنفسهم أقرب ما يمكن إلى من خلفهم أو أمامهم ليتمكنوا من الإمساك بأيدي بعضهم والتأرجح معاً كزوج يشكل كلّاً واحداً، وكل منهما يتعلق بجنزير الآخر. من الصعوبة بمكان فعل ذلك، وعادة ما يتمكنون فقط من التلامس بأطراف أصابعهم...

قاطعته السيدة هينيكن: يتمّ تصميم مقاعد الأراجيح بحيث تفصل بينها مسافة تضمن ألّا يتلامسوا أبداً. وإلّا يكون الجلوس فيها أثناء الدوران خطراً.

- تماماً. لكن كل من يركب هذا النوع من الدوّيخات يعيش حالة من التحول. بمجرد أن تبدأ بالدوران ويبدؤون بالارتفاع والتأرجح، تتغير ملامح وجوههم وتعابيرهم. يتركون الأرض وراءهم، ويلقون

رؤوسهم إلى الوراء ويرفعون أرجلهم في اتجاه السماء. أشك ما إذا كانوا يستمعون إلى الموسيقى التي تصدر أثناء الدوران. كل واحد منهم يحاول أن يمسك بالعارضة التي أمامه، ويصرخ بسرور وبهجة كلما ازدادت سرعة الدوران، وكلما ارتفعت السرعة ازداد شعورهم بالحرية وبدؤوا بالعلو والانخفاض والتباعد والتقارب. الأزواج التي تنجح في الإمساك بيد بعضها البعض تطير بشكل مستقيم وأكثر علوّاً من الآخرين. كنت قد راقبتهم أكثر من مرة ولم أرَ أيّاً منهم ينجو من حالة التحول تلك. الخجول منهم يصبح جريئاً. الأخرق يصبح ظريفاً. بعد ذلك، عندما تتوقف الدوّيخة عن الدوران، يعود كل واحد منهم إلى طبيعته. بمجرد أن تطأ أقدامهم الأرض، تعود تعابير وجوههم لتصبح مريبة أو متكتمة أو خانعة مرة أخرى. وعندما يسيرون مبتعدين عن الدوّيخة يعودون المخلوقات العادية نفسها، مجرد رجال ونساء كانوا منذ دقيقة مضت أحراراً يحلقون بين السماء والأرض.

ضبطت السيدة هينيكن دوران البجعة الزجاجية كما كانت قد فعلت من قبل.

- السؤال الذي أريد أن أطرحه عليك الآن يا سيد هينيكن هو التالي: هل تعتقد أن هذا التحول ينشأ كنتيجة للتأثير الناتج عن تعديل قانون الجاذبية الصادر عن القوة النابذة على الجهاز العصبي؟ هل هذا ممكن؟

- هو على الأرجح نتيجة القدرة الذهنية الضعيفة جدّاً لنوعية الأشخاص الذي يذهبون إلى أماكن كتلك. عقول هؤلاء على الأغلب صغيرة كعقول الأطفال.

- ألا تظن أنه قد يكون لذلك تأثير مماثل علينا نحن؟

- أستبعد ذلك كثيراً.

- ألم يكن الطيران حلماً للرجال في كل العصور؟ هل هذا أمر طفولي؟ سألت السيدة هينيكن.

- أخشى يا عزيزتي أن يكون خيالك قد خانك هذه المرة، قال السيد هينيكن. ما يحدث في ساحة ألعاب كتلك لا يمتُّ بصلة إلى الطيران. يجب أن تسألي السيد وايمان.

تبدّل موضوع الحديث. علّق أحدهم على لوحة جيوليتّي. ضحك المضيف وقال: إن الرسام الذي رسم اللوحة لا بدّ وأنه قد كان معارضاً سياسيّاً. أتعرف بماذا كان أعداء جيوليتّي ينعتونه؟ كانوا يسمونه قطعة السجق البولونية، لأنه، على حدّ زعمهم، نصفه مؤخرة ونصفه الآخر خنزير.

- أنت معجب جدّاً به كما أعرف، قال البلجيكي.

قالت ماتيلدا لو ديريسن: في بولونيا لا يعتبرون الخنزير سبّة، قد يكون اسماً لحيوان أليف.
- نعم أنا معجب به، قال المضيف. هو باني إيطاليا الحديثة. لطالما جلس هنا في هذه الغرفة، وكان هو نفسه من قال ذلك عن لوحته هذه. وأضاف: إن الرسام كان من بولونيا! وهذا بالضبط ما يجعله إنساناً عظيماً. كان يعرف أن الآراء الشخصية غير مهمة. المهم هو التنظيم. التنظيم والإقناع.

تحول الحديث إلى حوار سياسي، وبعدها انتقل إلى ألمانيا والأخبار الواردة عن الاضطرابات في برلين. كان السيد هينيكن يخشى من أن اندلاع الثورة في إحدى بلدان أوروبا قد تؤدي إلى تمددها إلى باقي البلدان. هكذا كان السيد هينيكن ينوس دائماً بين حالة الثقة المفرطة والخوف المفاجئ.

هزَّ المضيف رأسه على نحو مطمئن: لن تندلع الثورات في أوروبا، تجاوزنا مرحلة الخطر، والسبب بسيط. زعماء الطبقات العاملة غير طامعين في السلطة. يطالبون بإصلاحات فقط. لقد تعلموا فن المفاوضة. عرفوا أن عليهم أن يطالبوا بأكثر مما يطمحون إليه ليحصلوا على ما يريدونه بالفعل. يعيدون طرح كلمة «اشتراكية» من وقت إلى آخر. هذه الكلمة تعود إلى التردد في حال انقطاع المفاوضات، لكنها تُذكر فقط للضغط على الطرف الآخر لاستئنافها من جديد. إذا قمنا بتثقيف الناس بصورة ملائمة، وأحسنّا استخدام مزايا العلم الحديث، وكبحنا سلطة النظام الملكي، واعتمدنا على الحكومة البرلمانية، فلن نترك لهم حينها أيّ سبب لمحاولة تغيير النظام الاجتماعي القائم بالقوة.

أتى المضيف ووقف وراء السيد هينيكن ووضع يده على كتفه. أنت كثير الشكوك، تابع، تعال معي، دعني أريك أحدث صورة لتوراتي[1] والنواب الاشتراكيين في روما. إنها صورة طريفة... ومطمئنة للغاية.

نهض السيد هينيكن. شرعت السيدة هينيكن بقول شيء لكن أحدهم قاطعها...

١- فيليبو توراتي. شاعر وعالم اجتماع وقيادي اشتراكي إيطالي كان يدير مجلة «الناقد الاشتراكي».

- أنت رائعة الجمال. وهبك الله عينين تقولان كل شيء، وصوتاً مثل تغريد طائر المرعة.

ضحكت. طائر المرعة؟! هل تعتبر هذا مديحاً؟

- أنا أحبك. آه كم أحبك. يجب أن أراكِ غداً.

في العام ١٩١٠، والتي لم تكن استثنائية أبداً في هذا السياق، هاجر أكثر من نصف مليون إيطالي إلى الخارج بحثاً عن عمل وهرباً من الموت جوعاً.

طبيعة الإعجاب

لا يمكنني أن أقترب بما يكفي من كاميل عبر الكتابة عنها.
من ذا الذي يرسمني الآن
بين قلم الرصاص والورقة؟
يوماً ما سأحكم على الإعجاب
لكن التي ستحكم
لن تكون المرأة
التي تقاسي قسوة الانتظار

أنا ما أنا عليه.

ما أبدو عليه هو كما تراني أنت.

***

ديمودوسولا، مثلها مثل بريغ، كانت ممتلئة بالصحفيين وهواة الطيران ومتتبعي أخباره. هي مدينة صغيرة شوارعها ضيقة مفروشة بالحصى، وأسطح منازلها مغطاة بقطع غير منتظمة من الآجر المصنوع من حجارة حمر مسودّة شبيهة بلون صخور مضيق غوندو. عند النظر إليها من الجو، تحجب الأفاريز المتدلية الشوارع الضيقة وتبدو المدينة كلها كومة متناثرة من الشظايا الطينية الحمر المسودة وكأنها رواسب انزلاق أرضي.

كان المحافظ قد أصدر أمراً بوضع لوح أسود كبير في سوق الساحة ليكتب عليه، بالطباشير وبخط منمق، آخر المستجدات الطبية المتعلقة بحالة تشافيز.

وكونه صباح الأحد، فقد كان السوق والساحة والشوارع مزدحمة للغاية. كان الطقس قد تغير خلال الليل، ما كان أحد من المدعوين البارحة ليصدّق أنهم قد تناولوا العشاء على مصطبة البرج المفتوحة فوق بحيرة ماغيوري على بعد عشرين كيلومتراً من هنا. لم يتفاجأ برؤية كاميل تسير أمامه وهو يتدرج ببطء باتجاه المستشفى.

كانت ترتدي ثوباً مصنوعاً من جلد حصان لونه ليلكي باهت. تصميمه ولونه جعلاها تبدو أكثر جرأة مما كانت عليه وهي ترتدي ثوب السهرة. كانت مشيتها رشيقة وواثقة. على رأسها ترى قبعة واطئة مزينة بزهور بيض ومائلة إلى الأمام. شعرها البني كان مسحوباً إلى الخلف ومسرّحاً على هيئة كعكة. استطاع أن يعرف من أناقة مظهرها في هذا الوقت المبكر من الصباح في بلدة ريفية كتلك أنها لم تنم أبداً أو نامت بشكل سيّئ.

تختلف درجة حرارة الشعر عند لمسه من شخص إلى آخر بصورة واضحة، وهذا بغضّ النظر عن حرارة الجو المحيط. هناك رؤوس يميل الشعر الذي يغطيها إلى البرودة دائماً، وهناك رؤوس تشعر بالشعر الذي يغطيها وكأنه يولّد حرارته الخاصة به في الأجواء الأكثر برودة. في الهواء البارد، وهي لا تزال غافلة عن وجوده على بعد بضعة أمتار خلفها، استطاع أن يتكهن بأن شعر كاميل سيكون دافئاً بصورة استثنائية.

توقفت لتنظر إلى القفازات والفراء المعروضة في واجهة أحد المتاجر. أمسك بيدها فجأة من الخلف. التفتت مطلقةً صرخة بالكاد يمكن سماعها وكورت قبضتي يديها بغضب. عندما اكتشفت أنه كان هو، لم تستطع أن تخفي شعور الراحة الذي تجلى على وجهها. استمرت بالعبوس، ولكن خانتها ابتسامة عرفت طريقها عنوة إلى وجهها.

سألها عن زوجها وقال لها إنه أراد أن يقترح عليه، في حال لم يسوء الطقس هذا المساء، أن يرافقاه، هما والسيد شواي والسيدة لو ديريسن، في رحلة بالسيارة إلى سانتا ماريا ماغيوري.

كانت خلال الليل قد سألت نفسها عن تصريحه السخيف بحبّه لها. لماذا لم تدر ظهرها له وتتجاهله؟ لماذا لم تعترض عليه وتثور في وجهه؟ أخبرت نفسها بأن ما فعله فاجأها وأربكها فما استطاعت أن تردّ عليه بالشكل اللائق. لكن بالرغم من ذلك كان بإمكانها أن تستبق ذلك وتصدّه بطريقة ما. كانت هي في نهاية المطاف من شجع اهتمامه الفاضح بها عن سبق إصرار. لكن الشيء الذي لم تتمكن من توقعه، والذي ما زال يربكها ويحيّرها، كان الطريقة التي خاطبها بها، هكذا فجأة، وبإصرار واضح وإرادة لا تلين، وكأنهما كانا وحدهما في الغرفة، وكأنه قد سقط من السماء، أو شق الأرض وخرج منها ليجلس

بجانبها تماماً من دون أن يضطر إلى أن يعبر أو يقطع المنطقة التي يشغلها هؤلاء المحيطون بها. لم تعترض لأنه بدا لها وكأنه لا وجود لأحد تعترض عليه، بدا وكأنه أصبح خفيّاً لا يراه أحد من المحيطين بهما إلّا هي. لو أنها أثارت ضجة، أو افتعلت مشكلة، لبدت وكأنها تخاطب كياناً وجِد للحظة وتوقف بعد ذلك عن الوجود. كانت قد استيقظت في الليلَة الفائتة واثقة تمام الثقة بأنها رأته واقفاً قرب النافذة. وللسبب نفسه لم تستطع أن تصرخ حينها.

أخبرته أنها قد فقدت زوجاً من القفازات في القطار أثناء مجيئها من باريس. سألها إذا كان يمكنه أن يدخل المتجر معها. ترددت. أكد لها أنه المتجر الوحيد في البلدة وسيسره أن يترجم لها.

في هذا الصباح كانت تنظر إلى الواقعة التي حدثت بالأمس من زاوية مختلفة. ما حدث قد حدث (بصورة غامضة)، لكنه مرّ من دون عواقب بفضل نظام حياتها الثابت والروتين الذي تسير عليه. كانت في دومودوسولا مع زوجها. بعد خمسة أو أربعة أيام ستعود إلى أطفالها في باريس. هذا الرجل (الذي كانت بصحبته في متجر القفازات تخبره بأنها تبحث عن قفازات بيض طويلة) قد انتهز لحظة عابرة في حفلة العشاء كفرصة يعلم أنها لن تسنح له مرة أخرى. وقعت الحادثة وانتهت قبل أن تبدأ.

المرأة التي كانت تقوم على خدمتهما في المتجر تحدثت مطولاً عن بطولة تشافيز. جيو تشافيز، ترجم لكاميل، هو قاهر الجبال، وهذه المرأة الواقفة وراء النضد مستعدة لأن تهب حياتها من أجله، وأن تكون عبدته حتى آخر يوم في عمرها لكي تخفف عنه آلامه التي يعاني

منها الآن. تحدثت كما تتحدث أم عن ابنها على الرغم من أن الله، ويا لحزنها وشقائها لذلك، لم يمنّ عليها بولد من صلبها. إحدى بناتها كانت تعمل في ميلانو، والثانية تساعدها في عملها في المتجر.

القفاز الذي أرادت كاميل أن تجربه كان مصنوعاً من أرق أنواع الجلد وضيقاً للغاية. المرأة، التي كانت تفخر بأنها من أبناء البلدة التي يتعالج فيها تشافيز، قربت أحد القفازات إلى فمها ونفخت فيه قبل أن تقدمه عبر النضد إلى كاميل: إذا وجدتِ صعوبة في ارتدائه، – شرحت لها –، سنرشّ عليه بعض رذاذ الصابونَ.

عندما تربط الذاكرة تجربة بأخرى، قد تختلف طبيعة هذا الرابط بشكل كبير من حالة إلى أخرى. هناك روابط يحدثها التناقض، وأخرى يحدثها التشابه، وروابط تنشأ من التشابه على صعيد الشعور، وروابط تنشأ من التسلسل المنطقي... إلخ. العلاقة بين التجربتين قد تتعلق أحياناً بالعلامة المشتركة. في هذه الحالة يكون الرابط متشابكاً ومتعدد الأشكال. لكن هذه العلامة، بغضّ النظر عن مدى دقتها، لا يمكن صياغتها بالكلمات إلّا كما يمكن للكلمة أن تعبر عن النغمة. تجربته وهو يراقب عاملة المتجر الإيطالية تنفخ في القفاز استحضرت في ذهنه، وتركت علامة في ذكرياته على الدفء الغامض الذي وجده مرة في ملابس السيدة هيلين، آخر مربية أشرفت على تعليمه في طفولته. وفي الوقت نفسه وضعت ذاكرته علامة على ما يحدث معه في تجربته الحاضرة. لكن بغضّ النظر عن ماهية تلك العلامات إلّا أنها تبقى غير قابلة للصياغة.

نفخت المرأة الإيطالية في القفاز الثاني قبل إعطائه لكاميل. ممتلئاً بأنفاسها اتخذ القفاز شكل يدٍ أصابت كاميل فجأة بخوف شديد.

كانت عبارة عن يد ميتة لا عظام فيها، يد بلا إرادة، يد طافية في الهواء مثل سمكة ميتة بطنها الأبيض المنتفخ موجه إلى الأعلى. تلك يد لا تريد لنفسها أن ترتبط بها، يد غير قادرة على أن تُحكم قبضتها على شيء، يد ما كانت يداً في المداعبة وما كانت لتقدر على المداعبة، بل خُلقت لتُبعد وتنفّر. علمت في تلك اللحظة ما الذي كان يعرضه عليها. كان يقدم لها الفرصة بأن تكون ما تتظاهر أنها عليه. كان يغويها لتحول كلمات مالارمي إلى صباحات ومساءات تعيشها في الواقع. لكنها في الحال وضعت معرفتها خارج ذهنها عبر نبذ الذات التي لم تكن تأخذها على محمل الجد. لم يكن عليها لكي تبقى آمنة، قالت لنفسها، سوى أن تحذر من التصرف بصورة غير واقعية.

كان القفاز على قياسها تماماً. الجلد الملتصق على براجمها الهزيلة كان ضيقاً للغاية حتى إنه كان يلمع وكأنه رطب.

قال لها: أمسكي يداً بالأخرى.

فعلت ذلك.

– أرأيتِ، لقد أمسكتِ يدكِ اليسرى باليمنى.

– وهل هذا غريب؟ سألت.

– لا، لكن هذا يعني أنكِ واثقة من نفسكِ... يعني أنكِ تتحكمين بمصيرك.

ضحكت برضا لأنه قد لاحظ ذلك. أنا قنوعة جدّاً. قالت.

– يمكنكِ أن تكوني قنوعة وعبدة في الوقت نفسه. ليس للقناعة سوى دور ضئيل هنا. لماذا قلتِ عن نفسكِ إنكِ قنوعة؟

رأت أنه من الأفضل ألّا تجيب، وقالت: لكنني أجفل بسهولة مع ذلك، كما حدث معي في الشارع منذ قليل.

– تجفلين؟ لقد التفتِّ إليَّ وفي عينيكِ يلتمع غضب امرأة شرسة

تدافع عن شرفها، وعندما أدركتِ من أكون سلّمتِ عليَّ كامرأة واثقة من نفسها تمام الثقة.

نزعت كاميل القفازين من يديها بغضب، ووضعتهما على النضد والتفتت باتجاه الباب. سأل عاملة المحل عن ثمن القفاز.

– لا أريده. قالت كاميل.

دفع ثمنه. قامت عاملة المحل بتغليفه بورق بنفسجي. وقفت كاميل في مواجهة الباب. أمسك بكلا مرفقيها بيديه الاثنتين من الخلف.

(ماذا أتوقع أن يكون مرفقاها يفعلان في هذه اللحظة؟ لا شيء ذو أهمية. لكنني أشعر بهما تماماً كما أشعر بيديها. أتلقى منهما الوعد نفسه وبالطريقة نفسها تفيان بهذا الوعد. مرفقاها مضمومان في يديه الآن).

– ثقي بي، –قال–، ما من شخص آخر يعلم لماذا تضمين يدكِ اليسرى باليمنى. سرّكِ لن يُكشف.

– لا أريد هذين القفازين. قالت.

– هما أيضاً لن يكشفا سرّكِ، –قال–، أنا واثق من أنك ترغبين في شرائهما، وأنا أقدمهما لكِ كتقدير متواضع لأناقتكِ في هذا الوقت المبكر من الصباح يا سيدةَ هينيكن.

الرسمية التي تحدث بها أربكتها. لم يكن من الممكن الجزم ما إذا كان زيفها متعمداً أم نتيجة عدم تمكنه التام من اللغة. أيّاً كان السبب فقد أكّد لها أنها قد بينت، عبر إظهار غضبها، أنها حمقاء طائشة.

– من السابق لأوانه أن نختلف الآن، –قال لها–، ومدّ لها يده بالقفاز وانحنى أمامها.

قبِلته.

– أحبكِ يا كاميل، قال لها وهو يفتح باب المتجر.

***

يقع المستشفى قرب مركز المدينة، وهو عبارة عن مبنى أصفر مربع الشكل. حديقته تجعله تبدو وكأنه بيت كبير يعود في طرازه المعماري إلى القرن التاسع عشر. بابه الرئيس تكتنفه أشجار الكاميليا من الجانبين. في المدخل يوجد طاولة وعليها كرّاس مفتوح. هذا الكراس مخصص للأشخاص العابرين أو الزائرين، من أولئك الذين لا يريدون إزعاج الطيار بزياراتهم، لكتابة الرسائل أو عبارات التقدير الموجهة له. لكنه يبدو للبعض نذير شؤم، إذ إنه في بقاع معينة من دول البحر المتوسط يوضع كراس عند الباب الأمامي للبيت في حال حدوث وفاة، ويقوم الجيران والمعارف بالتوقيع بأسمائهم على صفحات الكراس ليعبروا عن مواساتهم وحزنهم على الفقيد.

وايمان ينتظره في أعلى السلم.

يقول وايمان هامساً: يقول إنه لا يذكر شيئاً مما حدث بعد عبور مضيق غوندو.

- كيف يبدو الآن؟

- مضطرباً وعصبيّاً جدّاً.

- وكيف يرى الأطباء وضعه الصحي؟

- إصاباته ليست خطيرة. لا يعاني من ارتجاج في المخ. لا شيء يمنعه من التعافي بشكل تام.

- ولكن؟

- لم أقل ولكن!

- أعرف، ولكن؟!

- لكنه عصبي جدّاً. قال وايمان.

يدخلان الغرفة ليجدا فيها نصف دزينة من الرجال بمن فيهم كريستيانز وصديق تشافيز الحميم دوراي. على الجدار المقابل للسرير عُلقت برقيات قادمة من كافة أنحاء العالم، وكانت كافية لتغطي الجدار كله.

بالنسبة إلى الرجل الجريح ربما يجسد الجدار نافذة واسعة يطل منها على رأي العالم بإنجازه، لكنه ليس كذلك، بل مجرد جدار عُلقت عليه أوراق مستطيلة الشكل مبعثرة ولا معنى لها يتحرك بعضها ويضطرب عندما يُفتح الباب. درجة حرارته أعلى قليلاً من المعدل الطبيعي، وذهنه صافٍ. الزمن وخياله مرة أخرى يحللان حتمية الأحداث التي وقعت منذ أن أعلن للملأ: «أنا ذاهب الآن». حتميتها كانت تجابهه مثل صخرة تقف في وجهه وتتحرك كلما حرك رأسه أو حوّل نظرته. ومهما بلغ ارتفاعه، ومهما بلغت جرأته في اختراق جدار الرياح في اتجاه الغرب، إلا أنها تبقى مكانها لا تتزحزح ماثلة أمام عينيه وفوق شفتيه المتورمتين. يحلل ويحلل، لكن جيولوجيا الأحداث ما كانت لتتغير أبداً. هذه التحاليل الصامتة المتكررة اللانهائية تجعل كل ما يقال أو يرى في غرفته في تلك الأثناء يبدو بعيداً جدّاً كما هي بعيدة تلك الكلمات المدونة على البرقيات التي أمامه ولا يستطيع قراءتها.

وجدوه تحت حطام طائرته ووجهه محشور بالأرض. لكنه لم يكن فاقداً وعيه.

يمسك جي بيد تشافيز ويقدم له التهاني. ليس معتاداً على غموض الرجال، فالغموض بالنسبة إليه هو حق مقتصر على النساء. عن الرجال يطرح فقط أسئلة تكون الأجوبة عنها محدودة، تماماً كما يسأل المرء عن الوقت حسب ما تشير إليه ساعة اليد أو ساعة الجدار. ينظر في عيني تشافيز الداكنتين اللتين تعكسان شعوراً بالريبة، وشفتيه المتورمتين اللتين، حتى وهما سليمتان، تكونان ممتلئتين وملتويتين بصورة غريبة، وظاهر كفيه، ليرى أمامه صورة كاملة لشاب صغير أجبر على أن يستلقي على نحو مفاجئ في فراش مستشفى قائم في حديقة

دومودوسولا كغطاء خارجي لا يقل عشوائية عن الضمادة الأسطوانية التي تغلف ساقيه. وضعُ يد على ثدي امرأة يستحضر الشعور الغامض نفسه. تحت العالم المادي تتعاظم بشاعة العالم المعنوي واللامرئي. يمكن لأيّ طبيب أن يزيل الضمادة عن ساقه. لكن ما من جراح يجري شقّاً في لحمه ويباعد ما بين أعضائه الداخلية سيكون قادراً على كشف السرّ. يكمن السرّ في رحابة المنظومة التي يخلق تشافيز من خلالها العالم الذي يحيا فيه، طالما أنه على قيد الحياة، على أنه تجربة فريدة تخصّه وحده (يشمل هذا يد جي التي تمسك بيده).

- في هذا الصباح ذهبت إلى متجر لبيع القفازات والمرأة التي تعمل هناك تحدثت عنك وكأنك قديس، قديس يتحلى بشجاعة بطل.

قاطعه تشافيز: أعرف أن الجميع يراني هكذا. ربما كانوا محقين وربما لا. على أيّ حالٍ، هذا المسألة لن يكون في الإمكان البتّ بها لأنني، كما ترى الآن، أُحتضر.

***

تحسّن الطقس. اقترح أن يقوم السيد هينيكن بقيادة السيارة. في وقت متأخر من المساء كانوا يشقون طريقهم عبر غابة من الصنوبر تطل على البحيرة. أرادت السيدة هينيكن أن يتوقفوا لبعض الوقت ليتمشوا قليلاً في الغابة.

الضوء يدخل الغابة بشكل أفقي تقريباً. كل شعاع ضوء يتسلل من بين الأشجار إلى عمق الغابة يكتسب قدرة تجسيمية فائقة. الأشجار الموجودة قبالة الضوء تبدو سوداً تماماً. جذوع الأشجار المنارة بضوء الشمس تتزين بلون عسلي يميل إلى الرمادي. الضوء نفسه ينهمر على

قماش وحرير فستاني المرأتين اللؤلئيين البراقين. بينما تسيران تغوص أقدامهما المكسوة بأحذية مرتفعة ومزودة بأزرار، برفق لكن عميقاً، في الغطاء الكثيف الذي تشكله إبر الصنوبر، والأكـواز المتعفنة، والطحالب والأوراق والزهور. يبدو كل سطح ساطعاً أكثر من العادة، لكن يبدو كل شيء وكأنه قد فقد شيئاً من صلابته وقوته في الغابة.

يتعامل مع كاميل بتهذيب خالص ورسمية بحتة، وكأنه يريد أن يؤكد عمق وجدية المؤامرة التي تحدث بينهما الآن. يركز انتباهه على السيد هينيكن وهاري شواي. يشجع هذا الأخير على التحدث عن الثروات الموجودة في الكونغو. يتظاهر بأنه يستمع باهتمام، وبين الفينة والأخرى يطرح سؤالاً لا يقدم ولا يؤخر، أو يعبّر بإيماءة مشجعة عن موافقته على ما يقوله. لكن بالرغم من الانطباع الذي يعطيه، بالكاد يستمع لما يقال. بلغة مختلطة، حيث الكلمات هي فقط إحدى الوسائل التعبيرية، لغة لا تختلف جوهرياً عن اللغة التي كان يطرح بها أسئلة على نفسه وهو طفل، لكنها مدعمة الآن بطيف أوسع من المفردات والمدلولات، يخاطب الرجلين اللذين يسير بينهما... بصمت.

- على أيّ أساس قمتم باختيارهم؟ للأسباب عينها التي كنتم ستختارون النساء على أساسها. رجال في مكانتكم يجب أن يحصلوا على الأفضل. لكن الأفضل ليس مفهوماً ثابتاً مع ذلك. إذا اخترتم امرأة من دون مراعاة هذا قد تعرضون مكانتكم للخطر، وهذا قد يعود عليكم، وعليها بالمحصلة، بالحزن. اختاروا تصميم الملابس بما يتناسب مع حقيبة اليد، واختاروا من يرتدي الملابس بما يتناسب مع تصميمها. لكن بمعزل عن كونكم رجالاً لهم مكانتهم، أنتم أيضاً رجال لهم أيور.

على يسارهم، ترتفع الأرض بحدة فتبدو جذور الأشجار البعيدة على مستوى الأغصان المرتفعة للأشجار القريبة. ما بين الأشجار القريبة ترى صخوراً بسطح مسنن لكنها مغطاة بالطحالب الخضر. وعلى يمينهم، حيث الدرب منبسط بما يكفي للنظر إلى أسفل، يرون سطح البحيرة يتألق تحتهم كحجر البلق الكريم.

وأيوركم مُنحت كل المثالية ولها كامل الحق في اختيار ما تشاء. أيوركم تريد أفضل ما يمكن، ولتذهب مكانتكم ومناصبكم إلى الجحيم. كيف يمكنكم أن ترضوا الجانبين معاً؟

الغابة ليست شيئاً لا يقبل الجدال مثل الجبال. هي متسامحة مع كل ما قد يحدث فيها، مثلها في ذلك مثل البحر.

لا يمكنكم ذلك. لكن يمكنكم أن تحموا أنفسكم أو أن تحاولوا حماية أنفسكم ضد العواقب الكارثية لصدع مفتوح في المنظومة التي تعيشون في ظلها. وهذا شيء تكونون قد قمتم به منذ بلوغكم سن المسؤولية بمساعدة زملائكم وأصدقائكم وكنيستكم وأساتذتكم وكتّابكم وخياطيكم وممثليكم الكوميديين ومحاميكم وقوات حفظ نظامكم ومشاهيركم، وبالتأكيد... نسائكم.

يتساءل السيد هينيكن إذا كان ما يقوله صديقه سيكون موضع اهتمام لشركة بيجو. كل ما يمكن أن تحتاجه سيارات المحركات يجب أن يكون موضع اهتمام عند شركة بيجو. يتمنى أن يزور الكونغو بنفسه. كان قد ذهب من قبل إلى الجزائر، لكن بالكاد يمكن اعتبارها جزءاً من إفريقيا في رأيه. إفريقيا تبدأ في الأدغال. يلتقط عوداً من الأرض ويبدأ يضرب به برفق على جذوع الأشجار التي كانت في متناوله وهو يمرّ إلى جانبها.

كان عليكم أن تجدوا قيمة ثالثة، اهتمام ثالث يرتديه طموحكم الاجتماعي الذي، بخلاف الطموح الصِّرف، يجب أن يرتدي دائماً ثوب الامتثال، وأن تعترف به مثالية أيوركم كحكم. وهذا الاهتمام الثالث كان الملكية، وولعاً دائماً بالتملك. ليس تملكاً على الصعيد المادي فقط، بل تملك عاطفيّ يثيركم جسديّاً، ويتحول إلى حاسة قوية للغاية كحاسة اللمس. أنتم في الواقع قد حرصتم على أن يتعلم أطفالكم ألّا يلمسوا أشياء ليست ملكهم، لا زهرة ولا حيواناً ولا يد شخص غريب. أن تلمس يعني أن تطالب بحقك في التملك. أن تنيك يعني أن تتملك وتستحوذ على الملكية إما بدفع الإيجار لفترة محدودة أو بالتملك المطلق بدفع الثمن كاملاً.

المرأتان تسيران خلف الرجال. هاري شواي يوضح لهم أنه بينما يُعتبر العاج مادة فاخرة اليوم، فإن المطاط سيصبح مادة أساسية مع تطور قطاع صناعة السيارات وهذا ما سيجعل مستقبل الكونغو مرهوناً بثروتها من المطاط. الغابة ساكنة جدّاً لا شيء يعكر صفوها سوى تلك الجماعة التي تشق طريقها عبر أحد دروبها. وبين حين وآخر، هناك في الأعلى بين الأغصان الأكثر ارتفاعاً، ينشد عصفور بضع تغريدات، ويصمت.

ألم يخبركم أحد عن منازلكم من قبل؟ لقد اكتشفت ذلك منذ زمن طويل. تسيرون بترف، في أيّ مدينة في أوروبا، تمرون عبر تجمعات سكنية ثرية في الشارع الذي تطل عليه بيوتكم أو منازلكم.

أشجار الغابة من نوع التنوب أو الصنوبر. تنمو الأشنيات بسرعة أكبر على شجر التنوب. ترى هناك العديد من الأغصان الميتة مكللة بشعر أخضر متلبد شاحب أشبه بأعشاب البحر. وعلى باقي الأغصان

ترى خطوط الأشنيات وكتل الطحالب مثبتة مثل براغي ضغط فضية بيض ملطخة بالأوساخ.

أطر نوافذها ودرفاتها قد طليت حديثاً، لكن بالكاد يميزها لونها عن الواجهات الأخرى المحيطة بها، وهو لون يمتص أشعة الشمس إلّا أنه يصدر وميضاً حبيبيّاً ليصبح شبيهاً بمناديل المائدة الكتانية المنشّاة. تنظرون إلى الأعلى نحو النوافذ المزودة بستائر ثابتة لا تتحرك وكأنها قُدّت من حجر، ترون تشكيلات الشرفات المعدنية التي تحاكي النباتات، تحملقون في الزخارف الملونة والزهرية التي تعود إلى مدن أخرى وأزمنة أخرى، تمرون بالقرب من أبواب خشبية مصقولة لها عوارض وأجراس نحاسية. صمت الشارع المتشكل من أصوات حشد بعيد بالكاد يمكن سماعها، حشد مكون من العديد من الأشخاص البعيدين جدّاً عن مطالبهم الفردية، بعيدين عن شهيقهم وزفيرهم الممتزجين في صوت تنفس متواصل ولطيف كنسمة. هذا الصمت ليس صامتاً أبداً، صمت يستقبل ويحتوي صوت باب أمامي تغلقه خادمة ما، أو نباح كلب يمكث بين أثاث منجّد فوق سجادات سميكة، مثل ما يستقبل ويحتوي المطعم أصوات الأشواك والسكاكين التي توضع على طاولاته. كل شيء ساكن ومستقر وحسن التجهيز. وبعد ذلك، هكذا على حين غرة، تدركون بصدمة تهز أركانكم أن كل مسكن، مهما كان ثابتاً راسخاً، هو عارٍ، منتهك، مغتصب من دون أيّ قطعة قماش تستره.

مع مضي الركب إلى الأمام، تتغير المساحات التي يرونها بين جذوع الأشجار في الشكل واللون. يتآمر الشكل واللون في لحظة ما ليوحيا بوجود غزال بين شجرتين.

- انظروا! تقول ماتيلدا همساً.

تؤخذ بالتمويه الذي ترتكبه الطبيعة، والـذي بواسطته تندمج الحيوانات مع البيئة المحيطة بها... معرفتها أن الغزلان تعيش في الغابة جعلت ماتيلدا تختلق حيواناً من مفردات الغابة.

كان قد استنتج من طريقة ابتسام ماتيلدا له أن كاميل قد ائتمنتها على سرّها. هناك نوع من الانفتاح في تعاملها معه، وفضول سافر كذاك الذي ليس في وسع النساء إلّا أن يظهرنه في حضرة عاشق أو متودد أو صديق حميم.

- ظننت فعلاً أن ما رأيته كان غزالاً، تقول ماتيلدا.

الدرب الذي يسيرون عليه يؤدي إلى مرج مستوٍ مفروش بأعشاب طويلة يرسم كل ورقة عشب فيها شعاع ضوء أفقي مستقل واضح، ويبدو مليئاً بالسكينة والسلام اللذين يميزان الخريفِ الذي نشعر فيه وكأن كل عمليات النمو قد عُلِّقت وكل العواقب قد أُرجئت إلى أجل غير مسمّى. متجاهلاً حديث هاري شواي المتواصل، يتوقف السيد هينيكن ليقطف بعض زهور الزعفران المخضرّة ويقدمها لزوجته. تذكره تلك اللحظة بالعام الذي تودد إليها فيه.

اخترت هذه المرأة لتجعلها ملكية خاصة لك. درجة القناعة بحسن خيارك تعتمد على تقديرك لمدى حصرية ملكيتك لها في أيّ لحظة. في النهاية أصبحت لك بالكامل، وبعدها بتَّ قادراً على أن تقول: لقد اخترتها لتكون ملكي.

تأخذ كاميل الزهور بيدها التي ترتدي قفازاً. تقوم ماتيلدا بتعليقها على قميص صديقتها.

من الضروري أن تؤمن أن ما اخترته لنفسك شيء جيد. لكن جزءاً من ذاتك يبقى مشككاً... ذلك الجزء الذي كان مخادعاً ماكراً يستمع إلى الرجال الآخرين ويدرك منذ الطفولة أن الحياة تعمل لصالح من يعملون لصالح أنفسهم. بالزواج منها ستفقد فرصة الزواج من أخرى. عبر امتلاكها ستكون قد قوّضت احتمالات امتلاكك لغيرها. صحيح أنه ما زال بإمكانك امتلاك عشيقة، لكن الأمر نفسه يسري على اختيارك للعشيقة أيضاً. وهكذا يسأل الجزء المشكك في نفسك: أهي مرغوبة بما يكفي لتقنعني بصورة متواصلة بصواب القرار الذي اتخذته بامتلاكها؟ هل يمكن لقدرتها على الجذب أن تغريني لاعتبارها مرغوبة أكثر من أيّ شخص آخر؟

تضحك كاميل على نكتة قالتها ماتيلدا. يمشي السيد هينيكن عبر الأعشاب الطويلة وكأنه يسير عبر الماء. هاري شواي يوضّح ما الذي يجعل ضم الكونغو رسميّاً منذ سنتين يعود بالنفع على التجارة.

- لو أن الجواب كان «لا»، لكنت أسقطتها من حساباتك وكأنها توقفت عن الوجود.

- لم أرَ من قبل فراشات بهذا الحجم، يصرخ السيد هينيكن ويجري لمسافة قصيرة محاولاً أن يلتقط إحداها بقبعته.

لكي تتمكن من تعويضك عن فقدان معظم النساء، أو ربما كل النساء، الأخريات في العالم، كان عليها أن تصبح مثالية. عملت معك

على اختيار الصفات التي سترفعها إلى درجة المثالية. أنت اخترت براءة كاميل، ورقتها، وأمومتها، وروحانيتها. وهي أكدت لك هذه الصفات، وقمعت كل جوانب شخصيتها التي تتعارض مع تلك الصفات. أصبحت أسطورتك... الأسطورة الوحيدة التي تخصك أنت وحدك.

يشدد شواي على أن الأساليب الاستعمارية للملك ليوبولد ومقاطعة الكونغو الحرة خاصته كانت فعالة منذ عشرين عاماً، وأن تعبير السلطات الأوروبية عن شجبها لاستغلال عمال السخرة والإجراءات القمعية القاسية المتبعة، في الوقت الذي كانت هي نفسها قد اتبعت أساليب مشابهة من قبل - ولكن بشكل أقل فعالية، أمر فيه الكثير من النفاق. بالرغم من ذلك، -قال شواي-، إن النظرية القائلة بأن الملوك رجال أعمال فاشلون صحيحة جدّاً، وذلك لأنهم يفكرون بالعائد قبل أن يفكروا في الاستثمار.

أنت... أنت أصبغت المثالية على صفات مختلفة عند ماتيلدا. مزاجها مختلف، مشاعرها مختلفة، وهي ليست زوجتك بل عشيقتك. تقول إن لديها أجمل عنق في العالم. تعتقد أنها كسولة، مثلها مثل أيّ امرأة عاشقة للمتعة. تفتخر بأنها تغوي الرجال كشيطان. تلك الصفة الأخيرة تملؤك بالرضا... طالما أنك عشيقها، وطالما أن الأمر يقف عند حدود التودد فقط، أيّ طالما أنها، بالمحصلة، لا تخونك.

عندما ستفكر بترك كاميل، عندما ستدرك أن ماتيلدا هي في نهاية الأمر متهورة للغاية وعصبية بشكل مفرط، لن يحدث ذلك لأنك لست راضياً بما تتحليان به من صفات، بل لأنهما لن تكونا قادرتين على تعويضك عن تلك الصفات التي لا تتحليان بها.

أنا أكرهك. سلطتك لم تأتِ من ثروتك، بل خلقتها طاعة الرجال لك. كل ما تعلموه في حياتهم ملأهم بالحسد تجاهك، والحسد يقود في النهاية إلى الطاعة. يريدون أن يكونوا مثلك. لهذا يعيشون حسب قوانينك، وفي النهاية يختارون الطاعة لمنفعتهم الخاصة.

ما تحتكم إليه من سلطة في داخلك تافهة. عيناك تحدقان كرجال موتى يقفون مستندين إلى عوارض نوافذهم ليقنعوا الحشود في الشارع بأن هناك من يراقبهم. الأذنان، وهي الأكثر براءة، وأكثر ملمح منفتح في وجه الإنسان، تجثمان في مكانهما على طرفي رأسك كمخلفات باقية من عمر سابق لا فائدة ترجى منهما، تماماً كما هي الحلمات على صدرك. أين تعيش؟ على أطراف أصابعك؟ أم في قلبك؟ أم في قاع أحلامك؟ أم على امتداد كتفيك؟

تعيش في ذلك الفراغ ضعيف الإضاءة الخالي من الهواء القائم بين آخر طبقات جلدك وملابسك. تعيش في تلك الفتحة التي يشكلها طابق الميزانين في نفسك. عواطفك وآلامك مجرد طفح جلدي.

تقول كاميل: أسمع صوت القبرة، لكنني لا أراها.

لا يمكنك تهديدي. وجودك يجعلني أتصالح مع فكرة موتي.

لا أريد أن أعيش طويلاً في عالم تحكمه أنت... الحياة في عالم كهذا يجب أن تكون وجيزة. الحياة ستفضل الموت على صحبتك. حتى الموت سيتردد في أخذك ولن يفعل إلا مكرهاً. ستعيش طويلاً.

يقترب السيد هينيكن من المجموعة الواقفة في زاوية المرج. يرفع

يديه أمام صدره وهما مغلقتين على بعضهما. الظاهر أنه قد أمسك بفراشة.

تقول كاميل: دعها تذهب، أنت أسوأ من صبيّ صغير شقيّ.

- ما كنت لتقولين ذلك للينيوس[١]. يرد عليها السيد هينيكن.

- من هو هذا؟ يسأل شواي.

يقذف السيد هينيكن يديه في الهواء ويفتحهما. لم يكن في داخلهما أيّ فراشة. ينفجر بالضحك.

عندما تضحك، تضحك بجنون (تلهث براحة عابرة) على الشخص الذي كان يمكن أن تكونه، وعلى الشخص الذي تذكرك به هذه المزحة لبرهة قصيرة.

بمجرد أن يختفي أحدكم، يأتي آخر ليأخذ مكانه، وعدد الأماكن يزداد ويزداد. سيعاني العالم من نقص في الكثير من الأشياء قبل أن يعاني من نقص من أمثالكم.

بعد المرج يؤدي الدرب إلى نقطة تشرف على بداية المنحدرات الجرداء الجنوبية لجبال الألب. عندما يتوقفون عن الكلام، يسارع الصمت، واتساع البحيرة، وتلك القمة الوحيدة المكللة بالثلج بين قمم الجبل، وأمسية الخريف التي تتجاوز وقتها وتستطيل، يسارع كل هذا إلى الاندماج في ملغمة تشبه عدسة يتخيلون عبر النظر من خلالها ما هو غير قابل للتخيل عادة: هذه العدسة تمكنهم من إلقاء نظرة على الفضاء المحيط بحيواتهم.

١- كارل لينيوس، عالم نبات وطبيب وجيولوجي ومربٍّ وعالم حيوان سويدي.

لماذا أخشاك؟ أنت من يتحدث عن المستقبلِ ويؤمن به. أنت من يستغل المستقبل ليعوّض نفسه عن شباب لم يحظَ به. أما أنا فلا. أنا سأكون في منأى عن استمرار وجودك المتوحش التافه، سأرحل كما رحل جيو تشافيز. ما الذي أخشاه إذن؟

ما أخشاه الآن هو فكرة خلودك. فكرة الخلود التي تفرضها على الأحياء قبل أن يصبحوا موتى.

يعود ليسير بصحبة الرجلين في طريق العودة إلى السيارة. تصبح الغابة أكثر برودة وظلمة. رائحة الصنوبر تصبح أكثر قوة. في غسق الغابات يصبح توحد الأشجار أكثر بروزاً. ذلك الغصن الصغير ذو الأوراق الواخزة والنتوءات المتسلطة على امتداده كان غصيناً في طفولته، وأوراقه تلك كانت مجرد إبر. عندما يصبح الغصين غصناً، كل نتوء منه يصبح غصيناً، والأغصان تنمو من الجذع بالطريقة نفسها. الغابة هي نتيجة دورة الحياة البسيطة تلك التي تتكرر بصورة لامتناهية.

يسلّم كاميل رسالة وهو يساعدها على الصعود إلى المقعد الخلفي للسيارة. ستقرأ فيها لاحقاً: طائري، مرعتي، صغيرتي، أقصى أمنياتي وكل رغباتي، لديَّ شيء أقوله لكِ، لكِ وحدكِ. قابليني غداً مساءً. سأنتظركِ داخل سيارة أمام محطة ستريسا غداً مساءً.

اكتشف السيد هينيكن أمر هذه الرسالة في الليلة نفسها. كانت كاميل قد خبأتها بين صفحات ديوان مالارمي الذي كانت تبقيه إلى جانبها طوال الوقت. بدأ الدخان ينبعث من المصباح الزيتي الموضوع على طاولة الكتابة. نادت على زوجها في الغرفة المجاورة وطلبت منه

أن يصلحه لها (في منزلهم في باريس كان لديهم كهرباء). وبمحض الصدفة أوقع السيد هينيكن الديوان عن الطاولة. طارت ورقة الرسالة من بين صفحات الكتاب، رفرفت قليلاً، وحطت على الأرض. توقف ليلتقط الكتاب والورقة التي طارت منه. قطعة الورق المطوية أثارت فضوله: تساءل ما إذا كانت كاميل قد بدأت بكتابة قصائدها الخاصة. فضَّ الرسالة. لاحظ أنها مذيلة بتوقيع. أعادها إلى الكتاب من جديد، قبّل كاميل على جبهتها وغادر الغرفة وكأن شيئاً لم يحدث.

كاميل، الغافلة تماماً عما جرى، طلبت من الخادمة أن تحضّر الحمام لها. كانت قد قررت أن تتجاهل الرسالة، لكنها لم تستطع أن تتوقف عن سؤال نفسها: ما الذي وجده فيّ وجعله طائشاً وملحاحاً هكذا، من دون أن تعثر على جواب.

بعد ربع ساعة شعر السيد هينيكن بفداحة الإثم المرتكب في حقه. دخل غرفة زوجته من دون أن يقرع الباب وكأنه قد اكتشف خيانته للتوّ. دفع الباب دفعة قوية جعلته يصطدم بالجدار محدثاً صوتاً مدويّاً. كانت كاميل قد نزعت الدبابيس من شعرها وارتدت ثوب نومها. لم يرفع السيد هينيكن صوته. تحدث بمرارة وقسوة، وكانت الكلمات تخرج من بين أسنانه.

– كاميل، لا بدّ وأنك مجنونة. أيمكنكِ أن تفسري لي فعلتكِ؟

نظرت إليه متفاجئة.

– افتحي هذا الكتاب، أظن أنكِ تعلمين ماذا يوجد في داخله. في داخله رسالة... رسالة يضرب صاحبها موعداً معكِ. ممن هذه الرسالة؟

– ليس من حقك أن تتجسس عليَّ. الأمر مهين لكلينا.

- ممن هذه الرسالة؟

- أخبرني أنت، ويمكنك أن تخبرني أيضاً كم رسالة أخرى قد استلمت من السيد نفسه. أنت تتصرف بحماقة يا موريس.

- ممن هي؟

وقف منتصباً أمامها وهو يشد قبضتيه بإحكام، ورأسه مائل قليلاً إلى الأسفل ليتمكن من رؤية تلك البقعة حيث قبّلها قبل أن يغادر الغرفة ليقرر ما الذي عليه أن يفعله. وهي جالسة على كرسيها، كان عليها إما أن تتكئ إلى الخلف لتبدو وكأنها تجبن في وجهه، أو أن تحدق في سلسلة ساعته التي تبعد بضع بوصات عن وجهها. حدقت في السلسلة الذهبية.

- ليس لديَّ ما أخجل منه، قالت، لم أكن أنوي أن أرد على الرسالة، التي أراها حمقاء جدّاً بالمناسبة، ولم أقم بأيّ شيء مهما يكن لأشجعه على ذلك، يجب أن تصدقني.

- ممن هي؟

- أليس لديك ما تقوله إلّا هذه العبارة يا موريس؟ لماذا لا تسألني ما الذي حدث قبل أن تقفز إلى استنتاجاتك الغبية.

- ممن هي؟

- يا إلهي! ما خطبك اليوم؟

- أريد ان أسمعكِ تقولين اسمه.

- في هذه الحال أخشى أنني لن أمنحك هذه المتعة.

- تماماً.. لأنك تعلمين، كما أعلم أنا، أن صوتك سيخونكِ. لن تتمكني من إخفاء مشاعركِ - إذا كان من الممكن أن نسميها مشاعر - لن تستطيعي أن تخرجي مشاعركِ من صوتكِ. قولي لي اسمه الآن!

- أنا أرفض ذلك. أنت تتصرف بسخف.

- ترفضين! بالطبع سترفضين. لقد رأيتكما معاً. كنت أعمى.

أعمتني ثقتي بكِ. لكنني أرى كل شيء بوضوح الآن. منذ أن وقعت عينيكِ عليه، بدأتِ ترمقينه بنظرات الغرام، جلستِ إلى جانبه، تراقبينه، وتتمتمين...

– لا بدّ وأنكِ قد جننت. ليس من حقك أن تقول لي هذا الكلام. أنا لم أفعل شيئاً أُلام عليه.

– لم تفعلي شيئاً. لم يكن لديكِ الوقت خلال يومين لتفعلي أيّ شيء... وأنا هنا أستخدم تعبيركِ الملطّف. لكنكِ أردتِ أن تفعلي شيئاً، ومثلكِ مثل... مثل أيّ عاهرة بدأتِ تثيرين انتباهه.

حاولت أن تدفعه بعيداً بيديها. بعد ذلك أخفضت رأسها وبدأت تبكي.

قال: سنغادر إلى باريس غداً مساءً، قولي لإيفون أن تحزم أمتعتنا. مشى بخطوات واسعة نحو الباب ومن ثم التفت ليواجهها مرة أخرى. ما يثير اشمئزازي وما أعتبره قمة في السفاهة وقلة الحياء، أن كل هذا قد حدث خلال يومين وتحت ناظري تماماً في بلدة صغيرة كل من فيها يعرف الآخر ولا يختبئ فيها سرّ. هذه قمة السوقية والابتذال!

– لا يختبئ فيها سر! قالت بغضب وهي تبكي.

– سأنذره غداً صباحاً، –قال–، إذا رأيته مرة أخرى بصحبتك، سأرديه قتيلاً، وسأجعل كل المحاكم في فرنسا تحكم لصالحي وتبرئ فعلتي. سأطلق النار عليه وأرديه كـ..

– ألن يكون من الشرف أكثر أن تتحداه في مبارزة؟

– أظن أنك تحسبين نفسك محظية عظيمة. لكنك لا تملكين البراعة ولا السحر اللازمين لتكوني كذلك. ويصدف أننا نعيش الآن في القرن العشرين.

– أتوسل إليك ألّا تقول له شيئاً.

– لا أقول له شيئاً!

عندما انزاح ثوب نومها كاشفاً عن نحرها استطاع أن يرى صدرها الأبيض الناهد. دعنا نعود إلى باريس، -قالت-، إذا كان هذا بالفعل ما يرضيك، لكن أرجوك لا تتحدث إليه.

- من الواضح يا عزيزتي كاميل أنك خائفة مما يمكن أن أكتشفه من حديثي معه.

- حسناً، افعل ما تريد.

نزع المفتاح من قفل الباب وغادر الغرفة. أخذ المفتاح لأنه لم يكن من المستبعد أن تقفل الباب على نفسها، كما كانت قد فعلت في عدة مرات بعد شجارهما، وربما في وقت متأخر من هذه الليلة، فكر في تلك اللحظة، يقرر أن يقتحم غرفتها وينيكها كشرموطة.

***

نامت كاميل بشكل متقطع. استيقظت في السادسة صباحاً. لم يكن زوجها في غرفته، ومن الواضح أنه لم ينم في سريره. فتحت النافذة على مصراعيها. كانت السماء زرقاء صافية لا تشوبها غيمة. لم تكن عجلة سير اليوم قد حددت سرعتها بعد... بدا الزمن، مثله مثل الشارع الذي لم يكن فيه سوى بضعة أشخاص، وكأنه يتمدد ويستطيل. من تمدد اليوم وارتفاع السماء الزرقاء تشكلت فترة زمنية جعلت أبعادها كاميل ترتجف فجأة. من نافذتها استطاعت أن ترى محطة السكة الحديدية.

كانت تنتظر بنفاد صبر أن يمرّ الوقت لتتمكن من تحميل إيفون رسالة إلى ماتيلدا تخبرها فيها أن تأتي إليها بأسرع ما يمكن لأنها بحاجة إلى مساعدتها.

في أثناء انتظارها طلبت من الخدم أن يجلبوا لها كوباً من القهوة.

من نافذتها شاهدت هرة تعبر الساحة بتلك السرعة الثابتة التي تميز الهررة عندما يكون أمامها طريق سالك إلى غايتها. كانت الهرة قد سمعت صوت طاحونة القهوة عندما قامت الفتاة الريفية بتشغيلها في المطبخ. كانت الفتاة تجلس على كرسي بلا ظهر وتضع الطاحونة بين ساقيها. بالنسبة إلى الهرة هذا الصوت مرتبط بالقشدة. عندما تنتهي الخادمة من طحن القهوة ستمضي إلى سلم خشبي مستند إلى الجدار وتصعد عليه وتنزل حاملة مرطباناً كبيراً من القشدة. ستصب القشدة من المرطبان الكبير في مرطبانات فضية صغيرة، وإذا ما قامت الهرة بحك جسدها برجل الخادمة، ستصب قليلاً من القشدة في صحن أبيض وأزرق وتضعه قرب الباب المطل على الساحة لتأتي الهرة وتشرب منه.

نظرت إلى خزانة ملابسها عدة مرات لتقرر ما الذي سترتديه في ذلك اليوم. سيسافران على متن القطار المتجه إلى باريس. كانت تُحمل إلى أطفالها وكأنها هي نفسها طفل أساء التصرف. كانت تمتلك بدلة سفر داكنة اللون من الكتان المبطن بالساتان المزخرف ستكون خياراً أمثل لهذه المناسبة. لكنها قررت أن ترتدي فستانها الرمادي الليلكي الباهت. كانت مجبرة على العوة إلى وطنها رغم احتجاجها.

لم تكن بحاجة إلى ماتيلدا لتسدي لها النصح بل لتقدم لها المساعدة. بالنسبة إليها كانت ماتيلدا شخصاً يتبع معايير مختلفة عن معاييرها ويتمتع بفطنة لا تملكها هي. كانت ماتيلدا تفهم العهود، ولذلك كانت قادرة على الوفاء بها. عندما تزوجت السيد لو ديريسن وهو في الرابعة والستين، تعهدت بأن تجعل الفترة المتبقية من حياته سهلة وملائمة لقاء الإرث الذي ستحصل عليه بعد موته. وعلى مدى خمس سنوات عملت على الاهتمام بهذا الرجل المريض وغنّجته كطفل. أما كامل

فلم تكن قادرة على تحمل صفقة كهذه، ذلك أنها تؤمن بأن الحياة يجب أن تكون أجمل وأرقى من ذلك. كانت تؤمن بعدالة أساسها روحاني لا مادي. كانت معجبة بأسلوب حياة العمال في مزارع العنب الذين كانوا آخر من يتمّ توظيفهم، أولئك الذين يعملون فقط لساعة واحدة، ويقبضون الأجر نفسه الذي يحصل عليه من عمل طوال النهار وعانى من التعب والعطش والجوع تحت الشمس الحارقة.

كانت بحاجة إلى مساعدة ماتيلدا على وجه الخصوص لأنها أرادت أن تفرض نوعاً من العدالة. قررت أنه إذا تحدث زوجها إلى جي كما كان قد هدّد (ويبدو أن غيابه دلالة قوية على أنه سيفعل ذلك) أن تذهب إلى البلدة هذا الصباح بصحبة ماتيلدا على أمل أن تلتقيا به. لم تكن ترغب في رؤيته مرة أخرى، لكنها أرادت أن تؤكد له أنه بغضّ النظر عن مدى وقاحة وطيش محاولته التودّد لها، والتي تعتبرها خطأً لا يغتفر، إلّا أنها لم تعتبرها محاولة دنيئة.

توقعت أن تعتبر ماتيلدا خطتها هذه خيالية وطفولية. لكنها كانت تعلم أن ماتيلدا ستفعل ما تطلبه منها: هذا عائد في جزء صغير منه للصداقة التي تجمعهما، وفي معظمه لخوفها من الملل.

- ما الذي ننتظره في هذه البلدة الريفية الكريهة؟ كانت ماتيلدا قد قالت لها صباح الأمس، أعتقد أننا ننتظر موت البطل يا عزيزتي.

***

مع وصول القطار المحلي إلى محطة دومودوسولا، فتح السيد هينيكن باب العربة وهو على أهبة الاستعداد للقفز إلى الرصيف. لم

يكن نافد الصبر وعرف أن لديه ما يكفي من الوقت ليقتله، لكن كلما تصرف بنشاط أكثر ازداد يقينه بصحة قراره. خرج عدد من العمال من القطار نفسه، لكن بدلاً من أن يسيروا في اتجاه المخرج عبروا خط السكة الحديدية إلى ساحات خطوط التحويل. لم يكن ثمة سيارة أجرة تنتظر خارج المحطة ولم يرَ سوى شخص واحد غيره في الطرف الأقصى من المسار.

مرَّر يده فوق جيبه الجانبي ليتأكد مرة أخرى من أن المسدس الأوتوماتيكي، الذي كان قد قام برحلة شاقة في الليلة الماضية للحصول عليه، موجود وثابت في مكانه. وجوده في مكانه، مثله مثل النشاط الذي تتميز به حركاته، كان بمثابة تأكيد وإقرار: وكأنه يسمع أحد أصدقائه يقول له: موريس يتصرف بهدوء وثبات.

في أثناء مروره بالقرب من الفندق، نظر إلى نافذة غرفة نومه وتذكّر سخرية كاميل من دخوله معه في مبارزة. كانت المبارزات وأحكام الإعدام عادةً ما تتمّ في ذلك الوقت من النهار. قال لنفسه إنه بعد ليلة من عدم النوم، في الصباح الباكر ليوم لم يبدأ بعد بالنسبة إلى معظم الناس، قد يسكن المرء إحساس استثنائي بالمصير الذي ينتظره.

مشى عبر مركز البلدة القديم حيث الساحة مصممة بصورة شاذة غير مألوفة، والأرصفة أمام المتاجر مزوّدة بقناطر غريبة الشكل. تمَّ وضع اللوح الخشبي الذي ذُكرت عليه الحالة الصحية التي كان عليها تشافيز في الليل تحت إحدى القناطر لحمايته من البلل في حال هطول المطر أثناء الليل. كانتْ الكتابة ملطخة في إحدى زوايا اللوح. *عدم الانتظام في وظائف القلب عند المريض يثير القلـ...*

نوافذ المتجر القائم تحت القناطر تتقدمها درفات خشبية ضخمة منثنية فوق بعضها. كانت مطلية بالأخضر، لكن كونها قد طليت عدة مرات وفي مناسبات مختلفة، كان لكل منها أخضره المختلف عن الآخر. فوق الدرفات توجد لافتات المتجر. عدد غير قليلٍ من أسماء العائلات كانت تظهر فوق أكثر من متجر. كان واضحاً من المعروضات على واجهاتها أنها لا تختلف كثيراً عن أكشاك شحيحة البضائع في بلدة ريفية نائية. كان من الممكن لمن يراها أن يتصورها متاجر مليئة بسلع نادرة. مشى السيد هينيكن حول القناطر عدة مرات.

كان يرغب في أن تكون كاميل حاضرة لتشهد النزال الوشيك الحدوث. كانت سترى ذلك الشاب يظهر على حقيقته... مجرد زير نساء حقير له عقلية مجرم تافه. وستعلم أيضاً إلى أيّ مدى يمكن أن يذهب، هو زوجها، لحمايتها.

لم يعد يلوم كاميل على فعلتها. كان في الليلة الماضية قد لمح في وجهها تلك المرارة التي، حسب السيد هينيكن، موجودة عند كل امرأة لكنها لا تطفو إلى السطح إلا إذا حُرمت من الضوابط التي تقتضيها طبيعتها كامرأة. كان قد تجاهل الإنذار الذي ينطوي عليه افتتانها بشعر مالارمي... هذا الشعر قد أيقظ فيها شهوةً تجاه كل ما لا حدّ له ولا طائل منه. لكنه أقنع نفسه في النهاية أن اللوم لا يقع عليها: كانت بريئة. ضعفها كان ضعفاً قدريّاً مفروضاً على كل بنات جنسها.

عبر حمايتها من هذا الضعف، ووضع حدّ لارتكابات هذا الشاب الشبق، كان يتصرف بالنيابة عن كل الأزواج لصالح كل الزوجات. النساء اللواتي كنّ أكثر مكراً من كاميل، وأكثر قدرة على تحقيق

رغباتهن والسير خلف نزواتهن، كنّ يعانين من الضعف نفسه... ضعف الاستسلام إلى انطباعاتهن المزيفة الأولى. النساء القادرات على جعل الرجال خواتم في أصابعهن بمجرد أن يسبرن أغوارهم، يمكن أن تتحول الواحدة منهن إلى فتاة في عمر الحادية عشرة في حضرة غريب لم تعرفه على حقيقته بعد. يمكن للنساء أن تقمن بالحسابات، يمكنهن أن يأتين بخطط محكمة ومعقدة وواقعية، يمكنهن أن يكن صبورات ومثابرات، يمكن أن يكن عديمات الرحمة وعطوفات كريمات... لكن انطباعاتهن الأولى تكون خاطئة حتماً. لم يكنّ قادرات على رؤية ما هو ماثل أمام أعينهن. لهذا كان أزيار النساء الفاسقون يضطرون طوال فترة تعاملهم مع النساء إلى اللجوء إلى التمويه أو التناقض.

بدأ السيد هينيكن يعتقد أن ما يعتزم فعله الآن هو واجب ألقي على عاتقه كنتيجة لضعف النساء وشعورهن بالنقص. لم يكن عابئاً بأيّ شكل من الأشكال بحاجته إلى حماية مصالحه، أو محاولة الهرب من تلك العزلة المفروضة عليه. مشى مبتعداً عن القناطر والمحال المغلقة.

وقف السيد هينيكن في مدخل غرفة النوم: لا أتصور أنك متفاجئ لرؤيتي، قالها وأغلق الباب خلفه. نحن الرجال لسنا بالغباء الذي تظنه، تابع، ونعرف تماماً كيف نتعامل مع السفلة من أمثالك.

غرفة نومه كانت متواضعة لها أرضية مفروشة بألواح خشبية. بدلاً من الملاءات، كان السرير مغطى بلحاف كبير من الريش يكسوه مفرش أبيض اللون. لم تكن الوسائد محشوة بالريش بل بالحبوب. كان ينزل في الفندق نفسه الذي يقيم فيه سائقو عربة بريد سيمبلون

عادةً. كان جي قد صحا من النوم لكنه لا يزال مستلقياً ومستنداً على أحد مرفقيه.

بمجرد أن أغلق الباب خلفه، صوّب السيد هينيكن المسدس إلى الرجل المستلقي في السرير: قف وإلّا قتلتك.

حدّق الرجل من سريره في المسدس. (أكانت رؤيته لمعدن المسدس هي ما أعاد إليه بقوة جارفة رائحة غرفة الأسلحة من أيام طفولته؟) سمع صوت السيد هينيكن وهو يواصل تهديده له وكأنه قادم من الغرفة المجاورة.

- إن رأيتك مرة أخرى بصحبة زوجتي، هنا أو في أيّ مكان آخر، أقسم أنني سأرديك في التوّ واللحظة.

كان السيد هينيكن مدركاً تماماً للبقعة التي توجه يده المسدس إليها - لم تكن حياته هي المهددة بالخطر. أضف إلى ذلك أنه افترض منذ اللحظة التي اكتشف فيها أمر الرسالة أنها قد أمدته بدليل دامغ سيضمن له حكماً صوريّاً حتى لو قتل ذلك الرجل المستلقي على السرير. كانت الأخطار التي تهدد حياته نادرة وها هو الآن يضع حدّاً لما يمكن أن يشكل خطراً حقيقيّاً عليها إذا ما استمر في الوجود. لكن وضع التهديد موضع التنفيذ قد يكون له في بعض الأحيان تأثير أوسع من التأثير المطلوب. بمجرد أن تتمّ استثارة الموت، يبدو اختيار الشخص الذي يجب أن يموت عشوائيّاً بصورة غريبة. على أيّ حال كان السيد هينيكن قد بدأ يرتجف.

لم يكن خائفاً، لكنه شعر في تلك اللحظة بأنه يبرر لنفسه حياته كلها. بدا في ذلك الحين وكأنه يفضل الموت لنفسه على أن ينكر معنى حياته أو يساوم عليه. الأمر المهم كان خيار الموت، ولم يكن مهماً ما إذا كان موته هو أم موت شخص آخر، حدث هذا كله وهو لا يزال يوجه مسدسه إلى الرجل المستلقي أمامه على السرير. لم يعد مهمّاً ما إذا كانت كاميل ستشهد هذا الحدث أم لا. أن يهدد حياة عدوّ مُعلن أم يضع حدّاً لها، هو في الحالتين أمر يزيد من قيمة حياته. كان يكتشف قوة جديدة في نفسه شاعراً بإثارة بالغة.

- إذا ما وجدت أيّ سبب يدعوني لمجرد الشك بأنك التقيت بها، سأرديك ككلب أجرب أثناء نومك.

ما كان من جي إلا أن بدأ بالضحك. انهارت كل الادعـاءات وسقطت الأقنعة، والحقيقة التي انكشفت كانت مألوفة إلى درجة السخف. الحقيقة أن الكلمات كانت تخرج من فم السيد هينيكن، الذي يرتجف بشكل واضح، بصورة غريبة وكأنها صرخات لذة وهو يحمل المسدس في يده.

- إذا رأيتك تتقرب من زوجة أيّ من أصدقائي أو معارفي سأطلق النار عليك بمجرد مغادرتك المجلس الذي يجمعك بهن.

كان قد سئل أكثر من مرة: ما الذي يُضحكك يا حبيبي؟

بعد أيام من الإثارة والأمل والاحتمالات، بعد الكثير من الشكوك والتنقيب في القلب، بعد كل التجاسر والحياء والتجرؤ الذي وصل إلى

حدّ الوقاحة، ما هي الحقيقة التي انكشفت؟ سرواله مرمي كيفما اتفق على الكرسي، دثارها كان مزاحاً أو ربما كان مفرش السرير مسحوباً إلى الخلف، مثلثان من الشعر الداكن ترى وسط كل منهما عضواً له الشكل نفسه تماماً الذي يتعلم طلاب السنة الأولى في كلية الطب كيف يفرقون بين الأجناس البشرية من خلاله. لا مجال للخلط بينهما، وفي هذا الغياب الكامل للغموض ثمة نوع من الابتذال الساخر فعلاً. كلما طال أمد ارتداء القناع، وكلما طال أمد إخفاء السر الذي يعرفه الجميع، أصبحت لحظة الكشف كوميدية أكثر، وزادت الدهشة التي يشعر بها كلاهما حيال حقيقة لطالما عرفاها.

- حاولت أن تستغل براءة زوجتي، كما حاولت أن تستغل الكثير غيرها من النساء البائسات اللواتي لا يعلم إلّا الله كم واحدة منهن وقعت ضحية خبثك وفسادك. الحمد لله، لم يفت الأوان بعد لأنقذ زوجتي من شرّك.

عندما استلقت بياتريس على السرير وهي تضحك، لم تكن حينها تضحك على ذلك الرجل الأحمق الجالس في العربة، بل على ما كانت تعلم تماماً أنه سيصبح الآن مكشوفاً على سريرها تحت تلك اللوحة التي يظهر فيها والدها معولةً على الحرية التي وهبت لها ظاهريّاً عبر لدغة دبور.

- اصمت. توقف عن الضحك وإلّا أسكتك برصاصة في صدرك.

تابع الضحك لأنه وجد نفسه أخيراً وجهاً لوجه مع المعتاد والعادي. كانت في جزء منها ضحكة ارتياح، وكأنه كان يخشى من أن الآخر

قد يكون، في هذا الأمر بالذات وضد كل منطق، استثنائيّاً. وفي الجزء الآخر منها كانت ضحكة على النكتة الكبيرة الأولى المتعلقة بشخص تافه رخو يصبح فجأة قويّاً وصلباً كأير ينتصب.

بالنسبة إلى السيد هينيكن كانت ضحكته شبيهة بضحكة رجل مجنون يلبث وحيداً في زنزانته. وفكرة أن يكون هذا الرجل الشبق المستلقي في سريره مجنوناً أربكته وردعته، ذلك أنه اعتقد أن الجنون، بالرغم من أن المجنون يحتجز بالقوة وفي حالات معينة يجب أن تتمّ تصفيته، هو بحدّ ذاته مدمر للذات، ولهذا بدا عدوّه الماثل أمامه الآن يمثل تهديداً أقل خطراً من ذاك الذي صمم على أن يضع حدّاً لوجوده من دون تردّد أو مساومة.

- أنت مجنون. قال له، لكن سواء كنت مجنوناً أم لا فلن أكرر تحذيري لك.

مشى السيد هينيكن خارجاً ببطء مديراً ظهره للباب ليطيل إلى آخر لحظة الشعور بالإثارة الذي ينطوي عليه توجيه مسدسه نحو الرجل الذي حاول إغواء زوجته (والتي لعبت ضحكته المجنونة دوراً كبيراً في التقليل من شأنها).

***

السيدة هينيكن وماتيلدا لو ديريسن تستقلان عربة متداعية لها سقف على شكل قلنسوة مليئة بالثقوب وسائقها يرتدي قبعة من القش وتسير بمحاذاة فيا آل كالفاريو في اتجاه كنيسة سان موريكو التي تقع إلى شمال مركز دومودوسولا وعلى بعد عشر دقائق منه.

.

التقتا بجي في سوق الساحة. سلّم عليهما بسرعة وقال وهو ينظر

إلى كاميل: أتى زوجك إليَّ حاملاً مسدساً في يده وهددني بأنه سيقتلني إذا رآني أتحدث إليكِ مرة أخرى. يجب أن أتحدث إليكِ مرة أخرى. سأنتظركما في كنيسة سان موريكو. لا يمكننا أن نتحدث هنا. لا تتأخرا. بعد ذلك، ومن دون أن يتيح لهما أيّ وقت للردّ، مشى في اتجاه القنطرة واختفى.

– صديقكِ هذا مسرحي جدّاً في تصرفاته، تقول ماتيلدا.
– أتعتقدين أنه يقول الصدق؟
– أتقصدين ما إذا كان موريس قد هدده؟ نعم.
– من أين جاء بالمسدس؟ على حدّ علمي هو لا يمتلك مسدساً؟
– ما من رجل إلّا ولديه صديق يمتلك سلاحاً.
– أتعتقدين أن موريس قادر على قتله؟
– من أجلك يا عزيزتي قد يقوم الرجال بأيّ شيء. تقول ماتيلدا ضاحكة.
– أرجوكِ أن تتعاملي مع الأمر بجدية.
– وهل تشعرين بأن الأمر جديّ؟

عندما علمت كاميل أن زوجها قد هدده بمسدس، تذكرت يوم حفل زفافها. غضبها من تصرفات زوجها المجحفة، وشعورها بالعار من سلوكه، وامتعاضها من كونه قد تجاهل تماماً اعتراضها وتوسلاتها، جعلها مدركة بشدة أنها زوجته، أو ربما بدقة أكبر، أنها قد أصبحت زوجته بإرادتها. أن تكون السيدة هينيكن كان حتى تلك اللحظة جزءاً من حياتها الطبيعية، زواجها كان جزءاً من ديمومة استمرت من طفولتها مروراً بصباها حتى الوقت الحاضر. كانت حياتها مع زوجها قد شهدت العديد من الشجارات وسوء الفهم في ما مضى، لكن لم

يسبق لها أن شعرت بأن مسار حياتها يخرج عن السيطرة، وأن ما يحدث أمر جلل قد يقلب عالمها رأساً على عقب. تذكرت في حفل زفافهما كيف ركعا هي وموريس لكي يتناولا القربان المقدس، وكيف كانا وحيدين منعزلين أمام كل المدعوين وهما ملتصقان ببعضهما البعض بحيث شعرت بحرارة جسده. كان حينها قد ركع بخجل وبما بدا لها حينها تواضعاً صادقاً. وها هي تتخيله الآن ينهض على قدميه حاملاً بيده مسدساً ونظرة قاتل خالٍ من المشاعر تعلو وجهه.

فجأة تغلبت الدهشة على شعور الغضب لديها عندما عبرت ذهنها فكرة أعادت إليها بعضاً من شخصيتها الأصلية، وهذا ما ذكرها بأنها لم تكن عاجزة تماماً، وأكد لها أن زوجها قد ظلمها واتهمها جزافاً. أما الفكرة فكانت: بالرغم من أنه هُدد بالقتل، إلّا أنه لا يزال يريد أن يتحدث إليَّ لأنه يراني كما أنا فعلاً.

– لا لا أشعر أن الأمر جديّ، تقول كاميل.
– يجب أن تقنعيهما بأن يتبارزا من أجلكِ.
– هذا ما قلته لموريس. قال إن هذا لم يعد عصريّاً.
– وما علاقة هذا بذاك، كيف يمكن لأحد أن يصف المبارزة بأنها عصرية أو قديمة الطراز؟! الرجال لا يتغيرون في هذه الأمور.
– وهل تعتقدين أننا، نحن معشر النساء، نتغير؟ تسأل كاميل.
– ها أنتِ تتغيرين. لقد تحولت. أنتَ الآن شخص مختلف عما كنتِ عليه منذ يومين. لو كان في إمَكانكِ أن تري نفسك...
– ماذا كنت سأرى؟
– امرأة يعشقها رجلان.
– ماتيلدا، أرجوكِ عديني ألّا تتركيني وحدي معه مهما جرى.

- إذا أصريتما أنت وهو على ذلك.

- أنا جادة الآن. لا يمكنني أن أذهب لرؤيته إذا لم تعديني بذلك.

- لحسن الحظ هاري ليس غيوراً. هو غيور صحيح، لكن ليس إلى الحد الذي يجعله يطلق النار على أحدهم أو يهدده. ربما يُحدث بعض الجلبة ويرفع صوته قليلاً عندما نكون أنا وهو وحدنا بعد ذلك، لكنني أستطيع أن أضع حدّاً لهذا بسرعة ومتى أردت.

- تقول كاميل، سيكون الأمر بالنسبة إليه مسألة حياة أو موت. أرجوك عديني.

- أعدكِ.

- أعتقدَ أن هاري من ذلك النوع من الأشخاص الذين قد يطلقون النار على أنفسهم في ظروف معينة، لكنه ما كان ليطلق النار على أحد غيره. ماذا تظنين أنه سيفعل - أشارت ماتيلدا برأسها إلى الاتجاه الذي ستسلكانه - لو كان لديه سبب ليشعر بالغيرة.

وهل كان ليغار عليكِ مني؟ تسأل كاميل.

- أجل، تقول ماتيلدا وهي تبتسم.

عندما فكرت: بالرغم من أنه هدد بالقتل، إلّا أنه لا يزال يريد أن يتحدث إليَّ، تغيرت نظرتها إلى مظهره. كان هذا التغير أيضاً ذا أثر رجعي. ما كانت قد لاحظته لكنه لم يعلق في ذهنها يظهر أمامها الآن. مئات التفاصيل تجمعت لتخلق الرجل كاملاً أمامها. كل ما كانت قد رأته يفعله يحضر أمامها الآن. انطباعاتها اندفعت إليه، اجتذبت نفسها إليه، وكأنها ممغنطة، وهكذا، وهي تغطيه كاملاً، أصبحت تشكل سماته الشخصية. كان رأسه يخاطبها. كانت ترى من خلاله. كان الرأس أطول من المعتاد يندفع إلى الأمام عندما يتحدث. خصلات سميكة من الشعر المجعد كانت تنسدل على مؤخرة عنقه. ذروتا أذنيه كانتا تغوصان في خصلات أخرى من الشعر. يداه اللتان يومئ بهما

كانتا أصغر من المعتاد. الأوردة عليهما كانت بارزة بعض الشيء. السن الناقص في صف أسنانه يجعل فمه يبدو أعرض مما هو عندما يفتحه. نظرة عينيه كانت ملحاحة لجوجة. قدماه كانتا صغيرتين كيديه. مشيته كانت رشيقة وخفيفة على عكس الاندفاع الثقيل لرأسه وكتفيه. وجدت كل سمة من سماته الجسدية لصيقة بجانب من جوانب شخصيته وكأنها تكتشف صفات رضيعها قبل أن يتمكن من التحدث أو الجلوس وحده.

- أعتقد أنه سيقتلني ويقتل نفسه، تقول كاميل ضاحكة.
- أين يقيم؟ سيكون من حسن الحظ لو أنه يقيم في باريس.
- لا أعرف. يقول إن نصفه إنجليزي ونصفه الآخر إيطالي.
- هذا يفسر الكثير، تقول ماتيلدا.
- أرجوكِ عديني. تقول كاميل.
- هل حدث وأخبركِ كيف فقد سنّه؟
- ماتيلدا، اسمعيني جَيداً، قد تكون هذه مسألة حياة أو موت.
لديه تعبير على وجهه لم أره من قبل إلا عند رجل واحد غيره.
- من؟ تسأل كاميل.
- أحد أصدقاء زوجي، رجل أمريكي وقع في حبي.

تجسّد السخط في دموع ترقرقت في عيني كاميل. أخفضت ماتيلدا صوتها وهمست: كاميل، يمكنكِ أن تثقي بي. لكنكِ ساذجة في مواقف كهذه. موريس هو مصدر الخطر، ويمكنكِ أن تعتمدي عليَّ في هذا الشأن.

أسندت كاميل ظهرها إلى البطانة الجلدية المغبرة، وأراحت يدها المكسوة بقفاز أبيض على ذراع ماتيلدا.

- يا له من يوم حار! تقول ماتيلدا. هناك أيام لا تكون العاطفة

النبيلة متاحة فيها وحسب. الطقس هو أكثر صديق مقرّب للنساء! سنصل إلى هناك قريباً. لا أريد أن أصل قبله كي لا أضطر إلى انتظاره.
ماتيلدا: اطلبي من السائس أن يبطئ في سيره.

كاميل تلمس أطراف شعرها وتحدق في يدها. تبدو لها صغيرة ورقيقة للغاية، مثلها مثل معصميها وساعديها. تريد أن تبدو عذبة وعصية كالدانتيلا البيضاء (تتذكر لوحة كانت قد رأتها من قبل لفتاة ترتدي ملابس داخلية مزينة حوافها بدانتيلا بيضاء وتجلس على أرجوحة في حديقة). تريد أن تبدو هكذا في ذلك الإطار الأخضر المنعزل لبضع دقائق قبل عودتها القسرية إلى باريس حيث الملابس أكثر من الأشجار والأشجار مثلها مثل الغرف.

تتوقف العربة بالقرب من الكنيسة. سيارة الفيات نفسها التي حملتهم إلى كنيسة سانتا ماريا ماجيوري مركونة في ظل شجرة سنديان. لا وجود لأحد على مرمى النظر. تطلبان من سائق العربة أن ينتظر. يومئ برأسه ويترجل من العربة ويستلقي على العشب إلى جانب الطريق. أحد مصابيح السيارة النحاسية يسطع في ضوء الشمس. تخفض كاميل رأسها، وتوجّه مظلتها نحو الأرض قبل أن تفتحها، أما ماتيلدا فتوجّه مظلتها نحو السماء وتفتحها. تمشيان معاً حول الكنيسة.

تريانه جالساً في الطرف الشمالي من الكنيسة على مقعد حجري. يقبّل يد كاميل وبعدها مباشرة يمسك بيد ماتيلدا ويقول لها: أنت صديقتها، وهي اعترفت لكِ، لذا لستِ بحاجة إلى أيّ تفسير. يقودها إلى درب تكتنفه شواهد القبور على الجانبين. تهم كاميل باللحاق بهما. يلتفت إليها ويقول: لا، أرجوكِ انتظري هنا، اجلسي حيث كنت أجلس.

الصمت يخيم على المكان. أبواب الكنيسة مقفلة. الشارع خالٍ من المارة. من الصعب تصديق أنهم لم ينتقلوا بالسيارة إلى مكان أبعد من ضواحي البلدة. يبدو الصمت لكاميل أمراً شاذّاً للغاية. تعتقد أنه في الصباحات الاعتيادية يكون الشارع مليئاً بالعربات التي تعبره، والأطفال الذين يلعبون على جانبيه، وتُسمع فيه صلوات الكهان من الكنيسة، وأصوات الفلاحين الذين يعملون في الحقول. تستطيع أن تسمع دقات قلبها، لكنها تعجز عن التقاط كلمة واحدة مما يقوله جي.

يقول لماتيلدا إنهم لا بدّ وأن يلتقيا مرة أخرى، وإنه سيبقى مديناً لها طوال حياته إذا ما تعاونت معه على تنفيذ خطته. يقول لها إنه يحب كاميل، ولم يسبق له أن كان وحيداً بصحبتها، ولم يعد بإمكانه أن يراسلها أو يكتب لها... كل ما يطلبه منها، -من ماتيلدا-، هو أن تأخذ العربة وتنتظر قرب جامعة روزميني - سائق العربة سيعرف أين تقع بالتأكيد - حيث سيلحقان بها هو وكاميل بالسيارة بعد نصف ساعة من الآن. يخبرها أنه يحتاج إلى هذه الفترة الوجيزة ليعبّر عن مشاعره للمرأة التي أحبها كما لم يحب أحداً من قبل. يتحدث بخفة واستخفاف، وكأنه ليس بحاجة إلى إقناع ماتيلدا، أو كأنه يعلم أن محاولته إقناعها هي ضرب من العبث.

وهو يناشد ماتيلدا ويطلب مساعدتها، يحرص على أن يبقى على مرأى من كاميل، وأن يهمس في أذن ماتيلدا وكأنه يتآمر معها، وأن يجعلها تضحك مرة أو اثنتين، وأن يبقى ممسكاً بيدها، وأن يمنح تواطؤهما معاً كل شكل ممكن من أشكال الحميمية.

الخفة التي يتحدث به تسحر ماتيلدا. تلك الخفة لا تجبرها على أن تقرر ما إذا كان يقول الصدق أم لا. إذا وجدت أن ما يقوله قابلاً

للتصديق بما لا يدع مجالاً للشك، ستكون مجبرة، كصديقة لكاميل، أن تجده غير قابل للتصديق وموضع شك. وإذا بدا ما يقوله عارياً عن الصحة بصورة فاضحة، ستكون مجبرة على أن تواجهه بذلك. حقيقة أنه يقول الصدق أم لا لم تكن موضع نقاش هنا، ذلك أنه يتحدث بطريقة يفترض من خلالها بأنها تعرف الحقيقة مسبقاً. لكنها ليست كذلك. والواقع أن المسألة برمتها لا تثير عندها فضولاً شديداً. إذا لم تتمكن من اكتشاف الحقيقة مباشرةً، سيكون على كاميل أن تكتشفها بنفسها وتخبرها بها لاحقاً. تشعر بأن الحقيقة لن تكون مفزعة، لأنها لو كانت كذلك لما افترض بسهولة بالغة وبمنتهى الطبيعية أنها تعرفها مسبقاً. تثق به في الحال لأنه لا يمنحها أيّ سبب لتثق به. موريس هو الشخص الذي لا تثق به ماتيلدا. ولكي تقنع نفسها بأنها لا تتصرف بلامبالاة تجاه صديقتها، تتخيل الحيلة التي ستتبعها لتطلب من هاري، الذي يتبوأ مركزاً يتيح له أن يمارس ضغطاً مهنيّاً كبيراً على موريس، أن يقنع هذا الأخير بأن يكون أكثر عقلانية. تقول له إنها ستوافق على أخذ العربة والذهاب إلى الكليّة إذا وافقت كاميل على ذلك.

كاميل تراقبهما وهي تسير جيئة وذهاباً خلف شواهد القبور التي تتخذ شكل بسكويت مأكول نصفه بحالتها الرثة والمتآكلة. شذوذ الموقف ككل يجعلها غاضبة ونافدة الصبر. لماذا، تسأل نفسها، يجب عليها، بعد كل ما خاطرت به أن تجلس هنا بينما ماتيلدا تمزح وتضحك معه هناك؟ تقرر أنها يجب أن تتحدث إليه بنفسها.

بعد بضع دقائق ينهض سائق العربة عن العشب وينفض عن ركبتيه ما علق بهما. تصعد ماتيلدا إلى العربة وتلوّح بيدها لكاميل. لا تتأخري، تقول بأعلى صوتها، فأنا لا أصنع المعجزات. وما أن تغادر العربة،

التي تتوقف لبرهة وتستدير على عجلاتها الخلفية لتغير اتجاهها وتغادر الشارع المهجور، تفكر كاميل: تعتقد ماتيلدا أنني سأصبح عشيقة هذا الرجل، الذي وافقت على البقاء معه وحدي، عندما أصل إلى باريس.

ثمة نظرة معينة قد تعبر عيني المرأة (وعيني الرجل أيضاً، لكن هذا نادر الحدوث) تكون خالية من الفخر أو الأسف، نظرة لا تملي أيّ أوامر ولا تطالب بشيء، نظرة لا تعِد بأيّ مغامرات. نظرة يمكن أن تُفسر على أنها تعبير ترسمه العينانَ لتوجه رسالة إلى الآخر، لكنها ليست تعبيراً لمخاطبة الآخر بالمعنى المألوف للكلمة، بل هي تعبير لا يعلق أهمية على المتلقي. ليس لتعبير كهذا أن يلوح في عيني طفل لأن الأطفال جاهلون تماماً بحقيقة أنفسهم، ولا في عيني معظم الرجال لأنهم متيقظون أكثر من اللزوم، ولا في عيني الحيوانات لأنها لا تعي مرور الوقت. عبر نظرة كتلك اعتقد الشعراء الرومانسيون أنهم قد وجدوا طريقهم إلى جوهر المرأة وروحها. لكن افتراض صحة هذه النظرية يعني أن نعامل هذه النظرة على أنها واضحة، لكنها في حقيقتها آخر شيء يمكن اعتباره واضحاً في هذا العالم. تلك نظرة تفصح عن نفسها لتكون نفسها، هي نظرة لا تشبه أيّ نظرة أخرى. وإذا كان لنا أن نقارنها بأيّ شيء آخر، يمكننا فقط أن نقارنها بلون زهرة. هي شبيهة بنبات يعلن أن لونه أزرق لا أخضر. عندما لا يكون العاشقان وحيدين معاً تنطفئ نظرات كتلك بسرعة لأنها لا تشجع حديثاً ولا تبادل نظرات. تلك نظرة تؤسس لغياب المجتمع في حضرة عاشقَين.

رغبته وغايته الوحيدة هي البقاء وحده بصحبة امرأة، لا أكثر ولا أقل. لكن يجب أن تكون تلك النساء وحدهن معه عمداً، وليس بمحض الصدفة. لا يكفي بالنسبة لهما أن يتركا وحدهما في غرفة ما

لأنه صادف أنهما آخر من يغادرها. يجب أن يكون ذلك باختيارهما وبمحض إرادتهما. يجب أن يلتقيا لكي يكونا اثنين لا ثالث لهما. ما يحدث بعد ذلك يكون نجاحاً لخطة معدة سابقاً. وليس نتيجة لكونهما وحدهما بالصدفة.

لطالما بدا لنفسه فاقد التركيز إلى حدّ ما بصحبة زوجات رجال آخرين. وذلك ليس لأنه كان عاجزاً عن تركيز انتباهه عليهن، بل لأنهن كن يتغيرن باستمرار من الداخل بمعزل عن تأثيره هو... لأنهن لا يتوقفن عن تعديل أنفسهن بما يتناسب مع توقعات من يحيط بهن ليصبحن أشبه بالصور النمطية المفروضة عليهن.

كان وحيداً بصحبة كاميل يسيران عائدين إلى الطرف الشمالي من الكنيسة الذي كان وافر الظلال. أمسك بيدها. استطاع أن يشعر من ملمس أصابعها بأن سطحها الداخلي كان أكثر دفئاً من سطحها الخارجي. كان الإحساس بالحتمية الخارقة للطبيعة يجتاحه. لم يفاجئه ذلك الإحساس. علم أنه آتٍ لا محالة، لكنه لم يستطع أن يستدعيه بإرادته. شعر بالاستحالة المُطلقة لأن تكون كاميل، في أيّ تفصيل منها، وفي أصغر جزئية من جسدها، مختلفة عما كانت عليه، شعر بأنها مبثوثة في كل شيء يسبقها في الزمان وكل شيء منفصل عنها في المكان... المكان المحفوظ لها دائماً في العالم لم يكن أقل شأناً في شيء من جسدها كما هو تماماً، من طبيعتها كما هي تماماً، من عينيها اللتين تخلقان تفاوتاً مرهفاً مع فمها، ونهديها الصغيرين، ويديها الشبيهتين بجرافتين بأطراف أظافرها المتآكلة، ومشيتها بساقين متصلبتين بشكل غير اعتيادي، ودفء شعرها الخارق للعادة، وتلك البحة في صوتها، وأبياتها المفضلة من أشعار مالارمي، وذلك

الانسجام الذي يميز ضآلة حجمها، وذلك الشحوب الذي – مع كثافة المعنى الذي كان يختبره بإحساس بالحتمية– أشرقت منه بداية الرغبة الجنسية.

قالت: أريد أن أقول لك...

– صوتك، –قاطعها–، يشبه صوت الزيز أيضاً، وليس فقط صوت المرعة. هل سمعتِ من قبل بأسطورة الزيزان. يقولون إنها أرواح شعراء لا يجدون للصمت سبيلاً لأنهم لم يتمكنوا من كتابة القصائد التي أرادوا أن يكتبوها عندما كانوا أحياءً.

– أريد أن أقول لك، كررت، إنني أحب زوجي كثيراً. هو كل شيء في حياتي وأنا أمّ أطفاله. أعتقد أنه ارتكب خطيئة لا تغتفر بتهديده لك، وأريدك أن تعلم أنني لم أمنحه أيّ سبب يجعله يعتقد أنه بحاجة إلى تهديدك. لقد اكتشف الرسالة الحمقاء التي كتبتها لي...

– حمقاء؟ لقد التقينا، نحن هنا وحدنا، ها نحن نتحدث إلى بعضنا، وهذا كل ما طلبته منك. لماذا إذن هي حمقاء؟

– كان من الحمق استخدام الكلمات التي استخدمتها، كان من الحمق أن تكتب لي رسالة من الأساس.

– أيّ الكلمات كانت حمقاء؟

حدقت كاميل في شجرة سرو صامتة. الصمت الشاذ نفسه كان

يهيمن على المكان كله: -لا أذكر-، قالت في صوت أشبه بهمسة مبحوحة. ولدى قولها هذا تذكرت بيتاً من قصيدة لمالارمي:

أنتِ تكذبين
يا زَهرة عارية تنبت من شفتي...

أسميتك منيتي الوحيدة، أسميتكِ مرعتي.
كانت تلك حماقة.
لكنكِ كذلك.

كانت الكتابة المنقوشة على شواهد القبور غير مقروءة تقريباً. الأحرف التي تحتوي على خط منحنٍ (مثل حرفي U وG) كانت ممحوّة أكثر من تلك التي تُكتب بخط مستقيم (N وT).

– طيب إذن، الآن عليك أن تمضي في طريقك. اذهب أرجوك.

حرارة الصباح جعلت كل الأشياء البعيدة عنهم أكثر بعداً مما هي في الواقع.

– لم يكن من الخطأ أن يقوم زوجكِ بتهديدي، – قال، لديه كل الأسباب اللازمة ليشعر بالغيرة.

– لا، ليس لديه أيّ سبب! أنا زوجته التي تحبه. وأنا لست مسؤولة عن مشاعرك. إنه خطؤك، خطئي الوحيد هو خطؤك. أنا أصدّق نبل مشاعرك ولا أعتبرك إنساناً منحطّاً. وهذا ما أريد أن أقوله لك، أنا لم أحثَّ زوجي على حمايتي منك لأنني لست بحاجة إلى أيّ حماية. عرفتك منذ يومين فقط. هل تعتقد أنك يمكن أن تنال إعجاب امرأة في هذه الفترة الوجيزة؟ ربما يحدث هذا في شهرين، أو أسبوعين حتى، لكن في يومين!! كيف يمكنك أن تعتقد ذلك؟! أنت مخطئ. أعتقد أن الحياة في نظرك شبيهة بتلك الأرجوحة التي وصفتها لنا في تلك الليلة. لكنها ليست كذلك. إننا نعرّض أنفسنا إلى خطر لا طائل منه بوجودنا

مع بعضنا هنا. لن نكسب شيئاً من هذا. أرجوك خذني لأنضم إلى صديقتي في العربة. أنا وزوجي سنرحل إلى باريس مساء هذا اليوم.

كانت الكلمات تخرج بصعوبة من فمها. لم يكن من السهل عليها الاستمرار في قول ما تقوله. لكنها قالته بصدق وصراحة بالرغم من ذلك. وجدت أن الإنكار هو الأسلوب الوحيد لوضع حدّ للوضع القائم وإبطال ما تسببت به تهديدات زوجها من ظلم ومهانة. الشيء الذي تتخلى عنه الآن لا يزال قليل الشأن. لكنها آمنت بالقدر. لم يكن ثمة شيء في حياتها قد قادها إلى الاعتقاد بأنها سيدة قدرها بصورة مطلقة. لم تكن تفكر في المستقبل على أنه شيء مكشوف أو يمكن التنبؤ به بشكل كامل في ضوء القرارات التي تتخذها في الوقت الحاضر. أرادت فقط أن تكون قادرة على النظر إلى الوراء، إلى هذه اللحظة من التخلي الحقيقي لأنها اعتبرته أمراً لا مناص منه. لكنها لم تشعر بأنها مضطرة لأن تكون مسؤولة عن التداعيات، المتوقعة منها وغير المتوقعة، التي قد تترتب عن هذه اللحظة. قد تكون هذه التداعيات خارج حدود سيطرتها، وقد أدركت ذلك بتواضع وأمل وريبة.

– إذن سأعثر عليكِ في باريس!
– سيطلق النار عليك.
– فقط إذا قمتِ بخيانتي.
– خيانتك؟!
– كان من الحمق الاحتفاظ بهذه الرسالة. يجب أن تكوني أكثر حكمة في باريس.
– في باريس، سأرفض أن أراك حتى.

قال: لن نكتشف أبداً ما بإمكان كل واحد منا فعله إذا لم تتواطأ الظروف ضدنا.

– أنت لا تعلم، ولا يمكنك أن تعلم، ما الذي بإمكاني فعله. ما من أحد سيعرف ذلك مطلقاً. أرجوك أعدني إلى صديقتي.

– أعتقد أنني حلمت بكِ طوال حياتي دون أن أعلم أنكِ موجودة. يمكنني حتى أن أخمّن ما الذي سنقوله أنا وأنتِ الآن. ستقولين: أنت مخطئ.

– أنت مخطئ! كررت، غير قادرة على كبح نفسها، وغير قادرة على كتم ضحكة أفلتت منها.

– كان هذا أنتِ، أنتِ يا كاموميل.

شرح لها قرب السيارة ما الذي عليها أن تفعله بأجهزة القيادة في مقعد السائق عند تشغيل المحرك. كانت مسرورة بالقيام بما يطلبه منها لأن ذلك منحها الفرصة لتظهر له أنها قادرة، وأن تخليها عنه لم يكن بأيّ شكل من الأشكال وسيلة لإخفاء عجزها.

استطاعت أن ترى من مؤخرة السيارة رأسه وكتفيه القويين يتقلصان ويتمددان وهو يغير وضعية ناقل الحركة. كان له ذراعان نحيلتان. قطرات من العرق كانت تتلألأ على جبهته. دار المحرك بعد عدة محاولات فاشلة. بدأت السيارة كلها بالاهتزاز ويداه المكسوتان بقفازين والممسكتان بعجلة القيادة بدأتا بالاهتزاز مع المحرك. قال بضع كلمات بصوت مرتفع لكنها لم تسمع منها شيئاً. انتابها الانطباع بأنها إذا أرادت الترجل سيكون عليها القيام بقفزة وجيزة من السيارة المرتجفة إلى الثبات المطلق للغبار الذي يكسو الطريق وجدران الكنيسة. قفزت. من الجانب الآخر للسيارة مدّ لها يده لتركب في

مقعد الراكب الأمامي. رفع يدها وقبلها بين القفاز وكمّ فستانها. حدقت في رأسه وهو منحنٍ أمامها. رأت يدها الأخرى تستقر من تلقاء نفسها على شعره. لم تبدرُ منه أيّ إشارة تدل على أنه شعر بلمستها.

- سنعود أدراجنا عبر الشارع الضيق الذي يمرّ في وادي فيتزو، - قال، هو أبعد بثلاثة أو أربعة كيلومترات فقط.

إن أردتِ
جعلت َحبك يشرق كالشمس
من دون أن يراه أحد
مالارمي

لا وجود للأسرار عندما يتعلق الأمر بالأخلاق. ولهذا لا وجود لحقائق أخلاقية، وإنما أحكام أخلاقية. الأحكام الأخلاقية تتطلب الاستمرارية والقدرة على التنبؤ. لا يمكن للأخلاق أن تستوعب أيّ حقيقة جديدة وصادمة بشكل عميق. يمكن أن يتمّ تجاهلها أو قمعها، لكن بمجرد أن يصبح وجودها مُدركاً، تصبح عدم قابليتها للتفسير منيعة ضد أيّ حكم أخلاقي متعجل.

تعرف هي أن هذا الرجل الذي يأخذها بعيداً في سيارته الآن لا يبالي بالبلبلة التي يثيرها في حياتها المستقرة. وبسبب هذه اللامبالاة تريد أن تراه كعدوّ. هو لا يبالي بما فعلته لتدافع عنه ضد زوجها. لا يبالي بالجهد الذي بذلته لتتخلى عنه. لا يبالي بالسعادة التي تخلت عنها. كل سبب استطاعت أن تجده ليحفزها على اعتباره عدوّاً لمصالحها كان مرحباً به، ومع كل سبب تجده كانت تصبح أكثر وعياً بحياتها.

السيارة المفتوحة تخلق نسيماً بارداً خاصّاً بها. بدا لكاميل أن هناك تجاوباً بين الهواء البارد الذي يهب على وجهها وعنقها وذراعيها من جهة، واللون الفضي للجانب السفلي من الأوراق التي تتحرك باستمرار على أغصان الأشجار التي يعبران قربها من جهة أخرى. بين الأشجار توجد منحدرات عشبية خضر. المشهد بكل تفصيل فيه يشكل البيئة المثالية لمؤامرة وجودهما وحيدَين معاً.

تقارن لامبالاته بحب زوجها وأطفالها وعائلتها. تسمعهم ينادونها باسمها. لا يوجد فرق بين الاسم الذي ينادونها به وما كانوا يتوقعونه منها. اسم كاميل هو حياتها.

– كاموميل، –يقول–، أحد رفاقي في الصف كان يقول المزحة نفسها في المدرسة. هناك فرق في مقطع صوتي واحد.

تسأله: ما الذي جعلك تحبني؟

– أحلامكِ، مرفقاكِ، الشكوك التي تحيط بالزوايا الأربع لثقتكِ، الدفء الاستثنائي لشعركِ، كل شيء ترغبين فيه لكنكِ تخافين منه، ضآلة...

– أنا لا أخاف من أيّ شيء أرغب فيه وأنت لا تعرف شيئاً عني.

– لا أعرف شيئاً؟ أعرف كل ما كتبته عنكِ.

من ذا الذي يتحدث الآن؟

– أنت لا تكترث لما يحدث لي، تقول بإلحاح.

– إذن لماذا تسألينني؟

– لأن الفضول ينتابني لأرى نفسي في عينيك. أتساءل ما الذي رأيته فيّ وخدعك.

– لم أخدع بشيء. حياتي كلها قادتني إليكِ.

– أنت مجنون مثله.

– مثل من؟

– موريس وأنت، كلاكما مجنون.

– لكن ليس أنتِ وأنا.

– سيطلق النار عليك في باريس.

يوقف السيارة بعد أن تعبر الجسر في بقعة يبدأ عندها مسار يبدو وكأنه يقود إلى جدول.

يقول لها: سأكون في باريس بعد ثمانية أيام.

تقفز من عتبة السيارة إلى الأرض الثابتة المفروشة بالغبار والعشب. تستقر على ساقيها القويتين ومن ثم تلتفت إليه وتنظر إليه بعبوس. بعد ذلك تجري بضع خطوات في اتجاه شجرة الأكاسيا البرية بعيداً عن الطريق. كل ما كانت قد تعلمته عن السلوك وآدابه، كل ما أصبح الطبيعة الثانية لحركاتها كامرأة، يغادرها. تتحرك كطفل أخرق، أو كشخص بالغ غلبه الحزن.

تصيح بأعلى صوتها المبحوح: وماذا لو قلت لك إن، تقول هذا وتفتح ذراعيها على اتساعهما، هذه هي باريس لأسبوع من الآن! ماذا لو قلت ذلك؟

تتابع الجري وهي تتعثر بين حين وآخر بين الأشجار.

يبدأ بالجري خلفها. تسمعه وتلتفت إليه. بالقرب منهما ثمة هيكل خشبي تنمو فوقه كرمة كثيفة مهجورة.

– ابقَ حيث أنت، تصْرخ، وتندفع راكضة لتتوارى عن الأنظار خلف التعريشة الخشبية باتجاه بعض الأشجار.

وهي لا تزال متوارية عن الأنظار تتوقف عن الركض. غير متعجلة تبدأ بخلع ملابسها وهي تتوقف بين الحين والآخر لتنظر حولها. هناك فوق الأشجار، فوق الهضاب الحراجية المجاورة والتي تشبه قبضات مغطاة بريش أخضر، ترى قمماً يغطيها الثلج. تنظر إلى الأسفل لتفك خطافات مشد خصرها.

النفس التي سأمنحك إياها ليست نفسي. ليست النفس التي أملكها. أو، لو كنت أنا أنت - وصدقني أستطيع في هذه اللحظة أن أتخيل ذلك بالسهولة التي أدير فيها راحة يدي إلى الأعلى والأسفل - أو لو كنت أنا أنت، النفس التي تملكها أنت. إذا أردت أن تحصي أجزائي جزءاً جزءاً سأكون مثلي مثل أيّ شخص آخر، لأن أحداً لم يتوصل بعد إلى حكم ثابت على الأجزاء، لم يعثر أحد على الحلمة ليحكم على الثدي، لم يعثر أحد على الحاجب ليقيس الضوء في العين، لم يعثر أحد على الأذن ليقرر نغمة الطريق... الطريق الوحيد الذي سأمشي عليه الآن لأصل إليك بين الأشجار. أنا امرأة تخلع ملابسها، تعرّي نفسها عضواً بعد عضو في فضاء يشبه غرفة قائمة قرب جدول، مختبئة منك أنتظرك، أنا من تخلّى عنك منذ بضع دقائق، أنا من ستعود إلى أطفالها في باريس الليلة، أنا من لا تتخيل نفسها سوى زوجة محبة لزوجها، أنا من لم تكن يوماً ما هي عليه الآن. لكنني لست حاصل جمع أجزائي. يجب أن تراني ككل كما تتطلب حياتك الثمينة منك أن ترى نفسك. لديَّ شعر على مؤخرة عنقي بعدد ما يمكن أن يكون لديك من طرق تلمسني بها. النفس التي أمنحك إياها ليست نفسي، بل هي النفس الناجمة عن اندماجنا نحن الاثنين. أما أنت فتمنحني الفرصة لأقدم لك هذه النفس. هي لك. هي لك.

تناديه بصوت مرتفع: أنا أنتظرك هنا.

التباين في نبرة صوتها لا يفاجئه (تبدو وكأنها تناديه بنفاد صبر من غرفة لتبديل الملابس بابها مفتوح). الكلمات الواجب استخدامها في لحظة كتلك يجب أن تكون متناقضة.

تجلس على العشب، شعرها منسدل على كتفيها. قميصها الداخلي محلول الأزرار. جيبتها الرمادية وسترتها مطويتان وموضوعتان فوق العشب مع باقي قطع ملابسها.

لأن كاميل قد اختارت موقعاً يذكرها بلوحة ما من عصر النهضة عن إلهة الغابات والحوريات، نحن ملزمون بأن نتصورها تمتلك جسد إلهة كما كان يرسمها تيتيان[1].

لكنها ليست كذلك إطلاقاً. ذراعاها نحيلتان، وعنقها مشدود تبرز منه العقد التي تشكلها فقراتها، وباطن فخذيها مكسو بالقليل من اللحم بحيث عندما تكون واقفة وقدماها ملتصقتان ببعضهما بالكاد يتلامس فخذاها.

ها هي في انتظاره كما كان يتوقّع. لكن ذلك يدهشه رغم أنه يتوقعه. هذا التآلف بين المفاجأة والتوقعات التي تحققت حرفيّاً هي شيء تنفرد به لحظات الرغبة الجنسية، وهي عامل آخر يضعها خارج سياق الزمن الطبيعي. ربما نكون قد رأينا حياتنا كلها بهذه الصورة في لحظة تحدث قبل الولادة عند مستوى لا يزال مجهولاً لنا. قبل أن يلمسها يعرف ما الذي ستكشفه له هذه اللمسة. وعندما سيلمسها سيدرك تماماً كم أصبحت وحيدة. فعل التعري كان عبارة عن فعل إهراق لاهتمامات من

١ – تيتسيانو فيتشيليو، رسام إيطالي من البندقية. زعيم مدرسة البندقية في الرسم وقد نَعِمَ برعاية عدد كبير من النبلاء الإيطاليين المعروفين، وكان لفترة من الزمن رسام البلاط لدى الإمبراطور شارل الخامس أو شارلكان.

يفرض عليها اهتمامات حياتها. وهي مستورة بملابسها تنبذ الرجال الذين تكرههم. جسدها العاري دليل على عزلتها. وعزلتها، عزلتها فقط، هي ما يشعر به ويشتهيه. كان قد اقتادها من غرفة نوم زوجها، من منزلها المفروش بأثاث فاخر، من الشارع الذي تبدو الستائر التي تغطي نوافذه جامدة وكأنها قدّت من حجر، من صفحات كتب مالارمي التي اهترأت من كثرة ما قُرئت، من الملابس التي طلبتها من مصمم أزيائها ودفع زوجها ثمنها، من المرايا التي تظهر الزوج والزوجة بصورة مزيفة، وبعيداً عن المكان الذي تنتمي إليه إلى المكان الذي تكون فيه هي نفسها عندما تكون وحدها. من حاصل جمع عزلتها وعزلته يمكنهما الآن أن ينطلقا معاً. Andiamo [1] هيا بنا.

وهو يحدق بها بعينين مثبتتين عليها بقوة لم تتصور وجودها من قبل، ترى نفسها كحورية متحفزة بطريقة حيوانية أكثر منها آدمية... حورية سريعة، وحساسة، وبقدم واحدة رشيقة، ومعسولة اللسان، وبلا حياء. تراه هو والحورية معاً كقرينين، ورؤيتهما تملؤها بالحنان. الحورية تنزع عنه قميصه. تتوقع أن تمنحه نفسها وهي على أربع، وجهها إلى الأرض، وهو يمتطيها وكأنها نعجة. تزحف على أربع إلى أن تتمكن في النهاية من أن تصبح وجهاً لوجه معه وبعدها تقبل جفني عينيه.

كاموميل.

شعور الحنان يتعاظم ويجعل من المستحيل عليها أن تتصور إمكانية رؤية أيّ شيء من البعيد... فكرة الحورية تختفي مؤقتاً. دقائق كتلك تصبح أطول فأطول إلى أن تتلاشى الحورية في رائحة العشب المسحوق والصمت المحيط، تختفي بلا رجعة، وكاميل تصبح مركزة تماماً على متابعة ما تفعله اللحمية تحت لسانها بأير الرجل الذي كان رأسها يعلو ويهبط فوق فخذه.

١- بالإيطالية في الأصل «Andiamo».

تراه تحتها، فوقها، قربها... ليس له أيّ حقوق عندها، هي غير مطالبة بشيء تجاهه، وهو لا يطالبها بأيّ شيء. هو موجود في محيطها كالتعريشة التي تنمو الكرمة فوقها، كجدار يمكنها أن تضرب رأسها به مرة بعد أخرى. هو موجود هناك، خارج نفسها، مثله مثل كل شيء عبر حياتها ولم يستقر في وعيها لثانية واحدة. لم تكن قد قالت لنفسها إنها تحبه بعد. كان قد أقنعها بأمر واحد فقط. بخلاف أيّ رجل صادفته من قبل، أقنعها بأن رغبته فيها، فيها هي وحدها، مطلقة، بأن وجودها هو من خلق هذه الرغبة. كانت قد أدركت في السابق أن الرجال يختارونها ليشبعوا الرغبات المتأصلة فيهم مسبقاً، هي دون غيرها، لأنها كانت أقرب ما يكون لما يحتاجونه من ضمن النساء المتاحات لهم. أما هو فيبدو وكأنه ليس بحاجة إلى أيّ شيء. كان قد أقنعها بأن أيره الذي ينتفض في الهواء الماثل فوق وجهها هو بهذا الحجم واللون والسخونة تماماً بسبب ما رآه وشعر به فيها. عندما يلج فيها، عندما يصل طرفه الخامس النابض والوثاب والمتفجر والمختنق ضمن صلابته والمتوج بزهرة عصا الراعي إلى أبعد نقطة يسمح بها تجويف حوضها، كان هو، هكذا تراه، يتجسد في داخله بكل كيانه، ليعود إلى منشأ رغبته. طعم قلفته[1] وقطرة واحدة من منيه الشفاف التي تفجرت على رأس عصا الراعي تجعل ملمسه أكثر نعومة من ذي قبل... هو طعم لحمها مجبولاً بلحم جسد آخر.

- لا يمكن لهذا أن ينتهي أبداً، همست ببطء ورصانة. حبيبي يا حبيبي.

كانا يتنايكان فوق العشب. يسكن كليهما نصف اعتقاد بأنهما لن

١- القلفة هي الجلدة التي يقطعها الخاتن من ذكر الصبي.

ينطرحا على العشب بعد الآن، بل سيتنايكان وقوفاً ومشياً... على شفير النهاية بدآ يسيران عبر عشب رطب طويل. كان يسكنه وهم إضافي يجعله يعتقد أن هناك من يلاحقه ويجري وراءه.

كل هذا موجود هناك. كيف يمكنني أن أفضّ بكارة هذه الكلمات لأحرر معناها الأصلي ومعناها الكامن فيها. كل شيء موجود هناك في وقته وفي الوقت نفسه. الأمر يتعلق بالاختلاف الأسمى بالنسبة إليّ سواء كان من يتلذذ بهذا اللسان العذب أنا أم أنتم. والآن وهنا دعونا نتيح لكلمة «أسمى» أن تكتسب معناها «السامي». لا طائل من معرفة من قال ماذا. الأجزاء كلها جزء واحد. كلها هناك مجتمعة معاً. كلها مجتمعة معاً بالرغم من كل الاختلافات بينها. لم يعد هناك أيّ حاجة إلى أيّ شيء. الرغبة بحدّ ذاتها إشباع للرغبة، أو ربما لا الرغبة ولا الإشباع يمكن القول بوجودهما بما أنه لا وجود لتضاد بينهما... كل تجربة تصبح تجربة خاصة بالحرية هناك: الحرية هناك تحول دون وجود أيّ شيء إلّا الحرية نفسها.

كان هو وكاميل أشعثي الشعر مستلقيين وحيدين جنباً إلى جنب هناك على المنحدر قرب الكرمة. تمكن فلاح من رؤيتهما عبر الضفة البعيدة من الجدول لكنهما لم يحركا ساكناً. رأى ذراعاً بيضاء تبدو كتمثال وساقاً مكسوة بجورب. كان الفلاح فضوليّاً وجثم في مكانه ليراقب ما الذي سيحدث بعد ذلك.

من كنا ننزه؟

كنت ركبة تريد فخذاً يعود إلى ساق أخرى.

صوت كلماتي الأكثر رقة كان يتردد في مؤخرتك.

كعباكِ كانا إبهامَي.

ردفايَ كانا راحتي يديك.

كنت أختبئ في إحدى زوايا فمكِ. بحثتِ عني هناك بلسانك. لم يكن هناك شيء يمكن العثور عليه.

بحنجرتك المتورمة، قدمي حفرة تسقط فيها معدتي، تجويف ساقيك، رأسي غارق في جسدك، كنت أنا أيرك.

كنتِ أنتِ الضوء الذي أصبح وردياً عندما سقط على بتلتي كسكِ الداكنتين.

الأوعية الدموية كانت تتجمع في ضفيرة أزهارك.

***

عادة ما كان يتمّ نشر أحداث إطلاق النار التي تشهدها دومودوسولا في الصحافة الإيطالية المحلية فقط، لكن بما أن البلدة كانت ممتلئة بصحفيين من كافة أنحاء أوروبا ينتظرون موت تشافيز أو تعافيه، نُشرت القصة في صحف عدة في مختلف أنحاء القارة. ووفاءً لتقاليدها التليدة عند التعامل مع حوادث تتعلق بشخصيات مرموقة من الطبقة البرجوازية، قامت الصحف السويسرية بحجب الأسماء الكاملة للشخصيات المتورطة في الحادثة.

«كانت بلدة دومودوسولا بالأمس مسرحاً لجريمة عاطفية مثيرة. السيد «هـ.»، وهو رجل أعمال فرنسي ينشط في قطاع السيارات، وجد نفسه في البلدة التي ارتبط اسمها باسم الطيار جيو تشافيز الذي نجح في عبور جبال الألب. عند الساعة الثالثة والنصف ظهراً في سوق الساحة المزدحم قام السيد «هـ.» بإطلاق النار ثلاث مرات من

مسدسه الأوتوماتيكي على السيد جي، وهو شاب إنجليزي يقال إنه من هواة الطيران. كان الأخير قد خرج لتوّه من متجر لبيع الفاكهة وكان يمشي تحت القناطر المحيطة بالساحة. حياة الضحية، الذي أصيب في كتفه، ليست في خطر، وقد تمَّ نقله في الحال إلى المستشفى نفسه التي يُعالج فيها الطيار البطل.

لم يبدِ السيد «هـ .» أيّ مقاومة لرجال الشرطة الذين أتوا لاعتقاله بعد أن ارتكب جريمته، وكان قد أعلن أن الجريمة الوحيدة التي ارتكبها هي إطلاقه النار من مسافة بعيدة جدّاً. وزعم أنه كان قد حذّر الشاب بأنه سيقتله إذا لم يكفّ عن إحراج زوجته، السيدة «هـ .»، ومطاردتها من مكان إلى مكان. يقول الجاني: «تلك مسألة تتعلق بالشرف وأنا متأكد من أنني سأحظى بتعاطف المجتمع الراقي عندما تنجلي الحقائق». الشاب الإنجليزي، الذي من الواضح أنه يتحدث الإيطالية بطلاقة، رفض أن يجيب عن أيّ سؤال».

***

على جدار المستشفى القديم في دومودوسولا - والذي بالقرب منه يُبنى مستشفى جديد أكبر حجماً- يوجد لوحة نُقشت عليها عبارات التقدير والتكريم لبطولة تشافيز ورقم الغرفة الواقعة في الدور الأول التي مات فيها في ٢٧ سبتمبر من العام ١٩١٠.

كل تقارير ساعاته الأخيرة تدل على أنه كان لا يزال مسكوناً بالمعركة التي خاضها ضد الرياح والصخور. لم يتمكن من معرفة ما الذي كان لا يزال يفصله عن الحياة التي تتواصل من حوله: الحياة التي، مع كل الحماس الذي كان يسكن شبابه المليء بالإصرار، أراد أن

يخوض غمارها من جديد. لم يساهم إنجازه، حتى في تلك الأوقات التي استطاع خلالها عزله عن المصيبة التي حاقت به في النهاية، إلّا في تعزيز الجانب الساخر من حياته.

«أنا ذاهب الآن. فلنذهب بسرعة إلى بريغ... يحيا تشافيز!» تذكر عندما قام تشافيز بكتابة تلك العبارة على ساقيه. ما الخطأ الذي ارتكبه؟ لا يزال ذلك السؤال يعصف إلى الآن في ذهنه: هل الخطأ الذي ارتكبته، أو الخطيئة بالأحرى، كان تقنياً أم أخلاقيّاً، من دون أن يتمكن من التوصل إلى جواب. حاول أن يستحضر ذلك الشيء الذي صرخ في وجهه وهو يدخل مضيق غوندو. لم يتمكن من ذلك. وكان يخشى أنه لن يتمكن من ذلك حتى يتمكن من الخروج منه... كان لا يزال إلى الآن أسيره.

لا توجد لوحة على جدار المستشفى تشير إلى رقم الغرفة الواقعة على بعد ثلاث نوافذ فقط من غرفة العمليات التي أخرج منها جي بعد أن تمَّت إزالة الرصاصة من جرحه. ممرضة في منتصف العمر يبدو من لون بشرتها أنها من نابولي كانت تغسل له وجهه وعنقه.

لأول مرة منذ حادثة إطلاق النار كان المكان هادئاً نسبيّاً. من سريره استطاع أن يرى الحديقة. أوراق شجرة الصفصاف الجامدة كانت واضحة بشدة في ضوء المساء الأفقي. خطر له كم هي وجيزة لحظات المأساة، وكيف تعود الأمور إلى نصابها بسرعة. تذكّر حديقة والده في ليفورنو والبركة وسمك الفرخ الذي يسبح فيها، وتذكر البهجة التي شعر فيها عندما اكتشف وهو جالس في الحديقة أن أهم ما في الحياة هو ألّا تكون ميتاً. أخرج زفرة من صدره مصحوبة بصفير.

– أنا آسفة. هل آلمتك؟

- لا، لا. كنت أفكر في أمر ما. صمت للحظة. بعد ذلك، بصوت أكثر رقة، قال: قولي لي الآن، أنت امرأة خبيرة، يمكنني رؤية ذلك، ولست شديدة الحساسية، هل ترين أن ما فعلته يجعلني أبدو كشيطان؟

- صه! لا تفكر في هذه الأمور.

- لم تجيبيني بعد.

حدقت في وجه هذا الشاب، له وجه شبق، وعيناه السوداوان ترمقانها، تأملت في قصته وكيف حاول زوج غاضب أن يرديه ميتاً وقالت: لا تبدو شيطاناً بالنسبة إليّ.

(بعد ذلك وهو يروي لها القصة تظاهرت بأنها تستمتع إليه وتتجاوب معه لأنه من واجبها كممرضة أن تبقي المريض مسترخياً).

- هذا ما ينعتونني به. لكن تصوري أحدهم يحاول إطلاق النار على الشيطان! أتعرفين ما هي الطريقة الوحيدة للتخلص من الشيطان؟ أن تعطيه ما يطلبه. هل كنت لتفعلي ذلك؟

حاولت أن تسكته من خلال إغلاق فمه بيدها وهي تجفف وجهه بفوطة.

- قولي لي الآن أكنتِ لتعطيه ما يطلبه منكِ؟ يكرر مصرّاً... تلك هي الطريقة الوحيدة، حتى وإن كان ما يريده هو روحك!

من الخطأ أن تجدّف حتى لو كان ذلك على سبيل الدعابة. لا يجب أن تتحدث هكذا.

وفجأة صرخ صرخةً مرعبة.

(اعترفت لاحقاً بأنها كانت متفاجئة جدّاً بحيث لم يكن في وسعها إلا أن تضحك).

وجه خطيبته التي قد أتت من باريس وكانت تجلس قرب سريره كان طويلاً كما المسافة التي تفصل تشافيز عن مضيق غوندو. لو

مدّ ذراعه ليلمسها، لكان انتابه انطباع بأن يده هي كمضيق غوندو، وأصابعه التي تتحرك حول فمها تنبثق منه، ولم يكن أيّ عضو من أعضاء جسده قادراً على أن يخرج منه سوى أصابعه تلك.

الأسى في ذهنه ناتج عن انقلاب حقيقة بديهية آمن بها طوال حياته إلى نقيضها بصورة يصعب تفسيرها. لا بدّ وأن الله والطبيعة وعالم الرجال قد وجدوا أنفسهم في حالة انسجام وتوافق أمام شجاعته ونجاته من دون إصابات خطيرة. لماذا لم يكونوا كذلك؟ لقد أثبت حقه في النجاح، وأُجبر بعد ذلك على التخلي عن هذا الحق. الريح التي أساء تقديرها كثيراً، والجبال، والهواء الجليدي الغادر، والأرض التي دخلت فمه وأصبحت الآن دمه، وحتى جسده... كل ذلك رفض أن يوحّد بينه وبين إنجازه، لماذا؟

في أثناء الليل كان يتمتم بلا توقف «je suis catholique, je suis catholique» «أنا كاثوليكي، أنا كاثوليكي.»

استيقظ جي ليجد نفسه يسمع من جديد ما كانت قد قالته كاميل داخل السيارة في طريق العودة من دومودوسولا كلمة كلمة.

– سأراسلك. ما هو العنوان الذي يجب أن أراسلك عليه؟

– لا، لا ترسلي إليَّ أيّ خطاب. سأعطيكِ إشارة بمجرد أن أصل إلى باريس.

– ستُذهل عندما ترى ما أنا قادرة على فعله. سأفاجئك. سأكون

ماكرة. سأكون ماكرة مثل محامٍ حاذق. سأتنكر. هل يمكنك أن تتخيلني كخباز؟ سآتي إليك متنكرة كخبّاز. سآتي إليك متنكرة كخباز، أو كامرأة عجوز (ضحكت باقتضاب). ستصاب بالرعب – وعندها سأزيل ردائي التنكري لترى مرعتك أمامك. إذا أراد موريس أن يقتلني، فليفعل. لست خائفة. إنه أنت من سيحاول أن يقتله. إنه أنت من يجب أن يتنكر. ما هو التنكر الذي يناسبك؟ يمكنك أن تكون إسبانيّاً. أجل كاهن إسباني. يجب أن يكون تنكرك لا يشبهك، لكي يصعب عليَّ أن أصدق ، لكنني سأعرفك، مهما كان الشكل الذي تتنكر به، سأتعرف عليك في أيّ مكان، وموريس سيتعرف عليك بسبب النور الذي سيسطع من عيني لدى رؤيتك. افترض أنك عرفت أنك ستموت لاحقاً لا محالة، وأنا عرفت أيضاً أنك ستموت لا محالة... مع ذلك ما كنت لأحاول أن أوقفك الآن. ما كنت لأفعل ذلك الآن. لربما كنت سأفعل ذلك من قبل. كنت سأحاول أن أنقذك في السابق. كنت سأرفضك. ربما كنت سأخاف على نفسي. أعرف الآن أنني كنت سأستقبلك برحابة صدر. هذا ما كنت سترغب به. وكنت سترغب بي تحت تهديد الموت أكثر مما رغبت في أيّ امرأة أخرى. وبعد ذلك سأموت معك... بكل سعادة.

في اليوم التالي، آخر كلمات قالها تشافيز، وهي كلمات ليس في الإمكان تفسيرها، كانت: non non, je ne meurs pas... meurs pas («لا، لا... أنا لا أموت... لا أموت.»)

***

دخل وايمان الغرفة يعلو الألم وجهه. سلّم على جي ببرود ومضى بعد ذلك ووقف بقرب النافذة وما برح ينظر إلى الخارج وكأن حدثاً غير متوقع كان يقع على المرج في الأسفل.

- الجنازة غداً، قال وايمان.

- أستطيع أن أسمع كل ما يحدث في الرواق. الجدران ليست سميكة جدّاً هنا. توفي البارحة عند الثالثة ظهراً.

- البلدة كلها في حالة حداد، قال وايمان.

- لو كان وايمان يحسن التصويب جيداً، لكنا حظينا بجنازة مزدوجة.

- هذا كلام لا يجوز ولا يليق بفداحة المأساة.

- ستكون تلك جنازتي، لا جنازتك. ما الذي يجعلك تتصرف بكل هذه الجدية؟

- لأنه حدث جلل، وأنت... أنت... كان يعاني ليعثر على الكلمة المناسبة ونظر خارج النافذة إلى الأحداث اللامرئية التي تقع على المرج في الأسفل... أنت بطيشك وعلاقاتك الغرامية تجعل الوضع مخجلاً ولا يطاق. البلدة كلها في حالة حداد. المصانع توقفت عن العمل والمحال أغلقت أبوابها.

- سيكون الأمر أشبه بأوبرا لفيردي. الطليان يحبون الوفيات. الوفيات وليس الموت. هل لاحظت ذلك؟

- إنهم يشعرون بفداحة الحدث.

- أنت نفسك قلت إنه كان أحمق.

- كان هذا قبل أن أعرف أنه يُحتضر.

- وهل يحدث هذا أيّ فرق؟ طرح هذا السؤال بصوت أكثر لطفاً، ووايمان الذي خفّ امتعاضه إلى حدّ ما، ابتعد عن النافذة واقترب من السرير.

قال وايمان بصوت يشبه صوت راهب كان غالباً ما يحاول تقليده: لقد ارتقى إلى السماء، إلى تلك القطعة من السماء التي ندعوها نحن البشر، هؤلاء الذين لا يزالون على قيد الحياة من بيننا، جنة الطيارين الراحلين.

– سأخرج من هنا بحلول الليل وبعدها سأكون قادراً على القيام بواجب العزاء أيضاً. هل غادر آل هينيكن؟

– يجب أن تعلم أن الفضيحة التي تسببت بها بتورطك بتلك العلاقة الغرامية الطائشة سببت إحراجاً كبيراً لنا كلنا. فضائح كتلك تسيء إلى سمعة الطيارين ومجتمع الطيران كله. تجعلنا نبدو وكأننا مغامرون وطائشون و...

– ولكن ألستم كذلك في الواقع؟

– أنت تعلم تماماً ما أقصده.

– أخبرني، هل عادوا إلى باريس؟

– إذا كان سماع ذلك يشعرك بالرضا، فاعلم أن السيدة هينيكن كانت في حالة انهيار.

– وما أخبار السيد؟

– كان عليهم تقييده كي يمنعوه من المجيء للبحث عنك في المستشفى. قال إنه هذه المرة لن يخطئ التصويب.

– كان عليك أن تتركه يأتي. كان ليسرني أن أراه مرة أخرى.

فجأة شعر وايمان بالغضب. احمرّ وجهه وجحظت عيناه وبدأ يحدق في ذاك الجسد المستلقي على السرير، وقال: أجل، أعتقد أنه كان يجب أن نتركه يأتي. ما الذي تحاول أن تفعله؟ ما الذي تخطط له؟ دعني أقول لك شيئاً. هذه البلدة مليئة بالرجال. وغداً سيزداد عددهم أكثر وستمتلئ البلدة بهم أكثر – رجال قادمون من كل أصقاع العالم ليقوموا بواجب العزاء ويعبّروا عن تقديرهم للإنجاز التاريخي الذي حققه جيو وإجلالهم لشجاعته منقطعة النظير. أتعلم أن الكثير من الفلاحين قد أتوا اليوم سيراً على الأقدام من القرى الجبلية ليصطفوا في طوابير ويقدموا واجب العزاء ويكحلوا عيونهم بإلقاء النظرة الأخيرة على الرجل الذي أحبّوه وقدّروه. يجب أن ترى وجوههم علّك تتعلم

منهم بعض التواضع. قد تتعلم أيضاً ما يمكن أن يعنيه منح صغارك الأمل بعد عمر كامل من الكفاح والتضحية. ربما تدرك ما الذي يعنيه تحقيق إنجازات عظيمة في الحياة. وبين هؤلاء الرجال، هؤلاء الرجال الذين يملؤون البلدة كحجاج يقدمون لها احترامهم وتقديرهم، قد يكون هناك... قد يكون هناك قزم ضئيل قبيح.

خرج من الغرفة وأغلق الباب بقوة وراءه ومضى في طريقه.

***

الحشد المتجمع من كل أصقاع الأرض جعل البلدة تبدو وكأنها قرية. أجساد متشحة بالسواد تتدافع باتجاه جدران الشوارع الضيقة. عدة أطفال كانوا محتجزين في مدخل مفتوح تمنعهم نساء من الخروج بأذرع مستقيمة متصلبة مفرودة على الجانبين خشية أن يركضوا في الشارع مع مرور الموكب فيفسدوا بذلك جلال تلك اللحظة الخالدة. على نوافذ الدور الأول والشرفات التي فوقها عُلقت أعلام مرتجلة من قماش رقيق أسود وأعلام ثلاثية الألوان على كل منها شريط أسود. كان يوماً مشمساً، والشوارع التي لن يمرّ الموكب فيها كانت خاوية. كل المتاجر والمكاتب كانت مغلقة. الأجراس في البرج كانت تُقرع ببطء. آخر صوت من كل دقة كان يتلاشى بشكل كامل تقريباً قبل أن تأتي الدقة التي تليها لتملأ الصمت من جديد. كان الصوت يملأ الصمت بطريقة تجعلك حتى وأنت في القنطرة، حيث لا يمكن أن ترى لا السماء ولا الجبال، تتذكر ذلك الشعور بالوحدة. في ضواحي سوق الساحة كان ثمة رائحة أحصنة وجلود نفاذة، ذلك أن الكثير من العربات والحناطير التي جلبت المحزونين والنادبين من كل أرجاء الريف قد تُركت هناك من غير صاحب فيما لحق النادبون بالنعش سيراً على الأقدام.

مدير المحطة، الذي كان يرتدي قبعة مزينة بالذهب ومعطفاً طويلاً، نظر مرة أخرى إلى انعكاس صورته على زجاج باب غرفة الانتظار. لم يكن الأمر يتعلق بالزهو والغرور في هذه اللحظة بل بالدور الذي يؤديه، الأمر نفسه الذي قد يجعل الممثل ينظر إلى نفسه في المرآة قبل أن يظهر على المسرح. صحفيون من كل أنحاء أوروبا كانوا يتدافعون داخل غرفة الانتظار ليحجزوا خطوطاً للاتصال بعواصمهم.

بدأت الفرقة الموسيقية المتجمعة أمام المستشفى بعزف اللحن الجنائزي. تحرك الموكب بصورة مضطربة في البداية. فتيات يرتدين حجباً بيضاً كنّ ينثرن الزهور فوق الحصى والغبار أمام الأحصنة الأربعة لعربة دفن الموتى. مجموعة من الفتيان كانوا يتحركون بخفة ذهاباً وإياباً بين زوايا الشارع الرئيس وأمام الموكب ليضمنوا ألّا تنقطع الفتيات من سلال الزهور أبداً. كان المحافظ قد أعلن أن البلدية ستتكفل بتغطية تكاليف الجنازة. وهن واقفات بشكل مستقيم، ربما تكون إحدى الفتيات قد ابتسمت بخجل للأخرى، لكن وهنّ ينثرن الزهور على الطريق منحنيات إلى الأمام وكأنهن يحاولن أن يلقين شبكة صيد في جدول يتدفق بسرعة، كن يقمن بذلك بصورة رزينة، وتعابير جادة، وكانت إحداهن تعضّ بأسنانها على شفتها السفلى.

كانت جدة البطل وشقيقه وخطيبته وأصدقاء العائلة يسيرون وراء عربة الدفن مباشرة. كانت خطيبته ترفع رأسها عالياً في الهواء وكأنها زوجة تتبع عربة تقود زوجها، المتهم بالكفر والزندقة، إلى حكم إعدامه، كانت تتحدى المأساة التي حلّت بها، تتحدى الظروف التي أودت بحياة زوجها. شقيق جيو، المصرفي الغني، مشى مطأطئ الرأس محدقاً في الزهور التي تغطي الطريق والتي لم يكن العديد منها قد وطأته الأقدام بعد. كانت الجدة تسير متكئة على عكاز تطعن بها الأرض. ومن حين إلى آخر كانت العكاز تخترق زهرة وضعها حظها العاثر في طريقها.

خلف العائلة والأقارب سار الدبلوماسيون وأعضاء مجلس الشيوخ والطيارون من أصدقاء تشافيز والمحافظ والصحفيون وممثلو شركات محركات الطائرات ووجهاء البلدة. وعلى مسافة منهم سار موكب يضم آلاف الكادحين الذين حظي أغلبهم برؤية تشافيز عندما ظهر لأول مرة ظافراً منتصراً من ناحية الجبل المطلة على قراهم عندما كان يهبط ليحط في الحقل حيث وضع دوراي علامة الصليب بالقماش الأبيض المنقط. لدى رؤية هذا النصر الذي بدا سهل المنال، وفي مواجهة مستحيل يتحول بسرعة كبيرة إلى ممكن، كانوا قد شعروا ببهجة لم يعهدوها من قبل. في الصحف كانوا قد قرؤوا، أو سمعوا غيرهم يقرأ، جملاً من قبيل: ما كان في الأمس حلماً بعيداً أصبح اليوم واقعاً. وهذا ما حدا بهم إلى أن يسألوا أنفسهم: ما الذي يمنعنا نحن أيضاً من تحقيق أمنياتنا وبلوغ أهدافنا؟ أولئك الذين كانوا معتادين على الإجابة عن أسئلة تأملية كتلك قدموا الأجوبة المعتادة. يجب الإطاحة بسلطة الأغنياء. ينبغي هدم الملكية الخاصة. آخرون التزموا بآرائهم القائلة بوجوب توحيد إيطاليا، وإعادة مدينة تريستي إليها، وامتلاكها مستعمرات أكثر، حينها فقط يمكن للإيطاليين أن يحققوا أمانيهم ويبلغوا المصير الذي يليق بهم. بدت كل الأجوبة نظرية بالنسبة إلى أولئك الذين كانوا يسألون. لكن السؤال بقي هو نفسه.

والآن، بعد موت تشافيز المفاجئ، طويت صفحة هذا السؤال. رجع الوضع بالنسبة إليهم إلى سابق عهده. تحقيق الإنجازات لم يكن يوماً بالأمر السهل. من يتجرأ يجب أن يدفع الثمن. الأبطال الحقيقيون موتى الآن. عندما يكون الهدف المأمول فوق قدرة الإنسان، عليك أن تعبر الموت لتصل إليه. عليك أن تختار، إما تقبّل الحياة كما هي أو الموت كبطل.

بدأ إلقاء الكلمات أمام الكاتدرائية. استمع الحشد بروح من يريد أن يقبل ويقرّ بكل ما يسمعه. الشبّان، وكعادتهم دائماً في مواقف كتلك، اختاروا مرة أخرى موتاً بطوليّاً في مخيلاتهم. الكبار منهم نظروا إلى حياتهم التي عاشوها وصارت وراءهم بالعطف والتفهّم نفسهما اللذين قد ينظرون بهما إلى أطفالهم، محاولين أن يجدوا فيها، في حيواتهم، دليلاً يثبت أنهم بالقليل من الخداع والتواضع تمكنوا من التوصل إلى امتلاك الوسائل الأمثل للحصول على أفضل ما يمكن أن تقدمه الحياة لهم، حتى ولو كان ذلك بالخداع والمداهنة... حياة كانت بعد كل شيء، وبعد أن قيل وارتُكب فيها كل ما يمكن أن يُقال ويُرتكب، أفضل من الموت على أيّ حال، هذا بالرغم من أن شجاعة البطل لمست أرواحهم لأنهم هم أنفسهم كانوا شباناً طائشين مثله، بالرغم من أنهم يعرفون تمام المعرفة أن الدروس التي حررتهم من حماقتهم لم تكن مثالية، ولم تكن كما يتمنونها. احتفل الشبّان الذين كانوا في الحشد بالبطولة المتجسدة في موت البطل شابّاً، وتذكّر كبار السن ثمن بقائهم على قيد الحياة حتى الآن.

السفير البيروفي قال: يشرفني أن تكون من أبناء بلدي، آه يا تشافيز، أتيت إلى هنا اليوم لأروي نعشك باحترام وإجلال كل صغير وكبير في بلدك. سأترك لأقربائك وأحبائك واجب وحق البكاء عليك... الشعوب القوية لا تبكي ولا تشكو، لها فقط أن تمجد العظماء من أبنائها، العظماء مثلك أنت يا تشافيز العظيم، الذين يضحون بحياتهم في سبيل المجد و...

حدثت بعض الجلبة في صفوف الموكب الأمامية التي اصطف من فيها على هيئة نصف دائرة حول عربة الدفن ودرجات السلّم المفضي إلى الكاتدرائية. دستة من الرجال اندفعوا إلى الأمام وشقّوا طريقهم نحو

درجات السلم وصعدوها. كانوا يرتدون ملابس مثل مرشدي جبال الألب وكل اثنين منهم يمسكان أداة تشبه الحمالة، وكل حمالة منها كانت مفروشة بتشكيلات من الزهور البرية المكونة من الإيدلفايس، وزهرة العطاس، واللاتنسيني، والبوق. وضعوا الحمالات على جانبي باب الكنيسة. وهم يهبطون درجات السلم، صاح أحد الرجال: هناك عالياً في السماء، على ارتفاع أربعة آلاف متر، سنراك! وبعد ذلك لطم خده عدة مرات.

قال السفير البيروفي: منذ نعومة أظفارك كنت سيداً تفتت الصخر بإرادتك، موتك المجيد قدم لنا درساً قيماً في الحياة. كنت قويّاً، كنت عظيماً، حلّقت على متن طائرتك الواهنة فوق الثلوج الخالدة، هناك بين القمم الشامخة، لتصبح رمزاً للإقدام والجسارة لكل رجال العالم.

أعلن المحافظ أنه ستتم تسمية الساحة باسم الطيار الراحل.

أقيم قداس مقتضب داخل الكاتدرائية لعائلة تشافيز والزوار الأجانب ذوي الشأن. ظلوا واقفين يحدقون أمامهم في نصف الضوء الذي تنبثق منه أشياء ذهبية بدون بريق. شعروا بالهواء البارد يتصاعد من الصخور. هنا، وليس في الطرقات المفروشة بالزهور خارجاً، يتنازل المؤمن الورع عن رغبته العمياء في الحياة.

قال الشماس: تشافيز، الشاب الشجاع الجريء المغامر الذي حلم بقهر جبال الألب والتحديق فيها من علٍ، الشاب المغوار الذي رأيناه وهو يحلّق فوقنا في الهواء ويعبر الوديانً أسرع من صقر، تشافيز الذي جعلنا نرتجف بالحماس ونحن نترقب نصره الوشيك – تشافيز الخالد.... رحل عنا إلى الأبد.

وقف جي ضمن الحشد داخل الكاتدرائية قرب السيد شواي وماتيلدا ديريسن. أخذته أفكاره إلى آل هينيكن في فرنسا. كانت كاميل تنتظر مجيئه لتصبح عشيقته. استبعد أن يطلق عليه السيد هينيكن النار مرة أخرى، لقد فشل في منع زوجته من زرع قرون على رأسه وفشل في الثأر لنفسه: بعد المرة الأولى لا يصبح للمرات اللاحقة أهمية تُذكر. وعند الوضع في الحسبان تصميم كاميل في هذا الشأن، فهو سيعترف بحقها في امتلاك عشيق بشرط ألّا يعاني من أيّ كلفة، وبشرط أن تدرك أن صبره عليها مشروط بكبح ميولها المسرفة وذوقها المكلف، وألّا تعترض أبداً على ترتيباته وإجراءاته. تعبيراً عن امتنانها، ستشعر كاميل بأنها تحب زوجها وعشيقها على حدّ سواء، لكن كل بطريقته. ستخضع لرغبات زوجها وتمنحه حقوقه الزوجية، لكنها ستبقى في داخلها مملوكة لحبيبها... كانت ستُقرض نفسها لزوجها لفائدة حبيبها.

أعداد هائلة من الشموع أضيئت من أجل تشافيز. لهب الشموع خلق تيارات هوائية خاصة بها، وهكذا عندما كانت مجموعة من الشموع ترتجف وتميل في اتجاه واحد، تؤثر على المجموعة الأخرى وتجعلها ألسنة لهبها تهب إلى الداخل وتنطوي على نفسها وكأنها تتشاور في ما بينها بخوف، وبعد ذلك، وكأن هذا الهرج يثير باقي الشموع فترتفع نيرانها قليلاً ما يجعل ألسنة لهب الشموع الأخرى تستوي وتتحلق متخبطة حول فتائلها وكأنها تختنق وتبحث عن الهواء.

من أجل زوجها ستطلب من حبيبها أن يكون متكتماً ودقيقاً في مواعيده وأن يقوم ببعض الترتيبات المالية. لن تقرأ شعر مالارمي بعد الآن لأنه قد يذكرها بشدة بدنوها من تلك اللحظة عندما، لأول وآخر

مرة، جعلت نفسها وحيدة عندما كان هو وحيداً أيضاً. ربما سيأتي يوم تصبح فيه شغوفة بشاعر آخر، شاعر يكون أكثر اتزاناً. سيمر الوقت. الكل سيتأقلم. بدافع من الملل أو العاطفة، ستمنح كاميل السيد هينيكن نفسها من دون تحفظها المعتاد، وبعد ذلك ستشعر بأن الشخص الذي يمتلكها هو زوجها. لكنها لن تتأخر كثيراً بعد شعورها هذا لتهرع إلى حبيبها متوسلة إليه أن يعود إليها وتؤكد له أنها ملك له وحده دون سواه. وبمجرد أن تقتنع أنها قد أصبحت ملكاً لحبيبها، ستنتظر فرصة، قد لا تأتي قبل أشهر تشغل نفسها خلالها بحياة أبنائها وصديقاتها، تختبر فيها تعلّقها بحبيبها عبر منح نفسها لزوجها مرة أخرى. وهكذا ستبقى تنوس بين الاثنين، وسيتسم كل نوسان بإثارة غامضة يصعب تفسيرها. في البداية ستنتظر أن يعاد استملاكها من قبلِ حبيبها بنفاد صبر أكبر بكثير من انتظارها قيام زوجها بذلك. لكن شيئاً فشيئاً ستشعر بأنها، كما سيحدث في الأيام الهادئة، مملوكة لكليهما ولأبنائها الذين يوشكون أن يصبحوا كباراً، أكثر مما هي مملوكة لأحدهما دون سواه، وستبدأ تُثني على فطنة حبيبها الزائدة وعاطفته الشحيحة. بعد ذلك بعشر سنوات، في حال حالفها الحظ، قد تحظى بحبيب ثانٍ، أما حبيبها الأول فيمثّل، مع فروق طفيفة، دور الزوج. وفي حال كانتْ أقل حظّاً، ستقوم بترتيب لقاءات عرضية بين السيد هينيكن، الذي سيكون حينها قد وجد لنفسه مكاناً في مجلس إدارة شركة بيجو، وحبيبها، وبذلك قد تتمكن من خلال تبادل الحديث والذكريات أن تكون ملكاً لهما معاً. وعندما تتقدم بها السنون وتشيخ، سترى نفسها في مرآة ما، على حين غفلة، معزولة غير مملوكة لأحد، لكنها بعد ذلك ستفكرِ في موتها: الموت الذي ليس في وسع الإنسان سوى أن يواجهه وحيداً.

الشماس: لقد ارتقى إلى السماء وهبط منها محققاً أعظم انتصار

حققه إنسان على وجه الأرض حتى يومنا هذا. بطل رائد سبق بانتصاره عصره. تخيلوا المستقبل الذي صنعه لنا إنجازه العظيم هذا... ستتلاشى الحدود بين الشعوب ولن يصبح كل شعب معزولاً عن الآخر بعد الآن، ثمار الحضارة ستصل إلى أبعد نقطة على وجه الأرض...

رأته ماتيلدا لو ديريسن واقفاً على بعد عدة مقاعد منها. كانت ذراعه معلقة بحمالة سوداء مربوطة في رقبته. كانت قد تحدثت بصورة مقتضبة مع كاميل قبل رحيلها إلى باريس. كانتا قد اتفقتا على أنه زير نساء، لا بدّ وأنه قد عرف في حياته مئات النساء. لكن ذلك لا يغير شيئاً، صرخت كاميل، لا يغير شيئاً أن أعرف ذلك.

طرحت ماتيلدا لو ديرسن سؤالين على نفسها. ما هو السر الذي جعلها تستسلم له بهذه السرعة؟ أما السؤال الثاني فكان يتعلق بها هي نفسها. ما الذي سيعنيه لو أنه، بعد أن أحب مئات النساء، لم يقم بأيّ محاولة للتقرب منها؟ كان السؤالان متداخلين معاً مثل جديلتي الحبل الأحمر الحريري المعلق على مسند ظهر المقعد أمامها والذي كانت تنقره بأصابعها باستمرار ليبقى يتأرجح طوال الوقت.

كان لها وجه يمكن أن يوحي لمن يراه بالغباء... وجه شخص لا يرى ولا يدرك إلّا المباشر والظاهر، شخص ليس لديه أمنية أو موهبة ليترك نفسه لنزوات الخيال أو الشعور العميق. كان وجهها يعلن في كل لحظة: ما يحدث، يحدث لي، لي أنا، لي أنا، لي أنا.

تأرجُح الحبل الأحمر الحريري استرعى انتباه جي. بسرعة قام بوضع خططه. سيذهب إلى باريس، ويزور آل هينيكن، وسيتجاهل كاميل عن

عمد، ويطمئن الزوج، وسيشرع فوراً بإقامة علاقة غرامية علنية مع ماتيلدا لو ديريسن. بهذه الطريقة سيثأر لنفسه من هينيكن عبر جعل مسألة إطلاق النار بأكملها تبدو وكأنها أمر سخيف، وشك لا أساس له في زوجته التي، لسوء حظ السيد هينيكن، ستعتبره ذنباً لا يغتفر، أما هو فسيحرر كاميل من وهمها الذي يجعلها تعتقد أن العاطفة شيء يمكن التحكم فيه، وأن العاشق ليس إلّا زوج آخر بصيغة مختلفة. سيعمل جهده ليجعل العلاقة الغرامية تعيش لأقصر مدة ممكنة، وسيختفي بعد ذلك من حياتهم. أسِف لأن ما يجمع السيد شواي وماتيلدا لو ديريسن لم يكن أكثر من علاقة قائمة على المصلحة البحتة. لكنه افترض أنه حتى شخص مثل شواي لا بدّ وأن يكون لديه بعض الغيرة على المرأة التي أنفق ماله ليكون معها. سيكتشف لاحقاً أين سيحدث كل ذلك.

... نعم لقد هوى، لكنه هوى كبطل حقق إنجازاً ظن الجميع أنه مستحيل التحقيق. المجد والعلياء له.

ما إن خرجوا من الكاتدرائية، حتى أغمض المعزون المحزونون عيونهم نصف إغماضة وخفضوا رؤوسهم اتقاءً لضوء الشمس. كان لهم سيماء من كان شريكاً في سر لا يمكن البوح به، أما بالنسبة إلى أولئك الذين ظلوا منتظرين في الخارج، فقد كانت مهابة المناسبة تتضاءل شيئاً فشيئاً. زوَّد الفتيان الفتيات اللواتي يرتدين الأبيض بالمزيد من سلال الزهور. بعض الفتيات كنّ يضحكن. الفرقة الموسيقية عزفت لحناً جنائزيّاً آخر ومضى الموكب ببطء في اتجاه المحطة.

مدير المدرسة فسّر لهم الحركة التي قام بها المرشد عندما لطم خديه بأنها ترمز إلى أن تشافيز سيبقى حيّاً في هواء الجبال وهكذا

سيشعر متسلقو الجبال بروحه تهب على خدودهم كما يشعر المرء بالهواء وحرارة الشمس عندما يلفحان وجهه.

كان القطار ينتظر بصمت. تلك هي المرة الثانية التي تمَّ فيها إيقاف قطار على هذا الخط من أجل تشافيز. الحمالون الذين نقلوا الكفن من عربة الدفن إلى القطار كانوا كلهم من الطيارين، وكان باولهان من بينهم. حيّاهم مدير المحطة أثناء مرورهم. كان الصحفيون يُجرون المكالمات الهاتفية. الفتيات اللواتي يرتدين الأبيض اصطفوا على المنصة. فجأة أطلق القطار صافرة حادة بدت وكأنها لا تنتهي.

فكّر مرة أخرى في كاميل. لم يفكر فيها كما ستكون عندما يراها في باريس، بل بتلك المرأة التي تحدّته ليأتي إلى باريس تحت تهديد الموت، تهديد كان حينها قد كفَّ عن أخذه على محمل الجد، لكنه في تلك اللحظة، قبل أن يفشل زوجها في قتله وهو ضمن المدى القاتل لمسدسه، كان لا يزال يظنه جديّاً. كانت قد طرحت عليه هذا التحدي وكأنه دعوة. وهي تقدم له هذه الدعوة كانت تتحدث إليه كما لم تفعل امرأة من قبل، فعلت ذلك بسلطة لا تقبل المداولة، وبرود قاتل، وإلمام مذهل لعرافة تقرأ الغيب. لو أنها كانت محقة ليس بخصوصه فقط، بل بخصوص زوجها، لكان قبل دعوتها في الحال.

الصافرة، التي رتب لها مدير المحطة وسائق القطار كتحية إجلال للبطل وإيذان ببداية رحلته الأخيرة، لم تكن تشبه أيّ صوت آخر سُمع في ذاك الصباح. لم يكن لها دويّ، ولا صدى، ولا معنى. كانت صريراً بلا روح مثلها مثل صرير منشار. استمرت الصافرة لوقت طويل فاق

توقعات الجميع. أزاح صوتها كل فكرة من رأس من يسمعه سوى فكرة أنه لا بدّ له أن يتوقف الآن. الآن! الآن!

كانت جدة تشافيز تضرب الرصيف بعكازها مرة بعد أخرى، لكن كان من المستحيل معرفة ما إذا كانت تفعل ذلك غضباً من هذه البادرة غير اللائقة من سائق القطار، أم نتيجة تفجر الحزن في داخلها.

-٧-

بالنسبة إلى نوسا كان جي مختلفاً عن معظم الرجال. كان واضحاً أنها بمفردها هناك، لكنه بالرغم من ذلك لم يتقرّب منها كما يتقرّب الرجال من عاهرة. قال لها إنه إيطالي لكن بتهذيب بالغ. (كانت قد قررت بينها وبين نفسها بأنه إيطالي من مكان بعيد جدّاً). كان متأنقاً للغاية لكنه اقترح أن يجلسا معاً على مقعد حجري. أخبرها بأن هذا المقعد عمره ألفا سنة. لم يحاول أن يلمسها إلّا عندما ساعدها على صعود الدرجات للوصول إلى المقعد. (كانت متحفزة لتصرخ بمجرد جلوسهما لكن لم يحدث شيء يستدعي صراخها). آتي إلى هنا كل يوم في مثل هذا الوقت، ما الذي أتى بكِ أنتِ إلى هنا؟ أوشكت أن تقول له إنها أتت بصحبة أخيها عندما خطر لها فجأة أنه من الممكن أن يكون عميلاً للشرطة. آتي إلى هنا، -أكمل-، لأنني أكره القبور المسيحية. أربكها هذا التعقيب. بعد ذلك تحدّث بصورة طبيعية عن أمور عامة كالطقس وتريستي والحرب.

بعد برهة قصيرة سألها من أين هي. بدا السؤال عاديّاً ولا ضير منه، فأخبرته أنها ولدت في كارست. في هذه الحالة، قال: أرجوكِ قولي لي شيئاً بالسلوفينية. قالت له بالسلوفينية: الطقس مشمس اليوم. طلب منها أن تقول عبارة أطول. قالت له: أغلب الطليان يحتقرون لغتنا. قالت ذلك بصوت مرتفع يشوبه بعض التحدي. تساءلت ما إذا كان

يفهم ما تقول، لكنه استمر في الابتسام. قولي شيئاً بعد، طلب منها، قصي عليَّ قصة أو أيّ شيء يخطر ببالك. سألته ما إذا كان بإمكانه أن يفهم ما تقول. ابتسم لها. أقسم لك، –قال–، إنني لا أفهم كلمة مما تقولين، سرّك في بئر. لم تستطع أَن تفكر في شيء تقوله. انتظر قليلاً ثم نظر إليها وهو يرفع حاجبيه ليعبّر عن دهشته من صمتها. قالت بالسلوفينية: هل ترى تلك الهرة المستلقية على العشب هناك؟

توقفت ووضعت يدها على كتف قميصها. كان لها ذراعان ويدان ضخمتان. عندما تسير أو تجلس، توحي الطريقة التي تثبت بها كتفيها وعنقها بأن جسدها كله ينحني قليلاً إلى الأمام. في حياة أخرى غير تلك التي تعيشها كان ذلك ليمنحها مظهراً متغطرساً.

– ليس هذا بالمكان الذي أحب المجيء إليه، –قالت–، ما كنت لآتي إلى هنا بمفردي. توقفت شاعرة بالذعر لأنها بدون قصد أعلنت أنها قد أتت إلى هنا بصحبة أخيها. بعد ذلك تذكرت أنها كانت تتحدث بالسلوفينية. لو أنني رأيت هذه الحجارة المتكسرة في حقول عمي لقلت عنها إنها مقرفة ورميتها بعيداً. سمعت بعض الأشخاص يقولون إنها تساوي الكثير من المال. لكن إذا كانت تساوي الكثير من المال كما يقولون، لماذا يتركونها مرمية هنا على العشب؟ لو أنها ثمينة بالفعل، لكانوا أخذوها إلى فيينا. هناك قرب القوس يوجد الكثير من أشجار النخيل، تابعت، يقول الناس إنه في حال استمرت الحرب سيعاني أهل المدينة من مجاعة، وسيأخذون كل شيء إلى فيينا.

– تتكلمين بصورة جميلة، –قال لها–. هذه لغتنا، –قالت–، لكن كان عليها أن تقول ذلك بالإيطالية. سألها أين تعمل. أعمل في مصنع. مصنع ماذا؟ مصنع للخيش. هل تعملين هناك منذ وقت طويل؟

منذ ثلاثة أشهر. تفوح منه رائحة سمك وهذا أمر لا أطيقه. وما علاقة السمك بالخيش؟ بسبب الزيت الذي يمزجونه مع الماء لتنعيم الخيش.

أثناء حديثهما، انتابتها شكوك مختلفة. مرة أخرى خشيت أن يكون عميلاً للشرطة النمساوية. ربما يكون مجنوناً... جعلتها هذه الحديقة تفكر في الجنون. ربما ينوي أن يعرض عليها أن تعمل خادمة في منزله (ما كانت لتقبل بذلك أبداً). ربما يكون «صديقاً» من الخارج يتحين الفرصة لإجراء اتصال مع أخيها.

أخوها، بوجان، كان في مكان ما داخل حديقة متحف لابيداريو التي تُركت نهباً لأعشاب لم تشذب منذ زمن. كان يأتي كل يوم إلى هنا منذ عودته، وفي بعض الأحيان كانت ترافقه. أتى ليلتقي برفاقه لأن الحديقة عادة ما تكون مهجورة، وفي أيام الأحد لم يكن يتوجب على من يريد أن يدخلها رسم دخول. كانوا يسمونها حديقة هولدرلين، وقد أوضح بوجان لنوسا أن هولدرلين كان شاعراً ألمانيّاً أحب اليونان وكتب ملحمة عن مواطن يوناني كان بطلاً عظيماً شارك في الثورة ضد الأتراك، تماماً كما فعل الصرب، لكن هولدرلين هذا عاش طويلاً جدّاً وفقد عقله في آخر عمره. قدم حجرية مكسورة ملقاة على جانبها على العشب، وجسد طفل أبيض بلا ذراعين مُسند على الجدار جعلا قصة جنون الشاعر الألماني قابلة للتصديق أكثر عند نوسا.

في الوقت الذي كان الاستقلال الوطني قد أصبح، أو كان في طريقه إلى أن يصبح، مسألة لها علاقة بالوعي، كان يمكن للمرء أن يجد في مجتمع متخلف مُستعمر، وضمن العائلة الواحدة، وحتى ضمن الجيل الواحد، فروقاً هائلة بين الأفراد على المستوى العلمي والمعرفي، لكن

بالرغم من ذلك لم تشكل تلك الفروقات عائقاً بالضرورة. الشخص الذي كان يتلقى تعليماً عالياً على يد السلطة الاستبدادية (ذلك أنها كانت المصدر الوحيد للتعليم) يدرك أن شعبه قد جُرد من تاريخه وثقافته بصورة ممنهجة، ويثمّن الآثار الباقية من تقاليد عائلته التي تمَّ طمسها. في الوقت نفسه قد يرى فيه باقي أفراد العائلة زعيماً يقف في وجه مضطهدهم الأجنبي الذي إلى الآن لم يستطيعوا فعل شيء له سوى كراهيته والخوف منه بصمت. المتعلمون والجاهلون كانوا يؤمنون بالمبادئ نفسها. تلك الفوارق بينهم أصبحت دليلاً على الظلم الذي تعرضوا له معاً، وبرهاناً على صواب مبادئهم. أصبح من غير الممكن فصل الأفكار عن التطلعات.

تعلمت نوسا القراءة من أخيها، الذي كان يكبرها بعامين، عندما كانت في الثانية عشرة من عمرها. كانت في ذلك الوقت تعيش في القرية حيث كان والدها يعمل مزارعاً.

منطقة الكارست مكونة من تلال كلسية مرتفعة ومعظم أراضيها بور لا زرع فيها. كانت عبارة عن مرتفعات جرداء شامخة نحو السماء دون غطاء ولا وقاء. صخورها مسامية وفيها العديد من الكهوف. تذكرت أخاها وهو يرسم خريطة لكل الكهوف التي يعرفها. أطلق على كل منها اسماً من أسماء أصدقائه: كاهيتان، إدوارد، رودي، توماس... الشقوق، والأخاديد، والصخور المنفردة لمنطقة الكارست تجلب إلى ذهنك صورة بقايا مدينة بنيت بدون هندسة أو بشر. على الساحل حيث تنحدر التلال الكلسية نحو البحر توجد مدينة تريستي الحديثة التي بُني معظمها في أربعينيات القرن الثامن عاشر تحقيقاً لحلم بارون براك، وزير المالية في فيينا، الذي كان يحتاج إلى ميناء

جنوبي ضخم لـ «إمبراطورية السبعين مليوناً» من الناطقين بالألمانية التي كان يطمح إلى تأسيسها. بين البروزات الصخرية والمنحدرات الشاهقة ثمة وديان وتجاويف مخفية تمَّ حرثها وزرعها بكثير من الكد والجِد لتصبح حقولاً ومزارع وكروماً.

كان والد نوسا يمتلك ثلاث بقرات ويورّد الفاكهة والزهور إلى أسواق تريستي. بمساعدة بعض أساتذة المدرسة المحليين حصل بوجان على مكان في مدرسة ريال جمنازيوم في المدينة. ماتت أمها عندما كانت في السادسة عشرة من عمرها. كان والدها حزيناً منكسراً ولم تستطع نوسا أن تحل محل والدتها... كانت مزاجية واتهمها والدها بأنها ثرثارة كثيرة الكلام قليلة الفعل. (كان أخوها قد شجعها على الكلام حتى لو لم يكن هناك شيء تتحدث عنه فعليّاً، لكن في هذا السياق، وعلى عكس قراءاتها، لم يشجعها أحد آخر في القرية). في العام الذي تلا ذلك، أيّ في ١٩١٣، مات والدها، ذهبت إلى تريستي لتعمل خادمة في منزل إحدى العائلات الإيطالية.

بعد العام ١٩٢٠، عندما كانت تريستي مستعمرة إيطالية وقام الفاشيون بحظر استخدام اللغة السلوفينية في الأماكن العامة، سئل أحد الأطباء الطليان: كيف يمكن للفلاحين أن يشرحوا لك الأعراض التي يعانون منها إذا لم يكونوا يتحدثون الإيطالية؟ أجاب الطبيب: ليس على البقرة أن تشرح أعراضها للطبيب البيطري ليتمكن من علاجها.

تحسنت إيطالية نوسا بشكل جيد لكنها تركت العائلة التي تعمل عندها ووجدت عملاً في أحد المخازن. ذهب بوجان إلى كلية التجارة في ليوبليانا حيث كان يجني قوت يومه من عمله كنادل في

النهار، ويمضي الليل في الدراسة. بعد أن حصل على شهادته ذهب إلى فيينا ليعمل في شركة تستورد المعادن غير الحديدية. منذ أن بدأ يذهب إلى كلية التجارة في ليوبليانا أصبح عضواً في جماعة سرية صغيرة من طلاب الجامعة وتلاميذ المدرسة على ارتباط بحركة شباب البوسنة.

قبل ذلك بشهرين، في مارس ١٩١٥، كان قد رجع ليعمل في فرع الشركة في تريستي.

صُدم بوجان لرؤية أخته جالسة على ما يشبه العرش بجانب رجل مجهول ومفرط الأناقة. لم يكن قد توقع رؤية أحد آخر هنا. اعتقد أنه سيرى أخته تسير وحيدة بين أشجار الفاكهة. علاوة على ذلك، بدا هذا الرجل قبيحاً معدوم الجاذبية. قد يكون نمساويّاً (كان بوجان يقف بعيداً جدّاً عنهما بحيث لم يكن قادراً على سماع اللغة الإيطالية التي يتحدث بها). كان واضحاً أنه شخص ثري. كان له وجه ماكر تبدو عليه ملامح اللامبالاة. بدا الاثنان وهما جالسان معاً على مقعد حجري يرتفع فوق دكة تخيم عليها شجرة تين وكأنهما شخصيتان في قصة مصورة من إحدى المجلات الرخيصة في فينيسيا. الفارق الطبقي بينهما، يضاف إليه كونهما رجلاً وامرأة، حال دون وجود أيّ احتمال لتفسير ما يحدث بينهما على أنه شيء بريء. خلوّ ملابسه من أيّ عيب أو لطخة ودرجة التأنق العالية التي كان عليها كانت دلالة على فساده الأخلاقي، تماماً كما كانت جيبة أخته وقميصها ووشاحها المشدود حول رأسها، على الرغم من أن ذلك لم يكن بإرادتها، دلالة إلى أنها فريسة سهلة. حاول بوجان أن يقنع نفسه بأنه قد يكون لدى نوسا مبرر مقنع لتتحدث إلى رجل كهذا، لكن الطريقة التي كان ينظر بها إليها لم تترك أيّ مجال للشك. حقيقة أن أخته كانت قادرة على

إثارة نظرات كتلك جعلته يستشيط غضباً. سأل نفسه كيف كانت تعيش خلال السنوات التي كان فيها بعيداً عنها. كانت ضخمة للغاية، فكر: كانت ملابسها تضيق بجسدها، كان في هذا نوع من الغرور وقلة الحياء. لماذا كانت ضخمة هكذا؟ لماذا استمرت في النمو حتى عمر تكون فيه معظم الفتيات قد اكتمل نموّهن وانتهى الأمر؟ لم يستطع أن يلغي احتمال أن يكون ذلك قد حدث بإرادتها. بموجب مقترح من حركة شباب بوسنة، كان بوجان قد أقسم على الامتناع عن العلاقات الجنسية، وكان يعلم كم هو مهم عامل تقوية الإرادة في هذا السياق. لم تعمل كما ينبغي على تقوية إرادتها ولم ترغب في الحفاظ على براءتها. براءتها كفتاة، عندما علّمها القراءة، كانت قد رسخت في ذهنه كمثل أعلى للروحانية. عالقاً بين غضبه وجيشان مشاعر العطف المتولدة في نفسه من ذكرياته عن روحانية شقيقته، والتي يمكن ألّا تكون قد تغيرت بالكامل، ركض باتجاه تلك التصاوير الرخيصة المقيتة الخالية من الروح. ركض بخفة على قدميه كرسول يعلم أن الطريق أمامه طويل. عند وصوله إلى الدرجات لم يصعدها، بل توقف فجأة... وقف هناك كجندي وخاطب الرجل بإيطالية رسمية: اعذرنا أيها السيد المحترم، لكننا أنا وأختي قد تأخرنا وعلينا الذهاب الآن. بعد ذلك قال بالسلوفينية: نوسا، تعالي إلى هنا في الحال لو سمحتِ.

نهضت ولحقت بشقيقها.

اختارت حركة شباب سلوفينيا اسمها هذا تيمناً بحركة الشباب الإيطالي التي أسسها مازيني[1] في العام ١٨٣١ للنضال من أجل

١- جوزيبي مازيني، فيلسوف وسياسي وماسوني إيطالي. لُقب بروح إيطاليا، وأسهمت جهوده وحراكه السياسي في قيام الدولة الإيطالية الحديثة.

جمهورية إيطاليا المستقلة. كان هدف حركة شباب البوسنة هو تحرير الجزء السلافي الجنوبي (المعروف في أيامنا هذه بيوغوسلوفيا) من سيطرة آل هابسبورغ[1]. كانت الجماعات أكثر قوة في البوسنة والهرسك، وبالأخص بعد أن تمَّ إلحاق هذين الإقليمين بالتحالف النمساوي–الهنغاري في العام ١٩٠٨، لكنها وُجدت أيضاً في دالماشيا وكرواتيا وسلوفينيا. كانوا إرهابيين، وكان الاغتيال السياسي سلاحهم الأساسي.

كان اغتيال طاغية أجنبي أو أحد ممثليه يخدم قضيتين: يعيد التأكيد على قانون العدالة الإلهية. ويثبت أنه حتى تلك الجرائم المرتكبة باسم النظام والقانون والتطور لا تبقى بلا عقاب إلى الأبد... جرائم الاضطهاد والإكراه والاستغلال والقمع وشهادة الزور والترهيب والإهمال، وقبل كل شيء، حرمان الناس من هويتهم وانتمائهم. هذا بالإضافة إلى جريمة إجبار الناس على الحكم على أنفسهم بحسب معايير مضطهدهم ليجدوا أنفسهم عاجزين معوزين وأدنى مرتبة. ينص قانون العدالة الإلهية على استعادة حق الآلاف من ضحايا تلك الجرائم التي حدثت في الماضي والاقتصاص ممن ارتكب تلك الجرائم بحقهم. فعل الاغتيال السياسي قد يحرّض الأحياء أيضاً ويجعلهم يدركون أن سلطة الاستبداد ليست مطلقة، وأن الموت عندما يخدم العدالة ولا يتعارض معها، ولو لمرة واحدة، يمكن أن يهز أركان السلطة ويضع قوتها موضع الشك. لو أن الكتلة الكبرى من الشعب

١- آل هابسبورغ ويشار إليهم أحياناً باسم آل النمسا، كانوا إحدى أهم العائلات المالكة في أوروبا وتشتهر كونها مصدر الأباطرة المنتخبين رسميّاً لحكم الإمبراطورية الرومانية المقدسة بين ١٤٣٨ – ١٧٤٠، وكذلك حكام الإمبراطوريات النمساوية والإسبانية والعديد من البلدان الأخرى.

اعتمدت مبدأ الاغتيال السياسي، لكانوا تمكنوا من الوقوف في وجه مضطهديهم وطردوهم خارج البلاد. لم يكن ذلك أمراً مستحيلاً، مثله مثل قتل طاغية على الملأ وفي وضح النهار.

كتب مازيني: «ما من واجب في العالم أقدس من واجب الثائر الذي عقد العزم على الثأر للإنسانية وفرض قانون العدالة الإلهية».

في الثاني من يونيو من العام ١٩١٤ تعرّض فرانسيس فرديناند، وريث عرش آل هابسبورغ، إلى إطلاق نار هو وزوجته بينما كان يقود سيارته الليموزين المكشوفة عبر شوارع سارايفو وسقطا ميتين. كان غافريلو برينسيب، الشاب البوسني ابن التسعة عشر ربيعاً، هو من قام بالعملية.

ستة آخرون من أعضاء شباب البوسنة كانوا مندسين بين الحشود يتحينون الفرصة لاغتيال الدوق. لأسباب مختلفة فشل خمسة منهم في ارتكاب العملية. لكن العضو السادس بينهم، نيديلجو كابرينوفيتش، رمى قنبلة انفجرت وراء السيارة الملكية وأصابت العديد ممن كانوا في الحشد بجروح، لكنها تركت الوريث المحتمل سليماً بدون أيّ إصابة. حاول كابرينوفيتش أن يقتل نفسه على الفور عبر تناول السم وإلقاء نفسه في النهر. جرعة السم التي تناولها لم تكن كافية لقتله. بعد أن تمَّ سحبه من النهر، سألوه من يكون، فأجاب، أنا بطل صربي.

في وقت مبكر من الصباح كان كابرينوفيتش قد ذهب إلى متجر للتصوير وأخذ صورة تذكارية مع أحد أصدقاء الدراسة، وطلب من المصور أن يصنع ست نُسخ منها، فأخبره المصور أنها ستكون جاهزة خلال ساعة. طلب من صديقه أن يرسل الصور في وقت لاحق من

اليوم نفسه إلى عناوين معينة أعطاها له. في المحاكمة - التي كان يحاكم فيها خمسة وعشرون متهماً - أربكت قصة الصور القاضي. شرح له كابرينوفيتش الأمر قائلاً: اعتقدت أن الأجيال القادمة يجب أن ترى صورة لي التقطت في يوم العملية نفسه.

تمَّ إرسال إحدى النُّسخ إلى رجل يدعى فوزين روزينتش في تريستي. كان كابرينوفينتش قد عمل في متجر للطباعة في تريستي حتى العام ١٩١٣. كان قد غادر تريستي وهو يقول: ستسمعون باسمي مرة أخرى. انتظروا لتروا ما الذي سيحدث عندما يأتي أشخاص بأشرطة حمر في أسفل سراويلهم وخوذات مزينة بريش فوق رؤوسهم إلى ساراييفو.

بعد عودته إلى تريستي بوقت قصير، أخرج بوجان هذه الصورة من محفظته وسأل نوسا إذا كانت تعرف صورة من هذه. هزّت رأسها بالنفي. بعد ذلك أخبرها باسم صاحب الصورة. وقال لها: والآن هو يُحتضر... يُحتضر وهو مربوط بسلاسل يعاني تحت نيرها البرد والرطوبة والجوع. ظروف الزنزانة التي يحتجزونه فيها سيئة لدرجة أنه حتى السجانون يمرضون إذا لبثوا فيها بعض الوقت. السلاسل التي يقيدونه بها تزن عشرة كيلوغرامات. في الليل يتشكل الجليد على أرض الزنزانة. غافريلو محتجز هناك أيضاً. لكن المسجونَين موضوعان في الحبس الانفرادي ليلاً ونهاراً. كان نيديلجو مستعدّاً للموت. كلنا مستعدون للموت. لماذا لم يعدموه؟ لأن فخامة سلطتنا الإمبراطورية والملكيّة تفضّل أن يموت مساجينها ببطء في عذاب لا يطاق.

رأت نوسا أمامها صورة لشابين يرتديان سترتين سوداوين وياقتين بيضاوين منشاتين. كانا يرتديان الملابس نفسها التي يرتديها أخوها.

كان نيديلجو يقف إلى يسار الصورة بشعر أسود فاحم وحاجبين وشارب لا يختلف لونهما عنه، وصديقه الواقف إلى جانبه يضع يده على كتفه.

قال بوجان، لم يكن يتوقع وهم يلتقطون له هذه الصورة أن يعيش أكثر من ثلاث ساعات بعدها. كان كل شيء قد أُعِدّ بشكل سيّئ، بما في ذلك السم.

كانت نوسا تصاب بالضيق أحياناً من حديث أخيها: كان يتحدث بسرعة كبيرة عن الكثير من الأمور.

كان التعبير على وجه كابرينوفيتش جادّاً لكنه هادئ مع ذلك. كان الإصرار بادياً على وجه صديقه... بالنسبة إلى كابرينوفيتش لم يعد هناك شيء ليقرره (أو هكذا كان يظن في أثناء التقاط الصورة... في تلك اللحظة التي أراد لها أن تجسد حياته بأكملها). كان قد اختار مصيره. وإذا ما حدث في الساعة التالية وشعر ببعض التردد، ستكون هذه الصورة حاضرة ومطبوعة بالأبيض والأسود لتمنعه من التراجع.

أحتقر التراب الذي تشكّل منه جسدي: يمكن لأيّ كان أن يضع حدّاً لهذا التراب؟ لكنني أتحدى أن يتمكن أحد من أن ينتزع مني ما أعطيته لنفسي: حياة حرّة في سماء الأجيال.

اعتقدت نوسا أن الصورة كانت تشبه تلك الصور التي توضع على شواهد القبور. لم تكن قد رأت أيّاً من هذه الشواهد في مقبرة القرية، لكن هناك العديد منها في مقبرة دي إس آنا في تريستي. الفرق الوحيد بين صورته وتلك التي توضع على شواهد القبور هو أن هذه الأخيرة

تُطمس معالمها بصورة أكبر كونها موجودة في الخارج ومعرضة لكل الظروف المناخية. وهي تنظر إلى الصورة عرفت أنها ستفعل كل ما يطلبه منها أخوها وأصدقاؤه مهما كان لأنهم كانوا أبطالاً، ولأن في جسدها الضخم يسري مختلطاً بدمها شيء ثابت لا يتغير، شيء كان كلاهما يحبه، ليس لأنه يسري في داخلها، بل يحبانه بصورته المجردة... شيء كان كل منهما مستعدّاً للموت من أجله.

عبر قيامهم بفعل لا يمكن لأحد نسيانه كان برينسيب وشركاؤه يهدفون إلى لفت الانتباه إلى حقيقة لا جدال فيها: البؤس الذي يعيشه الإقليم السلافي في ظل حكم آل هابسبورغ. لكن الفعل الذي ارتكبوه تمَّ تفسيره بما يخدم الأوهام والأكاذيب التي تروّج لها دبلوماسية الإمبراطوريات العظمى. أثبتت النمسا، بدون أيّ دليل، أن الحكومة الصربية كانت متورطة في المؤامرة. اتخذت روسيا وألمانيا وفرنسا وبريطانيا الموقف الذي يناسب موقع ومركز كل منها. الكلمات التي لقّنها وزراء تلك الدول والأوامر التي أصدروها كانت قائمة على فرضية وجود حرب ومصالح وطنية ليس لها أيّ أساس في الواقع. لم يتمكن أيّ منهم من التنبؤ بأبسط الحقائق المتعلقة بالحرب التي كانوا على وشك أن يعلنوها. قال مولتكه، القائد الألماني الأعلى، الذي ربما كان الأقل توهماً بينهم، ما من شيء يمكن التنبؤ به هنا.

– هل سمعتِ يوماً صوت وابل من القذائف المدفعية؟ سأل بوجان.
– كنت أعيش هنا.
– تشعرين بأن طبلة أذنكِ قد ثُقبت.
– ما الأمر يا بوجان؟
– عندما تسمعين صوت وابل من القذائف تفكرين بينك وبين

نفسك: هذه الأصوات كفيلة بإيقاظ الأرواح الملعونة في الجحيم. صوت المدافع هو صوت شعوب الأرض وهي تشخر في نومها. قلة فقط من الشعراء والثوار هم من يجافيهم النوم لسماع هذه الأصوات. ما يحدث للعالم الآن يا نوسا لم يحدث مثله من قبل.

– ماذا تنوي أن تفعل؟ سألت نوسا بقلق.

– سأرحل قريباً. حتى المعادن غير الحديدية لن تحميني من الجنود لوقت طويل. سأذهب إلى باريس.

– باريس!

– فلاديمير جازينوفيتش موجود هناك وأريد أن أراه. يجب أن نصحح أخطاءنا. يجب أن نكون جاهزين عندما تنتهي الحرب.

– سيلقون القبض عليك في باريس.

– جواز سفر إيطالي هو كل ما أنا بحاجة إليه. مئات من الإيطاليين يعبرون الحدود بشكل غير قانوني طوال الوقت ليهربوا من الخدمة الإلزامية في صفوف الجيش. سأذهب معهم. لكنني، بخلافهم، إذا حصلت على جواز إيطالي، يمكنني الذهاب أبعد.

يقع متحف لابيداريو قرب القلعة الموجودة على تلة سانت غوستو ويشرف على كامل خليج تريستي. يتفرع من أعلى التلة العديد من الطرق المنحدرة نحو الجنوب الشرقي. نوسا تسير بخطوات واسعة تاركةً أخمصي قدميها يسحقان الحصى لتستقرّا عليه قبل أن تعيد الكرة. تنورتها ترفرف وتتموج مثل علم. ذراعاها الضخمتان تتأرجحان قليلاً عبر جسدها وهي تسير. عندما أصل إلى كورسو، قالت لنفسها، سأسير مثلما يسير أبناء المدينة.

ترى بوجان شخصاً حكيماً: بإمكانه أن يرى كل ما لا تراه هي.

هو وأصدقاؤه ينادون اليوم بالخير الذي لن ينادي به باقي العالم إلا غداً، يدينون الشرور التي يغضّ الجميع البصر عنها اليوم والتي ستحل بالجميع غداً. تؤمن أيضاً بأن بوجان لا يمكنه أن يظلم. بل هو مستعد للموت في سبيل العدالة.

تمرّ بالقرب من حانة تفوح منها رائحة المخيض المقلي وتصدر عنها أصوات أشخاص يثرثرون ويضحكون. تقف لتنظر من خلال باب الحانة المفتوح. في آخر حجرة الطعام تجلس مجموعة من الإيطاليين حول طاولة كبيرة ترى فوقها العديد من الأطباق، وقوارير النبيذ الممتلئة إلى منتصفها، وفوط ملفوفة، وكسرات من الخبز الأبيض منثورة بتلك الفوضى الغريبة التي قد تحل على طاولة الطعام عندما تستمر وجبة الغداء إلى وقت متأخر من الظهر ولا يكون أحد من الجالسين حولها راغباً بالمغادرة. فكرت في نفسها: إذا دخلت وبدأت بالغناء، سيصمتون وبعد ذلك قد يقدمون لها بعض المال لأنهم أكلوا جيداً واليوم هو الأحد... لكن يجب أن تكون الأغنية التي ستغنيها إيطالية. تتحدى نفسها بأن تقوم بذلك. وقبل أن تقرر القيام، يدعوها أحد الإيطاليين للدخول بإشارة من يده، فتسير مبتعدة بسرعة.

تتساءل ما إذا كانت قدرة بوجان وأصدقاؤه على الاختيار وحبهم للعدالة آتية من وفرة الكتب التي قرؤوها، أم إن قدرتهم على الاختيار هي التي مكنتهم من العثور على الكتب المناسبة وقراءتها. يعجبها صبرهم. لطالما راقبتهم وهم جالسون وكتبهم أمام أعينهم لساعات وساعات. لم يكونوا يعيرون انتباهاً لأيّ شيء حولهم. عليك أن تتحرك قربهم وكأنهم أشجار نبتت من ألواح الأرضية. وفجأة ينفد صبر أحدهم. وكأن برقاً قد صعقه. يرمي الكتاب على الطاولة، يقفز

على قدميه ويصرخ قائلاً: يجب أن نفعل شيئاً الآن. لقد ضيعنا الكثير من الوقت. في بعض الأحيان يقف آخرون متحمسين بالقدر نفسه، يخاطبون بعضهم البعض بالعيون فقط. بعد ذلك، من دون أن يتفوه أيّ منهم بكلمة واحدة، يرتدون معاطفهم وقبعاتهم ويمضون خارجاً. في إحدى المرات نظرت إلى كتاب تُرك على الطاولة. كان مكتوباً باللغة الألمانية التي لم تكن تعرف عنها شيئاً.

يتحول الطريق ويصبح خطّاً واحداً مثل جسر يمكن للمرء أن ينظر من فوقه إلى أبنية مركز المدينة حول مركز الصرافة. معظم تلك الأبنية مطلية بلون بني داكن يشبه لون علبة السيجار الخشبية. هناك عمود مزركش خاص لكل نافذة ومدخل وعتبة وقوس. إمبراطورية السبعين مليوناً الناطقة بالألمانية كان المراد منها الحفاظ على تراث بلاد اليونان. سلطتها كانت مطبوعة على واجهات مينائها.

تشرع نوسا بالغناء في رأسها، تختار إحدى أغانيها المفضلة التي ما كانت لتغنيها على مسامع جماعة الإيطاليين في الحانة. تحكي الأغنية عن شاب يعبر سلسلة تلو الأخرى من الجبال ولكنه لا يكف عن تقديم الوعود لأمه بأنه سيعود إلى قريته. اللحن يغوي حنجرتها بصورة لا تستطيع مقاومتها فتفتح فمها وتصدح بالغناء. تتغير مشيتها. تسير على مهلها وكأنها حصان يسير خبباً. تبسط يداً وتقبض الأخرى. باليد المبسوطة تسرّح شعر الهواء وبالمقبوضة تعزف عليه ببطء. تتخيل، كما يحدث لها دائماً مع هذه الأغنية، جدولاً ينساب بين الصخور. وهي في المصنع أمام أكياس الخيش غارقة بوحولها الزيتية الزلقة تفكر في نقاء المياه بحوافه القضية التي تتموج تحت الضوء المنساب من الجبال كملايين الخطوط من الدبابيس الفضية التي تحيط بحواف

تنانير لا تحصى. تمرّ بقرب رجل وامرأة طاعنين في السن يهبطان التلة ببطء شديد. الزوجة تمسك بيد زوجها الذي يسير على مسافة تتيح له أن يستند إلى الجدار عند الحاجة. هناك علاقة بين طريقة مشيهما وكميات الطعام القليلة التي يتناولانها. وهي طفلة في قريتها ما كانت ترى أشخاصاً كبار السن هكذا. هناك كان كبار السن إما حبيسي المنزل أو مفرطي النشاط... إما ينتظرون زيارات من أقاربهم أو يكونون أقوياء بما يكفي للقيام بتلك الزيارات بأنفسهم. لدى سماع نوسا تغني، تقول المرأة العجوز بالسلوفينية: جميل يا صغيرتي! اليوم الأحد، أليس كذلك؟

تتذكر نوسا تأنيب بوجان لها. بدأ يوبخها بمجرد أن غادرا المتحف. قال لها إنها تفقد احترامها لنفسها. قال لها إنه من المهين أن تسمح لنفسها بأن تصبح ضحية. قال لها إن الرجال الإيطاليين يريدون أن يحولوها إلى عاهرة. أتعلمين ماذا يسموننا؟ أتعلمين ماذا يقولون عنا؟ سألها. يسموننا Schiavi، أليس كذلك؟ ويضحكون ملء أفواههم على النكات التي يطلقونها علينا. «Schiavai هي كلمة إيطالية تُطلق على العبيد». بجلوسكِ مع رجل كهذا، قال لها، أبديتِ أنكِ مستعدة لأن تصبحي عبدة. أتذكرين الصيف الذي عدت خلاله إلى المنزل، قال لها، عندما قرأنا أعمال بريسيرن، وقتها أخبرتِني أنك تريدين أن تعيشي كما يكتب؟ لا يمكن أن تكون روحكِ قد تغيرت، لكنكِ كنتِ تعيشين في قرية، والآن أنت تعيشين في مدينة - مدينة عديمة الروح، مدينة بذهن ألماني ومعدة إيطالية - هنا يجب أن تفكري ملياً بكل ما تفعلينه إذا أردتِ أن تعيشي كما كنا نطمح في السابق، وهي طريقة العيش الوحيدة التي يجدر بالرجال العصريين والنساء المكافئات لهم أن يعتمدوها. رؤيتكِ تضحكين مع رجل إيطالي تقرّب منكِ في حديقة عامة هو أبعد ما يكون عما كتبه بريسيرن.

بعد ذلك، عندما هدأ قليلاً، وكانا جالسَين على العشب قرب القلعة بعيداً بعض الشيء عن رفاقه، سأل نوسا ما إذا كانت قد فكرت في الزواج من قبل. هزّت رأسها بالنفي. بدا مسروراً بجوابها. كان بإمكانهما من مكان جلوسهما أن يريا التلال الثلاث والمنحدرات التي تتشكل منها تريستي. كان البحر يحيط بالتلال الثلاث ويجمعها معاً. نسائم خفيفة كانت تهب بين حين وآخر، وتجعل أوراق الشجرة تضطرب قليلاً فتتحرك ظلالها على الأرض وتغيّر مكانها مثل قطع نقدية تسقط أو تتدحرج، لكن النسيم لم يكن قوياً بما يكفي ليهز الأغصان. لم تلاحظ شيئاً من هذا لكنها كانت تشعر بنسيم خفيف على جانب واحد من وجهها لأنها كانت تشعر بالحرارة على الجانب الآخر حيث احمرّ وجهها خجلاً من غضب أخيها وكلماته الجارحة. - قريباً، قال بوجان، سيأتي الوقت الذي نصبح فيه أحراراً، حينها فقط يمكننا أن نتزوج ونلد ونربي أبناء وبنات بلدنا، بلدنا الحر. أن نلد أطفالاً الآن، قال بوجان، يعني أن نربي جنوداً وعبيداً لهؤلاء الذين يضطهدون العالم ويقمعون شعوبه.

درب الكورسو مهجور تقريباً. تشعر بذلك الجوّ من الهجران في كل الشوارع الكبيرة. منذ اندلاع الحرب تدهورت أعمال المدينة وتجارتها بصورة كارثية. مستوى البطالة مرتفع بصورة كبيرة. الميناء تتعامل مع جزء صغير فقط من حجم الشحن البحري الذي بنيت لأجله. تقف نوسا أمام فستان معروض في واجهة أحد المتاجر. لون شعرها، الذي لا يزال بالإمكان رؤيته تحت غطاء رأسها، عسلي داكن. تستطيع أن ترى لون شعرها وكأنه معروض على قماش أبيض موضوع أمامها. الفستان من نوع crepe de chine.

عندما يحين الوقت المناسب للفتاة لتتزوج وتنجب أطفالاً بحسب

بوجان، هل سيكون لديها، هي وصديقاتها، فساتين كتلك؟ تشعر بالخجل لمجرد تصوّر نفسها تطرح هذا السؤال على أخيها، ذلك أنها تعلم أنه سيعتبر ذلك سؤالاً طائشاً وعابثاً. تعبس. يمكنها أن ترى انعكاساً باهتاً لها على واجهة المتجر. لها كتفان قويان وردفان ضخمان. الجزء السفلي من وجهها ناعم وضخم مثله مثل صدرها. إلّا أن جبهتها عريضة وقاسية. تقف بثبات على قدميها. لا يمكنها أن ترى عينيها، لكنها لا تبدو لنفسها شخصاً عابثاً. يبدو توبيخ بوجان لها على تصرفها في الحديقة الآن ظالماً ولا داعي له. لم يكن لديه فكرة، تقول لنفسها وهي تنظر بثبات إلى انعكاس صورتها، ما الذي كنت أفكر فيه. تعبر فكرة جديدة رأسها في تلك اللحظة. ترى الآن، من خلال الواقعة نفسها التي جعلت بوجان يوبخها، كيف بإمكانها أن تثبت له أنها ليست طائشة وعلى قدر المسؤولية.

تشقّ طريقها عبر العديد من الطرق الفرعية مغادرة شارع الكورسو باتجاه المنطقة الصناعية حيث تقيم. تصلي أثناء مشيها أن يكون ما قاله ذلك الرجل الغريب الإيطالي عن كونه يذهب كل يوم إلى حديقة هولدرلين صحيحاً.. لا تتمنى شيئاً سوى أن يكون ما قاله صحيحاً.

***

عندما غادر جي حديقة المتحف مشى في عكس الاتجاه الذي مشت فيه نوسا، شقّ طريقه في اتجاه الشمال الغربي بينما مضت هي في اتجاه الجنوب الشرقي.

تلك كانت الإحداثيات الجغرافية الرئيسة للمدينة. اعتُبرت تريستي المحطة الأخيرة في أوروبـا الحديثة... في الجنوب

الشرقي يوجد البلقان والشرق الأدنى وآسيا، وكانت كل واحدة منها تؤدي بصورة غير ملحوظة، حسب الأوروبيين الغربيين، إلى الأخرى... من الجهل إلى الوحشية، ومن الهمجية إلى المجاعة. كانت تريستي المدينة الأخيرة، أو الأولى، وذلك حسب الجهة التي تسافر أو تحلق منها، حيث مزايا البروتوكول السياسي الأوروبي ومجده وإنتاجه تؤخذ بشكل مسلَّم به تقريباً. عند هذه النقطة كان النمساويون والطليان في تريستي على وفاق. أما الفوارق الأساسية فكانت ظاهرة داخل المدينة نفسها. الطرف الشمالي الغربي من المدينة وواجهتها المائية كانا شبيهين بميناء البندقية الحديثة. الطرف الشرقي كان مأهولاً بحشود من العبيد وجاليات صغيرة من المحمديين والأتراك والفُرس والعرب، والذين يُعتقد أن أطفالهم من الذكور كانوا يحملون سكاكين معهم. حتى الأشجار والأعشاب والأراضي على جانبي الطرقات بدت مختلفة – وكانت مختلفة بالفعل بسبب الغبار الذي تتسبب به الحالة السيئة للطرقات وعمليات الصيانة والإصلاحات غير المكتملة في الشرق، وأعداد الأحصنة التي ليس لها إسطبل يؤويها، والأسيجة المتكسرة، وتجمعات النفايات، والعائلات المهاجرة من غاليسيا وصربيا ومقدونيا الذين، خلال كل صيف حتى العام ١٩١٤، كانوا ينامون كالمشردين تحت الأشجار أثناء انتظارهم سفينة تحملهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية وشمال أمريكا.

كان جي قد عاش لعدة أشهر في تريستي، حيث كان يغادرها لفترة وجيزة ويعود إليها.

كانت ملامح التقدم في السن واضحة على وجهه. عملية النضوج،

ومن بعدها التقدم في السن، انطوت على انسحاب تدريجي، لكن بوتيرة متصاعدة، للذات من السطح الخارجي للجسد. كان من يراه يحسبه أقرب إلى الأربعين مما هو إلى الثلاثين. كانت عيناه داكنتين وتواقتين كما في السابق. (عينان من العقيق، هكذا وصفتهما امرأة من وارسو في إحدى رسائلها). لكن بدت خطوط وجهه وزوايا فمه وكأنها قد أنهكت من كثرة الاستخدام. إذا ما أيقظ شيء الاهتمام في عينيه كانت باقي ملامح وجهه تشارك في تسجيل هذا الاهتمام، وهو أمر يتطلب وجود مخزون من الطاقة. كان أكثر بدانة مما كان عليه منذ خمس سنوات، وأصبح من الواضح أكثر من قبل أنه ابن أبيه. لكن كان من الصعب تحديد ما إذا كان هذا الشبه المتزايد بأبيه قد حدث نتيجة نموّ طبيعي أم بصورة متعمدة، ذلك أنه كان يعيش في تريستي برداء تاجر إيطالي غني يعمل بالفواكه المسكّرة من ليفورنو، ويدرس إمكانية إنشاء مصنع لتعليب الفواكه التي يجلبها من كارنيولا. كان يتظاهر هناك بأنه ابن أبيه الشرعي.

في أغسطس من العام ١٩١٤ كان في لندن. في البداية استقبل أخبار اندلاع الحرب بسعادة. كان واضحاً في بريطانيا من اليوم الأول أن عشرات الآلاف يريدون أن يتطوعوا في الحال ويغادروا البلد متجهين إلى فرنسا ليشاركوا في القتال. كانوا مقتنعين بأن الحرب ستنتهي بحلول عيد الميلاد. كان همهم الأساسي ألّا تنتهي تلك الحرب بنصر لدول التحالف قبل أن تتسنى لهم الفرصة للمشاركة في القتال. وضع كهذا يزيد من احتمال أن يُترك الكثير من النساء من دون زوج أو خطيب أو أخ أو حبيب، واحتمال أن يصبح هناك الآلاف من الأرامل خلال بضعة أسابيع. وهو سيختار ما يطيب له من تلك النساء. كان الرجال يذهبون إلى الحرب كما فعل الكابتن باتريك بيرس، وهو سيعثر هنا على الكثير من «البياتريسات».

لوصف طبيعة ذكرياته عن بياتريس سنحتاج إلى كتاب كامل بمفردات وتعابير ابتكرت خصيصاً لأجله. (سيكون ذاك كتاب أحلامه، لا أحلامي ولا أحلامكم). لم يبذل أيّ جهد ليرى بياتريس مرة أخرى بعد أن غادر المزرعة. عندما وصل إلى إنجلترا في العام ١٩١٤ بعد غياب دام خمسة أعوام، لم يخطر له أبداً أن يسأل أين أو كيف تعيش. لكن بالرغم من ذلك لم تكن قوة على الأرض قادرة على محو ذكرياته معها. لم يكن يقارن أيّ امرأة بها، لم تكن ندّاً لأي من النساء اللواتي عرفهن بعدها، لكن لأنها الأولى كانت تعادل عنده كل تلك النساء مجتمعات معاً. وكلما ازداد عدد النساء اللواتي مررن في حياته، ارتفعت قيمتها، أو بمعنى أدق، ارتفعت قيمة مضاجعته لها.

سرعان ما تغير موقفه من الحرب. لم يكن أبداً قد فرّق في ذهنه من قبل بين النساء اللواتي سلّمن أنفسهن له وأولئك اللواتي رفضنه. كل النساء كن يتشابهن في استعدادهن المحتمل لقبول عروضه. في ذلك الوقت التقى بنساء في لندن كان سلوكهن مختلفاً عن أيّ امرأة كان قد عرفها من قبل لدرجة أنه بدأ يشك في ما إذا كنّ يشتركن مع غيرهن من النساء في شيء. تلك النساء لم يكنّ مملوكات لرجال آخرين، بل كنّ ينتمين إلى فكرة... كنّ مخلوقات من فكرة. كان قد التقى بنساء متعصبات من قبل، لكن تعصبهن كان يتعلق بمعتقد أو فكرة تقوم مقام القلب في جسد الحياة التي يعيشونها، كن يحيين بها، وهي كانت، بغضّ النظر عن مدى تعنتها وقطعيتها، تسري في دمائهن. كان من الممكن تقبل ذلك التعصب معهن. النساء في لندن كنّ مسكونات بشيء خارج عن إرادتهن وذواتهن. كنّ مسكونات بفكرة الكراهية. لم يكنّ يعلمن شيئاً عن عاطفة الكراهية. والذي كنّ يكرهنه كان مجهولاً تماماً بالنسبة إليهن.

كثيراً ما أسر يقين الأرملة الثكلى وقناعتها بأنه يمكنها أن تحب ذكرى زوجها وحسب انتباه جي. بخلاف الزوجة، تبدو الأرملة أكثر قابلية لازدراء الوقت المتبقي لها. قد تجد المرأة نفسها في عمر معين واقعة تحت ضغط الزمن: خلفها تكمن حياتها حتى الآن مع الرجل الذي تزوجته، وأمامها، يقترب كل يوم، وبصورة متسارعة، قالب ستؤسر فيه، هي وحياتها، ومن الآن حتى توافيها المنية، مع الرجل الذي تزوجته. أسيرة هكذا، تفكر في الخيانة على أمل أن تثبت أن تراكم حضور زوجها التدريجي كل ساعة ويوم وسنة وعقد من حياتها ليس أمراً لا مفر منه.

على النقيض من ذلك، تتقبل الأرملة ما حدث كما هو. تدرك أن غياب زوجها هو أمر نهائي لا رجعة فيه. تعود إلى الماضي. تتظاهر بأن الزمن يعود، يتكرر، يرجع. وإذا حدث وفكرت في المستقبل، تفكر فيه كشيء فارغ. رفضها التفكير في الزواج مرة أخرى، وإصرارها على التوقف عن كونها، بالمعنى الجنسي للكلمة، امرأة، ليس تعبيراً عن إخلاص سخيف ودائم بقدر ما هو قناعة بأنه ما من شيء مهم سيحدث مرة أخرى في حياتها. تؤمن بأن حياتها ستكون ممتلئة دائماً بحدث غياب زوجها... حدث يمكن له أن يتكرر إلى ما لانهاية طالما أنها تعيش مع ذكرياتها. تحاول أن تجعل حياتها أزلية. تعتبر مرور الوقت أمراً سخيفاً. ها هو زوجها قد دخل عالم الخلود. (وهذا تعبير دقيق حتى وإن كان خالياً من أيّ معتقد ديني).

إذا ما وضع رجل ذراعيه حولها، تكون مقتنعة أن ذلك لا يشكل حدثاً في حياتها. تؤمن بأن امتثالها لا أهمية له، مثله مثل وضع رأسها وهي طفلة في حضن والدها. تكون مقتنعة بأنه ضمن حدود الفراغ

الذي يكوّن حياتها، فراغ يمكنها أن تتقبله كبرهان على فداحة خسارتها، فإن مداعبة رجل لها وتقبّلها لذلك هو أمر لا قيمة له على الإطلاق. وهذا في الواقع دليل على حزنها.

وهكذا تثمّن الزوجة الوقت المتبقي لها فتسعى إلى ملئه بتجربة جديدة مهما كانت.

وهكذا تزدري الأرملة الوقت المتبقي لها كونها واثقة من أن لا تجربة حقيقية ستعبر حياتها مرة أخرى.

كلتاهما مخدوعتان.

في لندن، التقى جي بأرامل كانت قناعاتهن من مستوى مختلف.

السيدة كريستينا فينتون

فقدت زوجي في فرنسا منذ ستة أسابيع. كان يخدم تحت إمرة الجنرال هوبيرت غوف، وقد أرسل لي الجنرال رسالة يخبرني فيها عن الظروف التي أحاطت بموته. لقد قتل برشاش ألماني بينما كان يقود رجاله إلى...

أرجو أن تتقبلي تعازيّ الحارة...

- منذ اليوم الأول الذي أعلن فيه عن اندلاع الحرب كان توّاقاً إلى المشاركة فيها. في آخر رسالة تلقيتها منه كتب لي يقول إنه كره أن يرى الجنود الألمان «the Boch» قريبين إلى هذا الحد من باريس. ما من شيء كان قادراً على إيقافه. لم يتردد لثانية واحدة.

- دائماً ما يكون التردد خطراً.

- ينظر الرجال إلينا نحن النساء ليروا ما الذي يثير إعجابنا.

- وما الذي يعجبكِ أنتِ دون غيركَ من النساء؟
- لا فرق بيننا. يثير إعجابنا أولئك المستعدون للموت فداءً لملكهم وبلدهم. أنا معجبة بزوجي، ما من سبب يمنعني من قول ذلك. لقد مات كما أريد للرجل الذي أحبه أن يموت. لم أظن يوماً أنه سيُقتل، لم أظن أن هذا (التقطت طرف شالها الحريري الأسود وأفلتته من يدها مرة أخرى). سيحدث لي أبداً. لكنني لا أعتقد أبداً أننا سنعيش في زمن أكثر إلهاماً من الزمن الذي نعيشه الآن.

- أتحلمين بجان دارك؟

- نحن لسنا في موقع القيادة. واجبنا هو أن نكون قدوة لغيرنا. أنت لست بريطانياً صافياً، أليس كذلك؟

آمل ألا يكون هناك دماء ألمانية تسري في عروقك. لكنك لست كذلك، يمكنني أن أرى ذلك. إذا كان لي أن أخمن، سأقول إن فيك عرقاً فارسيّاً، أحد أجدادك الأوائل، ربما أحد أبويك له أصل فارسي.

- يمتلك الفرس أسرع فرق خيالة في العالم.

- أنا متأكدة من أن فيك عرق فارسي، وإن لم تكن في الجيش، فأنت بالتأكيد تخدم في أحد فيالق الطيران الملكية.

- كيف خمنتَ ذلك؟
- ويمكنك قيادة طائرة؟
- أجل يمكنني ذلك.
- عرفت. لك وجه طيار. هل سبق لك أن رأيت الجنود الألمان من الجو؟
- يبدون مثل الكناغر.
- ما الذي يجعلك تقول ذلك؟
- لأفاجئكِ.
- أنا أكرههم. بحلول الربيع القادم يجب أن نكون قد احتللنا برلين.
- إنه لون زيّهم الرسمي ما يجعلهم يبدون شبيهين بالكناغر.
- هل ستأتي للقاء جماعة البينيلوبي الوطنيات؟ لا، لا يمكنك أن ترفض، هذا واجبك المقدس، وعندما تُقتل وأنت في الجو، سنقيم قداساً تذكاريّاً لك. سأرسل سيارة لتحضرك غداً مساءً وسترى بنفسك أيّ مثال نضربه للآخرين والأخريات.
- وما هي هذه الجماعة؟
- ندعو أنفسنا بجماعة البينيلوبي الوطنيات لأننا أرامل ضحى أزواجهن بأنفسهم في سبيل القضية الأسمى، أو أخوات قام أخوتهن بالأمر نفسه. ما من أحد غير هؤلاء له الحق في الانضمام إلينا. (تطلعت إليه بعينيها الرماديتين وارتسم على وجهها تعبير لطيف وكأنها تتحدث عن حدائق غناء). سوف نبدأ قريباً بحلقة للأمهات اللواتي فقدن أبناءهن. كنا قد قررنا في البداية ألّا ندخل الأمهات في الحلقة التي تضمنا بسبب فرق العمر. تضم حلقتنا - حلقة الزوجات - كل النساء الشابات، أو المتوسطات في العمر. نحن لا نعتقد ولو للحظة واحدة أن فقدان الأم لولدها أهون من فقداننا لأزواجنا، لكننا نعتقد أنه فقدان من نوع آخر.

سندعو الأمهات إلى الانضمام إلينا في مناسبات عدة لكننا سنبقى في حلقتين مختلفتين. من المهم أن نكون أرامل في المناسبات العامة لأن ذلك سيكون مقنعاً بصورة أكبر. بدأ الأمر عندما التقت زوجتان أو ثلاث من أولئك اللواتي فقدن أزواجهن في فرنسا وبدأن يتحدثن إلى بعضهن البعض. حدث هذا قبل أن يرحل زوجي بوقت قصير. كانت إحداهن زوجة الكولونيل سي. أي. جونس، ربما تكون قد رأيت صورته وتقريراً عن بطولاته في صحيفة **The Sphere**. لقد تمَّ تقليده صليب فيكتوريا تكريماً لشجاعته الأسطورية. رأينا أنه سيكون تلقي الصدمة الأولى أخف وطأة، وسيكون لدينا شجاعة أكبر إذا لم نكن وحدنا واستطعنا أن نتحدث إلى بقية النساء اللواتي يعانون من المصاب نفسه. غالباً ما يزيد الأقارب وباقي أفراد العائلة الوضع سوءاً، وقد توصلنا إلى فهم ذلك لاحقاً، بإبداء تأثرهم وحزنهم المفرط على فقيدهم. عندما يدرك المرء أن أعزّ الأشخاص على قلبه قد قُتل هناك، يجب عليه أن يتذكر لماذا هو نفسه كان مستعداً لمواجهة الموت، لماذا خرج ليواجه عدوّه بضمير مرتاح وآمال عالية. كان يعلم أننا نضحي من أجل تحويل العالم إلى مكان أفضل. (هنا تحولت طريقتها في الكلام إلى أسلوب خطابي بعض الشيء). كان يعلم أنه من واجبنا أن ندافع عن بلجيكا الصغيرة ضد الألمان البربريين معدومي الإنسانية. إنهم يقطعون أثداء النساء وأيدي الأطفال الصغار في بلجيكا. كان يعلم أننا نقاتل في سبيل الحرية ودفاعاً عن الإمبراطورية ومن أجل عالم آمن للأطفال والنساء، عالم لا يخاف فيه المستضعفون من الأقوياء. إذا تذكر المرء ذلك، يصبح الدور الذي يجب أن يضطلع به واضحاً وضوح الشمس. يجب أن نفعل كل ما في وسعنا لنواصل المعركة التي بدأها، وألّا نتوقف عن القتال إلى أن تنتصر القضية التي ضحى بحياته لأجلها. وها نحن نحقق تقدماً عظيماً. أصبح عددنا الآن عشرين أرملة

ونخطط لإنشاء حلقات مشابهة في كل مدينة على وجه الأرض. نحن بالطبع لم نعد نتحدث بين بعضنا البعض فقط، نسمي ذلك المواساة المشتركة. لقد انتقلنا الآن إلى الحراك الوطني. لقد خرجنا من نطاقنا الضيق، ومن منا تمتلك قدرات خطابية ستتحدث على المنابر العامة. نحن نشجع على توظيف النساء وتشغيلهن، ونحث النساء على شغل المناصب وتولي الأعمال الهامة، ونتحدث إلى الممرضات، ونذهب إلى معسكرات تدريب الجيش، نذهب إلى المعسكرات القائمة في باريس، لكن بشكل فردي، لنعبّر للمتطوعين عن امتناننا. إنها تجربة عميقة وغنية جدّاً. تراهم من فوق بينما تقف أمامهم وهم جالسون صفاً وراء آخر رجالاً ناضجين مكتملين، لكنهم يستمعون بانتباه كالأطفال. سيذهبون في أيّ يوم إلى باريس، والكثير منهم لن يعود، وعندما يتحدث المرء إليهم يشعر بأن تلك الكلمات البسيطة التي تعبّر عن الامتنان وتمنح العزيمة والإصرار من أرملتين شابتين فقدتا أعزّ ما تملكان في الحرب، ستعود لتتردد في خلدهم عندما يجدون أنفسهم مجروحين أو منهكين في ساحة المعركة. غالباً ما نكون نحن الإنجليز متحفظين وخجولين عند التعبير عن مشاعرنا. لكن من يمكنه أن يدرك ما هي المشاعر التي تعتمل في نفوسهم؟ لكننا يجب أن نُشعر هؤلاء الفتيان بأن ما هم مقبلون على فعله أمر نبيل وسام بالكلام والفعل وبأيّ وسيلة ممكنة. يجب أن تسمع الطريقة التي يهتفون بها.

- أتعلمن جميعكن ما الذي كانت تحيكه بينيلوبي؟

- كان تحيك نسيجاً مطرزاً أو شيئاً من هذا القبيل، أليس كذلك؟
- ليس تماماً.
- لقد اخترنا اسمها لأنها كانت الزوجة التي تُركت وحدها

وبقيت مخلصة لشريكها. (تنظر إلى الأسفل نحو يديها المسترخيتين في حضنها). نرى أن جزءاً من عملنا هو أن نبقى على دراية بآخر التطورات والمستجدات على كافة الجبهات لتكون كل الحقائق والبراهين اللازمة في عملنا الحربي في متناول يدنا عند الحاجة، ولهذا السبب ندعو الخطباء لزيارتنا والتحدث إلينا. يجب أن تأتي. لا يمكن أن تفوّت ذلك. ستأتي، أليس كذلك؟

- دعينا نلتقِ مساءً قبل كل شيء.

في أيّ وقت تريد أن نلتقي؟ لم يسبق أن كان بيننا ضابط من سلاح الجو الملكي. لا نعلم شيئاً تقريباً عن الحرب التي تدور في السماء. يجب أن تأتي بزيّك الرسمي. (توقفت فجأة) ما الذي كانت تحيكه بينيلوبي؟

- أين ستكونين في الساعة الثالثة؟
- في المنزل.
- كانت تحيك كفناً.
- لم أفهم. هل أنتظر مجيئك؟

لم يعد يطيق البقاء في لندن، كما كان حاله دائماً في الفترة الأخيرة، فبغضّ النظر عن المدينة التي يلبث فيها كان صبره ينفد لمغادرتها. لكن الشيء الذي كان جديداً عليه هذه المرة هو أن نفاد صبره يشوبه الآن شعور طفيف، لكن دائم، بالقلق. لم تكن المسألة تتعلق برغبته في الوجود في مكان آخر، بقدر ما كانت رغبة في الرحيل عن لندن التي كانت تجعله يشعر بالضيق والقلق. كان ثمة عامل إضافي في معضلته هذه. أصبح عدد الأماكن التي بإمكانه أن يذهب إليها محدوداً بسبب الحرب.

أكان شعوره بالقلق ناتجاً في جزء منه عن هواجسه من التغيرات

التاريخية الجسيمة التي تحدث، وهي تغيرات ستترك أثراً بالغاً على الحياة والموت، على الصعيد الاجتماعي والشخصي، في أوروبا إلى درجة يصبح من المتعذر عليه معها أن يعرف نفسه؟ لا أعرف. لم يكن يظهر أيّ اهتمام بالسياسة أو التاريخ. قد يبدو من أشياء معينة كتبتها هنا أن المستقبل قد ملأه بهاجس، لكن ليس على الصعيد الشخصي:

«بمجرد أن يختفي أحدكم، يأتي آخر ليأخذ مكانه، وعدد الأماكن يزداد ويزداد. سيعاني العالم من نقص في الكثير من الأشياء قبل أن يعاني من نقص من أمثالكم. لماذا أخشاك؟ أنت من يتحدث عن المستقبلِ ويؤمن به. أنت من يستغل المستقبل ليعوض نفسه عن شباب لم يحظَ به. أما أنا فلا».

غادر جي لندن متجهاً إلى تريستي في أوائل ديسمبر. فكرة ذهابه إلى مقاطعة تمَّ إعلانها كمنطقة معادية حدثت كما يلي: من بين هؤلاء الذين عاصروه في المدرسة لم يكن على اتصال إلّا بشخص واحد، وهو أنتوني ويلموت سميث الذي كان يعمل في وزارة الخارجية. كانا قد التقيا في عدد من الفعاليات الخاصة بالطيران على مدى السنوات الخمس الماضية، إذ إن ويلموت سميث كان أيضاً من المتحمسين للطيران. وصادف أن جي كان قد شكا له إحساسه بأنه عالق في لندن. موقف لاوطني كهذا في مثل هذا الوقت له أن يصيب ويلموت سميث بصدمة، لكن الظروف حالت دون أن يكون الأمر كذلك، لأنه لطالما فكر في جي، منذ أيام المدرسة حيث كان يكنى بغاريبالدي، على أنه نصف أجنبي وأكثر.

بعد هذا الحديث ببضعة أيام اتصل هاتفيّاً بجي وسأله عن مدى تمكنه من اللغة الإيطالية: أتحدث الإيطالية كإيطالي، قال جي. اتفقا أن يلتقيا في مساء اليوم نفسه. شرح له ويلموت سميث أنه يعمل لصالح

المكتب الإيطالي في وزارة الخارجية، وأنه في منصب يتيح له أن يقدم عرضاً، لاعتبارات شخصية، لصديقه القديم، وأن بإمكانه أن يرتب أمر تأمين جواز إيطالي باسم عائلة والد جي. بهذا الجواز سيكون بإمكانه مغادرة البلاد في الحال والسفر إلى أيّ مكان يريد. وفي المقابل سيطلب من جي أن يزور تريستي ويلتقي هناك ببعض الأصدقاء الطليان الذين قد يكون لديهم بعض الرسائل له. أكد لجي أكثر من مرة أنه ليس في الأمر خطورة تذكر، وليس أكثر خطورة من لفة بسيطة في طائرة بليريوت. فوجئ ويلموت سميث وذُهل تماماً لقبول جي عرضه من دون أن يطلب منه أيّ إيضاحات إضافية.

بعد ذلك حاول ويلموت سميث أن يوضّح لجي أن المهمة الصغيرة التي وافق على القيام بها ستؤدي خدمة عظيمة لإيطاليا وبريطانيا العظمى. الإيطاليون في تريستي، -بدأ يشرح له-، متململون من خضوعهم لحكم الأستراليين الهنغاريين، ومع الوقت سيخضعون إلى المزيد من الممارسات القمعية... في هذه الأثناء تحاول حكومة جلالته أن تصل إلى اتفاق مع الحكومة الإيطالية تمنح من خلالها حقوق الدولة الإيطالية لكل المناطق الناطقة بالإيطالية على ساحل البحر الأدرياتيكي، ويتمّ الاعتراف بها كقوى حليفة في الحرب. أمِل ويلموت سميث أن تصب هذه التطورات في مصلحة المخططات البريطانية المرسومة لتريستي. (كانت بريطانيا تمنّي النفس بأن يبدأ القوميون بالتظاهر والتحريض على القيام بأعمال انتقامية وحشية بحق النمساويين. وعليه ستساهم هذه الأعمال الانتقامية بشكل كبير في تقوية الدعم الشعبي للحزب المؤيد للحرب في إيطاليا). قاطع جي حديث ويلموت سميث، وأخبره أنه لا يحتاج إلى شيء سوى معرفة بمن سيلتقي وأين. وأضاف: أنا لا أؤمن بالقضايا الكبرى.

عبر القطار بعد أن تجاوز الحدود النمساوية عدداً من الأنفاق العميقة إلى أن خرج في نقطة استطاع عندها أن يرى خليج تريستي بأكمله أمام عينيه. لم يستطع أن يفكر في نفسه على أنه موجود في مقاطعة معادية. كان القطار سيّئ التدفئة، والبحر خالياً من السفن. لكن ما إن نظر من النافذة إلى الشوارع والأبنية المرتبة في الأسفل بشكل منظم وأنيق في بعض الأماكن وبشكل عشوائي في مناطق أخرى حول شاطئ البحر شبه الدائري، حتى تملّكه شعور بالإثارة المكبوحة أو التوتر المسيطر عليه، وهذا كان بحدّ ذاته، أو بحكم الظروف المحيطة به، شعوراً لذيذاً. كان ذلك شبيهاً بما يشعر به عندما يكون على وشك دخول منزل يعلم أن الزوج أو الرجل ليس فيه. غياب رجل البيت، الذي كان قد تكهن به، يتماشى مع حضوره مثل ما تتماشى قبضة النصل مع نصلها. داخل المنزل كل الأثاث والمقتنيات المرئية، والستائر، والخزانات، والأشياء الموجودة على كل طاولة، والأبواب، والسجادات، والأسرّة، والكتب، والمصابيح، والصور جميعها تأخذ أماكنها تماماً (من دون الحاجة إلى تحريكها قيد أنملة) لتصطف مثل جمهور المتفرجين على جانبي الممر الذي سيسير عبره في اتجاه المرأة التي تنتظره.

في اليوم الذي التقى فيه بنوسا لأول مرة، مشى جي ببطء من حديقة المتحف باتجاه مركز البورصة في ساحة ديلا بورسا. توقف عند زاوية الشارع ونظر خلفه ليرى ما إذا كان هناك من يتبعه. فكر أنه من الصعب أن تلاحق أحدهم دون أن يدرك ذلك عندما يكون الشارع خالياً. وصل إلى نهاية الطريق الذي يسكن فيه مصرفي نمساوي يدعى ولفغانغ فون هارتمان مع زوجته الهنغارية. فون هارتمان كان من بين الأشخاص الذين ناقش معهم مشروع تعليب الفاكهة. أبطأ خطواته

قليلاً وبدأ يتمشى في الشارع القريب من المنزل. وراء نوافذ المنزل وطيات ستائره المطرزة السميكة، كانت قطع الأثاث مصطفة في مكانها مسبقاً على جانبي مسار وصوله الذي ما زال ينتظر حلول يومه وساعته. ليستحضر صورة ماريكا إلى ذهنه، زوجة فون هارتمان، لم يكن عليه سوى أن يتذكّر أنفها وفمها المدهشين.

في مقهى عند مدخل الساحة، كان هناك رجلان ينتظران جي بفارغ الصبر.

– دائماً ما يجعلنا ننتظر. قال رفائيل متذمراً، وهو الأصغر بين الاثنين.

– لنراقبه وهو يدخل الآن. قال الآخر، وهو رجل في أواخر الخمسينيات من عمره يُعرف بالدكتور دوناتو.

عندما دخل المقهى، كان الرجلان متواريين خلف باب الغرفة الخلفية نصف المغلق.

– ها قد وصل! همس دوناتو.

– يجب أن نطلب منه تفسيراً لتأخره. قال رفائيل.

– أنت قليل الصبر جدّاً يا صديقي الشاب المندفع. قال الدكتور دوناتو. كان للباب نافذة زجاجية وكان الرجل الأكبر سنّاً يمسك بطرف الستارة ليزيحها ويسترق النظر من ورائها. تابع بعد ذلك، تسنّت لي الفرصة أكثر من مرة في عملي لأدرك كم يمكنك أن تعرف عن أيّ شخص عبر مراقبته عن قرب من دون أن يعلم. ثمة لغة معنوية مؤلفة من إيماءات وإشارات. يرتشف المخبر قهوته بطريقة مختلفة

عن باقي البشر، مختلفة بصورة واضحة. هذا ليس ضرباً من الخرافة، هناك سبب منطقي لذلك. فمثلاً قد يخطر له أن قهوته مسمومة لأن عقله معتاد على الدسائس والمكائد. تصبح هذه الفكرة أكثر وضوحاً من خلال الطريقة التي يمسك بها كوب قهوته.

كان لها أنف لا يشبه أيّ أنف آخر. أنفها غير متناسق وغير منتظم إلى درجة بدا وكأنه لا شكل له. لو صنع منه قالب جصي، وحده دون باقي ملامح وجهها، لبدا وكأنه جزء من جذر نبات. بروزه وتضاعيفه، بالرغم من أنها كانت رقيقة جدّاً في حدّ ذاتها، كانت تشبه تلك الأجزاء الشاذة من النبات التي تنمو نحو الأسفل في اتجاه الأرض وتتمدد نحو الماء، أكثر مما تنمو إلى الأعلى في اتجاه الضوء. مركز وجهها بأكمله يوحي باتجاه تمَّ عكسه. الأطراف الخارجية لشفاهها كانت في الأصل جزءاً من داخل فمها. ثقبا أنفها كانا في الأصل حلقها. تراها عندما تجلس وكأنها تجري.

- انظر! لقد اختار طاولة قرب النافذة، وها هو الآن يحاول أن يسترق النظر إلى الشارع. ها هو يزيح الستارة جانباً، لكنه يتظاهر بأنه يفعل ذلك ليقي عينيه من أشعة الشمس. إنه ماكر. لا شك في ذلك، إنه ماكر كثعلب يتحين الفرصة للانقضاض على فريسته في الوقت المناسب. انظر! إنه يشير للنادلة أن تأتي إليه. حركة ماكرة صغيرة من رأسه، وما كان منها إلّا أن مضت إليه لأنها فضولية ولا يمكنها أن تقاوم الأسرار. أنت مثلاً ما كنت لتنادي على النادلة بإشارة كتلك. ترك الدكتور دوناتو الستارة من يده ووضع يده على ذراع جليسه الشاب. بدأ يشرح له، كل شيء تفعله أنت يتميز بفخامة وثقة معينين، ذلك أنك تريد لكل ما تفعله أن يُرى ويُدرك.

نظر رفائيل برية إلى رفيقه صاحب الوجه النحيل واللحية البيضاء المرسومة.

- لأنه ليس لديك ما تخفيه، أردف الدكتور دوناتو.

كان الدكتور دوناتو يعمل محامياً. الذكاء يسطع من عينيه. صوته مرتفع قليلاً لكنه ذو وقع مميز. يجد متعة كبيرة في تقديم الشروح والإيضاحات، ويفتخر بكونه ملحداً وجمهوريّاً. ما يشعره بالرضا أكثر من أيّ شيء آخر هو قدرته على تفسير عاطفة الآخرين. تفتنه المبالغة لأن تبريرها، سواء بمفردات إيجابية أم سلبية، يتيح له تبيان قدرة المنطق. كان قد أمضى عشرين عاماً وهو يعمل عضواً في اللجنة السرية للحزب الإيطالي التحرري في تريستي. يعزو الكثيرون الفضل له في حادثة العلم الشهيرة التي شهدتها الساحة الكبرى.

في العشرين من سبتمبر من العام ١٩٠٣، وتماماً عندما أعلنت ساعة الساحة الكبرى انتصاف اليوم، بسط علم إيطالي ثلاثي الألوان نفسه بنفسه وبدأ يرفرف على سارية برج مجلس المدينة. هرع رجال الشرطة إلى المبنى وصعدوا السلالم لينزلوا العلم. كان الباب المؤدي إلى البرج مقفلاً ومسدوداً بقضبان. توافد الإيطاليون من كل مكان ليشاهدوا العلم وهو يرفرف في كبد السماء. قال الكثير منهم في نفسه، عندما تصبح هذه المدينة إيطالية، سيرفرف علم كهذا في سمائها كل يوم. تمَّ اختيار يوم العشرين من سبتمبر لأنه كان الذكرى السنوية لليوم الذي سميت فيه روما عاصمةً لإيطاليا. كان العلم مرئيّاً حتى للسفن الراسية في الميناء.

عندما كان يُسأل عن دوره في هذه القضية، كان الدكتور دوناتو

يهزّ كتفيه ويقول، وكأنه يريد أن يؤكد الأمر بالرموز والألغاز: نحن الإيطاليون أكثر شعب يتذوق الموسيقى في أوروبا، أما موهبتنا المميزة التالية فهي الإبداع.

مرة أخرى رفع الدكتور دوناتو طرف الستارة، وقال: لقد رأى شيئاً ما.

- ماذا رأى؟

- أحداً ما.

- أيمكنك أن ترى من هو هذا الذي رآه؟ سأل رفائيل.

- لا، لكن شيئاً ما قد طمأنه. يبدو مرتاحاً وراضياً. من كان هذا، أو بالأحرى ما هي الإشارة التي تبادلاها في ما بينهما، لن نعرف ذلك الآن لأننا لسنا متأكدين بعد من دوافعه. هل هو مهتم فعلاً بمشروع تعليب الفاكهة كما يبدو عليه؟ من هو بالضبط؟ عندما نتمكن من معرفة ذلك...

قاطع رفائيل الرجل الأكبر منه سنّاً من دون أن يحاول إخفاء نفاد صبره، دعنا نواجهه بالحقائق، -قال-. مشى أمام الرجل الأكبر سنّاً عابراً المقهى في اتجاه الطاولة التي قرب النافذة. كان رفائيل رجلاً كبير الحجم له مظهر من أغرِق بالحب والثناء منذ طفولته (وهو مظهر قد يوحي أيضاً بنقيضه). وهو يمشي عابراً أرض المقهى، لفت رفائيل انتباه الجميع إليه. كان الزبائن جميعهم من الطليان، وكان رفائيل مشهوراً بحسّه الوطني المتأجج في مقالاته التي كان ينشرها في صحيفة «إيل بيكولو»، وبالطريقة التي كان يخدع فيها الرقابة

النمساوية بكل براعة. مشى عابراً أرض المقهى وكأنه لم يكن يقود رجلاً نحيلاً بلحية بيضاء وحسب، بل جيشاً كاملاً من أبناء بلده.

عندما جلس ثلاثتهم إلى الطاولة، قاربوا رؤوسهم من بعضها فوق منتصف الطاولة، وسأل رفائيل جي ما إذا كان يحمل معه أيّ أخبار من روما. تحدّث بصوت منخفض كي لا يسترق أحد السمع إليهم، إلّا أن فكه السفلي كان مندفعاً إلى الأمام ووجهه مقطباً.

- كلا، لم أذهب إلى هناك.
- والهدية الخاصة بالأم؟
- يجب أن تكون قد وصلت الآن.
- ائتمنت شخصاً آخر عليها!
- نعم.
- ومن يكون هذا؟

بهمسة تحمل جرساً تآمريّاً مبالغاً فيه قال جي: عندما تعمل لصالح الأم، كلما قل عدد الأسماء التي تعرفها كنت في وضع أفضل. يجب أن تكون تلك واحدة من أهم القواعد الواجب اتباعها عند العمل في حزب سرّي.

كنت قد أخبرتنا منذ أسبوعين أنك راحل! صرخ رفائيل دافعاً كرسيه إلى الخلف لافتاً انتباه الأشخاص الذي يجلسون إلى الطاولات المجاورة لطاولتهم.

- غيّرت رأيي.

- الرجال الذين يغيّرون آراءهم خونة!

لم يكن رفائيل يستطيع أن يتحكم في نفسه عندما ينفعل فيفقد السيطرة على أعصابه وصوته. أول شيء كان مستعدّاً للتخلي عنه هو السرية. كان يعتبر الأرقام أكثر أهمية. واجبه الأساسي، كما كان يراه، هو حشد ملايين الطليان من أبناء تريستي عبر جعل نفسه، هو الذي ما كان شيء ليخيفه، مثال يُحتذى بالنسبة إليهم.

- انتظر حتى تسمع من الأم، أجاب جي هامساً مرة أخرى، عندها ستعرف ما إذا كانت قد استلمت الهدية بأمان أم لا.

- أنت إما خائن أو جبان! وأنت في الحالتين عديم الحياء وبارد الدم. مستقبل قومنا على المحك في هذا الوقت، وليس لديك شيء تفعله سوى التردد إلى هذا! المكان لتبحث كيف يمكنك أن تضع الفاكهة في علبة من الصفيح - أخفض رفائيل صوته عند هذه النقطة ليشدد على حقيقة أنه، بخلاف جي، يعرف ما هي الكلمات التي يجب أن تقال همساً - متخذاً الأعداء شركاء لك! أم إنك تتحدّث عن شيء آخر معهم؟ عن الأم... مثلاً!

تدخّل الدكتور دوناتو. كارو، وجّه حديثه إلى رفائيل، دعنا لا نبدأ بتوجيه التهم إلى بعضنا. هو معنا لا ضدنا... وقد سبق له أن ساعدنا في مناسبات عدة. لقد خطط ليقوم بالرحلة بنفسه، وعندما وجد أنه غير قادر على ذلك أرسل ابن عمه لأداء المهمة، أيمكننا أن نقول عنه إنه ابن عمك؟ دعونا لا نقفز إلى استنتاجات متعجلة، قالها والتفت إلى جي واضعاً كفّ يده على الطاولة، بالنسبة إليَّ، أنا مقتنع أنه بإمكاننا، ويجب علينا، أن نعتمد عليك. أنت مثلنا حالم، ومثلنا أيضاً تريد أن تحول الحلم إلى حقيقة. السؤال الوحيد، والذي سيجيب عن نفسه

بنفسه في النهاية، هو إذا ما كنا نتشارك الحلم نفسه. تلاشى صوته وبدأ يصفر من بين أسنانه بهدوء وكأنه يتظاهر بالنوم. كان جفناه يغطيان عينيه من وراء نظارته الأنفية.

- أنت مخطئ. -قال جي-، أنا لست حالماً.

- كل الرجال يحلمون.

- البعض منهم يحلم بصورة أقل من الآخرين.

- الحلم بأن نجعل بلدنا عظيماً وقويّاً من جديد هو حلم يعيشه أربعون مليون بني آدم، قال رفائيل. رفع إصبعه عالياً في الهواء. كانت تلك إشارة سرية ترمز إلى وحدة إيطاليا.

خاطب جي الدكتور دوناتو بصمت: عشرون امرأة جالسات عند قدميك، يستمعن إلى قصصك بعد أن أصبحت تريستي إيطالية، تختار واحدة، وعندما تمسك بثدييها تصرخ بتحبب: بابا! بابا! هذا هو حلمك.

- هل لديك أيّ بنات من نسلك، يا دكتور دوناتو؟
- للأسف لا. لماذا تسأل؟
- خلطت بين اسمك واسم شخص آخر، هذا كل ما هنالك.

أمسك رفائيل حافة الطاولة بيديه وأحكم قبضتيه عليها. رأى أنه قد حان الوقت للتحدث بصراحة... يجب على الدكتور دوناتو أن يحذّر جي بأنهم إذا وجدوا أيّ سبب يدعوهم إلى الشك فيه، ستكون حياته في خطر. لم يكن رفائيل يثق باللطف والدهاء لأنه كان يربطهما بالدسائس والحيل التي شيطنت الحياة السياسة في إيطاليا على مدى

نصف قرن من الزمان. المكيدة بالنسبة إليه تعني الممر والمستقر، وبالنسبة إلى هؤلاء الذين يعارضهم كانت تعني المعركة والإمبراطورية الممتدة إلى ما وراء البحار حيث ستكتشف إيطاليا نفسها وتفرض من جديد الفضيلة الإيطالية على العالم كله. كان يؤيد النقاء الوطني الصارم الذي تحلى به غاريبالدي. كان يرى الدكتور دوناتو وكأنه التجسيد الأخير لشخصية كافور المفرطة الدهاء والتي لم تعد تصلح لهذا العصر. كان يحترم ذكاءه، لكنه كان يؤمن أنه في هذا الوقت، على عكس ما كان عليه الوضع في السابق، يجب أن يأتي تأثير كافور في المقام الثاني بعد غاريبالدي. في إحدى المرات بينما كانا سوية في الصالة الرياضية في تريستي، نزع رفائيل سيفاً كان معلقاً على الحائط وطعن به الهواء بين رأس وكتف الرجل الأكبر منه سناً. يحب دوناتو أيضاً فكرة أن لديه نقاطاً مشتركة مع الكونت كافور. ولهذا، ما إن أزّ السيف قاطعاً الهواء قرب رأسه، طمأن نفسه بتذكر كيف كان على كافور في مرضه أن يحتمل صبيانية غاريبالدي.

– أريد أن أحذّرك، –قال رفائيل–، أننا لسنا مقتنعين بتبريراتك. لقد تعهدت بأن تذهب إلى الأم بنفسك وفشلت في ذلك. ما الذي أبقاك هنا؟

– أمر يتعلق بالقلب.

– لماذا لم تخبرنا؟

– وهل تعرفون السيدة التي تعلّق بها قلبي؟ سأل جي.

أسند رفائيل ظهره إلى الكرسي ليستعرض سيل الاحتمالات التي

كانت تدور في ذهنه. هل لي أن أسألك من؟ طرح السؤال بطريقة عرضية وكأنه يعرفه منذ زمن.

- يمكنك أن تسألهن جميعاً! قال جي ضاحكاً.

استهجن رفائيل أن يكون الدكتور دوناتو قد ضحك أيضاً.

- هل يمكنك أن تفكر في مساعدتنا بطريقة أخرى؟ سأل الدكتور دوناتو. كإيطالي قادم من إيطاليا، أتيت إلى هنا من أجل مفاوضات تجارية مهمة، أنت على الأرجح في موقع يسمح لك بالتقرب من شخصيات نمساوية نافذة. ومن ضمنهم قد يكون شخص أو اثنان يحظيان بثقة الحاكم أو الأسقف. الأسبوع الماضي تمَّ اعتقال شاب، اسمه بالمعمودية ماركو، أثناء محاولته اجتياز الحدود. هل تعتقد أنه باستطاعتك الاستفادة من نفوذك لإقناع معارفك النمساويين بأن هذا الشاب يجب أن يُعامل بأكبر قدر ممكن من التساهل. وطبعاً سيكون من الرائع إن تمكنت من إقناعهم بإطلاق سراحه.

- الآن؟ تريد مني أن أفعل ذلك الآن والبلدان في حالة حرب مع بعضهما؟

- على مهلك، على مهلك، هذه حالة استثنائية. الشاب المتورط في هذه القصة مصاب بالسل، والمرض مستفحل في جسده، ووالده المقيم في البندقية يُحتضر، وهو مُعفى لأسباب صحية من الخدمة العسكرية... ليس لديه أيّ سوابق سياسية. كان يحاول أن يعبر الحدود ليرى والده قبل أن توافيه المنية عندما تمَّ اعتقاله.

- لا يبدو هذا ممكناً.

- لهذا قلت لك إن وضعه استثنائي. لديَّ كل الإثباتات والأدلة معي هنا... قام المحامي بجمع كل الأدلة بسرعة وسرّية. يمكننا إطلاق حملة للمطالبة بالرأفة به لأسباب إنسانية. المجتمع المتحضر في أيّ مكان، وتحديداً في النمسا، لا يحب شيئاً أكثر من قضية إنسانية محققة يتبجح بها. النساء على وجه الخصوص مغرمات بهذه القضايا. يمكن إطلاق حملة محدودة، لا شيء علني بالطبع، حملة تتمّ على الصعيد الاجتماعي الضيّق، وهذا يعني وضع الكلمات المناسبة في الآذان المناسبة في الوقت المناسب أثناء تناول الغداء.

- لا أصدق الحجج التي قدمتها لنا، -قاطع رفائيل-، ويجب أن يكون واضحاً بالنسبة إليك أننا في هذا الوقت غير قادرين على احتمال أيّ خطأ. عليك أن تثبت لنا أنك جدير بالثقة وبالسرعة القصوى، وإلا... رفع ببطء قبضة يده المشدودة ووضعها في راحة يده الأخرى. نحن لسنا عمياناً. أضاف:

- أين ستجد قضية إنسانية أفضل من هذه؟ سأل دوناتو وكأن رفائيل لم يقل شيئاً. لديك شاب يعاني من السل التهمة ثابتة عليه من وجهة نظر قانونية، لكنه اتهام فيه الكثير من القسوة إذا ما تناولناه بحس إنساني، فقد اعتقل لأنه كان يحاول، مدفوعاً بواجب الابن تجاه أبيه، أن يزور والده الذي يُحتضر على سرير موته. يكفي أن تستفز الدموع في عيني مفتش الشرطة ليحنّ قلبه. وعلاوة على ذلك، فكرة العفو قد تسرّ قلب فخامة الحاكم. قد يرحّب فخامته في وقت كهذا بفرصة ليظهر من خلالها عطفه وإنسانيته عبر منح عفو قد يكون فيه من

التمثيل والادعاء الشيء الكثير، لكنه على قدر كبير من الأهمية لمراعاة المشاعر الإيطالية. اعتُقل العديد من الطليان في الليلة نفسها. بعضهم كان ذاهباً إلى الأم. يمكن للمحاكم أن تضربهم كأمثلة. لكن العفو عن ماركو قد يكون حيلة ذكية من وجهة النظر النمساوية.

- حيلة! قال رفائيل.

- لماذا أنت مهتم جدّاً بإنقاذه؟ سأل جي.

وضع دوناتو يديه على صدره في إيماءة تعني «ها أنا أضع سرّي بين يديك الآن» وقال: أنا محام. أفعل كل ما في وسعي من أجل عملائي. أما أنت فلست ملزماً بفعل شيء، لكن إذا ما حصل ماركو على حكم مخفف أو تمَّ العفو عنه، سنكون ممتنين لك طوال حياتنا. هذا كل ما في الأمر. سأعطيك الملف المختصر الذي أعددته لهذه القضية.

غادر الثلاثة المقهى معاً. أمسك الدكتور دوناتو بذراع جي. صديقنا رفائيل، قال، شرب الكثير من التوكاي ليلة أمس. يمكنك الاعتماد عليّ. سأكون ممتناً لك إلى يوم مماتي إذا ما ساعدتني في قضية ماركو. أخفض صوته. لك أن ترفض ذلك، لكنك حالم أيضاً.

افترقوا عند أول منعطف.

- لماذا ضحكت على دعابته؟ سأله رفائيل. ولماذا ائتمنته على قضية ماركو؟

- كارو، يجب أن تثق بي أكثر من ذلك. ليس لديه أدنى فكرة من يكون ماركو. صحيح أنه من غير المحتمل أن يتمكن من فعل شيء

له، لكن علينا أن نحاول في كل الاتجاهات. إذا كان يعمل لصالح النمساويين وكانوا لا يعرفون من هو ماركو، وهذا وارد جدّاً، قد يطلقون سراحه، وهكذا يكون صديقنا من ليفورنو قد قدم لنا هدية قد يظنون أنها ستزيد من ثقتنا به، وعليه سيصبح أكثر فائدة لهم. نحن لسنا أغراراً ولدوا البارحة، أليس كذلك؟ إذا نجح في إطلاق سراح ماركو، سأعتبر هذا دليلاً على أنه يعمل لصالحهم. وبهذا نكون قد حققنا هدفين: إطلاق سراح ماركو، وهو أمر ملحّ أكثر من أيّ شيء آخر، ومعرفة أننا يجب أن نأمن جانب صاحبنا القادم من ليفورنو. من الناحية الأخرى، إذا عرف النمساويون من هو ماركو، وفي هذه الحال لا يعود هناك أمل يُذكر له، عندها تكون محاولته الترتيب لإطلاق سراح ماركو دليل إثبات للنمساويين على أنه يعمل لصالحنا في الحقيقة، وإذا ما ارتابوا في أمره، فلا أظن أننا سنراه كثيراً بعد ذلك في تريستي. ثمة احتمال، احتمال ضئيل، أن يقدم لنا، من دون قصد، خدمة أخيرة. ما الذي لدينا لنخسره؟ وضع يده عالياً أمام عينيه اتقاءً لأشعة الشمس.

استلقى جي على سريره. كانت النوافذ كلها مغطاة بستائر مخرّمة. أوراق النباتات المطرزة على الستائر كانت أكثر بياضاً وأقل وضوحاً بشكل طفيف من القماش المطرزة عليه. كان المنزل القائم في الطرف المقابل من الشارع مرئيّاً من خلال ستائر المنزل، تصاميمه المنحنية التقليدية والجص الذي يغطيه يوحي بالسكينة تحت أشعة شمس الظهيرة. كانت حجارة الرصيف لونها بني داكن كذاك الذي تراه على علبة السيجار. امرأة بدا عليها أنها قد غسلت شعرها للتوّ ولفّت منشفة زرقاء حول رأسها بدت كعمامة ظهرت من خلف نافذة أحد المنازل المقابلة له وهي ترتدي رداءً فضفاضاً. كانت تراقب الناس

الذين يتنزهون في الشارع تحت نافذتها... كانت تلك ساعة التنزه caminada، حيث كان الشبان الذين ينتمون إلى عائلات تعتبر نفسها محترمة يتنزهون في جماعات على الدرب الذي سار عليه أسلافهم من قبلهم، وذلك لملاحقة ومشاهدة جماعات الفتيات اللواتي يتنزهن وينتمين إلى الطبقة نفسها.

في نهاية الشارع توجد قناة مائية عريضة تفضي إلى البحر من جهة رصيف الميناء حيث كانت السفن ترسو قرب الساحة الكبرى. قبل أن تندلع الحرب كان بالكاد يمرّ يوم دون أن ترسو سفينة لا يقل حجمها عن حجم مجلس المدينة قرب رصيف الميناء. كانت القناة مشروعاً لم يكتب له أن يكتمل أبداً. كان مدخلها رحباً وجميلاً. لكن العمل توقف بعد مئتي متر من رصيف الميناء. بدأ المشروع كقناة وانتهى كحوض للسفن. المرأة ذات الشعر المغسول تثاءبت لنصف دقيقة كاملة. فكر جي في نفسه: لا بدّ أنها زوجة أحد أصحاب المتاجر في الأسفل. كانت غير مدركة تماماً بأن هناك من يراقبها. بدت له الغرفة الماثلة خلف الستائر المخرمة مظلمة كليل لا نجوم فيه. بدت وكأنها تريد أن تعود إلى غرفتها، ترددت قليلاً، اتكأت من جديد على عتبة النافذة وتثاءبت مرة أخرى. أطلقت إحدى السفن بوقها الذي بدا صوته كنواح فقمة لا ينتهي. أوراق النبات المطرزة على الستائر المخرمة كانت من أوراق نبات الأفنثوس.

تقول الشائعات إن ماريكا، زوجة ولفغانغ فون هارتمان، كان لها عشيق إيطالي منذ وقت طويل، وكان قد أجبر على مغادرة المدينة. كان قائد فرقة موسيقية، وقد أثار فضيحة كبرى عبر تنظيم حفل موسيقي بداية كل مقطع من كل عنوان معزوفة فيه، كما طبعت في

برنامج الحفل، يلفظ كشعار معادٍ للنمساويين. معظم الحضور في الحفل كانوا إيطاليين وفهموا الرسالة بسرعة، وهتفوا بصخب لقائد الفرقة، وفي النهاية بدؤوا يصيحون قائلين: فيردي! فيردي! والتي كانت شيفرة سرية تعني: فيتوريو إيمانويل ملك إيطاليا. كنتيجة لذلك فقد قائد الفرقة عمله في معهد الموسيقى «الكونسيرفاتوار» وغادر المدينة.

مستلقياً على سريره ابتسم جي وهو يتخيل كيف سيطرح قضية ماركو على فون هارتمان في حضور زوجته.

-٨-

كل يوم كانت تسري شائعات جديدة عن إعلان إيطاليا الوشيك للحرب ضد النمسا. لم يعد في إمكان إيطاليا أن تحافظ على حيادها لمدة أطول، وذلك لم يكن نتيجة لأيّ أحداث عالمية طارئة، ولا نتيجة لأيّ إعلان رسمي من الحكومة الإيطالية، بل نتيجة للحملة العامة التي أطلقت في كل المدن الإيطالية الكبرى والتي تدعو إلى الحرب. بدا وكأن الحرب ستحدث بإرادة الشعب.

استعد أعضاء الحزب التحرري في تريستي لساعة المجد. العديد من الشبان الطليان الذين غالباً ما كانوا يتحدثون عن عبور الحدود بصورة غير شرعية للانضمام إلى الجيش الإيطالي لكنهم يتمهلون في حزم أمتعتهم والانطلاق في اتجاه غوريزيا، أدركوا أنهم إذا لم يذهبوا الآن فلن يذهبوا أبداً. في وقت مبكر من مساء ذلك اليوم قاموا بنزهتهم الأخيرة، وبات بإمكان الأقل جاذبية بينهم أن يتقرّب من الفتاة التي لم تكن لتتكرم عليه بنظرة واحدة من عينيها، وباتت الدموع تحتشد في عينيها وهو يقول لها بوقار وكأنه يعرفها منذ زمن: إذا لم تريني غداً على رصيف الميناء، اذكريني دائماً. الجذابون منهم، الذين أعلنوا عن رحيلهم بالأسلوب المسرحي نفسه، كانوا يسيرون وكأنهم حاملو لواء يرفرف فوقهم العلم الثلاثي الألوان، بينما لاحقتهم الفتيات بعيونهن وكل منهن تعصر يد الأخرى بيدها وكأنها تمنعها من البكاء

أو الانهيار. التحرريون الأكبر سنّاً تجولوا في أرجاء المدينة الشاحبة بخفة وسعادة لأنهم كانوا يرون حلمهم برؤية تريستي مضيئة ومتألقة يتحقق، والنضال الذي أفنوا فيه عمرهم يؤتي أكله قبل أن تنقضي السنة.

باقي الطليان من العمال والموظفين وأصحاب الدكاكين استمعوا إلى الشائعات ومحّصوا في الصحف بشك وريبة. كان لديهم الكثير مما يخشونه: ردّ فعل النمساويين في حال نشوب الحرب، المعارك التي ستشهدها المدينة، الانهيار الاقتصادي الحتمي الذي سيعصف بتريستي عندما تصبح في عهدة الطليان. (لم يتخيل أحد منهم ولو للحظة أن النمساويين سيهزمون الجيش الإيطالي) لكن مع ذلك كانت اللغة التي يعبّر بها هؤلاء الطليان عن مخاوفهم تجعل تلك المخاوف تبدو معيبة. شعروا بأن لغتهم الأم تعاقبهم عندما يستخدمون مفرداتها للحديث عن مخاوفهم.

في ذلك الخميس الذي لا يُنسى، قرؤوا في الصحف عن الحدث الذي كان ينتظره الجميع... كشف النقاب عن التمثال الذي يخلّد ذكرى رحيل غاريبالدي عن جنوا بصحبة جنوده الألف. وسرت شائعات تفيد بأن الملك سيحضر هذه الاحتفالية. لكنه أرسل في اللحظة الأخيرة برقية يعتذر فيها عن عدم قدرته على الحضور ويبارك الاحتفال.

المتحدث الرسمي في جنوا كان غابرييل دانونزيو الذي نصّب نفسه شاعر الإحساس الوطني الإيطالي. بدا شبيهاً بثعلب عجوز جائع، لكنه بدا كثعلب يمتطي حصاناً غير مرئي، ثعلب ساحر لدرجة أنه يستطيع أن يمتطي الكلاب ويقودها إلى الصيد. كان يعتقد أن الطيار هو نموذج البطل العصري (كان قد فكر في كتابة قصيدة لتشافيز) صفق له الحشد بحماس لا حدود له. بدا وجهه الضامر برهاناً على عمق ما كان يقوله:

«مبارك هو من يملك الكثير، لأنه سيكون قادراً على أن يعطي الكثير. مبارك هو من يزدري كل حالات الحب العقيم، لأنه سيخرج منها بتولاً وكأنها حبه الأول والأخير. مبارك هو من عبّر عن رأيه المناهض لهذا الاحتفال بالأمس (يعني الحرب المزعومة، قد يكون المصدر قد خضع للإشراف قبل التداول) لأنه سيقبل بصمت قانون الضرورة وسيتمنى ألّا يكون الأخير بل الأول. مباركون هم الشباب، الفرحون المتعطشون إلى المجد، لأن عطشهم سيُروى. مبارك هو الرحيم العطوف، لأنه سيمسح دماءً نقية ويداوي آلاماً متأججة. مبارك هو من سيعود منتصراً لأنه سيرى الوجه الجديد لروما...».

بدا وكأن إيطاليا كانت مدفوعة إلى الحرب بإرادة الإيطاليين أنفسهم. لكن الحقيقة كانت مختلفة بعض الشيء. في السادس والعشرين من أبريل قام الملك ورئيس الوزراء بالتوقيع على معاهدة سرية تلزم إيطاليا بدخول الحرب في صف دول التحالف خلال شهر واحد. تمَّ حلّ البرلمان في تلك الفترة بصورة سلمية وسلسة، لكن ستكون هناك حاجة إلى إعادة تكوينه من جديد ليصبح من الممكن إعلان الحرب بشكل فعلي، وكان من المعروف أن الأغلبية العظمى ستكون معارضة للتدخل، وهكذا كان حال معظم طبقة الفلاحين، والجناح اليساري من الحزب الاشتراكي، والكثير من نقابات العمال، هذا بالإضافة إلى الفاتيكان. خلال شهر واحد كان يجب استنهاض الأمة كلها، واستثارة المدن على وجه التحديد، بطريقة سيكون مصير أيّ معارضة معها، سواء أكانت برلمانية أم غيرها، هو الانهيار. تلك كانت المهمة المسندة إلى الملك واثنين من وزرائه الرئيسين، والذين كانوا الثلاثة الوحيدين المؤتمنين على المعاهدة السرية، والمؤيدين للتدخل السياسي والمحرضين عليه مثلهم مثل دانونزيو.

في الوقت نفسه، وبينما كان الإنجليز والفرنسيون والروس يبحثون في بنود المعاهدة السرية مع إيطاليا، كانت ألمانيا والنمسا تغري تلك الأخيرة بعروض مضادة لتقنعها بالحفاظ على حيادها. كانت الاختلافات الرئيسة بين العروض المقدمة إلى الملك ووزرائه من كلا الطرفين تتعلق بمستقبل تريستي. تقدمت قوى المحور بمقترح تصبح تريستي بموجبه مدينة حرة، أما قوى التحالف فاقترحت أن تصبح المدينة إيطالية.

سرت شائعة قبيل نهاية الأسبوع تفيد بأن الأمير بولو، مفاوض القيصر، قد غادر روما من دون سابق إنذار متجهاً إلى ألمانيا ومصطحباً معه كل موظفيه. بدأ الإيطاليون الذين يمتلكون جوازات سفر بمغادرة تريستي في وقت سابق لما كانوا قد خططوا له. النمساويون الذين كانوا في إيطاليا عادوا بسرعة. في هذا الجو المشحون، كان جي يسعى خلف مصالحه الشخصية. لم يفكر أبداً في مغادرة المدينة. ولفغانغ فون هارتمان وزوجته كانا مسافرين إلى فيينا ولن يعودا قبل عطلة نهاية الأسبوع. ويوماً بعد يوم كان مقترح إثارة تعاطف النمساويين مع قضية الشاب المعتقل عند الحدود يصبح منافياً للمنطق بصورة سافرة. لم يكن لدى جي نية لإثارة المسألة والتحدث بخصوصها مع أحد قبل عودة فون هارتمان وزوجته، عندها فقط، ولأسباب تتعلق به وحده، سيكون مستعداً لطرح هذه القضية المستحيلة والعبثية.

***

بدا أن يوم الأحد الموافق التاسع من مايو سيكون يوماً مشمساً في كافة أنحاء أوروبا. كان من عادة ولفغانغ فون هارتمان النهوض

باكراً في الصباح، وكونه لا يؤمن بالاستثناءات، كان ينهض باكراً أيام الأحد أيضاً. عند السابعة صباحاً كان مرتدياً ملابسه.

أربعة آلاف رجل كانوا قد قضوا على طول خط يبلغ طوله ميلين ونصف الميل من الجبهة الغربية. عند الخامسة صباحاً بدأت المدفعية الإنجليزية بقصف الأرتال العسكرية الألمانية. في الخامسة والعشرين دقيقة هبّت رياح عاصفة على كامل الحدّ الجنوبي من أرض المعركة مبددة لوقت وجيز سحب الدخان والغبار. في ذلك الصفاء المرعب كان من الممكن رؤية أن المتاريس الألمانية ما زالت سليمة تقريباً. بعد ذلك بعشر دقائق تسلقت أول موجة من فرق المشاة الثلاث المتراس وبدأت تتقدم صفّاً واحداً نحو الأرض المحايدة. وصفت سجلات القوى الألمانية على الطرف المقابل هذا الهجوم كالتالي: لم يحدث في أيّ حرب من قبل أن وجد هدف مثالي أكثر من هذا الجدار الصلب المكون من رجال يرتدون اللون الكاكي، والمؤلف من هنود وإنجليز يقفون صفّاً واحداً جنباً إلى جنب. كان هناك أمر واحد يمكن إعطاؤه... أطلقوا النار حتى تنفجر سبطانات بنادقكم. بدأت المدافع الرشاشة الألمانية بإطلاق النار. حاول بعض الجنود المهاجمين الرجوع إلى خنادقهم، لكنهم عجزوا عن ذلك لأن الموجة الثانية والثالثة من المهاجمين كانتا قد بدأتا بالصعود خلفهم في ذلك الوقت.

كانت زوجة ولفغانغ فون هارتمان تنام معه في الغرفة نفسها. كانت قد حاولت في مناسبات عدة ودون جدوى أن تقنعه، نظراً إلى الإرهاق الذي يسببه له عمله ومهامه الرسمية والعامة، أنه سيكون من الأفضل لهما أن يناما في غرفتين منفصلتين. يمكنك أن تأتي إلى غرفتي في أيّ وقت تشاء، كانت تضيف بابتسامة يكشف حماسها

المفرط خلوّها من السعادة أو الصدق. لا، كان يجيب، لو كان هذا ما فكرت فيه لما تزوجتك ولكنتِ الآن عشيقتي فقط.

حفنة من الرجال الذين لم يعودوا يعرفون من هم تابعوا التقدم، ولو أن أمهاتهم كانت قد أتت حينها ونادتهم بأسمائهم لما أجاب عليهن أحد منهم. قبل الوصول إلى خط الجبهة الألمانية بقليل شاهدوا خندقاً أملوا أن يمنحهم غطاءً يحتمون فيه. عندما وصلوا إليه، اكتشفوا أنه مليء بالأسلاك الشائكة. مدفوعين بيأسهم ألقى البعض منهم بنفسه إلى الأسلاك. أما من بقي منهم فقد أصيبوا وسقطوا واحداً تلو الآخر. تمَّ إصدار الأمر بالقيام بهجوم آخر كان من المقرر أن يُمهّد له بقصف صاروخي قبل خمس وأربعين دقيقة من بدايته عند السابعة صباحاً. هذه المرة تمَّ إصدار التعليمات للرماة بأن يركزوا نيرانهم على الأسلاك القائمة أمام المتاريس الألمانية. الجنود الإنجليز والهنود الذين دخلوا المنطقة المحايدة وكانوا لا يزالون على قيد الحياة يزحفون بحثاً عن مخبأ في الحفر والفجوات الصغيرة التي حفروها بصورة مسعورة بحربات بنادقهم، كانوا قد قضوا الآن بالقذائف التي أطلقها سلاح المدفعية الذي كان من المفترض أن يحميهم ويمهّد لهم الطريق.

توقف فون هارتمان ليراقب ماريكا وهي نائمة. لم تعد تنام من دون أن تربط شعرها. شعر بالفخر لرؤية الراحة والمتعة مرتسمتين على وجه زوجته. بدت جشعة. لكن جشعها لم يكن مقرفاً، بل كان جشعاً هزيلاً. وهذا ما زرع السرور في نفسه، لأن ذلك قد أظهر له، بعد أن أمضت معه ثمانية أعوام، حجم ما بإمكانه أن يقدمه لها. (كانت ابنة مالك أراضٍ مجري فقير وقد تزوجت ولفغانغ عندما كانت في السابعة والعشرين) لو أنها امرأة ترضى بسهولة لكانت الآن

قد أخذت ثروته ونفوذه وسلطته على أنها أمور مسلَّم بها. هكذا كان الحال مع زوجته الأولى. كانت قد وثقت به بصورة عمياء كوثوقها بأن الشمس ستشرق كل صباح. لم تكن ماريكا قادرة على تحمّل هذا القدر من القناعة والرضا، إذ كانت ستفسح المجال حينها إلى أن يتمّ اعتبار طلبها التالي مبالغ فيه فيُرفض. منحنياً فوقها، ضغط ولفغانغ أسنانها التي انفرج عنها فمها أثناء نومها بإبهامه، فبدا فمها ويده وكأنهما يعودان لطفل يعضّ إبهامه كي لا ينفجر بالبكاء.

على قطاع مجاور من الجبهة كان عدد من الناجين من حملة البنادق الأيرلنديين يحاولون شق طريقهم في اتجاه خطوط القوات الحليفة لهم تحت وابل كثيف من النيران الألمانية. في الخنادق الإنجليزية، التي كان يتجمع داخلها الرجال كراقصي «السلو» وهم يحملون رفاقهم الجرحى أو الموتى بأيديهم، سرت شائعة تفيد بأن الألمان يقومون بهجوم مضاد متنكرين بزيّ عسكري إنجليزي. بدأ الجنود يطلقون النار على هؤلاء الناجين من حملة البنادق الأيرلنديين الذي كانوا يحاولون العودة.

في محطة القطار في روما كان بضع مئات من الشبان ينتظرون وصول القطار من تورينو. كانت أعينهم معلقة بخطوط السكة الحديدية التي كانت تلمع خارج المحطة تحت شمس الصباح مثل شوكات فضية غُسلت للتوّ. جيوليتّي كان من ضمن ركاب القطار. كان قد استقال من منصب رئيس الوزراء منذ العام الماضي، وكان آتياً إلى روما لأنه شعر بأن الحكومة لم تصل بعد إلى قرار بخصوص دخول الحرب (لم يكن يعلم شيئاً عن المعاهدة السرية) وكان عازماً على أن يستخدم نفوذه لترجيح كفة الأصوات التي تنادي بالوقوف على الحياد في هذه الحرب. بالرغم من أنه هو نفسه كان قد أيّد الحرب

الاستعمارية التي شُنت ضد ليبيا وخطط لها منذ أربع سنوات، إلّا أنه يخشى اليوم أن تكون تكلفة هذه الحرب الأوروبية التي ستخوضها بلاده أكثر بكثير من المكاسب. كان الشباب المنتظرون في المحطة قد قرؤوا في صحف اليوم الفائت خبر عزمه المجيء إلى روما. وما إن لمحوا القطار يقترب من المحطة حتى بدؤوا بالصفير والصياح: يسقط جيوليتّي! يسقط جيوليتّي! تحيا الحرب... حاولوا أن يتسلقوا القطار قبل أن يتوقف. شعر الرجل الذي حكم إيطاليا لاثنتي عشرة سنة برغبة في مخاطبتهم من باب القطار. وهذا ما حاول فعله، لكنهم لم يمنحوه أيّ فرصة... تحيا تريستي الإيطالية! تسقط النمسا! الحرب! الحرب! صرف العجوز النظر عن التحدث إليهم. لم يكن قد استيقظ إلّا منذ ساعة مضت. كان بحاجة إلى كوب آخر من القهوة. اقترح عليه مساعدوه أن يغادر القطار من الباب الخلفي ليتمكن من التسلل وتجنُّب مضايقات وصياح هؤلاء الشباب. قال: هؤلاء لا يدركون أنها ليست ليبيا، تلك ليست ليبيا...

كلما كان ولفغانغ ينتهي من التفكير في مسألة تشغل باله يعود ليفكر في زوجته من جديد. سأل ما إذا كان الانتصار الأخير للنمسا في غاليسيا على الجبهة الروسية ليس له أيّ أهمية. استنتج وحده أنه لم يكن ذا أهمية. لم يفكر في زوجته كما تركها في سريرها، بل كما ستظهر مساءً عند استقبال جي. سأل ما إذا كانت المبادرة التي أقدم عليها المبعوث الإمبراطوري لجلالة الملك ليقنع البابا بإعلان قرار نقل الكرسي الرسولي إلى إسبانيا في حال اندلعت الحرب في إيطاليا ستلقى أيّ فرصة للنجاح. قرر وحده أن فرص نجاحها معدومة. كان قد لاحظ اهتمام ماريكا بجي منذ أن زارهما أول مرة منذ ثلاثة أشهر. من حينها أصبح جي زائراً يوميّاً تقريباً ولم تكن زوجته تخفي

مشاعرها تجاهه. تساءل ما هي الارتدادات المحتملة لغرق سفينة لوستينيا[1]. كان يخشى أن يكون الألمان قد ارتكبوا خطأً. الألمان خبراء في مجال الغواصات ويبرعون بكل شيء يتعلق بها، لكنها جلّ ما يبرعون به. لم يكن يطيق صيحات الهلع المليئة بالنفاق التي تطلقها قوى التحالف. كانت السفن تحمّل الذخيرة على متنها بالرغم من تحذيرات الإنجليز المتكررة لهم بأنهم إذا ما استمروا في استخدام سفن الركاب في نقل حمولات حربية، ستكون النتائج وخيمة عليهم وسيدفعون الثمن عاجلاً أم آجلاً. إلّا أن حادثة الغرق قد أسست لسابقة لا تحمد عقباها. فقد وسعت دائرة الحرب، وفي الوقت نفسه ضيقت الدائرة التي يمكن أن تتواصل داخل نطاقها المصالح العامة المتعلقة بالقانون والتأمين وإعادة التأمين والتمويل، حتى بين الأطراف المتحاربة. عرف من خلال المعلومات التي جمعها عن جي أنه، بخلاف الموسيقي الذي اقتحم حياته العام الماضي، كان رجلاً يمكن الاعتماد عليه للرحيل عن تريستي بسرعة وبصورة نهائية.

في منتصف اليوم ذهبت نوسا إلى حديقة هولديرلين على أمل العثور على جي. لم تجده هناك.

اعتبر فون هارتمان أن أكثر الأشخاص هدراً للطاقة هم هؤلاء الذين

١- لوستينيا: هي سفينة بريطانية أدارتها شركة كونارد لاين وعملت في المحيط الأطلسي بين المملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية. كانت أكبر سفينة في العالم لمدة شهرين خلال العام ١٩٠٧ ثم خسرت اللقب لصالح شقيقتها الموريتانيا. تميزت السفينة بالفخامة والسرعة. فجرت من قبل غواصة ألمانية عام١٩١٥ في أثناء الحرب العالمية الأولى وهي قادمة من أمريكا إلى إيرلندا وراح ضحية الهجوم ١٢٠٠ شخص.

يبحثون عن أجوبة مطلقة لأسئلة مؤقتة. كان يصرّ دائماً على وجوب تناول كل مسألة ضمن مداها الزمني. وكان الموت أحد أكثر الأمثلة المفضلة لديه عن ذلك. كان يسأل: لكم من الوقت يختبر الإنسان الموت فعليّاً؟

في انتظار القذائف الألمانية لتنفجر حولهم، حُشرت كتائب كاملة من الجنود في الخنادق ينتظرون سماع ضابطهم المسؤول ينفخ في صفارته التي كان صوتها، الشبيه بصوت ببغاء مجنون، بالكاد مسموعاً في ضجيج القذائف المتفجرة، والتي كانت الإشارة المنتظرة للصعود إلى القمة. عندما كانوا يسمعون صوت قذيفة تندفع في اتجاههم، لم يكن في إمكانهم فعل شيء سوى البقاء متسمرين في أماكنهم وإغلاق أعينهم. لم تكن مساحة الأرض المتاحة لهم تكفي ليتمكنوا من الانبطاح عليها جميعاً. كان أغلب الجنود ملتصقين ببعضهم لدرجة لم يكونوا قادرين معها على رفع أيديهم لحماية وجوههم. لم يكن المصابون قادرين حتى على السقوط. كانت الشظايا التي تخترق جسداً تكمل طريقها لتخترق الثاني والثالث معها. في ظل هذه الظروف في مناطق احتشاد الفرق العسكرية، بين الواحدة والربع والثانية ظهراً، لاقى ألفان من الرجال حتفهم أو تعرضوا إلى إصابات شديدة كان الموت أرحم منها.

بالنسبة إلى فون هارتمان يجب أن يتمّ تقييم نزوات زوجته ومغامراتها بالمقارنة مع الفترة التي عاشتها معه. كان عليها استخدام التصاريح التي منحها إياها بشكل تدريجي وبصورة حكيمة لكي لا تستنفد فرصها في الانصياع لرغبته إلى أن تصبح أكبر سنّاً من أن تحصل على عشيق لها. المقصود من هذه المناورة كان شيئاً أكثر مكراً من

المحافظة على زواجه. لم يكن لديه شك في أنه لن يلبث وقتاً طويلاً قبل أن يعثر على زوجة مناسبة وحسنة المظهر إذا تركته زوجته. لم يكن لديه أيّ سبب يجعله يخشى من الوحدة في سنّه هذا. (نظر إلى انعكاس صورته في المرآة المعلّقة فوق المدفأة. كان غنيّاً، سميناً بعض الشيء ربما، لكنه لم يكن أصلع) إدارة شهوات زوجته وضبطها هو ما كان يريد أن يفرضه ويحافظ عليه. لم يكن يؤمن بوجود شبق مطلق ونهم دائم تماماً كما لم يكن يؤمن بالخلود. كان عليه مراعاة شهوات زوجته من دون تلبيتها بالكامل. بهذه الطريقة يصبح بالإمكان المحافظة على شبق زوجته وإخضاعه في الوقت نفسه إلى سيطرته. أكثر مشهد كان يمنحه المتعة في الحياة الزوجية هو ذاك الذي تحاول فيه لعب دور الفتاة البريئة لتخدعه بخصوص المال الذي خسرته في المقامرة أو للذهاب إلى موعد ضربته مع أحد معجبيها. كانت ممثلة رديئة جدّاً. لم يكن عليه في أيّ لحظة سوى النظر إليها بوقار وبعض الريبة ليجعلها تتخلى عن إصرارها على براءتها وتبدأ بالتوسل إليه بنظرة استعطاف صامتة من عينيها لكي يسمح لها بالمتابعة. وفي حال منّ عليها بالموافقة - كان يعبّر عن موافقته تلك بتغيير بسيط في ملامح وجهه الوقورة المرتابة (ما كانا ليتبادلا كلمة واحدة في ما يتعلق بهذه المواضيع). كانت تكمل - تكمل أداءها الرديء والمغامرة التي تحاول التستر عليها. في حال رفض برسم تعبير جامد على وجهه، كانت تغادر الغرفة وهي تقسم على الثأر... ثأر ما كانت لتأخذه يوماً. نظرة الاستعطاف في عيني ماريكا في لحظات أدائها الرديء هي ما كانت تجعل ولفغانغ يؤمن بأنه يحبها. من ناحية، كانت تلك نظرة استعطاف لطالما تخيلها كطفل في عيون حيوان ضعيف، ومن ناحية أخرى، كانت الثمرة الخالدة لهذا الزواج المعقد والفريد الذي خطط له بأدق تفاصيله، والذي ما كان ممكناً أن ينجح مع أيّ امرأة أخرى سوى ماريكا.

على كامل جبهة الهجوم الأمامية كانت أرتال جديدة من الجنود تتقدم متعثرة في الأرض المحايدة تقودها أصوات مزامير فرقهم. حدث ذلك عند الساعة الرابعة مساءً. أصوات المزامير الغاضبة، والتي كانت خارج إطار الموسيقى والمنطق، كانت استمراراً لزعقة الببغاء الحادة الصادرة عن صافرات الضباط. وهم يسقطون، بدوا وكأنهم يتهافتون كأكوام وليس كأرتال، وكان هذا نتيجة لمحاولتهم الزحف في اتجاه بعضهم في اللحظة الأخيرة المتبقية لهم في الحياة في محاولة يائسة للمحافظة عليها. بدوا وكأنهم محصول يحصد نفسه بنفسه ويتكدس كومة فوق كومة.

لم تكن خيانات ماريكا تُقلق ولفغانغ فون هارتمان لأن الفعل الجنسي (وهو الفعل الذي يشكل الخيانة) كان قصير الأجل بصورة سخيفة، تماماً كما هي تجربة الموت. كان هناك فرق وحيد بين الاثنين بالطبع، وهو أن الموت، على عكس الجنس، يُختبر مرة واحدة. لكن إذا ما تمَّ النظر إلى كافة المغامرات الغرامية لهذه الزوجة، نجد أنه هو، وليس هي، من وافق عليها أو رفضها. كان عشاقها يستعطفونها، وهي تستعطف زوجها. كان ولفغانغ ينظر إلى إدمان ماريكا على القمار كما ينظر إلى غرامياتها. كان يعتقد أن مقامراتها جامحة: كان يحرص على ألّا تتخطى المبالغ التي تقامر بها الحدود التي وضعها. كان يتمّ إخطاره كلما سحبت نقوداً من حسابها (وتلك ميزة بسيطة مقارنة بالميزات الهائلة التي يحظى بها كمدير لبنك كريديتانستالت). في المجالين، الغرامي والمالي، كانت سيطرته تقوم على المبدأ نفسه. يجب أن تحصل زوجته على علاوة بصورة مستمرة، لكن نسبة هذه العلاوة، والدفعة الأولى، وتعويض نهاية الخدمة – وهو أمر وارد في نهاية المطاف – يتمّ حسابها لضمان أن تبقى متطلباتها ضمن حدود

موارده، وذلك مع المحافظة على تشجيعها على توقع المزيد، وهكذا تبدو هذه الموارد وكأنها، إلى حدّ ما، لا تنضب.

أكثر من أحد عشر ألفاً من الجنود وما يقارب الخمسة آلاف من الضباط لاقوا حتفهم في معركة أوفيرز ريدج منذ الفجر. قلة منهم فقط فارقوا الحياة في الحال وبشكل تام. أغلبهم مات من العذاب الذي، بغضّ النظر عن مدى الألم الذي كان ينطوي عليه، منحهم نوعاً من الراحة من عبء اليأس المتأتي من الأوامر التي كان عليهم تنفيذها بكل سمع وطاعة حتى لحظة سقوطهم.

استقبل ولفغانغ فون هارتمان جي في قاعة الاستقبال حيث يستقبل كافة زواره بعد الغداء بكل تهذيب. كانت قاعة ضخمة تضم في أحد أطرافها موقداً مرصوفاً بحجارة بيض ومبنيّاً على طراز معبد يوناني. على الجدران عُلِّقت لوحات ومرايا سميكة. أمام المرايا وُضع شمعدان. كانت كل شمعة تتوهج داخل زجاجة صغيرة بحواف مسننة. هذه الزجاجات، التي عكست الضوء المنبعث من لهيب الشموع التي تحيط بها وتتألق كحراشف سمكية، منعت اللهب من أن يرتجف كما كان حال لهيب الشموع في كاتدرائية دومودوسولا. على الرغم من أن الغرفة كانت معتمة في بعض الأماكن، إلّا أن المرايا والزجاجات أعطت الانطباع بوجود آلاف الشموع المضيئة فيها.

دخلت ماريكا القاعة بعد وصول جي بخمس دقائق. كانت تمشي كحيوان. أواجه صعوبة كبيرة في وصف مشيتها لأنها لم تكن تشبه حيواناً واحداً بعينه، بل عدة حيوانات في آنٍ معاً. كانت تشبه مجموعة من الحيوانات في جسد واحد كوحيد القرن، لكن في الوقت نفسه لم

يكن فيها شيء أسطوري. لم تكن مميزة في شيء، وكأنها ظهور شبحي بين مجموعة من الزهور المطرزة على قطعة قماش. كانت عظام ساقيها ضخمة وطويلة جدّاً. أحياناً ينتابني الإحساس بأن ساقيها يبدآن من كتفيها وأن لكل منهما ثلاثة مفاصل مثلها مثل سيقان الحصان. وهي تمشي، كان رأسها يبقى ثابتاً. كان عنقها ثخيناً ومليئاً بالعضلات. كانت تثبت رأسها وكأنها حمار وحشي، فوق شعرها الأحمر يمكنك أن تشعر بوجود قرون لامرئية. وبالرغم من ذلك كانت تسير بعدم ثبات، كانت تتمايل من جانب إلى آخر، لم تكن خطوتها فيها ما يكفي من الثقة مقارنة بحجمها وطولها - وكانت في هذا تشبه الجمل.

قالت له: لطف كبير منك أن تأتي لترانا في يوم عودتنا نفسه.

قال جي: أدرك أن رحلة العودة كانت طويلة ومتعبة.

- لا يوجد شيء هنا. لا شيء في هذه المدينة التي تخلى عنها الله. لا شيء إلّا أنت، لكنك سترحل عنا قريباً، أليس كذلك؟

- لقد أجّلت سفري.

- لا نراك بما يكفي لنشبع منك.

- قد نضطر إلى أن نسجنك إذا أجّلت سفرك لوقت أطول. قال فون هارتمان من دون أن يبتسم، لكن من دون أن ينطوي كلامه على تهديد واضح في الوقت نفسه. لنأمل ألّا نضطر لذلك.

اللامبالاة التي طرح بها التهديد ذكرت جي بالدكتور دوناتو عندما قال: السؤال هو ما إذا كنا نتشارك الحلم نفسه.

– تقول «نسجنك» وكأنك معتاد على قولها طوال حياتك، قالت ماريكا.

– Internieren هكذا نقولها بالألمانية. مثل intranet، يجب أن تعرفا معناها. نظر إلى جي الذي تلقى تعليمه في إنجلترا. Intranet تعني مدرسة داخلية. وهكذا إذا اضطررنا إلى احتجازك، لن تعيش شيئاً غريباً عنك.

– لن تخمّن ماذا كانوا يسمونني في مدرستي الداخلية. كانوا يدعونني بـ «غاريبالدي».

– غريب حال الشعب الإنجليزي، يؤلهون الرجال ويحولونهم إلى أساطير. أخبرني أحدهم أنه عندما زار غاريبالدي لندن استقطب حشوداً أكثر من الحشود التي أتت لرؤية الملكة. يعود ذلك إلى أن الشعب الإنجليزي في أعماقه يحب فكرة الرواد الأوائل الذين ينامون وحيدين في العراء بقرب شعلة من النار. أيعود هذا إلى أنهم يكرهون نظام مدنهم المقيتة؟ هم عكسنا تماماً. كل ما له قيمة في إمبراطورية هابسبورج يأتي من النظام والمنطق القائمين في مدننا. ما عليك سوى التأمل في مدننا! فيينا، براغ، بودابست. ماذا تحب أن تشرب؟

– سأزورك كل يوم في السجن! تعهدت ماريكا. كانت لا تزال واقفة تتمايل على ساقيها، وهي تقول عبارتها الأخيرة قامت بحركة تحاكي فيها من يفتح باب زنزانة ويدخلها. لم تكن تمثل بشكل واعٍ. كان المسرح يضجرها. إذا ما «تظاهرت» بأنها تزور جي في سجنه، فذلك يعود إلى أن الفرق بين فكرة القيام بالفعل، والفعل نفسه كان

صغيراً جدّاً بالنسبة إليها... الكلمات التي تعبّر عن الفكرة تترجم نفسها مباشرة إلى رسائل تعبّر عنها أطرافها الأربعة.

- مدننا تشبه جزراً في محيط من الهمجية.

- سأساعدك على الهرب. -قالت ماريكا-، الطريقة الأبسط ستكون بأن تخرج مرتدياً ملابسي.

- سيكون هذا قراراً طائشاً، قال فون هارتمان، حتى إنه سيكون من الصعب عليّ أن أحميكِ من عواقبه.

- سيجردني من ملابسي عنوة طبعاً!

- بإمكانكِ مناداة الحرس في أيّ لحظة.

- أنسيت من يكون والدي؟!

- أتقصدين أن منشأكِ يجعلكِ غير قادرة على الخيانة؟!

- أجل، هذا ما أعنيه! وأعني أيضاً أنني معجبة بغاريبالدي! وأعني أنه كان فارساً مهيباً! وأعني أنني وطنية أحب بلدي!

لم تكن غاضبة. كانت ابتسامتها تكبر مع كل عبارة تقولها. وفي النهاية انفجرت بالضحك، وداعبت ذراع زوجها وجلست.

قال فون هارتمان موجهاً حديثه إلى جي: أخشى أن يكون أبناء بلدك أغبياء بما يكفي ليعلنوا الحرب علينا.

- لست معنيّاً بالسياسة.

- وحتى لو كنت معنيّاً بها، ما كنت لتقول ذلك لزوجي، تمتمت ماريكا.

- ومع ذلك، فقد أتيت إلى هنا لكي ألتمس مساعدتك في قضية تهمني، وأرغب في طرحها، إذا سمحت لي طبعاً، عليكما أنتما الاثنين.

لم يكن لدى جي شك بأن مضيفه سيرفض الدفاع عن هذه القضية بشكل قطعي، وأن زوجته ستتبنى القضية وتدافع عنها. ستوفر قضية ماركو، لفترة قصيرة، موضوعاً يمكّن المرأة التي يشتهيها من خلق اهتمام مشترك علني بينها وبينه، وستصبح الحاجة إلى التآمر ضد زوجها بارزة بصورة أكبر.

أراد مدير البنك النمساوي أن يعطي الانطباع بأنه يصغي بانتباه وصبر. جلس على كرسيه مرجعاً ظهره إلى الخلف وهو ينظر إلى الأسفل ويدير رأسه بين الحين والآخر. كانت عيناه صغيرتين تتحركان بسرعة بالغة غير قادرتين على التركيز على شيء سوى الأفكار السريعة التي تتوارد إلى ذهنه وهما أمامه.

كان جي يدفع بقضية لا يؤمن بها، لكن فون هارتمان كان رجلاً لا يعطي أذناً لأيّ مناشدة مهما كانت ملحة أو مؤثرة. وكان بالطريقة نفسها منيعاً ضد أغلب التهديدات. المناشدات والتهديدات، بمجرد إطلاقها، تجد طريقها إلى وعي الإنسان الموجهة إليه في سيرورة لا تختلف كثيراً عن تلك التي تنتشر بها الشائعة بين الجموع. تُهمس

المناشدات والتهديدات ويتمّ تناقلها بنبرة مختلفة في كل مرة، وذلك حسب من يهمس بها. في نهاية المطاف شائعة واحدة قد تخلّف عدة شائعات لكنها تبقى تتشارك كلها جرس التهديد أو الأمل نفسه. لكن من هم هؤلاء الجموع؟ من يقوم بتداول هذه التوسلات والتهديدات ويهمس بها في ذهنه حتى يتمّ اتخاذ القرار؟ الجموع هي عبارة عن حشد من الذوات الأخرى الممكنة التي تضع ملاحظاتها على الذات المسيطرة، والتي تعتقد أنها مغتصبة للسلطة. كانت هذه الذوات قد ولدت من رؤى الماضي، وفشلت في ترسيخ سلطتها الخاصة، لكنها لم تُقمع، بل ما زالت تستوطن الشخصية.

كان فون هارتمان رجلاً تخلص من كل ذواته المحتملة. كل ما بقي من ماضيه كان نسخاً ملغاة من الذات نفسها. كان مثل رجل منقوش على طابع بريدي.

كان بالطبع يستجيب إلى التهديدات الجسدية الفظة بشكل لاإرادي. ربما ينهار وينشج كطفل صغير عندما يكون الخطر يهدد حياته، وعلى الأرجح سيبقى مستكيناً بصورة عجيبة. الصمت المنبعث من الموت يأتي فقط كتتمة لصمت الحياة الوهمية التي يعيشها شخص مثله. كان فون هارتمان رجلاً يمكن التخلص منه، لكن لا يمكن تحدّيه. ونتيجة لهذا يمكن لنا أن نزعم أنه كان الشخصية المثالية لشغل منصب مدير البنك.

وهي تستمع إليه، أصبح الشاب الذي تمَّ اعتقاله على الحدود مختلطاً بصورة لا يمكن فصلها مع غاريبالدي وجي في سجن اعتقاله الذي ستساعده على الهرب منه. قررت أنه يجب إطلاق سراح الشاب

في الحال. علاوة على ذلك قررت أن تتحدث إلى الحاكم بنفسها. كان قرار ماريكا فوريّاً لأنها لم تكن تهتم بالمبررات والمسوغات. إذا ما أشارت الإبرة في بوصلتها إلى الشمال المغناطيسي، لم يكن عليها سوى شد الرحال إلى الشمال. لم يكن مفهوماً بالنسبة إليها لماذا ينبغي على أيّ يكن أن يعدل بوصلته حسب اتجاه إبرتها ليسجل قراءات أخرى. بالرغم من ذلك كانت امرأة تفكر وتتأمل. الفرق بينها وبين معظم بنات جنسها هو أن تأملاتها كانت تتعلق حصراً بالماضي وتتخذ شكل قصص وأساطير. كانت هي نفسها تلعب دوراً في البعض منها، وفي بعضها الآخر، تلك التي لا يقل اهتمامها بها عن غيرها، لم تكن تظهر أبداً. القصة والأسطورة كانت بالنسبة إلى ماريكا كل ما يبقى عندما تنحسر الضرورات التي فرضتها... بعد ذلك تستلقي القصة كقارب ألقته موجة عاتية إلى الشاطئ، أو كخاتم لم يعد أحد يلبسه فحُفظ في علبة المجوهرات بلا نفع. في بعض الأحيان يكون ما بقي عبارة عن مجرد غياب، تماماً كما حدث مع صديقة لها فقدت ذراعها جراء تعرّضها لسقطة قاتلة عن حصان. كانت تجنح بخيالها بعيداً عن حبيبها الذي اكتشفته بالصدفة وهو يمارس الحب مع إحداهن في الغابة. قبل أن تكون الذراع قد بُترت، عندما كان الخاتم ما يزال يُلبس، والقارب لا يزال يبحر، كانت الحياة محكومة بحتمية لا مجال معها للأمل والتأمل.

ماريكا... آه كم أحبك يا ماريكا! ابتسامتك أكثر اكتمالاً من يوم القيامة. عندما تتجردين من ملابسك تكونين تجسيداً للإرادة المطلقة. نحن الاثنان نجعل بعضنا غير ملموسين، لاماديين، طيفين... كل الباقين مجرد ثرثارينْ وشهوانيين. ماريكا! متى سيقول جي هذه الكلمات؟

بمجرد أن أنهى جي حديثه، أعلنت ماريكا: هناك شيء واحد ينبغي فعله، أن نعمل على إطلاق سراحه.

هز زوجها رأسه. بخلاف المعتاد، كان غالباً ما يهزّ رأسه عندما يكون على وشك أن يرفض شيئاً ما. فصاحتك قد أسرت قلبها كما ترى، لكنني أخشى أنه في ظل الظروف الحالية سيكون من المستحيل تماماً التدخلِ بأيّ شكل من الأشكال لصالح صديقك هذا. مستحيل وخطير أيضاً. لنفترض أنه بريء كما تقول. قد لا يكون هذا الشاب خطيراً في حدّ ذاته. لكن ماذا ستكون العواقب الناجمة عن إظهار بعض اللين في لحظة كهذه على المدينة؟ الكثيرون غيره سيتجرؤون ويحاولون عبور الحدود. سيتضاعف عدد المحاولات. وإلى ماذا سيؤدي هذا؟ جنودنا المرابطون على الحدود لديهم أوامر بإطلاق النار على كل من لا يتوقف أو يستجيب لهم. إذا ما تساهلنا في تطبيق القانون في قضية صديقك الخاصة هذه قد نتسبب في مقتل العديد من الشبان الآخرين. ولن تتوقف المسألة عند هذا الحدّ. الارتدادات السياسية والدبلوماسية لقضايا تتعلق بالحدود كقضيتنا هذه قد تكون كارثية. قد يعني هذا الحرب على الأرجح. زوجتي لا تفهم في السياسة. لا شيء يمرّ في السياسة بلا عواقب، ولا شيء مجرد بحدّ ذاته. لدينا صديقك الشاب الطلياني ووالده الذي يُحتضر، وقد تمَّ اعتقاله وهو يعبر الحدود بصورة غير شرعية، وها هو معرّض الآن إلى تلقي ما قد يبدو حكماً قاسياً بالسجن، لكن إظهار رأفة لا داعي لها في هذه القضية الاستثنائية قد يؤدي إلى حرب قد يقتل فيها عشرات الآلاف من الآباء والأبناء.

رنّ جرس هاتف بعيد. نهض مدير البنك ومشى باتجاه زوجته ووضع يده على يدها التي كانت تستريح على ذراع الكرسي.

- لهذا من غير الممكن أن نطلق سراحه كما ترغبين، وضّح لها.

لم تبدُ منزعجة. تعودت ألّا تخوض في أيّ جدالات وألّا تستمع إليها. كانت كحيوان أو شخص، بعد أن جرى على طول الدرب، انعطف عند نقطة معينة ليجد أنها تقود إلى ضفة نهر عريض تتدفق مياهه بسرعة... سيكون من العبث أن تغضب أو تستسلم. كان التعبير على وجهها هادئاً وثابتاً. كانت تنظر إلى النهر من جانب إلى آخر لتقرر الجهة التي ستستدير إليها قبل أن تتابع جريها. كانت تعلم أنها تعيش بموجب ترخيص وأنه قد فات الأوان بالنسبة إليها لتعيش بطريقة أخرى. لم يكن هناك شيء يمكنها أن تعقلنه هنا، لكنها شعرت به كما يشعر المرء بوجود السهل أو باقترابه من البحر من دون أن يكون قادراً على رؤيتهما. من دون ولفغانغ كان ستتحول إلى غجرية، وكانت تحتقر الغجر. علاوة على ذلك، كانت تعتقد أن يوميات العالم، والقصص التي ستبقى، ستحفظ في سجلات رجال مثل زوجها.

أتى أحد الخدم إلى الباب وأعلن أن المكالمة الهاتفية واردة من فيينا. استأذن هارتمان من ضيفه وغادر الغرفة.

- أشعر برغبة في الرقص. قالت ماريكا، ووقفت وبدأت تتمايل وهي تدور منزلقة في حلقات على الأرض الخشبية مقتربة رويداً رويداً من مكان جلوس جي. من أنت بالضبط؟ سألته. أنت لست الشخص الذي تدعيه. (تحدثت بإيطالية مرتبكة ومليئة بالأخطاء) من أنت بالضبط؟

- دون جوان.

- عرفت الكثير من الرجال الذين كانوا يظنون أنفسهم «دون جوانات»، ولم يكن أيّ منهم دون جواناً في شيء.

- لقد أهين هذا الاسم من كثرة الرجال الذين أطلقوه على أنفسهم بغير وجه حقّ.

- لماذا تدعي ذلك إذن؟

- وهل أنا من ادعى ذلك؟

- معك حقّ. كان أنا من سأل، وأنا أصدقك.

ابتعدت عنه وأكملت حديثها بنبرة أكثر غنجاً وإثارة: متى سنذهب في رحلة إلى فيرونا كما اقترحت علينا.

- أحبك.

الجمود الخارق للهيب الشموع أبرز كم كان الجلد الذي يغطي جمجمتها مشدوداً على عظامها البارزة.

- لو كنا في المنزل لمضينا الآن إلى الغابة... الآن، بينما هو خارج الغرفة.

- التفتي إليَّ، دعيني أرَ وجهكِ.
وضع يده على أنفها وفمها بحيث غطاهما تماماً. في دفء يده شعر بأنفها وكأنه لوزة حلق صغيرة. كانت عيناها تضحكان. بعد

ذلك، بيده الرطبة قليلاً بتأثير أنفاسها، مسّد الجلد الذي يغطي عظمتي خديها الصلبتين، هكذا إلى أن وصل إلى أذنها المحمرة بعض الشيء.

- أنا مختلفة عن باقي النساء، همست.

توقف فون هارتمان فجأة عند الباب متأملاً الشخصين الماثلين قرب المدفأة ومشى بوقار داخلاً الغرفة. لم يخطر لجي أو ماريكا أن يتساءلا منذ متى كان واقفاً هناك.

- يبدو أن روما قد قررت خوض الحرب، قال. المسألة مسألة وقت. وضع يده على كتف جي. إذن لم يعد أمامك الآن سوى الاختيار، إما نحن أو حبس المدرسة الداخلية.
- ما زال لديَّ الوقت. ليس عليك أن تكون سياسيّاً لتدرك أن الحرب آتية بقوة كانهيار جليدي يجرف كل ما يأتي في طريقه. لكن بالرغم من ذلك لم أسمع شيئاً عنها هنا بعد.

- إذا كانت الحرب ستقع، -قالت ماريكا-، علينا أن نقوم برحلتنا إلى فيرونا قبل فوات الأوان. فلنذهب غداً.

- أحياناً تفاجئينني كطفل، -قال فون هارتمان لزوجته-. لا تعرفين من فيرونا سوى اسمها. لماذا ترغبين في الذهاب إليها؟

- أرغب في السفر.

- لا يوجد أحصنة هناك. يوجد مسرح فقط.

- أكره هذه المدينة. بدأت تسير في اتجاه الطرف الآخر من

الغرفة حيث يقبع المعبد الأبيض المرصوف، وحيث الجدران مغطاة بالكتب من الأرضية إلى السقف. لا أحد يهتم بشيء هنا سوى التأمين. إذا كانت الحرب ستندلع قبل أن ينقضي الأسبوع، علينا أن نذهب الآن وحالاً.

- من غير الوارد أن نسافر في هذه اللحظة. جلس زوجها وهو ينظر إلى جي مبتسماً، وتابع: يبدو وكأن الحرب واقعة لا محالة، لكن ذلك لن يحدث قبل أسبوعين.

- أهذا ما سمعته عبر الهاتف؟ قالت ماريكا بصوت مرتفع، إذ كانت في تلك اللحظة في الطرف الآخر من الغرفة على بعد عشرين متراً منهما.

- لا، هذا ما استنتجته مما سمعت.

صعدت سلم المكتبة القائم قرب رفوف الكتب، وعندما وصلت إلى الدرجة الأخيرة وكاد شعرها أن يلامس السقف، أصبح وجهها في الظلام الممتزج مع الضوء المنسكب على طيات تنورتها يُرى من زاوية ظهرت معها وكأنها بلا خصر، وبدت تنورتها وكأنها تصل إلى كتفيها، أعلنت قائلة: دعنا نتراهن على ذلك! أراهنك بألف كراون على أن الحرب ستندلع في غضون أسبوع.

- مستحيل. قال فون هارتمان.

- عظيم جدّاً، صاحت مرة أخرى، ألف كراون. لا، ثمة رهان أفضل. إذا كسبت، سيتم إطلاق سراح الشاب الايطالي. سأذهب إلى

الحاكم بنفسي وأطلب ذلك منه. إذا خسرت، أي إذا لم تقع الحرب بحلول الأحد القادم، سأعطيك ألف كراون.

- لا يمكنني إلّا أن أستنتج أن هذا الشاب الإيطالي هو عشيقك. قال فون هارتمان.

أدارت ظهرها وكأنها تريد أن تنظر إلى الكتب في الرف العلوي، وقالت بحزن بالألمانية: في النهاية أنت وقح وسوقي مثلك مثل كل الألمان.

ردّ عليها فون هارتمان بإيطالية رخيمة: لا داعي للغضب، تعلمين أنني أحترم مشاعركِ وأحاسيسكِ لدرجة كبيرة. بما أنه راحل عن البلد، فلا أظن أبداً أنه سيفكر في العودة. بما أنه راحل، فإن اهتمامكِ به شريف ومنزّه عن أيّ غاية شخصية.

حدث ما حدث بعد ذلك بسرعة كبيرة لدرجة ألّا أحد من الثلاثة الذين كانوا في الغرفة سيكون بإمكانه بعد ذلك أن يحكي عن أكثر من انطباع واحد من الانطباعات الكثيرة التي انتابته. انطباعاتهم هم الثلاثة ستؤكد بعضها على أيّ حال. قفزت ماريكا من أعلى السلّم. لا هي ولا أيّ من الرجلين فكر في إمكانية سقوطها. لا شك في أنها قد قفزت. ربما قصدت أن تحط على قدميها على الكرسي الجلدي الضخم المزود بمساند والموجود على مقربة منها. إلّا أن الكرسي انقلب وانطرحت هي على الأرض. لكن بالرغم من السرعة التي حدث بها كل هذا، واستحالة تذكر تسلسل الأحداث بعد ذلك على نحو دقيق، بدت اللحظة التي لبثت خلالها معلقة في الهواء وكأنها أبد.

غداً صباحاً سيلتقي جي بالدكتور دوناتو ورفائيل (لم يكن قد التقى بأيّ منهما دون الآخر) في المقهى الواقع خارج الساحة. سيسألونه عمّا استجد في قضية ماركو. إذا قال لهما إن ماركو سيخرج من سجنه خلال أسبوع، سيرتابان في أمره ويتهمونه بالعمالة للنمساويين. وإذا أخبرهما أنه فشل في مسعاه للحصول على مساعدة لماركو، قد يجبرانه على مغادرة تريستي. سيقول لهما إن هناك فرصة لا بأس بها بأن يتمّ إطلاق سراحه في العشرين من الشهر الحالي. سيقولان له إن الأوان سيكون قد فات حينها، وبحلول ذلك الوقت سيكون البلدان في حالة حرب. سيلحّان على جي ليحاول أن يفعل شيئاً بشكل عاجل. سيقول لهما إنهما غير واقعيين بصورة سخيفة. سيسألهما كيف يتوقعان أن يتدخل رجل أعمال إيطالي في مسألة تتعلق بالقوانين التشريعية في إمبراطورية المجر والنمسا. رفائيل، الممتعض من اتهامه بأنه شخص غير واقعي، سيصل إلى الحد الذي يجعله يصرخ غاضباً بأنهما يعرفان مسبقاً أن جي عميل نمساوي، وإلّا كيف تمكن من تأمين إطلاق سراح ماركو حتى لو كان ذلك في وقت متأخر كالعشرين من هذا الشهر. لكن الدكتور دوناتو سيقاطعه. هو يسمح لرفائيل باللغو وارتكاب هذه الشطحات عندما لا يكون الأمر مهمّاً فقط. سيقترح عليهم أن يقوموا بنزهة على شاطئ البحر. سيسيرون بقرب القناة التي أجهض مشروعها قبل الولادة حتى يصلوا إلى ميناء مولو. سيتحدث الدكتور دوناتو طوال الوقت. سيتحدث عن فولتير. على شاطئ البحر وعند الطرف الأخير من الساحة الكبرى سيرون قطار بضائع يسير في اتجاههم بشكل بطيء على طول رصيف الميناء. دعونا نراقب القطار، سيقول الدكتور دوناتو. ستكون عجلات محرك القطار أطول من الثلاثة الذين يحدقون عالياً به. بعد القاطرة ستأتي عربات الشحن السود بعجلاتها التي تبدو وكأنها محلولة مقارنة بمتانة القاطرة. من

خلال الفراغات الصغيرة القائمة بين العربات فوق وصلات التعشيق، سيتمكن الثلاثة من أن يلمحوا البحر. الدكتور دوناتو، الذي توقف عن الكلام، سيمسك فجأة بذراع جي بيديه الاثنتين في الوقت نفسه. سيضع رفائيل ذراعه حول ظهر جي ويقبض عليه بقوة ومعاً سيدفعانه إلى الأمام إلى أن يصبح على بعد بضع بوصات فقط من الألواح المسودّة للعربة التي تمرّ أمامهم ببطء. جي سيحاول أن يرمي بنفسه إلى الخلف. الدكتور داناتو سيركل عقبي ساقي جي في اتجاه السكة الحديدية. بعد لحظة وجيزة ولا نهاية لها سيتركانه يتحرر منهما. كنت على وشك أن تتعثر، سيقول رفائيل، يجب أن تأخذ حذرك في مدينة كتريستي، الكثير من الحوادث تقع هنا. أترى، سيقول المحامي، ليس لدينا متسع كبير من الوقت.

لنقل إن ماريكا كانت تصعد ولم تكن تسقط. لنقل إن الغرفة وكل ما فيها كان يصعد أيضاً، لكن كان هناك فارق ضئيل جدّاً في سرعة الصعود، وكانت الأرض تعلو بسرعة أكبر قليلاً من سرعة صعودها. هكذا بدا الأمر. قفزت إلى الأعلى. لم تبدُ أبداً أنها تسقط إلى الأسفل. أو بالأحرى، بدت وكأنها معلقة في الهواء كشجرة فوشيا بيضاء وأرجوانية. ارتفع فستانها قليلاً ليكشف عن ركبتيها وجوربيها الأبيضين. فتحت فمها لكن دون أن تندّ عنها أيّ صرخة. ربما كانت اللحظة وجيزة جدّاً ليتمكن المرء خلالها من تسجيل أيّ صوت. بالرغم من ذلك كان الصمت أحد العوامل التي جعلت تلك اللحظة لانهائية. معلقة هناك كشجرة الفوشيا، كانت لا تزال الشخص نفسه. كانت لا تزال المرأة المتمددة في السرير التي وقف فوقها زوجها ولبث يحدق بها. كانت المرأة نفسها بكل صفاتها الجسدية التي يشتهيها جي. متانة جسدها نفسها، هناك في وسط الهواء، كانت لا

تزال بعيدة المنال أكثر من أيّ فكرة. بعد ذلك ارتمت متكومة على الأرض.

لم يتحرك أيّ من الرجلين مباشرة. صدر عنها صوت قد يبدو للبعض ضحكة. هرع زوجها بسرعة أكبر مما كان ينوي. لطالما أزعجته رؤية الأذى الجسدي. خلال الوقت الذي استغرقه للوصول إليها، كانت قد نهضت على قدميها وبدأت تسوّي فستانها وتنفض عنه ما علق به.

- ماذا فعلتِ؟ سألها. لو أنه كان قد سألها: لماذا فعلتِ ذلك؟ لربما كانت قد استغلت السؤال لصالحها.

- لقد أسأت تقدير المسافة. لم أصب بأذى. هل تقبل برِهاني؟

- أحضروا لي بعض البراندي، قال فون هارتمان.

لاحظ جي أنها اضطرت إلى أن تخفي عرجة صغيرة في قدمها عندما خطت خطوتها الأولى.

- لقد آذت زوجتك رجلها، أرجوك اسمح لي بأن أحملها. قبل أن يتسنى الوقت لفون هارتمان ليردّ، كان جي، الشبق بصورة سافرة، قد أمسك بها ورفعها بين يديه. السيدة فون هارتمان لم تبدِ أيّ اعتراض بل ألصقت خدها بصدر الرجل الذي سيصبح عشيقها عمّا قريب.

تقدم الثلاثة إلى صدر الغرفة.

عندما تمَّ تقديم البراندي، بدأ فون هارتمان يتحدث بصوت خفيض لكن بوضوح ناظراً في معظم الوقت إلى زوجته المستلقية على الأريكة وهي رافعة قدميها.

- لن أقول إنكما، أنت وهي، تبدوان كعاشقَين، لكنكما تبدوان منسجمين جدّاً وأنتما تجلسان جنباً إلى جنب. أتمنى ألّا تسيئا فهم الأسباب التي تدفعني إلى قول ذلك.

جلس مسنداً ظهره إلى الخلف في كرسيه حاملاً الكأس الكبير بيديه الاثنتين وكأنه كأس القربان.

- هل تذكران آنا كارنينا؟ لم أتمكن أبداً من اعتبار كارينين ذلك المسؤول الحكومي الناجح الذي صوره لنا تولستوي. التناقض بين حياته الاجتماعية السليمة المستقرة وحياته الخاصة السقيمة المضطربة كان أمراً غير مبرر. افتقد كارينين للصفاء الذهني الدائم الذي يحتاجه المسؤول الحكومي الناجح. من المرجح أنه قد تزوج من المرأة غير المناسبة، لكنه بعد أن تزوجها، تعامل معها بصورة خاطئة من دون شك. لماذا لم يواجه حقيقة أنها قد خانته قبل فوات الأوان؟ هذا لأنه أخذ الأمر على محمل الجدّ بصورة مبالغ بها. خيانتها له عنت نهاية العالم بالنسبة إليه، لهذا كان يؤجل لحظة المواجهة مرة بعد أخرى. وما الذي فعله عندما لم يعد قادراً على التملص من مواجهة الحقيقة؟ أتذكرين يا ماريكا؟ لا شيء! آنا هي من اعترفت له في طريق عودتهما من مشاهدة السباق.

حمل الكأس بحيث كانت عيناه على مستوى واحد مع الحد الذي يصل إليه البراندي في داخله. كانت نظرته مثبتة على خط الأفق الذي يرسمه البراندي في الكأس.

- أتذكران؟ انزوى كارينين بعيداً ليفكر في الأمر ووصل إلى نتيجة مفادها أنهما يجب أن يتابعا حياتهما كالسابق. عندما حلّت نهاية العالم

كانت أرقّ من همسة. لا يجب أن يراها أو يسمعها أحد. لكن كليهما عانى منها بصمت طوال اليوم وكل يوم. تسبب كارينين بمأساة. هو من صنع هذه المأساة. لم يكن هناك مبرر لحدوثها. كان على آنا أن تهجره بالرغم من أنها كانت تعلم أن الأمر ليس في يدها بالكامل. لو أنها بقيت معه، لكانت قد أصبحت معتوهة مثله في النهاية. الآن، أنا لست كارينين، هذا ما أريدكما أن تفهماه.

وضع الكأس على الطاولة، ومسح شفتيه بضربتين واهنتين مستخدماً منديلاً مطويّاً نُقش عليه الحرف الأول من اسمه.

- أُسبغ الواقعية نفسها التي أعتمدها في حياتي العامة على حياتي الخاصة. كان واضحاً بالنسبة إليّ منذ فترة لا بأس بها أنك تحاول أن تغوي زوجتي، وعلى القدر نفسه كان واضحاً أنها ترغب في أن تكون عشيقتك. من المؤكد أن هذا، في ظل ظروف طبيعية، كان سيحدث من دون أن يكون لي كلمة في شأنه. لكن الظروف الآن ليست طبيعية. الوقت ينفد منا جميعاً. لهذا أثير هذا الموضوع الآن. أريد أن أقول لكما إنه بإمكانكما، أنت وهي، أن تعوّلا على تعاوني وتفهمي.

صمت لبرهة قصيرة، وجلس ينقّل نظره بين الاثنين، وهزّ برأسه.

- في العشرين من مايو، ولأكون دقيقاً، بعد أربعة أيام من انقضاء فترة مراهنتك، وعلى ذكر مراهنتك يا ماريكا، فأنا أرفضها بصورة قاطعة، سيُعقد يوم الخميس الموافق العشرين من مايو حفل خيري راقص في مسرح المدينة. يعود ريع هذا الحفل للصليب الأحمر، وهي قضية نراها تستحق الدعم. أنتِ وأنا (رفع الكأس لزوجته) سنكون

حاضرين في الحفل، هذا طبعاً بشرط أن تكون قدمكِ قد شفيت حينها. تكلفة الدخول لكل شخص هي مئتان وخمسون كِراون. أتمنى منك أن تأتي (رفع كأسه لجي) إلى الحفل وأن تحضر معك، من باب اللياقة، رفيقة تليق بمستوى الحفل. وهناك سيكون لك مطلق الحرية لترقص مع زوجتي بقدر ما تريد هي أن تمنحك من رقصات. وعندما ينتهي الحفل سيكون الليل قد حلّ وسأغادر لألحق برحلة القطار الليلية إلى فيينا. سأعود إلى هنا يوم السبت. أكرر أنه خلال تلك الساعات الأربع والعشرين يمكنك الاعتماد على حكمتي. (مرة أخرى تذكّر جي الدكتور دوناتو عندما قال: أنا مقتنع أنه بإمكاننا، ويجب علينا، أن نعتمد عليك) أما بالنسبة لفكرة الاحتجاز في المدرسة الداخلية التي ربما تكون قد تبادرت إليك، فلا أعتقد أن الأمر سيصل إلى هذه المرحلة. إذا ما كان عليَّ أن أراهن على موعد انطلاق الأعمال القتالية، وهو أمر لا أنوي أبداً القيام به، لن يكون هذا قبل الخامس والعشرين من الشهر الحالي. أعتقد أنني مصيب في ذلك. وهكذا سيكون لديك الكثير من الوقت لتعود إلى ليفورنو قبل أن تعرّض نفسك إلى خطر الاعتقال.

لم يكن قد سبق لفون هارتمان قد اتخذ قراراً كهذا. لكن ذلك لم يفاجئ ماريكا. أسطورة جديدة قد بدأت: كانت متزوجة من رجل يصرح لها علناً أن عليها أن تتخذ عشيقاً لها. لم يخفَ عليها أنه افترض أن القصة لن تعيش طويلاً لأن الحرب ستندلع وستضطر إلى الانفصال عن عشيقها. لكن زوجها كان ألمانياً قلباً وقالباً ولطالما آمن بأن كل شيء ينتهي كما بدأ. كانت النهاية محتومة. قد تذهب قبل أن تندلع الحرب بصحبة عشيقها إلى فيرونا، وقد لا تعود إلى زوجها قبل أن تنتهي الحرب. قد يكونون موتى جميعاً بحلول نهاية الأسبوع. كانت لتموت راضية وهي بصحبة الرجل الذي وضع يده على فمها منذ ساعة

مضت. ما كانت لتموت بسعادة وهي مع زوجها. سيكون الأمر أشبه بالموت وهي جالسة لا تفعل شيئاً.

لم يخامر ماريكا الشك للحظة في أنه سيهجرها لا محالة لو أنه كان دون جواناً. كانت البداية هي جلّ ما تحلم به.

كان ولفغانغ يبتسم وهو يراقبهما. ابتسامته جعلت ماريكا تشعر بالامتنان والظفر. كانت ممتنة لامتثاله لرغباتها. كانت ظافرة لأن أحداً لم يكن يعلم كيف ستنتهي القصة وإلى ماذا ستؤول، أو هكذا بدا الأمر لها. كانت تؤرجح قدميها وهي جالسة. كان عليها أن تخفي تورم كاحلها. بدأت ترقص ببطء في اتجاه البقعة التي سقطت فيها. – أرأيت، تعافت قدمي منذ الآن، قالت ضاحكة بصوت مرتفع، سنذهب إلى الحفل الراقص.

أخرج جي مغلفاً من جيبه. أشكرك على دعوتك الكريمة. قال. سآتي إلى الحفل الراقص كما اقترحت. إليك تفاصيل القضية التي حدثتك بخصوصها. أظن أنك يجب أن تعيد النظر في المسألة. أما الآن وقد أصبحت الحرب واقعة لا محالة، فقد أصبحت المخاطر التي ينطوي عليها إطلاق سراحه غير مهمة.

بعد ذلك ببضع دقائق نهض جي وهمّ بالرحيل. كيف سنحتمل حتى الخميس؟ سألت ماريكا، ومتسلحة بالحرية التي اعتقدت أنها قد مُنحت لها، قرّبت خدها من جي ليطبع عليه قبلة بينما كان ولفغانغ واقفاً إلى جانبها.

أمسك جي بيدها، ورفعها إلى شفتيه بصورة رسمية، وانحنى قليلاً وقال: إلى اللقاء في مسرح المدينة.

الآن فقط أفهم ذلك الحدث الذي مرّ في طفولة جي والنبوءة التي بدت لي غامضة عندما كتبت عنها:

من الأفضل أن تراقبه إذا قال ذلك. يمشي الرجل ويقف فوق رأس الحصان الأول وينحني ويوجه إليه ضربة قوية. لا يتمكن الصبي من رؤية الشيء الذي ضربه به. يكرر الفعل نفسه مع الحصان الثاني. لا تتحرك ولا ذرة من جسد الحصانين من تأثير الضربة التي تلقاها كل منهما كما كان بوسع الصبي أن يرى في ضوء المصباح الضعيف. يستوي الرجل في وقفته وهو لا يحمل شيئاً في يديه. ها قد قتلتهما... رأيتني وأنا أقتلهما، أليس كذلك؟ يعرف الصبي أنه يكذب: نعم لقد رأيت ذلك. يقترب الرجل منه وملامح الرضا تعلو وجهه، ويربّت برفق على كتفه. كانت يده مسربلة بالدماء وتفوح منها رائحة بارافين لاذعة. رأيت ذلك إذن، يقول. أجل رأيت ذلك، يرد الصبي، لقد رأيت كيف قتلت الحصانين. يدرك في تلك اللحظة أنه هو، الصبي الصغير، من يتحدث إلى ذلك الرجل وكأنه طفل. لقد قتلتهما شر قتل، يسمع نفسه يكرر ذلك مرة أخرى.

ما من رعب قد يخبئه طريق العودة يمكن أن يضاهي شعور الاشمئزاز الذي يشعر به تجاه الرجل الذي يقف أمامه في هذه اللحظة: اشمئزاز يصل إلى درجة الغثيان. بعد دقيقة من ذلك ستجبره رائحة البارافين على التقيؤ.

- أيمكنني الذهاب؟
- إياك أن تنسى ما رأيتني أفعله اليوم.

بعيداً، غاب المصباح عن مرمى البصر. رائحة البارافين لا تزال حاضرة لكنها تلبث في الخيال الآن. تلمّس طريقه بين الأشجار.

يتغلب على خوفه... خوفه على نفسه وخوفه من المجهول في آن معاً (فالخوفان مختلفان عن بعضهما). لا يتغلب عليه باللجوء إلى قوّة الإرادة أو عبر استجماع شجاعته - فكم من مرة نجح الإنسان في التغلب على خوفه عبر لجوئه إلى هذه الفضائل المثالية؟ بل من خلال شعور آخر أكثر قوة... إنه الاشمئزاز. يفوق قدرتي، أنا كاتب هذه الكلمات، أن أطلق تسمية محددة على شعور الاشمئزاز هذا... كل الأسماء التي تمكنت من استنباطها بسيطة سطحية لا توفي الشعور حقه ولا تعبّر عن تعقيداته. ليس للأمر علاقة بذبح الحصانين أو منظر الدماء. ذلك اشمئزاز يشعر به البالغون والأطفال، لكنه شعور سرعان ما يختفي ولا يعود مرة ثانية في ما لو تجاهله المرء بصورة منتظمة. أما بالنسبة إليه فهو شعور كان سيبقى دائماً أكثر قوة من أيّ مخاوف يشعر بها، ذلك أنه لم يتجاهله أبداً.

عندما هبط جي درجات السلّم في منزل فون هارتمان المزود بدرابزين والمفضي إلى قاعة الدخول المقببة الكبيرة التي تفضي أبوابها إلى غرف الخدم، انتابه الانطباع بأن رائحة البارافين كانت تتخلل ذلك الظلام البارد كالحجر. وهو أمر قد يكون مردّه إلى أن مصباحاً ما قد انكسر في ركن ما من المنزل الكبير.

-٩-

في الصباح الذي أعقب الليلة التي التقى فيها برفائيل ودكتور دوناتو في المقهى، والتهديد الذي تعرض له برميه، صدفةً، تحت قطار البضائع، مشى جي في اتجاه حديقة متحف لابيداريو وجلس هناك في ظل شجرة النخيل.

لماذا لم يغادر تريستي؟ كان ما زال بإمكانه أن يعود إلى ليفورنو أو لندن. كان بإمكانه أن يغادر مباشرة إلى نيويورك على متن إحدى السفن. بعد غرق سفينة لوستينيا تمَّ إلغاء العديد من الحجوزات. أكان ذلك قراراً نابعاً من عناد صِرف؟ لم يكن رجلاً عنيداً، العناد هو عبارة عن آلية دفاعية تُستخدم حول الحصون الحصينة. لم يكن فيه ما هو حصين سوى الشيء القليل. هل كان قد أصبح انتحاريّاً حينها؟ كان منذ خمس سنوات قد تلقى التهديد بالموت بصدر رحب- كانت كاميل محقة عندما شعرت بأنه كان ليحبها طوال حياته لو أن تهديد زوجها بإطلاق النار عليه كان جديّاً ودائماً. لكن تحدي الموت ليس كالسعي إليه. لا أعتقد أنه كان انتحاريّاً، كما لم يكن تشافيز من قبله انتحاريّاً أيضاً. ربما يكون لامبالياً مثله. ما الذي كان يبقيه في تريستي إذن؟ الحفل الخيري الراقص في مسرح المدينة. لن يكون في إمكانه أن يأخذ بثأره من فون هارتمان قبل ليلة الخميس تلك. لم يكن قادراً على رؤية شيء أبعد من ذلك. الحدّ الذي يمكننا أن نفترض أو نرى

بعده هو الحدّ الذي لا يمكننا عنده أن نكون هو. لكن ثمة شيء آخر يجب إضافته. لأن ما كان جي ينوي فعله في مسرح المدينة يناقض كل ما كان قد فعله منذ أن انتهت طفولته عندما قبّل ثدي بياتريس ووضع حلمتها في فمه لأول مرة، لا بدّ وأنه قد كان مدركاً للنتائج الكارثية التي ينطوي عليها فعله هذا. هو مدرك بلا شك للأيام المصيرية التي تعيشها تريستي. لكنه كان ينظر إليها كأحداث جانبية للحدث المصيري الذي يعيشه، ولذلك لم تكن تؤثر عليه بشكل مباشر.

رأته نوسا بمجرد دخولها من باب الحديقة. هذه المرة كان عليها أن تدفع رسماً للدخول. كانت لا تزال تحمل التذكرة بيدها. كان يحق لها بموجب هذه التذكرة أن تلقي نظرة على تلك المنحوتات التي ما زالت تحتوي على أجزاء أكثر من أجسادها والمعروضة داخل القاعة. لكن عينيها كانت مصوبة فقط نحو الرجل الذي كانت تراه الآن جالساً أمامها على حجر مكسور بين الأعشاب الطويلة تحت شجر النخيل.

كانت في الأمس قد فقدت الأمل برؤيته مرة أخرى. لكنها عزّت نفسها بفكرة أنه ربما يأتي إلى هنا كل يوم إلّا أيام الأحد. إلّا أنها عادت وفكرت في أن ذلك غير منطقي لأنها أول مرة التقته هنا كان الأحد الماضي. من جانب آخر، عادت لتجادل نفسها، لم تكن قد التقت به من قبل في أيّ من أيام الأحد التي أتت فيها إلى الحديقة بصحبة أخيها. عندما قال: آتي إلى هنا كل يوم ظهراً، إما أنه كان يكذب أو أنه قصد ظهر كل يوم إلّا أيام الأحد. إذا لم يكن يكذب حينها، فإن يوم الأحد الذي التقت به فيه كان شذوذاً عن شذوذ القاعدة. لم تكن تفكر بصورة منطقية في هذه العبارات المتناقضة، لكن تأملاتها هذه قادتها إلى خطة مباغتة غير متوقعة. غداً الاثنين ستذهب إلى المصنع وتتظاهر

بالمرض، وهكذا سيكون في إمكانها أن تذهب لترى ما إذا كان يأتي إلى حديقة هولدرلين خلال أيام الأسبوع. توقعت أنه سيتوجب عليها شراء تذكرة لتتمكن من الدخول، وفكرت في أن هذه الخطة قد تعرّضها إلى فقدان عملها. لكن لم تسمع طوال الأسبوع الماضي إلّا حديث الحرب مع إيطاليا، وأدركت أنه إن لم يغادر أخوها في وقت قريب فإنه لن يذهب أبداً.

مشت في اتجاه جي الذي كان يدير ظهره لها. لو أنه كان يراقبها لربما كانت قد جبُنت عن التقدم. بهذه الطريقة كانت تقترب منه وكأنه عقبة على الدرب الذي تسير عليه وعليها أن تزيحه من طريقها بوسيلة ما.

يفاجأ لرؤيته امرأة تتقدم نحوه بكل هذا التصميم. يعتقد أنها زوجة الحارس آتية إليه لتخبره أنه من المحظور الجلوس تحت الأشجار. عندما تصبح أكثر قرباً منه يتعرّف عليها وينهض واقفاً.

يحيّيها قائلاً: السلوفينية التي باحت لي بأسرارها!

- إذن تأتي إلى هنا ظهراً.

- نعم، غالباً ما آتي إلى هنا.

- لكن ليس أيام الأحد.

- لم آتِ البارحة، ماذا عنكِ؟

- أتيت لأبحث عنك.

– إذا ما أسعفتني الذاكرة، كان شقيقك، أو رجل محترم قال إنه شقيقكِ، قد قاطعنا في المرة الماضية.

– أريد أن أطلب منك شيئاً.

الطريقة الخرقاء التي تقول بها الكلمات السابقة – فقد قالتها بفظاظة بدت معها وكأنها تعطيه أمراً – تلهم جي بالفكرة التي يحتاج إليها.

– تفضلي، اسألي.

– قلت لي إنك إيطالي من قلب إيطاليا.

هزّ جي رأسه موافقاً ودعاها لتجلس إلى جانبه على الصخرة.

– سأجلس على العشب. –قالت–. بما أنك آت من بلد أجنبي، فلا بدّ وأنك تمتلك جواز سفر. هلا أعطيتني إياه؟ تقوُل العبارة الأخيرة باستخفاف شديد بالرغم من أنها طوال الأسبوع الماضي كانت تخشى ألّا تتاح لها الفرصة لتتمكن من قولها.

– ألم يسبق لكِ أن رأيتِ جواز سفر؟ ليس فيه الكثير مما يمكنكِ رؤيته. تجدين دائماً صورة شخصية لصاحبه في داخله.

بابتسامة مراوغة يسحب جواز سفره الإيطالي المزيف من جيبه ويعطيها إياه. تقلّب صفحاته بأصابعها، وتتوقف عند الصفحة التي تحمل صورته الشخصية. يبدو وجهه أبيض كياقته وهو يرتدي سترة وربطة عنق سوداوين. تتذكّر صورة كابرينوفيتش في صباح يوم اغتيال الدوق. الوجه مختلف لكن ذلك المستطيل الورقي الصغير الرمادي

والأبيض والأسود شبيه جدّاً بالصور التي تراها في المقبرة، بخلاف أن تلك الصورة كانت باهتة مطموسة الملامح بحكم تعرّضها لمختلف الظروف المناخية.

– لا أريد أن ألقي نظرة إليه وحسب، بل أريد أن أحتفظ به.

– إذا أعطيتكِ إياه، سيكون علينا أن نبقى أنا وأنتِ هنا معاً طوال الأيام الباقية من حياتنا. لا يمكنني الرحيل من دون جواز سفر.

– أحتاج إليه على وجه السرعة.

تحطّ فراشة على العشب بقربها. طيرانها، وثباتها، وجناحاها المنتصبان والمتطابقان، وبعد ذلك حركتها المرتعشة عندما تحلّق مرة أخرى، تجعلها تنتمي إلى نطاق زمني بعيد كل البعد عن نوسا وجي إلى درجة أنه لو طُبق عليهما للاحا وكأنهما تمثالان.

– لماذا؟

– لا يمكنني أن أقول لك.

– ولماذا أنا بالتحديد؟

– أنت الإيطالي الوحيد الذي أعرفه ويمكنني التحدث إليه.

– تريستي مليئة بالإيطاليين.

– لكنهم لا يحملون جوازات سفر.

– سأعطيكِ إياه بشرط واحد. أن تقبلي دعوتي إلى حفل راقص يُقام في مسرح المدينة.

كان بوجان محقّاً، تتمتم بالسلوفينية، وتحدق بكآبة في جذع شجرة الفاكهة الأقرب إليها. الأمر شبيه بالعودة إلى قريتها خلال سنوات الفقر. تتأمل في عناد هذا العالم. قال لها بوجان إن هذا الرجل يريد أن يحولها إلى عاهرة، وهذا ما يعنيه الإيطالي بالحفل الراقص في مسرح المدينة.

– أطلب منك جواز سفرك، تكرر بعناد وهي ما تزال تحدق في جذع الشجرة، وماذا تطلب مني أنت في المقابل؟

– في نهاية الحفل الراقص، عندما يعزفون لحن الفالس الأخير، ستحصلين على جواز سفري. ليس ثمة ما تخافين منه. لا أطلب شيئاً أكثر من ذلك. هذا وعد.

– أتعني بالفعل حفلاً راقصاً في مسرح المدينة؟

– وما الذي سأعنيه غير ذلك؟

– لن يسمحوا لي بالدخول.

– سنشتري كل ما أنت بحاجة إليه. فستان ووشاح وحقيبة وحذاء وقفازات وحلي ولآلئ... كل شيء. ستكونين ضيفتي.

– أنت لا تعرف ما الذي تطلبه مني. تبدو محتارة لكن من غير تجهّم. سيرمون بي خارجاً. سيقولون إنك أحضرت امرأة من الشارع إلى الحفل الراقص.

– ربما لا يعرف أيّ منا ما الذي يطلبه، يقول جي، لكنني سأفعل ما طلبتِه مني إذا فعلتِ أنتِ ما أطلبه منكِ.

– متى سيُقام الحفل؟

– يوم الخميس القادم.

– سيكون الوقت قد تأخر حينها. أعطِني جواز السفر الآن.

فراشة تلاحق أخرى وتطيران مشكلتان حلقات في الهواء الماثل قرب قدميها العريضتين وحذائها المزود بشرائط. الهواء يعبق برائحة العشب الأخضر. في قلب العشب الأخضر ثمة أزهار بيض وبنفسجية. اكتشافها أنها كانت مخطئة عندما ظنت أنه يريد أن يجعلها عاهرته يجعلها تتجرأ أكثر. تضع يدها على ذراعه وتنظر إلى وجهه بعينين متحفزتين. أعطِني إياه الآن. تقول.

– لن تأتي إلى الحفل الراقص إذا أعطيتكِ إياه الآن. أنت لستِ غبية.

– لا يمكنني أن آتي معك على أيّ حال. يجب أن أذهب إلى العمل.

– وماذا عن اليوم؟

– قلت لك، أتيت لأعرض طلبي عليك.

– سأدفع لكِ أجركِ عن ذلك اليوم.

- أعطِني جوازك اليوم وخذ معك امرأة أخرى. لماذا يجب أن تكون أنا من يذهب معك. ستعثر على قدر ما تريد من النساء الراقيات هناك.

- بحسب ما سمعت لن تندلع الحرب مع إيطاليا قبل الخميس المقبل.

- لا أعرف كيف أرقص كما يرقصون.

- فليذهبوا هم ورقصهم إلى الجحيم!

- إذن لماذا تريدني أن أذهب معك؟

يعلم أنها سترتاب منه مرة أخرى إذا أطرى عليها وغازلها. على درجات مسرح المدينة، صباح يوم الجمعة، أنتِ ستعطينني بطاقة الحفل الراقص وأنا سأعطيكِ هذا، يقولها وهو ينقر بإصبعه على جيبه.

- حسناً، تقول بهدوء لكن بفظاظة، سأذهب معك.

لم تبدُ الحديقة المهجورة بأشجارها غير المشذبة، وجدرانها التي تتسلقها الحشائش، وبقاياها الأثرية الحجرية البارزة بين العشب، ويعاسيبها وقططها أكثر جنوناً مما تبدو عليه الآن. توشك أن تغادر الحديقة الآن، لكن ما قالته للتوّ بين جدرانها سيؤثر على كل شيء آخر في حياتها خارج هذه الجدران من الآن فصاعداً.

يقبّل يدها بلطف. قابليني هنا غداً عند الحادية عشرة صباحاً وسأكون حينها قد عثرت على خياط لفستانكِ.

تتساءل ما إذا كان هذا الذي يحدثها شبحاً... لن يكون هذا أمراً مستبعداً أكثر من الأمر الذي وافقت على القيام به. أكثر شيء حقيقي يمكنها أن تفكر فيه هو احتمال أنها خلال الأيام القليلة التالية ستكون قادرة على سرقة جواز السفر.

- أتعلم ماذا يسمّى هذا المكان؟ تسأله.

- أجل، وأحب اسمه، il giardino del mueso lapidario

أما أنا، فبعد كتابة هذه الكلمات، فلم يعد بإمكاني نسيان هذه الحديقة أبداً.

***

أخبر ولفغانغ زوجته أنه، وبدافع من فضول صِرف، أجرى بعض التحقيقات بخصوص الشاب المدعو ماركو الذي يقبع في السجن الآن. قال لها، كل القصة التي رواها لنا جي ملفّقة. كان الشاب يحمل أوراقاً ثبوتية مزورة. وتلك القصة عن الأب المحتضر في البندقية كانت من نسج الخيال. كان ماركو يحاول أن يصل إلى إيطاليا ليتحدث كمندوب تريستي في الاجتماعات التي سيتم تنظيمها في كل مكان من قبل الحزب الإيطالي المؤيد للحرب. هناك ملفّ كامل عن نشاطاته وممارساته في الوزارة في فيينا. كان ينتمي إلى الجناح المتطرف من الحركة التحررية واكتسب شهرة كبيرة كخطيب. سألت ماريكا زوجها إذا كان يعتقد أن جي كان يعرف الحقيقة. لم يبدِ ولفغانغ أيّ رأي في هذا الخصوص لكنه أوضح لها بما لا يدع مجالاً للشك أنه ما زال مستعدّاً تماماً للالتزام بالاتفاق. ضاعف هذا الغموضٍ من نفاد صبر ماريكا. ستستسلم في البداية للرجل الذي كان دون جواناً، وبعد ذلك ستكتشف ماذا يريد منها.

***

اكتشف جي من هو أفضل من يخيّط فساتين في المدينة، وهي امرأة مسنّة من باريس. ناقش معها أيّ نوع من الفساتين يريدها أن تخيطه لنوسا. قال لها إنها يجب أن تبدو في هذا الفستان كملكة، بل كإمبراطورة. أوضحت له الخيّاطة أن نوسا كانت شابة وأن تجعلها تبدو جليلة يعني أن تجعلها تبدو أكبر سنّاً وهذا غير ضروري. أصرّ أنها ستبدو شابة بغضّ النظر عما ترتديه، لكنها يجب أن تبدو أيضاً صاحبة أمر ونهي. يجب أن تبدو كالملكة شيبا[1]، قال لها.

جاءت نوسا إلى الجلسة الأولى لأخذ القياسات مثل مجند يؤدي خدمته الإلزامية في الجيش. وقفت هناك صامتة ومتجهمة تأسرها أفكارها عن حياتها الخاصة التي كانت بعيدة جدّاً عنها في تلك اللحظة. لو أن باقي نساء قريتها قد مررن بالمحنة نفسها، لكانت بالتأكيد ابتسمت وهمست لهن ببعض الملاحظات المشاكسة. لم تكن خائفة لكنها كانت وحيدة في عالم غريب. عندما شاهدت انعكاس صورتها في إحدى المرايا، رأت نفسها في غرفة الخياطة تلك بعيون أمها أو بعيون بعض الفتيات في المصنع، فشعرت بالخجل، وتبقّع وجهها وعنقها باللون القرمزي، وهذا ليس لأنها كانت تشعر بالعار، بل لأنها كانت قادرة على سماع القصص التي ستُروى عنها. كانت قد تخيلت نفسها امرأة متزوجة، وأمّاً، وبعد ذلك عجوزاً تُحتضر على سريرها يوماً ما. لكنها لم تتصور يوماً أن ترى نفسها شخصية وحيدة ومحورية كما يجب أن تكون في القصة التي ستروى عنها. كانت تعلم أن ما تفعله الآن جائز ومبرر. ما كانت تفعله أو تسمح بأن يُفعل لها لم يكن عادلاً ومبرراً فقط، بل كان في سبيل قضية أكبر وأكثر عدالة. لكن أن تكون شخصية منعزلة ورئيسة فهذا يعادل أن

١- بلقيس: كانت ملكة مملكة سبأ الوارد ذكرها في الكتاب المقدس والقرآن.

تكون مجرمة. كان بإمكانها أن تتحدث عمّا كان يحدث لها إلى أيّ شخص. ما جعلها تشعر بأنها مجرمة هو الوحدة التي فرضتها عليها المؤامرة التي تحيكها. من دون أدنى قدر من التظاهر حاولت أن تفكر ببرنسيب وكابرينوفيتش وهما في سجنهما في بوهيميا، بينما كانت امرأة إيطالية تحمل بيدها شريط قياس تأخذ به أبعاد ظهرها وتمليها لامرأة أخرى تسجلها في دفتر مغلف بالمخمل.

رتّب جي للقاءات قصيرة تجمع بينهما كل يوم. التقيا في البداية في حديقة المتحف. بعد ذلك ذهبا إلى أحد المتاجر الذي كان جي قد اختاره مسبقاً ليشتريا غرضاً آخر خاصّاً بهندامها للحفلة. كانت نوسا تحمل معها كل يوم صرّة جديدة إلى غرفتها في الشارع القريب من ترسانة الأسلحة. وبمجرد أن تغلق باب غرفتها خلفها تفتح الصرّة وتخبئ محتوياتها في قعر خزانتها التي كانت تستخدمها كمخزن وخزانة للملابس في آنٍ معاً. كانت قد قررت مسبقاً أن تبيع كل ما حصلت عليه بعد الحفلٍ الراقص. ولهذا في اليوم التالي عندما وجدت عدداً من الأوراق النقدية محشورة في حذاء الرقص، لم تشعر بالغضب أو الإهانة. لم تبدُ لها تلك نقوداً أعطاها إياها رجل غريب، بل جزءاً من المبلغ التي كانت تأمل في الحصول عليه عندما ينتهي هذا الأسبوع الاستثنائي ويتوجب عليها العودة إلى المصنع لتكسب رزقها من جديد. لم تكن قد سنحت لها أيّ فرصة لسرقة الجواز.

معظم الذين كانوا يعملون على خدمتهما في المتاجر -الصاغة، وصانعو القفازات، والحذاؤون، وبائعو الخردوات - كانوا يتفاجؤون لدى رؤية رجل إيطالي محترم بصحبة فتاة سلوفينية من القرى (تبدو كأحصنة العربات، هكذا كانوا يقولون عنها بعد أن تغادر) لدرجة

فسروا معها الأمر بأنه ظاهرة غريبة وحسب. لكن البعض منهم لم يكن يقنع بهذا التفسير العبثي وأصابهم هذا المشهد بحيرة كبيرة. ما هي العلاقة التي تجمع بين هذين الاثنين؟ كانا يعاملان بعضهما بتهذيب كبير لكن برسمية مطلقة. لم يكونا يتحدثان إلى بعضهما إلّا إذا فرض الموقف ذلك. كانا ينظران إلى بعضهما بلا حقد أو ضغينة لكن من دون عاطفة بالقدر نفسه. لم يكن أيّ منهما يتظاهر بأيّ شيء تجاه الآخر. لم يكن هناك أيّ أثر للتكلف الذي يحدث بين العاهرة وزبونها. ليست على قدر كبير من الجمال. لكنها لم تكن لا زوجته ولا عشيقته: لم يكن هناك أيّ حميمية بينهما. لكن لماذا كان يشتري لها كل هذه الهدايا بكل عناية وبذخ؟ لماذا لم تكن تعبّر عن أيّ امتنان له. وإذا لم تكن ممتنة، لماذا لم تعبّر عن ضيقها من ذلك. كانت تبدو مشوشة في بعض الأحيان. لكنها في أغلب الأوقات تفعل ما يُطلب منها بصبر وهدوء وقدر معين من العفوية. احتمالان خطرا لأصحاب المتاجر الذين أصابتهم الحيرة من هذه الظاهرة. إما أن تكون إنسانة بلهاء وهذا الإيطالي يستغلها بطريقة أو بأخرى، أو أنه هو، الإيطالي، كان مجنوناً وهي خادمته التي تجاريه وتراعي وضعه.

***

كانت نوسا تأمل برؤية أخيها وتخشى من ذلك في الوقت نفسه. أرادت أن تعرف ما هي خططه الأخيرة، وفكرت في أنها قد تلمّح له باحتمال أن تجد طريقة تؤمن له من خلالها جواز سفر. في الوقت نفسه خشيت من أن يكون قد سمع أنها لم تكن تذهب إلى المصنع وأن يضغط عليها لتعترف له بحقيقة ما يجري.

أتى بوجان إلى غرفتها في وقت متأخر من مساء يوم الجمعة من

الأسبوع الأول. اكتشفت أن خوفها كان بلا داع. كان شارد الذهن ومشتتاً بسبب الأوضاع السياسية وطبول الحربِ التي تُقرع في كل مكان لدرجة أنه لم يسألها أيّ شيء عن أحوالها، وافترض أنها لا تزال تعمل في المصنع نفسه.

– يجب أن تعوّدي نفسكِ على تناول كميات قليلة من الطعام،– قال لها فجأة–، لن تخسري شيئاً إذا فقدتِ بعض الوزن.

– لا آكل كثيراً خلال الصيف أبداً. قالت.

– ستُهزم الإمبراطورية، هذا مؤكد، لا يمكن لها أن تنجو. وعندما تتداعى للسقوط وتتفكك، ستعاني كل المدن من نقص في الغذاء والموارد.

– متى ستذهب إلى فرنسا؟

– لم أحصل على كل ما أحتاج إليه بعد. يجب أن ننشئ منظمة متكاملة في المنفى.

– هل سيحدث ذلك قبل الأسبوع القادم؟

– لست متأكداً، لكنني سآتي لأودعكِ قبل أن أذهب، أعدكِ بذلك.

– إذا كان بوسعك الانتظار أسبوعاً آخر قد أتمكن من مساعدتك. سيكون ذلك أكثر أماناً لك.

– ماذا تقصدين؟

- انتظر وسترى.

تنهّد ونظر إلى الخارج من النافذة الصغيرة التي تطل على حوض السفن من فوق التلة حيث كان يتم تفريغ إحدى سفن الشحن من حمولتها. بدا الرجال صغاراً كالمسامير والأحصنة والعربات على الرصيف لم تبدُ أكبر من الخنافس.

أرادت أن تطلعه على المزيد، ليس بخصوص خطتها، بل بخصوص نيتها الحسنة. هل تذكر كيف وبّختني في الحديقة يوم الأحد قبل الماضي...

- عندما وجدتكِ بصحبة ذلك الـ «كازانوفا» البذيء؟ نعم أذكر. أترين؟ هذا الذي نخشاه الآن أكثر من أيّ وقت مضى، أن يستولي الإيطاليون على المدينة، وأن نستبدل طاغية بآخر. سنشعر بأن الطاغية الثاني سيكون أسوأ من الأول لأن بين الاثنين ستقبع فرصة الحرية التي ضيعناها من أيدينا. سيكون الإيطاليون أسوأ حتى من النمساويين.

- ما قلته لي يومها كشف لي أمراً مهماً. قالت.

استمر بالتحديق إلى خارج النافذة. الحجم الظاهر للرجال الذين يفرغون السفينة زاد من تشاؤمه. قال لها: لو تتأملين في إيطاليا التي حلم بها مازيني، وتفكرين قليلاً في غاريبالدي، وتنظرين إلى ما أصبحت عليه إيطاليا الآن...

- ستلتقي في باريس بصديقك. لم تجد أيّ طريقة أخرى لطمأنته.

- أجل، سألتقي بجاسينوفيتش. حياتي أشبه ببجعة تطير في الضباب نحو الضوء البعيد عنها جدّاً، لكنه ضوء لا يمكنها مقاومة ندائه. جاسينوفيتش هو من كتب هذا.

وضعت نوسا يديها على ظهر أخيها وذقنها على كتفه. كان رأساهما متدانيين في إطار النافذة الصغيرة. نظرا معاً إلى الأسفل نحو السفينة التي كانت أبوابها الأرضية مفتوحة. ببطء، ولمرة واحدة، دعك خده بخدها. كانت تلك بادرة رقة لم يكن ليسمح لنفسه بإبدائها عادةً، لكن الأثر البالغ الذي خلّفته العلاقة الوثيقة التي كانت تربطهما في الطفولة تغلب عليه في تلك اللحظة. شعر كل منهما بالأثر العميق الذي تركته صورة الضوء البعيد المنبثق من الضباب في الآخر. لم يكن الضوء يشكل لأيّ منهما رمزاً صريحاً للأمل. لم يكن ذلك شيئاً يمكنهما مناقشته في ما بينهما. لكن لقياس المسافة التي يبعد بها الضوء عنهما، كان على الاثنين أن يبدآ بالقياس منذ أول مرة علمها فيها كيف تقرأ.

التجربة الأخيرة للفستان كانت يوم الخميس من الأسبوع الثاني. خلال ثلاثة أيام ستحصل على أجرها، كانت لا تزال تعمل على الحصول على جواز السفر. كانت تحدق في الفستان العجيب الذي ترتديه في المرايا المزودة بمفصلات.

كانت التنورة مصنوعة من الحرير الأسود، ومطرزاً عليها على الطراز الهندي ثماني أو تسع زهور فاونيا حمر، وبضع من أوراق الورد الخضر الفضية، وثلاثة أو أربعة أغصان مبهمة تتدلى منها فاكهة زرقاء تشبه البرقوق البري. كان حجم كل ورقة من ورق الورد يعادل حجم كفها تقريباً. كان صدر الفستان مصنوعاً من الموسلين، ولونه

لا يختلف كثيراً عن لون بشرتها. كانت الأكمام قصيرة وفضفاضة وحوافها مزينة باللآلئ. حدقت في كتفيها وصدرها، كانت تبدو مستديرة وصلبة عبر الغشاوة التي يفرضها الموسلين، وفكرت: إذا كان هذا هو الفستان الذي اختاره لي، سأكون آمنة في الحفل الراقص، لن يجرؤ على لمسي وأنا مرتدية هذا الفستان. وبعد ذلك فكرت: صباح يوم الجمعة سأذهب إلى مكان إقامة بوجان بهذا الفستان وسأوقظه وأعطيه أجري وجواز السفر اللذين سيسمحان له بالسفر. وبعد ذلك فكرت مرة أخرى: سألفت الكثير من الانتباه إذا فعلت ذلك، يجب أن أخلع الفستان قبل أن أذهب لرؤيته.

بذلت جهدها لكي لا تفكر في أنها ستعود إلى العمل في المصنع بعد ذهاب بوجان. عندما تعمل على آلة التنعيم عليها أن ترطب أشرطة الخيش عبر سكب مادة مستحلبة عليها مصنوعة من زيت الحوت والماء. في كل مرة كانت أسطوانات الآلة تسحل الأشرطة المبللة لتعصرها على الأسطوانات الثابتة في الأسفل، يتلطخ وجهها بالمستحلب. بعض الفتيات كن يرتدين قماشاً مشمعاً. حاولت أن ترتديه لكنها وجدته ضيقاً جدّاً يقيد حركتها. وهي تحمل أشرطة الخيش من آلة التنعيم إلى العربة، كانت تبلل بلوزتها. اعتقدت في البداية أن رائحة زيت الحوت ستلتصق بها دائماً. لن تعود إلى ذلك المصنع أبداً إذا ما أسعفها الحظ وعثرت على عمل جديد.

كانت الخيّاطة تعدّل الحزام الأحمر الحريري العلوي. بدون قصد نخست ببراجمها ثدي الشابة الصلب. تحسست نوسا الزهور المطرزة الضخمة براحتي يديها. كانت التنورة ضيقة على وركيها. في بعض الأحيان وهي تلقم آلة التنعيم بأشرطة الخيش كانت الأسطوانات

تسحب الشريط وهي ممسكة به وتقبض الذؤابات الحادة على أظافرها وتنغرز بين أصابعها. ربّ عملها الجديد أحضر لها كريماً مرطباً ليديها وكان يطلب منها كل يوم أن تمدّ يديها ليقوم بتفحصهما بجدية ووقار ليرى ما إذا كانتا قد أصبحتا أكثر نعومة.

انتهت الخيّاطة من الحزام وحوّلت انتباهها إلى الدرزات الجانبية للتنورة. اعملي طية هنا، قالت لإحدى مساعداتها التي ترتدي وسادة للدبابيس كأنها كبّة من الشوك حول خصرها. شعرت نوسا بيدين تتحركان بخفة على طول الجزء الخارجي من فخذيها. امرأة أخرى كانت تعدل الأربطة حول عنقها. لمسات الأصابع الخفيفة التي تشعر بها دون أن تراها، كونها تعرف أنها يجب ألّا تحرك رأسها، كان لها تأثير منوم بعض الشيء عليها.

عندما كانت تمرض في طفولتها كانت تتخيل بجعة تأتي إليها وتحط على بطنها وكأنه سطح بحيرة. كانت تشعر بقدم غشائية تتحرك على طول السطح الخارجي لفخذيها. من مكانها فوق بطنها، وهي تحني عنقها الطويل إلى الأمام ورأسها متجه نحو الأسفل، كما تفعل البجعة عندما تبحث عن شيء ما تحت الماء، كانت تلقمها الطعام برفق ومحبة بمنقارها. ولدهشتها لم يكن طعم الأكل الذي تلقمها إياه زنخاً. لم يكن يشبه بأيّ شكل من الأشكال رائحة القنب. كانت البجعة تقدم لها أيضاً قطعاً صغيرة من الكعك لها طعم الكرز وبالكاد أكبر من ثمار الكرز.

مشت الخيّاطة بضع خطوات إلى الخلف ووقفت لتقيم عملها، يبدو رائعاً، قالت بصوتها الأجش وكأنها تحدث نفسها. جثت امرأتان على ركبتيهما لتوضيب حاشية الثوب.

- سيري بضع خطوات يا عزيزتي. قالت الخيّاطة.

مشت نوسا ببطء شديد في اتجاه المرايا وكأنها تسير في الظلام. إحدى المرأتين الجاثمتين على الأرض طلبت منها أن تلتقط الحاشية بيدها كما لو أنها ترقص. لم يكن لدى نوسا أدنى فكرة عن كيفية القيام بذلك. جي الذي عادة ما يوجد معها في هكذا مناسبات ليدلها على التصرف الصحيح إذا ما بدت مرتبكة، كان في غرفة الاستقبال ينتظر أن تظهر بالفستان المكتمل تقريباً. عندما أصبحت أكثر قرباً من المرآة، اندهشت مرة أخرى باكتمال رونقها عبر السديم الأسطوري للموسلين. مرة أخرى شعرت بوخزة من خيبة أمل لأن شقيقها لن يراها في هذا الفستان عندما ستذهب لتوقظه صباح يوم الجمعة. بعد ذلك قالت: يجب أن تُريني كيف أفعل ذلك.

***

اعتباراً من الساعة العاشرة من ليل العشرين من أبريل من العام ١٩١٥، بدأ أبناء المجتمع المخملي وعلية القوم في تريستي يتوافدون بعرباتهم وسياراتهم ويتوقفون أمام مدرجات مسرح المدينة حيث كان بعض الخدم يرتدون زيّاً رسميّاً أزرق وذهبي اللون ويقفون على أهبة الاستعداد لمساعدة الضيوف والأزواج على صعود الدرجات. لم يتوقع أحد أن تكون هذا الحفلة الراقصة شبيهة بتلك التي كانت تعقد قبل الحرب. أشار البعض إلى أنه ليس الأمر نفسه عندما تقود على طول طريق ميناء مولو في اتجاه الحفلة الراقصة من دون رؤية أضواء السفن تتلألأ في الخليج. لم يكن هناك سفينة واحدة تلطخ الظلام بأضوائها. بالرغم من ذلك كان الكثير من الحضور يتوافدون إلى الحفل الراقص، ربما لأن

الفكرة التي خطرت للجميع هي أن تلك ستكون الحفلة الأخيرة التي سيحضرونها لسنوات طويلة قادمة.

كان الحضور يضم زواراً إيطاليين ونمساويين بالقدر نفسه تقريباً. في معظم المناسبات العامة في تريستي كان النمساويون قلة، لكن تلك كانت مناسبة خاصة كونها حفلة خيرية راقصة لصالح الصليب الأحمر النمساوي المجري. أن يسجل الشخص حضوره في تلك الحفلة يعني أن يظهر ولاءه لقوات جلالة الإمبراطور والفخامة الملكية وأن يعبّر عن تقديره للإرادة الحديدية التي تغلبت بها هذه القوات على هزائمها، ومن هنا تأتي الحاجة الملحة لتوفير الموارد الطبية. كان هناك نمساويون كهلة وكبار في السن ممن اعتبروا أن واجبهم الوطني يحتم عليهم أن يرقصوا رقصة المازوركا.

الإيطاليون، الذين كان معظمهم آتياً من عائلات لها سمعتها وتاريخها في مجال التجارة والشحن البحري، كانوا أقل مثالية لكنهم لم يكونوا أقل حرصاً على نجاة الإمبراطورية وعلى أن يضعوا أنفسهم في عداد الداعمين المؤثرين والمخلصين لها. أعضاء الحزب التحرري استقوا قوتهم من الفئات العاملة والمثقفين. طبقة التجار ورجال الأعمال الإيطاليين كانوا حكماء بما يكفي ليتوقعوا بأنه من دون فيينا فإن تريستي لن تعني أيّ شيء كميناء تجاري. وإذا تغاضوا عن هذه الحقيقة كان يكفيهم فقط أن يسألوا أنفسهم لماذا كان منافسوهم في فيينا مسرورين جدّاً بتمويل التحرريين. كان الإيطاليون في الحفلة الراقصة متوترين. عندما كانوا يمضون إلى النافذة لاستنشاق بعض الهواء العذب كانوا يتوقعون أن يروا قذائف مدفعية تعبر الخليج.

أتي ولفغانغ فون هارتمان وزوجته بعربة. كانت ماريكا ترتدي فستاناً بلون الليلك والأخضر الباهت. شعرها، الذي يشبه لونه لون ظبي، كان مسحوباً بإحكام إلى الخلف. كانت تتنفس من فمها المفتوح قليلاً. بدا اليوم كله، وخاصة الجزء الأول من الليل، أبديّاً. تحلّت بالصبر، وأخذت حماماً، وجعلت مصفف الشعر يرتب لها شعرها مرتين. وهي تسير عبر قاعة الاستقبال تذكرت قولها: لو كنا في المنزل لذهبنا الآن بينما هو خارج الغرفة. على الأرض المرصوفة اقتفت أثر الدرب المفضي إلى الغابة. تنهدت. الانتظار لعشرة أيام أهرمها، ما كانت لتنتظر هكذا أبداً عندما كانت شابة. ما إن وصلت عربتهما إلى الساحة الصغيرة أمام مدرجات المسرح، حتى أمسك ولفغانغ بيد زوجته وقال لها إنها تبدو جميلة بصورة لا تقاوم. أحنت رأسها من دون أن تنبس ببنت شفة. بدت مقدمة رأسها مضيئة بالفوسفور وكأنها مبتلة بمياه البحر. تذكري، أنا لست كارينين، أنا لا أشبه أحداً، أتمنى لك أن تقضي وقتاً ممتعاً. عندما يكون شعرها أملس تسكنه قناعة بأنه يسيطر عليها بصورة مطلقة.

مضت عربتهما مبتعدة. وهما يصعدان المدرجات سمعا أحدهم يقول بالألمانية إنه بالرغم من أنه لم يشك يوماً بالأهمية المستقبلية للسيارات التي تعمل بالمحركات في التجارة والحرب، إلّا أنه لا يجدها مركبة تناسب جوّ الحفل الراقص، ومن غير اللائق المجيء بها إلى مناسبة كهذه. رفعت ماريكا عنقها إلى السماء. كانت نجوم درب التبانة واضحة تماماً. لحن فالس كان يعزف في قاعة الرقص الأولى.

وهي تلتقي بمعارفها، وتصافح المصافحين، وتبتسم للآخرين، وتتقبل المجاملات، كانت ماريكا تبحث بين الجماعات والأزواج لترى ما إذا كان جي قد وصل. أحد مديري فرع تريستي لشركة

سوباهان للسكك الحديدية، وهو رجل عجوز لكنه مفعم بالطاقة له عين تبقى نصف مغمضة دائماً، سألها ما إذا كانت ستتكرم عليه وتمنحه شرف أن يرقص معها أول رقصة مازوركا. التقطت بطاقة الرقص الخاصة بها ووضعتها في حقيبتها وكأنها تريد أن تنوّه إلى أنها ليست بحاجة إلى أن تفتحها لكي تعلم أن الرقصة الأولى ستكون المازوركا. ولكن فجأة، وقبل أن تغلق حقيبتها، غيّرت رأيها. ستؤدي رقصة المازوركا الأولى مع السيد المدير عندما يصل جي. شكرها. فتحت مروحتها الورقية وبدأت تنظر من خلفها إلى درجات السلم العريضة المغطاة بالسجاد الأحمر والتي تفضي إلى قاعة الرقص الثانية.

خلال الساعات القليلة التالية أراد معظم الضيوف أن ينسوا ما قد تأتي به الأيام والأشهر القادمة. لكن مع ذلك ما وجدوا أنفسهم مضطرين إلى قوله لبعضهم البعض ذكرهم حتماً ورغماً عنهم بالأيام القادمة في بلدتهم المهددة بأن تعصف بها الحرب في أيّ لحظة. كانت تحررهم متوقفاً على الموسيقى. بدت الموسيقى لهم مألوفة وأزلية في آنٍ معاً. كان الشعور بالطمأنينة يعود إليهم بمجرد أن تعود الموسيقى لتصدح بعد كل توقف، وبمجرد أن يطمئنوا ينتابهم إحساس بأنهم يرقصون في العالم نفسه الذي كانوا قد رقصوا فيه منذ أول حفلة حضروها.

لكن بالنسبة إلى المستمع المنعزل الموجود على رصيف البحر المهجور والذي لم يكن لديه ما يتبعه سوى أذنيه وذكرياته، قد يبدو وقع هذه الموسيقى مختلفاً. لم تكن لا أزلية ولا مألوفة بشكل كامل.

الفرقة الموسيقية، التي كان أعضاؤها يرتدون زيّاً أحمر وأزرق، كانت تنتمي إلى فوج عسكري نمساوي خدم على الجبهة الشرقية

وتمَّ نقله مؤخراً إلى تريستي استباقاً للحرب مع إيطاليا. لم يعد العازفون يؤمنون، كما كانوا من قبل، بزمن الفالس. كانوا يعزفونه، ليس ليملؤوا فراغ اللحظة الحاضرة، بل ليذكروا أنفسهم بمرارة بالزمن الماضي. كل الموسيقى الراقصة في البندقية كانت توحي بالحنين. لكن ذلك لم يكن حنيناً إلى ماضٍ مبهم يمكن دائماً استحضاره وحثّه على العودة. كان ذلك ندماً بسيطاً مريراً على سبعة أشهر وجيزة لا يمكن تغييرها رأوا خلالها الكثير مما يتمنون لو يستطيعون نسيانه. وهكذا بدون أن يعوا ذلك أو يفكروا فيه، بدؤوا يغالون في عزفه، وكأنهم ينتقمون منه.

دخل جي بصحبة نوسا مع انتهاء الرقصة. وقفا جنباً إلى جنب متفحصين وجوه الثنائيات التي كانت تغادر حلبة الرقص. كانت بطوله تماماً، ولا تشبه أيّ امرأة أخرى في الحفل. كان هذا واضحاً لكل من وقعت عيناه عليها.

أمسك جي بيد نوسا وسار بها في اتجاه فون هارتمان وزوجته. خيَّم الصمت على ذلك الجانب من القاعة وأدار العديد من الأزواج ظهورهم بتكبّر عندما مرّ جي ونوسا بقربهم. عرّف نوسا إلى السيد فون هارتمان وزوجته السيدة فون هارتمان، وكان ذلك يناقض كل آداب السلوك العام. بعد ذلك، بصوت جهوري، شكر المصرفي النمساوي على دعوته له إلى الحفل الراقص، وما إن عادت الموسيقى لتصدح من جديد، أمسك بشريكته ومضى بها بعيداً عنهما. تفرّس بهما فون هارتمان وهما يرقصان، كان وجهه جامداً وكأنه يرتدي قناعاً خالياً من أيّ تعبير. كان صوته عندما تحدث منخفضاً وهادئاً... الشيء الوحيد الذي فضح انفعاله الشديد كان اختياره للنبرة التي تحدث بها... أراد أن يجد تعبيراً قادماً من القاع نفسه الذي أتت منه المرأة الذي كان لدى جي الوقاحة الكافية ليحضرها معه إلى الحفل الراقص.

قال: يا لوقاحته! يأتي إلى هنا بصحبة لاعقة أطباق من العوام! ابتسمت زوجته. كانت تعرف من يكون جي، وقد ملأتها وقاحته بالحماس.

كان فستان نوسا يشبه زهرة سوسن تتضيق قبل أن تتفتح بالكامل، وعندما يكون لونها ثابتاً تنطوي على نفسها، لكنه كان زهرة سوسن مقلوبة رأساً على عقب، وبتلاتها تتجه إلى الأرض. لكن لم يكن فستانها هو ما يميزها عن باقي النساء في الحفل. جلّ ما فعله فستانها هو أنه أجبر هؤلاء اللواتي يحدقن بها على مقارنتها بأنفسهن. لو أنها أتت بملابسها العادية التي ترتديها كل يوم لكنّ اعتبرن أيّاً من هذه المقارنات سخيفة. خلال دقائق من وصولهما كان الجميع يتناقل خبر هذه الفضيحة ويعيد روايتها.

رجل إيطالي أحضر معه سلوفينية إلى الحفل الراقص. فتاة من العبيد «Slave» القادمات من القرى ترتدي الجواهر والموسلين والحرير الهندي بصورة شنيعة. وهي ترقص على أنغام الفالس، كانت تقوم بذلك كدب ثمل ممسكةً بشريكها قريباً منها وهي تجلد الأرض بقدميها.

ضابط شاب يرتدي زيّاً أزرق قال بجدية لرجل أشيب الشعر يبدو عليه الوقار إنه مستعد لتحدي هذا الطفيلي الذي كان لديه من الوقاحة والتهور ما جعله يحقّر الصليب الأحمر للإمبراطورية المعظمة. الرجل الوقور الأشيب القادم من البندقية كان جنرالاً حارب في سولفرينو. لو كان يتحدث الألمانية يا بني لكان تصرفك مبرراً. لكنهم قالوا لي إنه لا يتحدث إلّا الإيطالية، وفي هذه الحالة سيتوجب عليَّ أن أنهاك عن فعل ذلك.

الفالس دائرة ترتفع فيها حلقات الشعور وتنخفض. موسيقى توحد الانحناءات، وتوثقها ببعضها من جديد.

في أغلب الظروف يكون المجتمع الراقي في تريستي ماهراً جدّاً في إلحاق الأذى بأيّ شخص في وضع نوسا الحالي من دون أن يتخلى عن حصافته وحكمته. كان قلبها يخفق بقوة أكثر من المعتاد، وشعرت بأصابعها متشنجة داخل قفازيها. لكن كان هذا نتيجة الإثارة التي تشعر بها وحدسها بنجاح خطتها، وليس نتيجة الاضطراب الناتج عن الإحراج الذي تشعر به. حظيت بالكثير من الميزات الاستثنائية في الحفل الراقص. كان بإمكانها أن تعبر بين حشود الضيوف وهي بصحبة جي من دون أن ينخرطا في أيّ حديث. كانا يتنقلان من مجموعة إلى أخرى كعصفورين بين رؤوس الماشية. وكان ثمة موسيقى... موسيقى أقوى من البشر، وكانا يرقصان على إيقاع هذه الموسيقى. والموسيقى لم تكن غريبة عنها. صحيح أنها لم تكن تعرف كيف ترقص المازوركا، لكنها كانت تعرف كيف ترقص الفالس والبولكا، وهي ترقص مع جي، شعرت بالأمان. ما كانت لتمنحه ثقتها إلى أن يدفع لها أجرها. لكن في ذلك الوضع الغريب والمكشوف، عثرت على أشياء مألوفة أشعرتها بالطمأنينة. مثل الموسيقى، كما أن جي كان أيضاً من ضمن هذه الأشياء. أما السؤال المتعلق بسبب إحضاره لها إلى هنا فلم يعد يشغل بالها كثيراً لأنها كانت تعلم لماذا أتت معه إلى هذا المكان. كانت هناك لتحصل على جواز السفر. كانت قد راقبت جي باهتمام لعشرة أيام وكانت واثقة من أنه، بغضّ النظر عن دوافعه، لن يتركها من دون حماية. كان هناك أيضاً الثوب، والمجوهرات، والأزهار، والأشرطة. كان الناس يرتدون أفضل ما لديهم من ملابس ليظهروا في أبهى حلة، وهذا، هكذا شعرت، كان يحدّ مما يمكنهم فعله. ما ترتديه كان أيضاً نوعاً من الحماية. نظرات الكراهية التي كانوا يرمقونها بها كانت تصبح أقل وطأة وتتغير تعابيرهم عندما كانوا يدققون في غطاء رأسها وحاشية ثوبها، للحظة كانت عدائيتهم تتجلى

في مشيتهم. وقبل أن ترفع عينيها لتلتقي بعيونهم، كان بإمكانها أن تدير لهم ظهرها.

في إحدى المرات كان هو وهي أول من نزل إلى حلبة الرقص. كما توقع جي لم يكن أيّ من الثنائيات مستعدّاً للانضمام إليهما. رقصا بمفردهما. لكن بالنسبة إلى شابة مثلها علقت آمالاً درستها بعناية على رقصة بعينها، كان التخلي عن هذه الرقصة يكلفها ثمناً باهظاً لا قِبل لها بدفعه. لماذا كان عليها أن تقف هناك وشريكها ينظر إليها كحمقاء أو عبدة؟ رفعت يدها ووضعتها بحزم على كتف الرجل الذي كانت تأمل في أن تتزوجه. بانصياع تام أمسكها من خصرها. انضم إليهما بعض الثنائيات.

الفالس دائرة ترتفع فيها حلقات الشعور وتنخفض. موسيقى توحّد الانحناءات، وتوثقها ببعضها من جديد.

القليل فقط مما حدث في قاعة الرقص مرّ من دون أن يلاحظه جي. الاشمئزاز الذي لمحه في وجه فون هارتمان كان الآن قد انتقل إلى كل رجل وامرأة في الحفلة الراقصة. أراد أن يردّ على هذا الاشمئزاز بإهانتهم وتحديهم جميعاً. لكنه كان يعرفهم بما يكفي ليدرك أن إهانتهم أو تهديدهم في العلن أو الصراخ في وجههم أو إطلاق النار عليهم ما كان إلّا ليرفّه عنهم ويعزز موقفهم. كانوا كلهم مدمنين على السلوك المسرحي والادعاء والتمثيل. يجب أن يكون تمرده متواصلاً، ومراوغاً، وتصاعديّاً. وكونه قد عزم منذ عشرة أيام على القيام بما يقوم به، وكونه قد شرع به الآن، فقد كان غارقاً بكل ذرة فيه في موقفه الحالي وكأنه طيار في منتصف رحلته. لم يعد بإمكانه أن يتذكر دوافعه

أو يفكر في أيّ شيء آخر ما عدا ما ستسفر عنه هذه الليلة. كانت كل لحظة مشحونة بالتوتر والانتصار. تحدث إلى نوسا باحترام ولطف وكأنه كان يخاطب تمرّده.

غادر فون هارتمان قاعة الرقص. اعتقد أن الأوان قد فات على أن يأمر زوجته أن ترفض جي، ذلك أنها كانت ستعصي أمره بمجرد أن يرحل، وما سيزيد الطين بلة أنها كانت بدائية وعديمة الذكاء لتشعر بالإهانة المتعمدة في تصرف جي. تلك الإهانة العلنية كانت تعادل قوله: بعد لاعقة الأطباق يأتي دور زوجتك.

المازوركا هي سباق وموسيقى في آنٍ معاً تتغنى بالثنائي الفائز. طالما أن الموسيقى دائرة يكون كل ثنائي مستمرّ بالرقص ثنائيّاً فائزاً.

ماريكا، التي كانت تراقص ضابطاً شابّاً، تخيلت كيف سترقص مع جي بمجرد أن يغادر زوجها. عندما يبدؤون بالتندر وتحريك رؤوسهم باشمئزاز لرؤية زوجة المصرفي المهم وهي تراقص إيطاليّاً أتى إلى الحفل مصطحباً معه فتاة من العبيد، ستُري هؤلاء الموظفين الحكوميين واليهود والموظفين التافهين في شركات التأمين في هذه المدينة البائسة التي نسيها الله كيف يكون الازدراء!

انزوى ولفغانغ بقائد الشرطة بقرب النافذة وروى له قصة ماركو. يجب أن يتمَّ التحقيق معه على وجه السرعة، أضاف مشيراً إلى جي.

قائد الشرطة، الذي كان في سنّ ولفغانغ وصديقاً قديماً له، هزَّ رأسه قائلاً: لا، لا، هذا غير وارد أبداً. الرجل الذي يعمل في تنظيم سرّي لا يفتح العيون عليه بهذا الشكل.

– هنا يكمن مكره، فهو يعوّل على طريقتك هذه في التفكير.

– سلوكه هذا فيه شيء من الجنون ولا شك. قال قائد الشرطة الذي كان يحب أن ينظر إلى نفسه، بالرغم من أن زيّه التشريفي كان مزيناً كما ينبغي لزيّ جنرال أن يكون، على أنه عالم نفس في الأساس. تابع بعد ذلك، يعاني من نوع من الهوس الأحادي. تسكنه فكرة واحدة فقط تفترس عقله وروحه. هل لاحظت شكل وجهه؟ هذا شيء نمطي. هل لاحظت تلك النظرة الخبيثة في عينيه عندما يتسم؟ تلك ليست ابتسامة موجهة لشخص أو لشيء. هو يتسم لأن هذه الفكرة تخطر له للمرة المليون ربما.

– إذا كان قادراً على رقص البولكا فهو ليس مجنوناً أبداً. يجب أن تتحدث إليه. يجب أن يتمَّ التحقيق معه فوراً.

– هل تتوقّع مني أن أعتقله في منتصف حفل راقص؟

– بل عندما يغادر.

– لا، لا. أنا لم أقضِ جلَّ حياتي في دراسة علم النفس الإجرامي جزافاً. قد يتحول إلى قاَتل إذا ما هُدد وأصبح عنيفاً، لكن رجلاً مثله لا يمكن أن يكون متآمراً.

– وماذا إذا كانت الفكرة التي تفترسه من الداخل هي الإطاحة بالإمبراطورية؟

– أنا لا أخاف بهذه السهولة. عليك فقط أن تنظر إليه. جنونه ليس من هذا النوع.

– جنون! نحن نعبث بالكلمات هنا. يسكنني أحياناً الانطباع بأننا لن نترك خلفنا سوى ألعاب الكلمات. كيف لك أن تدعو شخصاً مثله مجنوناً؟ المجنون هو شخص لا يمكن السيطرة عليه ويجب أن يُحبس في زنزانة. في الحقيقة، المجنون غير مؤذٍ إذا ما قارنّاه به. ليس مجنوناً. ربما يكون ماكراً مليئاً بالشر، لكنه ليسَ مجنوناً. ما تدعوه جنوناً هو ما تعتبره أمراً مكروهاً لكنك لا تزال تسمح له بالاستمرار. الجنون هو الشيء الذي لا تزعج نفسك في السيطرة عليه! ليس من باب الجنون أن يحضر امرأة مثلها إلى هنا، بل هي إهانة متعمّدة. لا يشعر بشيء تجاهنا سوى الاحتقار، وهذا الشعور نابع من قناعته أنه هو وأصدقاؤه قادرون على تدميرنا.

– الاحتقار ليس جريمة. ومهما يكن، قلت لك وأكررها مرة أخرى، أن يحضر امرأة مثلها إلى هذه الحفلة ليس من الإهانة في شيء، لأن الإهانات، وكما قلت أنت، تكون محسوبة ومتعمدة، ولهذا تكون عقلانية، وما فعله ليس سوى ضرب من الجنون.

– يجب أن تحقق معه قبل فوات الأوان.

– صديقي العزيز، أنا وأنت نعرف بعضنا منذ سنوات كثيرة. أنت نفسك غير مقتنع بما تقوله. هل كانت مفاوضاتك المالية معه عسيرة إلى هذه الدرجة؟ أنا أتعاطف معك بشكل كامل، لا بدّ وأن التعامل مع شخص مجنون مثله في مجال الأعمال أمر صعب للغاية –ضحك قائد الشرطة– لا تجعلنا نثير فضيحة هنا!

– يجب أن أذهب الآن. أنا مغادر إلى فيينا الليلة.

- قد تكون على حقّ، سأضع في الحسبان ما قلته لي، لكنك لم تقنعني بعد. لقد أصبحت صعب الإقناع مؤخراً، قد يكون لذلك علاقة بكوني قد أصبحت أصمَّ نوعاً ما. لا تقلق على أيّ حال، سيكون كل شيء على حاله عندما تعود.

الفالس دائرة ترتفع فيها حلقات الشعور وتنخفض. موسيقى توحّد الانحناءات، وتوثقها ببعضها من جديد.

مع استمرار الحفلة، بدأ الإيطاليون يميلون إلى تحبيذ الرقص في الدور الثاني حيث تعزف الفرقة الموسيقية الخاصة بالمسرح والمكونة من أعضاء مدنيين. في كلا القاعتين كانت الفتاة السلوفينية التي ترتدي المجوهرات مثار الحديث وموضوع النقاش. كان الإيطاليون ساخطين لأن شخصاً من أبناء جلدتهم قد أذلّ نفسه وحقّر أبناء قومه هكذا. بعضهم قال: إن تصرفاً كهذا لا يمكن أن يصدر إلّا عن شخص من ليفورنو. آخرون ادعوا أنهم قد سمعوا من بعض المصادر أن أمواله آتية من العمل بالفاكهة المسكرة، وهذا ما يجعله أرقى بقليل من صاحب متجر. أما بالنسبة إلى النمساويين، فبعد أن زال أثر الصدمة الأولى، نبهتهم هذه القضية إلى صعوبة تهذيب هذه المناطق والزمن الطويل الذي سيستغرقونه لفعل ذلك، قد تكون مهمة لا طائل منها... الإعياء الذي أصابهم، والذي كان دليلاً على انخراطهم في هذه المهمة منذ زمن طويل، كان جزءاً من مصيرهم الثقافي. في هذه الأثناء، من الآن وحتى مطلع الفجر، كان بإمكانهم أن يرقصوا على موسيقاهم الخاصة. في قاعة الرقص الأولى كانت الألمانية هي اللغة الوحيدة التي تُسمع.

بعد رحيل ولفغانغ، أحجمت ماريكا عن الرقص تملؤها الثقة في أن

جي سيعثر عليها الآن. لكنه لم يفعل. تنقلت من مجموعة إلى أخرى متبادلة مع من فيها بضع كلمات وجيزة أثناء مرورها بهم. لم تتمكن من رؤيته في أيّ مكان في القاعة. مشت وهي تتمايل كعادتها، وقرناها غير المرئيين كانا ثابتين بشدة وهي تصعد درجات السلّم الكبير. لم يكن من الممكن العثور عليه هناك. دخلت القاعة التي أصبحت الآن قاعة الرقص الايطالية. وهي تصعد درجات السلّم مرت بقرب إحدى معارفها التي همست لزوجها: لا يمكن للسيدة فون هارتمان أن تشبع، أليس كذلك؟ لم يكن في قاعة الرقص الإيطالية أيضاً. استنتجت أنه لا بدّ وأن يكون الآن يضع الفتاة السلوفينية في عربة ليرسلها إلى بيتها. نزلت السلالم وكأنها ترقص.

المازوركا هي سباق وموسيقى في آن معاً تتغنى بالثنائي الفائز. طالما أن الموسيقى دائرة يكون كل ثنائي مستمرّ بالرقص ثنائيّاً فائزاً.

توقفت الموسيقى ليتمَّ تقديم العشاء، كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل. على إحدى الطاولات الكبيرة وضعت زهور وقوارير وكؤوس شمبانيا. وصل الضيوف، كان الإيطاليون والنمساويون مجبرين الآن من جديد على الاختلاط والتفاعل والضحك والقيام بمبادرات مبالغ فيها بعض الشيء وكأنه مع انقضاء منتصف الليل أصبح كل شيء أضخم وأكثر بساطة. الشبان، الذين تمَّت دعوتهم خصيصاً لهذا الغرض، ساعدوا في جلب الطعام من البوفيه. لم يكونوا خدماً بل أزواج المستقبل. كلما قدّموا طبقاً إلى إحدى السيدات كانوا يسألون عن حال ابنتها. تبخرت قوارير الشمبانيا. الكثير من الأنخاب رُفعت. في منتصف إحدى الطاولات كان هناك مسافة فارغة لا يجلس فيها أحد، وفي ذلك الفراغ جلس جي قبالة نوسا. راقبت ماريكا جي وهو

يرفع كأسه للمرأة الجالسة قبالته. شربا كأسيهما. علا صوت الحديث وسريعاً بدأت الضحكات تلعلع.

قلّة من الحضور فقط كانوا ما زالوا يشربون عندما عادت الموسيقى لتصدح من جديد. مرة أخرى كان الإيطالي وشريكته صاحبة الصدر الناهد تحت المجوهرات وصدرية الموسلين هما أول من نزل إلى حلبة الرقص. مرة أخرى كان الإيطالي وشريكته صاحبة العنق الذي لم يكن سميناً ولا نحيلاً وكأنه ساق أخرى من سيقانها هما أول من نزل إلى حلبة الرقص. مرة أخرى كان الإيطالي وشريكته صاحبة العينين الضيقتين المتعذر فك شيفرتهما هما أول من نزل إلى حلبة الرقص. ومرة أخرى لم ينضم إليهما أيّ ثنائي آخر. لكن هذه المرة كان من يحدق بهما يفعل ذلك بتعالٍ وليس بغضب. سُمعت بعض الضحكات والقهقهات. صرخ أحدهم: عودي إلى السيرك الذي هربتِ منه!

جذب جي نوسا إليه في الحال ليهمس في أذنها بعض الكلمات المطمئنة. الطريقة التي رقصا بها بعد ذلك، وهي تضع خدها على خده، بدت مستهجنة أكثر من أيّ وقت مضى، ما من أحد يرقص هكذا سوى الفلاحين.

الفالس دائرة ترتفع فيها حلقات الشعور وتنخفض. موسيقى توحّد الانحناءات، وتوثقها ببعضها من جديد.

لم تتفاجأ ماريكا لرؤيته عارياً وهو يرقص. ما فاجأها بالفعل هو رؤية أيره. لم يسبق لها أن رأت رجلاً يرقص على قدميه بأير منتصب. من شأن هذا الأمر أن يبدّل جسد الرجل كليّاً. لم يعد جسده ينتصب

بثبات على قدميه وهو واقف على الأرض. بدا وكأنه يركب على عصا ظلّت بالرغم من وزن جسده صامدة بثبات واتساق في الهواء تغيّر اتجاهها حسب حركة المرأة التي أمامها. امتطى هذه العصا متجهاً إليها، وقدماه ورجلاه متدليتان على الجانبين. كانت ذراعاه ترتفعان في الهواء ليحافظ على توازنه وهو راكب على تلك العصا. في السرير، عندما يُرى من فوق أو من الجانب، يبدو العضو الذكري كأداة أو كقطعة من الخضار، خيارة أو جزرة أو يقطينة، أو كسمكة. أما أيره، وهو يرقص الفالس، فكان من المتعذر تحديد شكله. كان أحمر. كان مندفعاً إلى الأمام في الاتجاه الذي يتقدم نحوه. رأسه كان يتحرك قليلاً من جانب إلى آخر وكأنه رأس فرس يعدو. بدا في أغلب الأحيان عند النظر إليه من زاوية مائلة وكأنه قد تمَّ تقصيره لدرجة أصبح معها جذعه غير مرئي. جلّ ما رأته كان الظلام والجمرة المتوهجة في المدخل إليه. كان باستطاعتها أن تشمّ رائحة الكبريت، قالت في نفسها، وكان ذلك يدوّخها.

الجنرال، الذي حارب في شبابه في سولفيرينو، اعتبر تصرف المتفرجين المقهقهين معيباً للغاية، وأنهم لا بدّ أن يكونوا ثملين ليتصرفوا بهذا الشكل. وما كان منه إلّا أن أمسك بيد ابنة أخيه وقادها نحو حلبة الرقص ليضع حدّاً لهذه المهزلة.

جلست ماريكا منتصبة في العربة التي سارت بها إلى منزلها. انتابها انطباع بأن ستائر سوداً كانت منسدلة على نوافذها. لا يمكن أن يكون للقصة سوى نهاية واحدة، هكذا فكرت. كانت الموسيقى ما تزال مسموعة عبر باب المنزل الأمامي.

في طريق العودة إلى مسرح المدينة جلست منتصبة في العربة، لكن

كان بإمكانها هذه المرة أن ترى ما يحدث خارج نوافذها. كان الميناء هادئاً جدّاً. بضع عربات كانت تغادر المسرح.

رويت هذه القصة عدة مرات خلال السنوات الثلاثين التي تلت. عندما قام المحاربون اليوغسلافيون باحتلال تريستي في العام ١٩٤٥، وعندما سقطت المدينة لأول مرة، ولفترة وجيزة، في يد المواطنين السلوفينيين، فقدت القصة جاذبيتها وبدت وكأنها مشينة ولا مصداقية لها. لكن الروايات كانت تتباين عند نقطة بعينها. الكل كان متفقاً على أن زوجة المصرفي النمساوي، المرأة ذات الشعر الأحمر، سحبت سوطاً من تحت دثارها وبدأت تجلد به امرأة سلوفينية، كان ظهورها في الحفل الراقص قد أثار الكثير من اللغط والامتعاض، نزولاً على السلّم وحتى خارج المبنى، أما النقطة التي تباينت عندها الروايات هي ما إذا كانت قد جلدت الرجل الذي كان بصحبة تلك المرأة.

بالرغم من أنها فارسة ماهرة، لم تكن ماريكا قادرة على التحكم بدقة بضربات سوطها، وبما أن جي كان إلى جانب نوسا، ربما كانت قد أصابته بجلداتها أيضاً. لكن لم يكن هناك أيّ علامات على جسده بينما تركت الجلدات ثلاث علامات حمر على جسد نوسا، واحدة امتدت على عنقها، واثنتان امتدتا من كتفيها إلى ظهرها.

عندما جرت نوسا هابطة السلالم في اتجاه المدخل هرباً من ملاحقة ماريكا، لحق بها جي وأمسك بالسوط ونزعه من قبضتها. بدأ الاثنان يقاومانها فما كان من ماريكا إلّا أن سقطت. هجم عدة رجال على جي. ملوحاً بالسوط في وجوههم، استطاع أن يخلص نفسه منهم وجرى هابطاً السلالم ملتحقاً بنوسا التي كانت قد أصبحت حينها في الشارع.

كانت نوسا تجري وهي ممسكة بتنورتها وحاشيتها ورافعة إياهما فوق ركبتيها. كانت قد فقدت غطاء رأسها، أو ربما كانت هي من حلّته ورمت به بعيداً كي لا يعيقها. أدركها جي. كان بإمكانهما أن يسمعا الصرخات والصيحات التي تلاحقهما. بضعة شباب كانوا يطاردونهما بملابس السهرة.

أمسك جي بيد نوسا لينتشلها إذا سقطت، وبدآ يجريان يداً بيد إلى خارج الساحة الصغيرة مبتعدين عن البحر في اتجاه مركز الصرافة. عرفت نوسا ما هي الوجهة التي تريد أن تصل إليها... الشوارع الضيقة المظلمة عند نهاية القناة. وهما يجريان وكل منهما ممسك بيد الآخر، يلهثان من دون أن ينطق أيّ منهما بكلمة واحدة ليدخرا نفسيهما للجري، تذكر جي تلك الفتاة من روما التي التقاها في ميلان والتي سحبته من تحت مؤخرة الحصان وركضت معه إلى الحديقة العامة. قالت له بالإيطالية، ستشتري لي جوارب بيضاً وقبعة مزينة حوافّها بالشيفون. بالرغم من ذلك بالكاد كانت تلك الحادثة تشبه الذكرى. كانت اللحظتان متواصلتين، كان لا يزال يجري على الدرب نفسه والفتاة التي كانت تجري معه كبرت لتصبح هذه المرأة التي ترتدي كل الملابس التي ابتاعها لها، والتي تجري الآن بسرعة، لكن بمشقة، إلى جانبه.

سلكا أول شارع يأخذهما إلى خارج الساحة الكبيرة في الطرف الأقصى من مركز البورصة. كانت نوسا قد بدأت تضعف. يدها التي تمسك بيده كانت غارقة في العرق. وجهها كان أحمر يتغضن من وطأة الألم والإجهاد. شاهدا دورية شرطة نمساوية مقبلة في الشارع الضيق نحوهما. مطاردوهما، الذين كانوا يجرون بسرعة أقل، انعطفوا

عند زاوية مركز البورصة. دفع نوسا إلى مدخل أحد البيوت وحاول أن يخبئها منهم لكنهم كانوا قد رأوهما وانتهى الأمر.

تمَّ الفصل بينهما في مركز الشرطة. عندما تُرك وحده تذكر جي وجه نوسا كما كان قبل أن يقتادوها بعيداً عنه. ومن جديد وجد من المستحيل إيجاد فارق واضح بين وجهها ووجه تلك الفتاة من روما التي التقاها في ساحة ميلان والتي رشّته بالماء وطلبت منه أن يشرب. كانت ملامح كل منهما مختلفة عن الأخرى. تلك الاستمرارية الغامضة كانت تكمن في تعابير وجهيهما. ليكسر هذه الاستمرارية ويتمكن من خلق مسافة فاصلة لحياته كبالغ بين الوجه الأول والثاني، كان عليه أن ينسى جبهتيهما المبقعتين، وفميهما والانفعال الشديد الذي كان يرتسم عليهما، وعيونهما الصامتة، وأن يتذكر فقط ما عناه له ذلك التعبير. ما كان يهمّ في المرة الأولى هو ما أكده ذلك التعبير وما كان حتى تلك اللحظة متعذراً التعبير عنه بالكلمات: وما كان يهمّ بعد ذلك هو أنه لم يكن ميتاً. الآن، في المرة الثانية، ما كان مهمّاً هو ما ثبّته هذا التعبير وما كان حتى تلك اللحظة متعذراً التعبير عنه بالكلمات هو: لماذا لا يكون ميتاً؟

-١٠-

أطلقت الشرطة سراح نوسا في ظهيرة اليوم التالي. معظم الأسئلة التي وُجّهت إليها كانت تتعلق بجي. عندما أخبرتهم أنها لا تعرف شيئاً عنه سألوها لماذا أخذها معه إلى الحفل الراقص. هزّت كتفيها. — هل أنت عشيقته؟ منعت نفسها عن الإجابة بالنفي.

- أرجوكم أن تسألوه هو.
- هل حدثكِ عن صديقه الإيطالي هنا؟
- لم يبدُ لي إيطاليّاً بالمرة. أجابت.

تعاملوا معها على أنها بلهاء، وبدا هذا مبرراً عندما أخبروها بأنه يمكنها الذهاب.

- هل لديكم أكياس ورقية قديمة لستم بحاجة إليها؟ سألت. -غمز أحد الحراس زميله-. يجب أن أستر نفسي. قالت مشيرةً إلى صدرية الموسلين المزينة باللآلئ التي تعلو فستانها. عثروا لها عن قطعة من كيس قديم.

عندما وصلت إلى الحيّ السكني القريب من مستودع الأسلحة، توقفت على زاوية كل شارع صادفها لترى ما إذا كان في الأرجاء أيّ شخص تعرفه... في منتصف الظهر تكون الشوارع خالية تقريباً. مشت بسرعة بمحاذاة جدران الأبنية وهي ترتدي كيس الخيش على

كتفيها. عندما وصلت إلى غرفتها خلعت ملابسها وجلست على طرف السرير وغسلت كتفيها وقدميها بمياه الحوض الباردة. كانت ترتجف. سألت نفسها: هل سيحافظ على وعده بإعطائي جواز سفره عندما يطلقون سراحه؟

***

الاستجوابات التي خضع لها جي كانت متلاحقة ومتشابهة لا يفصل بينها سوى أوقات قصيرة. التقارير التي أُرسلت إلى قائد الشرطة أكدت له أن انطباعه الأول عن جي في الحفل الراقص كان صحيحاً. وبعد أن قام هو بنفسه باستجوابه لوقت قصير اقتنع بما كان قد اعتقده منذ البداية. تمَّ إطلاق سراح جي صباح يوم الأحد بشرط أن يغادر البلد خلال ست وثلاثين ساعة.

الضيف الحجري

ذهبت إلى منزل أحد الأصدقاء لأرى الصور التي أحضرها معه من شمال إفريقيا. عندما دخلت إلى المنزل رأيت ابنه البالغ من العمر عشر سنوات وسلمت عليه. بعد ذلك بوقت قصير كنت مركزاً انتباهي على الصور ونسيت تماماً أمر الصبي.

فجأة شعرت بأحدهم يربّت على ذراعي بصورة ملحة. التفتّ بسرعة لأجد أمامي رجلاً عجوزاً أصلع كبير الأنف يرتدي نظارات ولا يزيد حجمه عن حجم صبي صغير. وقف هناك ومدّ إليَّ ورقة كان يمسكها بيده. (لنزيل الغموض من هذه الحادثة دعوني أخبركم من الآن أن الرجل العجوز كان الصبي ابن العشر سنوات وهو يرتدي

قناعاً. لكن لفترة لا تزيد ربما عن نصف ثانية لم أدرك ذلك. جفلت، وعندما رأى الصبي ذلك انفجر بالضحك، وعندها فهمت ما كان يحدث).

تفاجأت وصُدمت من حضور الرجل العجوز. كيف تمكن من أن يتسلل بهذه السرعة والهدوء؟ من يكون؟ ومن أين هو؟ لماذا اختارني أنا دون سواي؟ لم يكن هناك أيّ جواب مقنع لهذه الأسئلة، وغياب الأجوبة هو ما سبب لي الرعب. كان ذلك حدثاً يتعذر تفسيره. لذلك كان كل شيء وارداً فيه. لم أعد حينها محمياً بالسببية والمنطق. لهذا ربما لم يفاجئني حجمه، وهو أكثر شيء كان مستغرباً فيه. تقبلت حجمه كجزء من الفوضى التي خلقها حضوره.

لا أبالغ في استرجاع تعقيدات ولا كثافة ما تضمنته نصف الثانية تلك... يمكن لذاكرة المرء وخياله، عندما تتم استثارتهما بشدة، أن يعيدا إنتاج حياة كاملة في لحظة.

بمجرد أن شعرت بالرعب، وسُحب بساط السببية من تحت قدمَي، عرفت من يكون. لا أقصد أنني عرفت أنه كان ابن صديقي البالغ من العمر عشر سنوات. لكنني تعرّفت إلى الرجل الأصلع العجوز. إدراكي أنه شخص مألوف لم يخفف من حدّة خوفي بأيّ شكل من الأشكال. لكن حدث تغير ما. كان الخوف مألوفاً حينها أيضاً. كنت أعرف الرجل والخوف منه منذ نعومة أظفاري. انتابني شعور بأنني غير قادر على تذكر اسمه. برد فعل لاإرادي شعر ذلك الجزء الصغير الاجتماعي المشروط من نفسي بالإحراج. بالنسبة إلى هذا الجزء لم يعد الأمر يتعلق بسؤال كيف عثر عليّ، بل ماذا يجب أن أقول له.

أين كنت قد التقيت به لأول مرة؟ من المستحيل هنا أن أتجنب هذا التناقض الظاهري. لكن نظرة واحدة إلى الوراء في أعماق طفولتك ستريك أن هذا التناقض مألوف لديك أكثر مما تتصور. تعرّفت إليه ككيان يجسد الحضور اللامتناهي للمجهول. لم يحدث أبداً من قبل، ومنذ القدم، أن استحضرته في ذاكرتي في ضوء معرفتي... كان هو من سعى خلفي في ظلام جهلي.

لم يكن فيه شيء يوحي بالتهديد، لكن الإحساس بالخطر أتى من كونه مشمولاً ضمن اتفاقية كنت قد صادقت عليها. لقد نسيت الظروف التي أدت إلى هذه الاتفاقية. من هنا نشأ الغموض الأولي لحضوره. بالرغم من ذلك كنت مدركاً لأحد بنودها الأساسية، من دون أن أتمكن من تذكّره بحذافيره، ومن هنا أيضاً أتى ذلك الشعور بالألفة. العجوز الأصلع ذو الأنف الكبير والذي بحجم صبي صغير ويرتدي نظارات بدت سخيفة لكبر حجمها المبالغ فيه، كان قد أتى ليطالب بحقه الذي يمنحه إياه ذلك البند في الاتفاقية.

***

كان صباحاً من صباحات أوائل الصيف التي يشعر فيها المرء إذا لم يكن لديه ما يفعله بأن عمراً كاملاً سيمرّ قبل أن يحلّ المساء. كان البحر متصلاً بالسماء فوق تريستي عبر ذلك الأزرق اللامتناهي الذي يمحو الحد الفاصل بينهما.

كان الطقس جميلاً أيضاً في فرنسا وفلاندرز. لكن لم يكن أولئك الذين يستلقون على ظهورهم وهم يُحتضرون أو يعانون من آلام الإصابة يحدقون في السماء الزرقاء بذلك الشعور الواضح بالإيجابية كما وصف

لنا تولستوي ما كان يفعله الأمير أندريه في ساحة معركة أوسترليتز[1]. كلما ازداد صفاء النهار، تعاظم الاضطراب الذي يسببه الموت في الجبهة الغربية. كان الموت قد جُرد من أيّ أهمية له هناك، وبالتالي كان من الأيسر قبوله كظرف مناخي آخر، كالطين والبرد، في عالم غير مهيأ لوجود الإنسان أكثر مما يمكن تقبله في مناخ أو فصل مليءً بالوعود والآمال. كان يوماً صافياً وأجمل من أن يسمع فيه نواح أو نعيب.

ذهب جي إلى غرفته سيراً على قدميه وقبل أن يبدل ملابسه استلقى على سريره. أوراق الأفنثوس المطرزة على الستائر المخرمة ذكرته كيف كان قد تنبأ منذ عشرين يوماً بإغواء ماريكا. كزّ على أسنانه بغضب، لكنه لم يفعل ذلك نتيجة لما تذكره، بل لأنه لم يفعل شيئاً يُذكر خلال اليومين الماضيين سوى التذكر. ذكرياته بحدّ ذاتها لم تسبب له أيّ شعور بالأسى. كان قد حقق تقريباً كل ما يتمناه، وكان يتمنى أن يحدث الشيء نفسه مرة أخرى. ما كان يثقل عليه بشدة هو الشمولية التي استيقظت بها الذكريات، وأعدادها الكبيرة، أو بالأحرى القدرة الاستثنائية لشمولية هذه الذكريات.

وجد من المستحيل أن يفصل ذكرى عن أخرى، تماماً كما كان من المستحيل أن يفصل بين وجه نوسا ووجه الفتاة القادمة من روما.

---

١ - **معركة أوسترليتز** تعدّ من أهم المعارك التي دارت في قارة أوروبا والمعروفة أيضاً باسم معركة الأباطرة الثلاثة، وكانت أحد أهم النزاعات الحاسمة في الحروب النابليونية. وقعت معركة أوسترليتز في ٢ ديسمبر ١٨٠٥ بين قوات التحالف وهي الإمبراطورية الروسية بقيادة القيصر الروسي ألكسندر الأول والإمبراطورية الرومانية المقدسة بقيادة الإمبراطور فرانسيس الثاني من جانب، ومن الجانب الآخر الإمبراطورية الفرنسية بقيادة الإمبراطور نابليون بونابرت. انتهت المعركة بانتصار حاسم للفرنسيين.

بدا وكأن عقله قد تحول إلى قاعة مرايا كل انعكاس فيها يجسد شيئاً مختلفاً عن الآخر بالرغم من أن الانعكاسات كانت تتحرك في آن معاً. كان الأثر مناقضاً للأثر الذي تخلفه الذكرى عادة، فبدلاً من أنْ تعود به إلى طفولته، جعلها ذلك الكم الهائل من ذكرياته عن طفولته تبدو بعيدة بشكل لا يتصوره العقل. ذكرياته عن بياتريس، تلك الذكريات التي لم يكن يعلم أنه يمتلكها حتى، ملأت عقله واحدة تلو الأخرى، وكل ذكرى منها كانت واضحة للغاية، لكن كلّاً منها كانت لا تنفصل عن باقي ذكرياته مع نساء أخريات، وهكذا فقد تراءى له أن آخر مرة رأى فيها بياتريس حدثت منذ قرن مضى. هذا بالرغم من أنني لا أعبّر عن الحقيقة بدقة كافية. سيل الذكريات اللاإرادية والدقيقة والمتسلسلة التي ملأت عقله بدت وكأنها تطيل أمد حياته الماضية. في الواقع أنا من افترض هذه المعلومة الأخيرة. لكن كان صحيحاً بالقدر نفسه ألا شيء مما كان يتم تذكّره يمكن فصله عن الآخر ووضعه بصورة مستقلة في زمنه الخاص. بدت حياته المُتذكَرة أيضاً وجيزة ودفينة بشكل مفرط. كانت الذاكرة تمدد حياته وتضغطها بالتناوب، وتحت وطأة هذا العذاب، بدا الزمن خالياً من أيّ معنى.

سمعت ليلة الأمس أن صديقاً لي قد قتل نفسه في لندن. عبر وضع حروف اسمه الثلاثة مع بعضها، **JIM**، لا أعرف أبداً كيف أبدأ في إعادة جمع ما تناثر الآن. ولا يمكنني أيضاً الحكم على تصرفه هذا بالاستناد إلى تراجيديا الكلمة. يكفي بالنسبة إليَّ أن أتلقى، أتلقى وليس أن أدوّن وحسب، خبر موته.

ينبغي على جي أن يغادر المدينة خلال ست وثلاثين ساعة. لكن إلى أين يجب أن يذهب؟ المكان الوحيد المتاح له كان إيطاليا. ومن

هناك يمكنه المضيّ إلى مكان آخر. ربما كان قد تصوّر نفسه عائداً إلى ليفورنو ليعيش في منزل أبيه. مما لا شك فيه أنه فكر في احتمالات أخرى، لكن كل احتمال منها كان يقوده بشكل أو بآخر إلى العودة، وهذا ما لا يرغب فيه. هكذا بدأ ينسى أمر المكان الذي سيلجأ إليه. أصبح السؤال مختلفاً: إلى أيّ مدى يمكنه أن يذهب؟ لم يعد الزمن بحدّ ذاته هو ما سيأخذه بعيداً، ذلك أن الزمن كان قد أصبح بلا معنى. بل كان إدراكه لذلك هو ما جعله يذهب مشياً إلى غرفة نوسا ويعطيها جواز سفره. من خلال هذا التصرف كان سيمضي إلى أبعد مدى.

في ساحة بونتيروسّو يوجد كشك تبيع فيه امرأة الفاكهة. كانت المرأة، مثلها مثل نوسا، قادمة من كارست: استطاع أن يخمّن ذلك من ملامحها. اشترى بعض الكرز. وهو في طريقه شرقاً في اتجاه أحواض السفن، بدأ يأكل منها ويرمي بذورها على الطريق وهو يسير.

تماماً كما هو الجزء الأحمر من الكرز فيه دائماً لمحة من اللون البني التي ستتفسخ وتلين عنده الثمرة عندما تفسد، الكرز، بمجرد أن يصبح مستوياً بما يكفي ليؤكل، يصبح طعمه يشبه طعم الخمر الذي يُصنع منه.

مرَّ بقرب جماعة من الرجال يتحدثون بتجهم وبلغات مختلفة عن دنوّ الحرب. وكلما مضى أبعد، ازدادت ملابس الرجال الذين يمرّ بقربهم هلهلة وبلاءً، وأصبحت وجوههم أكثر انغلاقاً.

بسبب صغر حجم الكرز ورقّة لب الثمرة وقشرتها – والتي هي بالكاد أكثر قوة من السطح الشعيري للسائل – تجدون بذرة الكرز القاسية متناقضة معها. قد تعرفون ذلك أكثر مني، لكنكم تتوقعون دائماً

أن تكون الكرزة ذات كتلة لحمية كبيرة. تناول الكرزة لا يحضّرك بأيّ شكل من الأشكال لبذرتها. تشعر بأن بذرة الكرز هي مادة مترسبة من أفواهكم تشكلت بصورة غامضة من عمليه تناول الكرز. أنتم تبصقون الناتج من عملية أكلكم لها.

توقف مرتين ونظر خلفه لأنه كان يشعر بأنه ملاحق. جلس على أحد الجدران بقرب بعض المتاجر ولبث يراقب النساء وهنّ يصطففن للحصول على الخضار والخبز. كان هناك نقص في كل شيء في هذا الجزء من المدينة.

قبل أن تضع الكرزة في فمك وتقضمها بأسنانك، تكون نعومتها وطراوتها شبيهين تماماً بنعومة وطراوة الشفة.

كان عليه ألّا يسرع في سيره إذا ما أراد أن يواجه الزمن ويتحداه.

كان المنزل واحداً من المنازل الصغيرة المرتبة في صف واحد والتي تفتح أبوابها الأمامية مباشرة على الشارع. قرع أحد الأبواب فأتت امرأة مع اثنين من أبنائها إلى الباب. نظرت إليه بارتياب. سأل عن نوسا. سألته ما الذي يريده منها. تحدثت بإيطالية سيئة جدّاً. قدّم إلى طفليها بعض الكرز لكن الأم دفعتهما بعيداً قبل أن يتمكنا من أخذ أيّ منه. غرفتها في أعلى المنزل،- قالت-، سأرسل زوجي إلى الأعلى بعد عشر دقائق.

فتحت نوسا باب غرفتها في أعلى السلّم. كان شعرها محلولاً ومنسدلاً على كتفيها. -أنت!- أومأت إليه ليدخل وهي تنظر إلى أسفل السلّم وأغلقت الباب وراءه بسرعة.

- هل أحضرت جواز السفر معك؟!

كانت الغرفة صغيرة ولها سقف مائل. ترى في جانب منها سريرها وخزانتها، وعلى الجانب الآخر طاولة فارغة وكرسيّاً، وبينهما تقع النافذة المطلة على أحواض السفن. أفرغ الكرز الموجود في الحقيبة على الطاولة.

أطلقوا سراحي صباح هذا اليوم. -قال-. سحب جواز السفر من جيبه وأعطاها إياه. بدا لها أنهما قد خرجا من محنتهما ووصلا إلى غايتهما. أمسكت بيده بكلتي يديها. وضع ذراعه حولها. اقتربت منه ومالت إليه متخلية عن أدنى رغبة في المقاومة. كان شعورها بالظفر هائلاً لدرجة أنها للحظة افترضت أنهما يتشاركان الهدف نفسه. استندت إليه. لو أنه كان الأضعف بينهما، لكانت جعلته يستند إليها. بدا لهما وكأنهما قد نجحا معاً في الهرب ممن يطاردهما، وأصبحا الآن مستنزفين يعرجان من فرط الإرهاق، ولكنهما في أمان.

كانت تلك المرة الأولى التي وُجدا فيها وحيدين معاً بين أربعة جدران.

- شعرك أكثر نعومة عندما يكون منسدلاً. قال وهو يمسك بيده بضع خصلات من شعرها ويتركها تسقط برفق وحنان.

- يساعدني على إخفاء هذه! رجعت إلى الوراء وألقت بشعرها إلى الأمام لينسدل فوق وجهها وأرته علامة ضربة السوط الأرجوانية الممتدة من ظهرها إلى رقبتها.

يضع يده عليها ببطء بينما تبقى هي هادئة مستكينة وكأن طبيباً يفحصها. جلدة رأسها الظاهرة من بين خصلات الشعر شديدة البياض. رائحة شعرها تشبه رائحة أغطية السرير.

- يجب أن تضعي شريحة لحم نيئة عليها.

تقف منتصبة تعلو خديها حمرة ناتجة عن اندفاع الدم إلى رأسها، لكن اللون الوردي فيهما ليس متوازناً، بل موزعاً بوضوح في أوردة الدم، ومتشابكاً وشاحباً كتلك الأوردة التي ترى في قاعدة اللسان.

- شريحة لحم نيئة؟ تقول، ما كنت لأضعها عليها لو وقعت يدي عليها، بل سآكلها.

- هل الوضع أسوأ في بقع أخرى؟

- لا يمكنني رؤيتها كما يجب.

- دعيني ألقي نظرة عليها.

هو الشخص الوحيد الذي يمكنها أن تريه هذه العلامات، فهي في نهاية المطاف جزء من الرحلة التي حصلت من خلالها على جواز السفر. تدير ظهرها له وتُخرج أحد كتفيها من بلوزتها وصدريتها.

علامتان أخريان تمتدان على طول كتفيها الممتلئين والضخمين، لكن لم يكن الجلد الذي يغطيهما متشققاً. مسام جلدها غير المتضرر

تصدر نوعاً من الضوء لا يمكن تمييزه عن رائحة بشرتها. يلمس كتفيها بروؤس أصابعه.

- في الليلة الأولى لم أتمكن من النوم، شعرت بها وكأنها حروق ملتهبة.

عبر النافذة الصغيرة تأتي ضجة غير واضحة المعالم... ضجة غريبة مختلطة توحي بأصوات آدمية لكنها منتظمة بصورة يستحيل معها أن تكون كلاماً وناشزة جدّاً لتكون موسيقى. بضعة أصوات منها، صوتان أو ثلاثة، تتكرر بصورة متواصلة. بالنسبة إلى جي يبدو أحد تلك الأصوات مشابهاً لصيحة الـ «هب هب هب» التي يتذكرها من أيام طفولته. ينظر هو ونوسا إلى بعضهما البعض ويسيران نحو النافذة. هناك في الأسفل على رصيف الميناء يشاهدان أشخاصاً يركضون في اتجاه حلقة تجمّع فيها بعض الأشخاص الذين يلوحون بأيديهم. أحد الأشخاص الذين في الحشد يحمل بيده علماً نمساويّاً أحمر وأصفر.

- من هؤلاء؟ يسأل جي.

- لا أعلم.

وجهها هادئ لكن صدرها يغلي. يبدون مثلنا.- تقول-، أولئك الذين يعملون في حوض السفن.

تبتعد عن النافذة وتعدل ملابسها وتغلق الأزرار الصغيرة بيديها الضخمتين. يجب أن أذهب الآن وآخذ معي جواز السفر، تقول.

يريد أن يضع نفسه في موضع يتخلل منه كل أشكال كيانها الجسدي... صدرها الناهد، وشعرها الكثيف الذي تفوح منه رائحة أغطية السرير، وجلدة رأسها البيضاء، ويداها الضخمتان، وخداها، ومسام جلدها... أن يتسلل بين جسدها حيث تقف بقرب النافذة تنظر إلى الأسفل نحو رصيف الميناء، وبين وعيها بذاتها. يريد أن يحل محل ما تنظر إليه. يريد أن يقدمها كهدية لنفسها وأن يكون هذا العرض براءً من أيّ فضيلة. يريد أن يحمل الهدية فوق جسده ليشبع رغبته. لا وقت لدينا يا نوسا، يقول.

كان صوته مشحوناً باليأس عندما لفظ اسمها.

كانت تلك المرة الأول التي تسأل نوسا فيها نفسها ما الذي سيفعله من دون جواز سفره. ارتدت وشاحاً فوق رأسها. يجب أن نذهب. هبطا السلّم المظلم بسرعة.

عندما قال جي: لا وقت لدينا يا نوسا، ربما كان يشير إلى نفاد صبر نوسا لتسليم جواز السفر، أو إلى الحشد الذي يتجمهر على رصيف الميناء، أو إلى زوج صاحبة المنزل الذي يصعد درجات السلّم، أو إلى الست وثلاثين ساعة التي يجب أن يغادر تريستي خلالها، لكن لم يكن أيّ من هذه الحالات الطارئة والمواقف العصيبة يجسد عقبات لا يمكن تجاوزها، وكان في الماضي ليعثر على مئة طريقة ليلتف حولها ويجد لنفسه مخرجاً منها. كان لتلك العبارة معنى أكبر من ذلك.

كان سيل الذكريات الطاغية يجتاحه على مدى اليومين الماضيين. كان قد وصل إلى مرحلة شعر معها بأنه محكوم بأن يعيش حتى

حاضره في الزمن الماضي. كان ما لم يحدث بعد مجرد جزء من الماضي لم يُكشف بعد. عندما أخلوا سبيله من مركز الشرطة، شعر بأنه يعود أدراجه إلى الماضي، وذلك بغضّ النظر عن الاتجاه الذي كان يسلكه... يعود إلى تلك الحياة التي كان يعيشها قبل أن يعرض عليه فون هارتمان زوجته ماريكا ويخطط لأخذ نوسا معه إلى مسرح المدينة. كان كل قرار يأخذه، أيّاً يكن هذا القرار، يبدو وكأنه يعود به دائماً إلى الخيار الذي كان قد لجأ إليه من قبل، وهو خيار كان قد وضع في الحسبان كل ما يمكن أن ينتج عنه من عواقب. كل السبل التي أتيحت له كانت وهمية. رفض الزمن أن يواجهه. كان من غير الممكن الفصل بين رغبته في نوسا ويأسه.

(على العاطفة أن تقذف نفسها في وجه الزمن. العشاق ينيكون الزمن عندما يكونون معاً لكي يتفتح، يتقدم، يتوقف، ويعود إلى الوراء. الزمن الذي تضخه قلوبهم. الزمن الذي تهيّجه الأزلية ويبتلّ فرجه بشهوة الخلود. الزمن الذي ينفق نفسه في قذف الأجيال مع سائل شهوته). لا وقت لدينا يا نوسا، قال لها.

تصوّر شخصاً في أسطورة يصبح واعياً بنفسه كما كان وهو على قيد الحياة. الأسطورة خلقت وانتهى الأمر، وما عاد في الإمكان تغييرها. عدم إمكانية تغيير الأسطورة يُسبغ عليها شكلاً من أشكال الخلود. لكن هو، الحي والواعي في قلب الأسطورة التي تتمّ روايتها، والتي أعيدت روايتها عدة مرات، سيشعر بأنه قد دفن حيّاً. الزمن هو ما سيفتقر إليه، وليس الهواء.

هكذا هبط جي السلّم بصحبة نوسا.

كان الناس يقفون عند أبواب بيوتهم ويتحدثون معاً بأصواتهم المرتفعة. شاب ركض إلى أول الشارع وهبط التلة. لم يتمكن جي من فهم أيّ كلمة مما يقال، كان كل شيء بالسلوفينية. عدة شبان لحقوا بذلك الشاب وهبطوا التلة متجهين إلى البحر. طرحت نوسا سؤالاً على أحدهم. ومن ثم همست في أذن جي، لقد أعلن الإيطاليون الحرب، نحن الآن في حالة حرب معهم.

أمسك جي بذراعها. فات الأوان. -قالت-، مرددة الكلمات قريباً من وجهه، يا ليتك كنت قد أعطيتني إياه من قبل.

ركضت إلى أسفل التلة فلم يحاول أن يستبقيها. بعد مسافة قصيرة من هبوطها توقفت وتحدثت إلى رجل ما. رآها جي تشير إليه. ومن ثم تابعت جريها وهي ممسكة بتنورتها بيد واحدة وحذاؤها يصفع حصى الطريق.

تفاجأت نوسا عندما لم يسألها بوجان عن كيفية حصولها على جواز السفر سوى مرة واحدة. قالت له إنها عثرت عليه. اعتقدت أنه بوجود جواز السفر قد يكون ما زال هناك فرصة للرحيل... أغلب الظن أنهم سيسيّرون رحلة أخيرة بالقطار إلى إيطاليا غداً أو بعد غد.

وبالفعل وصل بوجان إلى فرنسا وأمضى عدة أشهر في مرسيليا حيث اشتبهت به الشرطة الفرنسية وبدأت تتحرى عنه. في تعميم صادر عن شرطة مرسيليا في شتاء العام ١٩١٥ ذُكر أنه مولود في ليفورنو، ويحمل اسم جي، بالإضافة إلى مهنته وعمره. يوجد رقم مرجعي للملف الذي يحتوي على الأغلب على صورة شخصية وتفاصيل أخرى له. لم يتمّ

ذكر أيّ نشاطات إجرامية - كما كان حال باقي الأسماء المذكورة في التعميم. بكل بساطة تمَّ إدراج اسمه كمشتبه به.

لم تقم وزارة الخارجية بأيّ محاولة لاقتفاء أثر الرجل الذي كانوا قد منحوه جواز سفر مزيف، افترضوا أنه مفقود، وميت على الأغلب. بعد ذلك بسنوات عندما كان ينشط في يوغوسلافيا ضد ظلم الملك ألكسندر، كان بوجان لا يزال يستخدم اسم جي المزيف كاسم مستعار (وهو الاسم الذي كان جي نفسه ليستخدمه لو أنه تربى في كنف والده).

مشى جي هابطاً التلة في اتجاه حوض السفن. عندما مرَّ بقرب الرجل الذي توقفت نوسا وتحدثت إليه، ابتسم الرجل ومن دون أيّ محاولة لإخفاء ما كان يفعله، بدأ يلحق بجي. لم يلبثا وقتاً طويلاً حتى التقيا بمجموعة مؤلفة من عدة مئات من الرجال يصعدون التلة في اتجاههم. كانت صفوف الرجال في المؤخرة منظمة جيداً وحملت جماعة منهم علماً نمساويّاً كبيراً. لكن الذين يسيرون في المقدمة، ومعظمهم من الرجال، كانوا مختلفين جدّاً يتقدمون وكأنهم موجة تنكسر وتعيد تشكيل نفسها باستمرار، وتواصل التقدم وهي تهمهم وتهدر. كل ما فيهم كان يوحي بالاختلاف، ملابسهم، وأعمارهم، ووجوههم، وخوذاتهم، وبنيتهم الجسدية، ولغتهم. كانوا قادمين من أماكن مختلفة... من قرى سلوفينية ونمساوية، ومن صربيا، وغاليسيا، واليونان، وبعضهم كان من تركيا وروسيا. لم يكن يجمع بينهم سوى الفقر والهدف.

مرة أخرى كان جي مدركاً لعبثية سؤاله: إلى أين يجب أن يذهب؟ ومرة أخرى بدلاً من الجواب، لم يفكر إلّا بعبارة واحدة: إلى أبعد مدى. بدأ يسير مع الحشد في اتجاه هدفهم.

كان هذا الحشد مختلفاً تماماً عن الحشد الذي كان قد رآه في لندن في اليوم الذي أُعلنت فيه الحرب.

كان الحشد في لندن جامداً ساكناً لا يعرف إلى أين يمضي. لم يكن يطالب بشيء، يجأر ويهدر محدقاً بعيون فارغة نافد الصبر للحصول على ما يريد. لكنه لم يكن يعلم ماذا يريد. كان حشداً ينتظر أن يسمحوا له بالدخول وينتظر أن يرسلوه إلى الخارج من جديد. وقف أمام شارع دوانينغ وكنيسة ويستمنستر ومقر البرلمان لا يقوى على انتظار أن يقدموا له مستقبله. ضحى بنفسه بتكبّر، من دون أن يدرك ذلك، في الهتاف. كانت هتافاته ستتحول إلى تدفقات من دمه تُقذف في الهواء لتسقط مرة أخرى على مقلتي عينيه المحدقتين تاركة خلفها ملايين العروق المحتقنة بالدماء التي تتدفق نحو الأوداج وتسدّ المنافذ متابعة طريقها نحو المعدة، ومسددة حرابها الطاعنة بدون توقف إلى الجراح التي لا يشبع نهمها للدماء، تاركة بضع قطرات من الدماء تتقطر من شفة الجرح إلى شعر العانة. كان هناك العديد من النساء في الحشد يشققن طريقهن عبر دفع ظهور الرجال بأيديهن، أخرجوهم من الطريق، أجهضوهم مع الدماء التي ذُرفت في ساحات ستراند وترافلغار حيث انطرح، هؤلاء الرجال–الأجنة، لا يكسو أجسادهم لا شعر ولا ريش، بل مجرد كومة من اللحم والعظم. وبالرغم من ذلك عندما تفرّق ذلك الحشد اللندني في اليوم الأول من الحرب، فعل ذلك برصانة وهدوء... النساء والرجال عادوا إلى بيوتهم وهم ما زالوا يدعون بعضهم البعض بأسمائهم العادية، غير مدركين ما الذي بدؤوا به، لكن نفوسهم كانت تطفح بالبهجة والفخر.

الحشد في تريستي لم يكن مبتهجاً ولا فخوراً ولا هادئاً في يوم

إعلان الحرب مع إيطاليا. تقدموا رافعين قبضاتهم وبدؤوا بالمسير كثمل واثق من وجهته لكنه متردد أيّ طريق يسلك.

في بعض الأحيان كان الرجال يركضون إلى الأمام وهم يلوّحون بأيديهم. أحدهم كان يحمل جرساً يقرعه وكأنه منادي المدينة، لكنه لم يكن يرتدي زيّاً رسميّاً وكان جرسه أسود وصدئاً. ربما كان جرس إحدى السفن الذي عثر عليه أحدهم في وحل الميناء. كانت الوجوه تملأ النوافذ، والرقاب تمتد منها. إنها الحرب! صرخ الرجال في الشارع. تعالوا واشهدوا على ما سنفعله! بعض الجماعات بدأت بالغناء لكن لا شيء من ذلك استمر لوقت طويل.

مشى جي خلف طلائع المقدمة مبتعداً عنهم مسافة قصيرة في منتصف الحشد المتدفق. بالرغم من أنه خلع سترته وكان يسير بقميصه، إلّا أن ملابسه جعلته ملفتاً للانتباه. الرجل الذي تحدثت إليه نوسا كان لا يزال يسير خلفه مبتعداً عنه بضع خطوات فقط، وكلما حاول أحد الاقتراب من جي أو التحدث إليه، كان يسارع إلى التدخل لمنعه متحدثاً باللغة السلوفينية التي لم يكن جي يفهمها، وكلما رأى الرضا يرتسم على وجه من يسأله ويكتفي بالإجابة التي حصل عليها، كان شعور جي بصواب ترك كل القرارات للرجل الذي يسير في أعقابه يصبح أقوى.

بمجرد أن شقّ الحشد طريقه في الاتجاه الشمالي الغربي نحو مركز البورصة والجزء الإيطالي من المدينة، بدأت شخصيته تتغير. التناقض بين رثاثة مظهره وأناقة الشوارع التي كان يتقدم فيها أصبح شديداً جدّاً. عندما وصل إلى ترسانة الأسلحة كان قد بدا وكأنه حشد

من العمال العاطلين عن العمل أو محدودي الأجور... أما الآن، في هذه الشوارع، فقد بدا كجيش من المتسولين.

رجل يسير بقرب جي رمى حجراً (لا بدّ وأنه كان يحمله بيده منذ انطلاق المسيرة) إلى واجهة أحد متاجر البقالة. انكسر زجاج الواجهة. بدأ الرجال يحطمون ما تبقى من الزجاج بأيديهم التي لفوها بقمصانهم أو معاطفهم لكي لا تتأذى. عندما تمكنوا من الوصول إلى السجق والجبنة بدؤوا برميها إلى الحشد. مرّت دورية شرطة نمساوية بالقرب منهم، وغضت الطرف عن هذا المشهد. صاحب المتجر الذي ملأه هذا المشهد بالرعب بدأ بإعطاء قوارير النبيذ إلى الأكف القريبة المندفعة في اتجاهه وهو يقول: إنه نبيذ جيد، ويكررها بلا توقف كما لو أنه يقنع الزبون بجودتها ليتمكن من بيعها.

الضغط القادم من الخلف أجبر الحشد على المضي إلى ما وراء متجر البقالة. لكن تلك الحادثة جعلتهم واعين بأنهم محصنين مؤقتاً ضد القانون. عندما شاهدوا مجموعة من الرجال المتأنقين بدؤوا بالصياح متوعدين: فلتسقط إيطاليا! وفي أحيان أخرى كانوا يصيحون: أثرياءٌ بالسرقة! أصبحت الشوارع فارغة. وهذا غيّر شخصية الحشد مرة أخرى. في الجزء الخاص بهم من مدينتهم كانوا عبارة عن مشهد يجتذب الآخرين إليه. أما هنا فقد عطلوا كل شيء. كان من غير الممكن أن يخطر لهم، كما كان قد خطر من قبل للحشد في ميلان في العام ١٨٩٨، أن يستولوا على المدينة. لم تكن لديهم رغبة في إقامة حكمهم أو نظامهم. تمنوا فقط أن يخلقوا مساحات فارغة في الشوارع والساحات يمكن أن يحدث فيها أيّ شيء من دون نظام أو قانون.

ربّت الرجل الذي خلف جي على ظهره وأعطاه قارورة نبيذ مفتوحة ليشرب منها. وهو يشرب انسكب القليل من النبيذ على قميصه. على الرغم من أن الحشد كان يسير بصورة عشوائية على غير هدى، إلّا أنه شعر بأنه ولد مع هذه التظاهرة كجسد في كفن. نظر عالياً إلى الأبنية التي كانوا يمرون من بينها. عمود مجسم بعد آخر كان ينوء بصمت بحمل الأقواس الموضوعة لتُظهر ثقافة هؤلاء الذين يقيمون خلف النوافذ والأبواب.

الأفعال الجنسية، مثلها مثل الأحلام، ليس لها مظهر خارجي، إنما تُمارس بصورة مقلوبة، من الداخل إلى الخارج، ويكون مضمونها سامياً، وما يعتبر عادة مرئيّاً يصبح فيها جوهراً غير مرئي.

في إحدى غرف الطوابق العليا كانت لويس مستلقية على ظهرها. كان يضع يديه حول ركبتيها، ولسانه في كسها. لم يتذكر سوى طعم الخمر الذي كان قد شربه. ببطء سرت رعشة من أحد فخذيها إلى الآخر كموجة. ومن ثم عادت لتسري من جديد في الاتجاه المعاكس. حبة رمل حُملت في اتجاه ومن ثم عادت لتحمل في الاتجاه الذي أتت منه بحركة متناوبة. من حبة الرمل ومن الحماوة بين ساقيها ولدت أذن كلب. أذن مدببة. الفرو على السطح الخارجي من الأذن كان أكثر نعومة وانسياباً من بشرتها. الجزء الداخلي من الأذن كان زهريّاً شفافاً. من الأذن ولد دورق من الحليب. تحت سطح الحليب، كان ثمة أشجار تصعب رؤيتها تحت ابيضاضه ولم يكن فيها إلا الخشب، أشجار شتوية بلا أوراق. انسكب الحليب من الدورق على حضنها. في بعض الأجزاء كان الحليب يتجمع في برك صغيرة، وفي أجزاء أخرى كان يسيل، قطرات الحليب المعلقة بدت كثمرات توت

أبيض في شعراتها. كان بإمكانه رؤية أغصان أشجار الشتاء في الآثار التي رسمها الحليب. الرجل الذي كان يحمل الجرس بدأ يقرعه من جديد. انظروا إلى منازلهم! إلى أبعد مدى! إلى أبعد مدى! صعدت الكلمات إلى حلق جي لاإراديّاً لكن بهدوء. كانت مفاجئة له تماماً كما كانت مبهمة لهؤلاء المحيطين به. إلى أبعد مدى! إلى أبعد مدى! مشى مرجعاً رأسه إلى الوراء محدقاً في السماء الزرقاء.

انعطف الحشد ليدخل إلى ساحة سان جيوفاني وملأ كل ركن فيها خلال دقائق. في مركز الساحة كان هناك تمثال ضخم لرجل يجلس بارتياح على كرسي مظللة بالأشجار. كُتب على قاعدة التمثال «فيردي». كانت هذه الأحرف تكوّن اسم الرجل الذي ألّف أوبرا ريجوليتو[١]، لكن في تريستي كانت تعني أيضاً فيتوريو إيمانويل ملك إيطاليا. صعد رجلان إلى حضن التمثال وشرعا يضربان الرأس بقضبان حديدية. كان بالإمكان رؤية الصدمة الناتجة عن كل ضربة ترجرج أعلى ذراعيهما وكتفيهما. كانت النساء تمضي من باب إلى آخر حول الساحة لتجدن مدخلاً إلى المباني. جميعها كانت مقفلة أو مسدودة بالقضبان. بين الحين والآخر كان يظهر نصف وجه مختبئ خلف درفة النافذة، ينظر بحذر إلى الأسفل ليرى الساحة المكتظة بالبلطجية. بعض الشبان تسلقوا الأشجار. سُمع فجأة صوت زجاج يتحطم. كان هذا الصوت بمثابة إشارة معدة مسبقاً. كل من كان على أطراف الساحة بدأ يرمي بكل ما تقع عليه يديه على النوافذ غير المحمية بدرفات خشبية.

١- ريغوليتو أو ريجوليتو هي عرض أوبرا من ثلاثة فصول. قام بتأليف موسيقاها الايطالي جوزيبي فيردي وصاغها شعراً فرانشيسكو ماريا بياف وهي مأخوذة عن مسرحية للكاتب الفرنسي فيكتور هوجو بعنوان الملك يمرح. وعرضت لأول مرة في ١١ مارس ١٨٥١ في البندقية.

خلف النوافذ كانت تقبع ممتلكات هؤلاء الذين استفادوا من وجود تريستي على وجه الأرض. هؤلاء الذين كان يبرحون رأس فيردي ضرباً ويحطمون النوافذ بين الأعمدة المجسمة كانوا يكرهون وجود هذه المدينة، وقد أتوا ليثأروا من وجودهم المفروض عليهم هنا. كانوا هنا ليثأروا بأكبر قدر ممكن من السرية والعدائية، من دون أن يعرّضوا أنفسهم للمزيد من الخطر، لجزء صغير مما عانوه منذ أن أجبرهم الفقر أو أجبر آباءهم على الرحيل عن قراهم ليستقروا على أطراف هذه المدينة الأجنبية. كانت السلطة الحاكمة للمدينة نمساوية لكن جوهرها كان إيطاليّاً، وهكذا كانت أسماء الشوارع والساحات، وهكذا كانت لغة التعاملات التجارية عديمة الرحمة. قلة قليلة من الحشد فقط كان لديهم نظرية سياسية، لكنهم جميعاً كان يعرفون شيئاً واحداً يجهله طلاب وأساتذة الجامعة إلى حدّ كبير: كانوا يعرفون أن ما حدث لهم في قراهم هو جزء مما حدث معهم عند وصولهم إلى تريستي وبات يحدث كل يوم في حياتهم هنا. وحدة المصير تلك كانت تاريخية. يمكن للنظريات أن تتبنى وتعرّف هذه الوحدة. لكن بالنسبة لكل واحد منهم كانت معرّفة بالوحدة التي فرضتها عليه معاناته في حياته.

- حطّموا رأسه!

- اقتلعوا أذنيه!

- اخلعوا النوافذ والأبواب!

ألم يخبركم أحد عن منازلكم من قبل؟ اكتشفت ذلك منذ زمن طويل. تسيرون بترف، في أيّ مدينة في أوروبا، عبر تجمعات سكنية ثرية في الشارع الذي تطل عليه بيوتكم أو منازلكم. أطر نوافذها ودرفاتها قد

طليت حديثاً لكن لونها بالكاد يميزها عن الواجهات المحيطة بها، وهو لون يمتص أشعة الشمس لكنه يصدر وميضاً حبيبيّاً كفوط المائدة الكتانية المنشّاة. تنظرون إلى الأعلى نحو النوافذ المزودة بستائر ثابتة لا تتحرك وكأنها قُدّت من حجر، ترون تشكيلات الشرفات المعدنية التي تحاكي النباتات، تحملقون في الزخارف الملونة والزهرية التي تعود إلى مدن أخرى وأزمنة أخرى، تمرون بالقرب من أبواب خشبية مصقولة لها عوارض وأجراس نحاسية... صمت الشارع المتشكل من أصوات حشد بعيد بالكاد يمكن تمييزها... حشد مكون من أشخاص كثر يمكثون في مكان بعيد جدّاً عن مطالبهم الفردية، عن شهيقهم وزفيرهم الذي يندمج في صوت تنفس متواصل لا توقفه نقطة ولا تفصله فاصلة... وبعد ذلك، هكذا على حين غرة، تدركون بصدمة تهزّ أركانكم أن كل مسكن، مهما كان ثابتاً وراسخاً، هو عارٍ، ومنتهك، ومغتصب لا تستره قطعة قماش واحدة.

- أحرقوا المكان عن بكرة أبيه!

سرت شائعات تفيد بأن حشداً آخر قد أضرم النار في مبنى الجامعة الوطنية Liga Nazionale. قد يكون عميل نمساوي هو أول من اقترح إنشاء مكتب صحيفة إيل بيكولو. مئة من الرجال تقريباً، من ضمنهم جي، هرعوا إلى هناك قادمين من ساحة سانت جيوفاني.

بعض الرسامين والصحفيين الإيطاليين بمن فيهم رفائيل وصلوا إلى مكتب صحيفة بيكولو لينجزوا أعمالهم المسائية. الصيحات الصادرة من الشارع اجتذبتهم إلى النوافذ. شاهدوا جماعة من الرجال يلوّحون بالعصي وآخرين يحملون صفائح ويركضون في الساحة متجهين إلى

مدخل المبنى. هذه حثالة حوض السفن! قال رفائيل وبقوله ذلك كان قد صاغ العبارة التي كان سيستخدمها دائماً عند وصف أعمال الشغب تلك. أغلقوا الستائر والدرفات، أعطى أوامره. بعد ذلك رفع سماعة الهاتف وطلب إيصاله بمركز الشرطة. الأمر ملحّ لا يحتمل التأجيل، قال.

من مكانه قرب الستارة استطاع أن يرى عبر الشقوق طلائع الرجال الذين وصلوا إلى المبنى. سُمعت أصوات ضرب وطرق وزجاج يتحطم. كانوا يحطمون المصباح المعلق في مدخل المبنى. كان بإمكانه أن يسمع وقع أقدام رجال آخرين يصعدون الدرجات الحجرية إلى مشغل الطباعة. فجأة أغلق سماعة الهاتف وألصق أنفه بلوح النافذة الزجاجي ليتأكد مما رآه. شاهد جي تحيط به عصبة من الأشخاص يشير بيديه إلى نوافذ الدور الثاني بحركات انفعالية. شعور الدهشة الذي انتابه في البداية تراجع ليحل محله شعور غريب بالرضا. في موقف خطير وغير متوقع كهذا توصل إلى يقين، وهذا اليقين أثبت صحة ما اعتقده منذ أن وقعت عينيه على هذا الرجل. كان بإمكانه أن يسمعهم وهم يحطمون الأثاث في الدور الأرضي.

لم يكن جي عميلاً للاستخبارات النمساوية وحسب، قال رفائيل لنفسه، بل كان موظفاً من النمساويين لحشد السلوفينين وتوجيههم. أصبح من الواضح الآن لماذا تساهل النمساويون مع سلوكه الشائن في الحفل الخيري الخاص بالصليب الأحمر. كل الغموض الذي يحيط به قد أصبح واضحاً في لحظة. ومع هذا اليقين على صعيد التفسير تولد يقين على المستوى نفسه من القرار الذي اتخذه. لم يكن هناك حاجة إلى استشارة أحد. أخبر هؤلاء الذين كانوا يراقبونه وهو يجري

الاتصال أنهم يجب أن يسلموا المبنى. تأكدوا من مغادرة الجميع، قال، وسحب مسدساً من درج المكتب وأعطاه للرجل الذي كان يقف قبالته. لن يقوم أحد بالدفاع عنا سوى أنفسنا، أضاف بنبرة يشوبها تسليم بالأمر الواقع.

كان قد قرر أن يضع حدّاً لوجود جي. كان الهاتف ما يزال صامتاً. بدأ يضرب على حاملة السماعة مراراً وتكراراً بعنف وطلب رقماً آخر. أريد منكم جميعاً أن تتجمعوا في رواق دي مونتيوزا في الحال، قال، سأوافيكم إليه. بعد هذه المكالمة طلب الاتصال بمقرّ الشرطة مرة أخرى. أراد أن يكلم المايجور لينوك. طالب بحماية فورية لمبنى صحيفة بيكولو التي يحاصرها البلطجية والذين يوشكون على حرقها. من الواضح أن المايجور لينوك كان يماطل. أنا لست منفعلاً ولا هستيريّاً، صاح رفائيل، إنها مسألة تتعلق بالنظام والأمن العام.

كان مثيرو الشغب في متجر الطباعة يعملون بسرعة وتنظيم. عثر أحدهم على خزانة مليئة بخرق ملوثة بالشحم والحبر. وضعوا هذه الخرق في آخر الغرفة قرب الطابعة الأكبر حجماً في المتجر. صبَّ رجل عليها مادة البارافين من علبة من القصدير كان يحملها معه. الآخرون كانوا يحطمون الطاولات والكراسي ويضعون الخشب فوق الخرق. أفرغ جي بعض الأدراج من محتوياتها من الأوراق ونثرها فوق المحرقة. أضرِموا النار بها! أشعلوها الآن! قال بإلحاح، لأن رائحة البارافين كانت تخنقه. الرجل الذي تحدثت إليه نوسا كان يقف حارساً على المدخل. رجل عجوز بعينين لامعتين أمسك بمجموعة من الأوراق وشكلها على هيئة مشعل، ومن ثم أشعلها ورمى بها إلى الخرق.

انتظر الجميع للحظة ليروا ما إذا كانت النيران ستضطرم. في الحال تقريباً ارتفعت ألسنة اللهب لتصبح بطول قاماتهم. كانت توشك أن تلتهم الطابعة التي تنقش الكلمات بلغة المدينة، لغة القانون، لغة الإهانة والأمر والنهي، لغة الرقيب والحسيب. كان صوت تنفس النيران يشوبه بين حين وآخر صوت واطئ جدّاً لتكسر الخشب يشبه الصوت الذي يصاحب وقع الأقدام عند تكسر العيدان الجافة التي تدوسها. ابتسم الرجل الواقف عند الباب باستحسان لرؤية النيران التي أشعلها. في البداية ذكرتهم النيران بقراهم، كانت حينها لا تزال نيراناً صغيرة. لاحقاً في الليلة نفسها، وبعد أن يكونوا قد قاموا بثلاث محاولات أخرى لإضرام النار بالمبنى، وعندما ستصبح النيران متأججة تطاول السماء، سيراقبون مبهورين أبعاد ما أنجزوه، وكلما أصبحت النار خارجة عن السيطرة أكثر، فكروا بأنفسهم وكأنهم أسياد أنفسهم. وقف جي على مسافة أقرب نسبيّاً من الآخرين إلى ألسنة اللهب، شعر بدفئها يتسلل إلى جسده.

بسرعة! صرخ الرجل الواقف عند الباب، لقد وصل رجال الإطفاء. ما إن خرج مثيرو الشغب فارين بسرعة حتى التقوا برجال الإطفاء والجنود المندفعين بسرعة إلى الداخل. حدث نوع من الاشتباك لكن كلا الطرفين تابع طريقه ولم تحدث أيّ اعتقالات. طوّق الجنود المبنى وتمَّ إخماد الحريق في الحال.

كان رفائيل يحتج على المايجور لينوك في الجانب الآخر من الساحة عند زاوية شارع فيا نوفا. تذرّع ضابط الشرطة النمساوي بأن أبنية أخرى في المدينة كانت تتعرض إلى الهجوم وكان عليه حمايتها وأنه بمجرد أن يتفرق الحشد وتنفضّ المظاهرة عليه أن يرفع الحراسة

عن المبنى. إذا رحل جنودك سيحاول هؤلاء الرعاع العودة مرة أخرى، أصرّ رفائيل، سلامة المدنيين وأمنهم هي مسؤوليتك.

كان عليهم أن يفكروا في ذلك بالأمس في روما! قال المايجور متحدثاً بالألمانية.

على الجانب الآخر كان جي يتحدث إلى عدد من الرجال ممن أضرموا النار في متجر الطباعة. أرأيتم، شرح لهم، إنهم يستخدمون خرطوم المياه من المبنى المجاور. عليكم أن تضعوه خارج الخدمة في المرة القادمة.

ترك رفائيل المايجور لينوك ومضى نحو مجموعة من الأشخاص المتحلقين عند مدخل غاليريا دي مونتيوزا، وهي القناة التي تجري من تحت المرتفع الذي بنيت عليه كاتدرائية وقلعة متحف لابيداريو. أشار إلى جي (الذي بدا وكأنه قد فقد سترته وكان من السهل معرفته بقميصه الأبيض) وأصدر أوامره.

هدوء مضلل حلّ على الساحة والشوارع المفضية إلى خارجها. كانت ممتلئة بالأشخاص، لكنهم لم يكونوا الأشخاص أنفسهم الذين يُرون عادة في هذه الشوارع. رحل رجال الإطفاء. انفضّ الحشد وبقي منه بعض المتسكعين الذين ينتظرون ليروا ما إذا كانت سرية الجنود ستبقى أم سترحل. أما سكان المنطقة فلم يظهر منهم أحد.

مشى جي عائداً إلى ساحة سانت جيوفاني. أمامه كانت تسير امرأة ظن أنه قد رآها من قبل. كانت ملابسها تشبه ملابس نوسا لكنها أصغر

حجماً منها. توقف فجأة. إلى أبعد مدى، صاح بصوت عالٍ، إلى أبعد مدى.

الرجل ذو القميص الأبيض الذي يلاحقونه كان له طريقة مميزة في المشي، كان يقوّس كتفيه ويحني رأسه فيبدو وكأنه ثور مندفع. توقف فجأة وصاح مردداً بضع كلمات مخاطباً نفسه. بدا لهم خائناً من دون أدنى شك.

تابع جي سيره. هيئة المرأة المألوفة بصورة غامضة زادت اهتمامه بها. رأى في المسافة الفاصلة بينهما ذاته الماضية تندفع إلى الأمام لتصبح سائرة بقربها. كان سيتذكر وجهها، كان سيتحدث إليها. شاهد كيف أثار اهتمامها بذاته الماضية. لكنه بالرغم من ذلك لم يسرع الخطى ليكتشف من تكون. أيّاً كان ما يفصله عن ذاته الماضية فقد كان واهياً جدّاً، لا يتعدى أن يكون نزوة، أو ربما لا يتعدى الحرارة القادمة من متجر الطباعة التي تخيّل أنه لا يزال يشعر بها تتخلل جسده.

لو كان جي قد قاوم الرجال الأربعة الذين انقضوا عليه، لكان وصف الشجار الذي دار بينهم قد ملأ عدة صفحات. لم يقاومهم.

لو أنه، على المقلب الآخر، كان قد استسلم لهم من دون أيّ مقاومة، لربما كنا احتجنا إلى عدة صفحات لوصف تقبله للموت. لم يستسلم لهم من دون مقاومة.

ما حدث يمكن سرده بسرعة وإيجاز، أما الباقي فيمكن لصمتي أخيراً أن يعبّر عنه.

أجبروه على السير إلى خارج الساحة مجتازاً كنيسة سان أنطونيو. وفي الطريق استطاع أن يلمح وجه المرأة التي بدت مألوفة له. كانت المرأة التي اشترى منها الكرز في سوق الساحة. اثنان منهم كانا يمسكانه من ذراعيه ويضغطان عليه من الجانبين ليلتصقا بجسده وكأنه جنين لم تنفصل ذراعاه بعد عن جسده. ساروا بمحاذاة القناة في اتجاه حاجز الأمواج. عندما وصلوا إلى هناك انعطفوا يميناً في اتجاه الساحة التي تلتقي عندها خطوط السكك الحديدية. كانت الواجهة المائية مهجورة تماماً. كان جي يحاول أن يحرر يديه من حين إلى آخر. لم ينجح في ذلك. أخذوه إلى حافة المياه.

لا أعتقد أنه حتى تلك اللحظة كان قد تنبأ بتفاصيل موته بدقة. لا بدّ وأن بعض الشكوك والآمال كانت ما تزال تسكنه. ربما يكون الموت عندما يحلّ عبارة عن مفاجأة متعاظمة تفاجئ نفسها إلى الحد الذي تختفي عنده كل المرجعيات والمعايير، فتزول حينها كل الفوارق الذاتية.

ضربوه على مؤخرة رأسه. أغمي عليه. طعم الحليب هو سحابة الجهل. حملوه، وقربوه بضعة إنشات إلى الأمام وألقوا به في الماء المالح وكانت قدماه هما أول ما لمس الماء.

الشمس منخفضة تقترب من الأفق. البحر هادئ وكأنه مرآة كما يقولون، إلّا أنه لم يكن كذلك. الأمواج، التي بالكاد تشبه الأمواج، ذلك أنها كانت تتحرك خبط عشواء وتأتي وتذهب في اتجاهات مختلفة، وبالكاد يُلحظ ارتفاعها وانخفاضها، تتكوّن من عدد لامتناهٍ من أسطح متناهية الصغر بزوايا تتشكل واحدة تلو الأخرى، ومن بين

هذه السطوح كانت تلك التي تعكس ضوء الشمس مباشرةً في عين الناظر إليها، وتتألق ببصيص أبيض خلال اللحظة التي تشكل حياتها الوجيزة قبل أن تتحرك الزاوية التي يشكّلها سطحها مع الشمس وتندمج مرة أخرى في الأزرق المسودّ الذي يجتاح سائر البحر. في كل مرة كان الضوء لا يعيش إلّا بمقدار الوقت الذي تعيشه شرارة قفزت هاربة من النار. ولكن كلما اقترب البحر من الشمس، تضاعفت أعداد السطوح المتألقة إلى الحدّ الذي يبدو عنده البحر وكأنه مرآة فضية بالفعل. لكنه بخلاف المرآة لم يكن ساكناً... كان سطحه الحبيبي في حالة اشتعال متواصل. وكلما أمعنت الحبيبات المتألقة في الابتعاد أكثر، والتي بفعلها يتحول معظم سطح البحر إلى طبق فضي، وتصبح البقية المحدودة المرئية منه رصاصية داكنة، تعاظمت سرعة تذبذبها البادية للعيان. متقهقرة بلا رادع في اتجاه الشمس، يصبح تحول انعكاساتها أكثر سرعة... البحر لا يطلب حدّاً ولا يعترف بأيّ حدّ. الأفق هو الطرف السفلي لستارة تُسدل بصورة تعسفية ومفاجئة معلنةً نهاية التمثيلية.

جنيف. باريس. بونيو.
١٩٦٥-١٩٧١

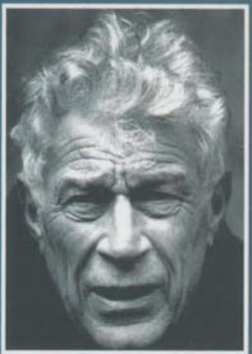

حازت هذه الرواية على جائزة البوكر في العام ١٩٧٢، وقام صاحبها الكاتب والناقد والشاعر والرسام والماركسي العتيد جون برجر، أو «الحكواتي» (التوصيف المفضّل لديه)، بالتبرع بنصف قيمة الجائزة المادية لصالح جماعة «الفهود السود» في الولايات المتحدة الأمريكية ما أثار ضجة كبيرة حينها، الأمر الذي ما كان غريباً عليه هو الذي أمضى حياته مثيرا للجدل سواء على صعيد منجزه الفني والأدبي أم على صعيد آرائه ومواقفه وحياته.

جُون برجر الذي يعتبر واحداً من أهم النقاد في نصف القرن الأخير، هو نفسه من عارض الحرب في العراق، وكتب عن العمال الأتراك في ألمانيا، وشجب العدوان الإسرائيلي على لبنان في العام ١٩٨٢، وزار فلسطين أكثر من مرة وكتب عن المعتقلين والأسرى الفلسطينيين، وقال في ما قال عنها: «كنا واعين للنضال الوطني الفلسطيني بين غيره من قضايا الشعوب. الفلسطينيون يرزحون تحت عسف القوى نفسها التي نناضل ضدها. كانت فلسطين في نظري جزءاً من النضال العالمي الواسع»، وظل يكتب ويناضل ويدعم حركات التحرر في العالم حتى آخر نفس لفظه في ٢ كانون الثاني ٢٠١٧.

رواية «جي» التي تدور حول شخصية جيوفاني الذي يبحث عن الحب ويتصيد غرامياته في لحظات التاريخ المفصلية، هي تجسيد لفلسفة برجر الذي يرى أنه لا يمكن فصل السياسة والاقتصاد والتاريخ، وطبعاً الدين، عن أدق تفاصيل حياتنا اليومية، وأنها هي ما يحدد نظرتنا إلى الفن والجمال والجنس والحب والقيَم. اختيار الكاتب اسم البطل ليكون عنواناً لروايته لم يأتِ من فراغ، فكل ما يريد قوله وتحليله وتفكيكه والتطرق إليه يدور حوله ويبدأ منه وينتهي إليه.

ISBN 978-2843091063

لوحة الغلاف: Roger de La Fresnaye